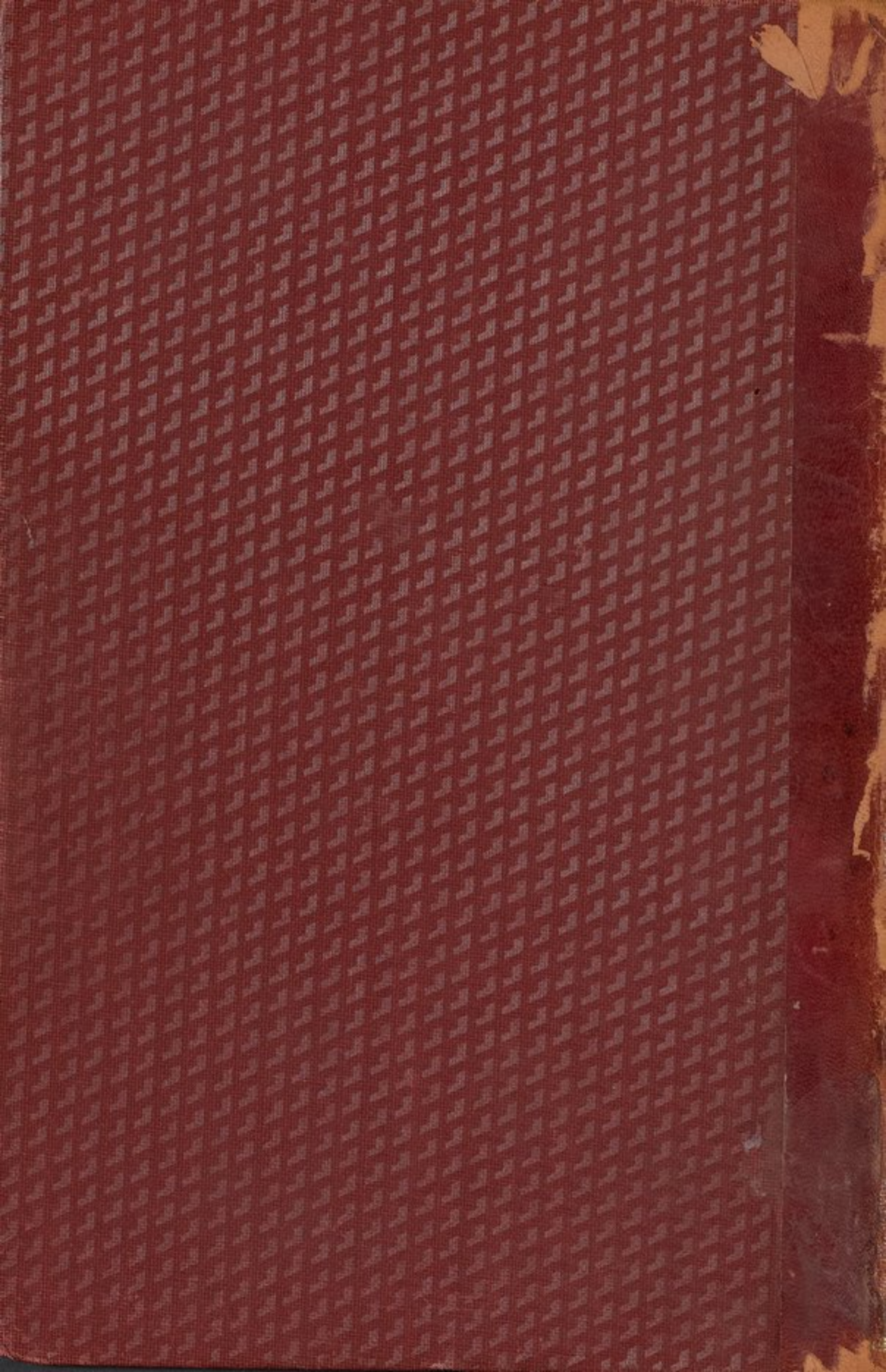




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني

المتوفى في عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلى حواشيه

محمد محي الدين عبد الحميد

الجزء الرابع

893.7M32

03

١٠٤

الطبعة الأولى

في عام ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٩ م

١٠٤

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى

لصاحبها: مصطفى محمد

مطبعة السعادة بمحور محافظة مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابهم .

البَابُ السَّابِعُونَ

في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق ، المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضى المشرق ، والأكابر الذين حلوا بحلوهم فيها الجيد منها والمفرق^(١) والمفتخرين برؤية قطرها المونق^(٢) ، على المشتم والمغرق^(٣) .

اعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم ، فضلا عن غيرهم ، ومنهم من اتخذها وطنًا ، وصيرها سكنًا ، إلى أن وافته منيته^(٤) ، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت بالأندلس أمميته .

فمن الداخلين إلى الأندلس المنذر الذي يقال إنه صحابي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المنذر اليماني
الصحابي

قال ابن الأبار في التكملة : المنذر الإفريقي ، له حبة ، وسكن إفريقية ، ودخل الأندلس فيما ذكره عبد الملك بن حبيب ، قاله أبو محمد الرشاطي ، ولم يذكره أحد غيره ، وروى عنه عبد الرحمن الحُبَلِيُّ^(٥) ، انتهى .

وأنكر غير واحد دخول أحد من الصحابة الأندلس .

وذكر بعض الحفاظ المنذر المذكور ، وقال : إنه المنذر اليماني ، وذكر الحِجَارِيُّ أنه من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وأنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير غازيا ، وقال ابن بشكوال : يقال فيه المنذر لكونه من أحداث الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وقد حكى ذلك الرازي ، وذكره ابن عبد البر في كتاب « الاستيعاب » في الصحابة » وسماه بالمنذر الإفريقي ، وقال ابن بشكوال : إن ابن عبد البر روى عنه حديثًا سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكره

(١) الجيد : العنق ، والمفرق - بفتح الميم وكسر الراء - الموضع الذي يفرق فيه الشعر من الرأس . (٢) المونق : المعجب ، آتقه يوتقه إيناقا ، أعجبه .

(٣) المشتم : الناهب إلى الشام ، والمغرق : الناهب إلى العراق (٤) المنية : الموت .

(٥) في ب « الجبلى » وانظر الجزء الأول (ص ٢٦٠)

أبو علي بن السكن في كتاب الصحابة وقال : روى عنه حديث واحد ، وأرجو أن يكون صحيحاً ، وذكره ابن قانع في معجم الصحابة له ، وذكره البخاري في تاريخه الكبير إذ قال : أبو المنذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد حدث بإفريقية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَنْ قَالَ رَضِيتَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا ، فَأَنَا الزَّعِيمُ لَأَخْذِنَ بِيَدِهِ فَأَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ » كذا ذكره البخاري بالكنية ، وهذا الحديث هو الذي رَوَّاهُ عنه لا يعرف له غيره ، وذكره أبو جعفر أحمد بن رشد في كتاب «مسند الصحابة» له ، فقال : المنذر اليماني إما من مَذْحِجٍ أو غيرها ، وذكر الحديث سواء ، وقد أشرنا فيما سبق إلى المنذر هذا ^(١) .

ومن التابعين الداخلين الأندلس أميرها موسى بن نُصَيْر ، وقد سبق من موسى بن نصير الفاتح الكلام عليه ما فيه كفاية ^(٢) .

ومن التابعين الداخلين الأندلس حنش الصنعاني .

وفي كتاب ابن بَشْكُوَال قال ابن وضاح : حنش لقب له ، واسمه حسين ابن عبد الله ، وكنيته أبو علي ، ويقال : أبو رشدين ، قال ابن بَشْكُوَال : وهو من صنعاء الشام ، وذكره أبو سعيد ابن يونس في تاريخ أهل مصر وإفريقية والأندلس ، فقال : إنه كان مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وغزا المغرب مع رفيقه رُوَيْفَع بن ثابت ، وغزا الأندلس مع موسى بن نُصَيْر ، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان ، فأُتِيَ به عبد الملك في وَثَاقٍ فَعَفَا عنه ، وكان أوَّل من ولي عُشُور إفريقية في الإسلام ، وتوفي بإفريقية سنة مائة . وذكر ابن يونس عن حنش أنه كان إذا فرغ من عشاءه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أوقَدَ المصباح ، وقرب المصحف وإناء فيه ماء ، فإذا وجد النعاس

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٥٩ و ٢٦١ و ٢٦٩)

(٢) انظر الجزء الأول (ص ٢٥١ وما بعدها)

استنشق الماء ، وإذا تعافى في آية نظر في المصحف ، وإذا جاء سائل يستطعم لم يزل يصيح بأهله « أطعموا السائل » حتى يطعم .

قال ابن حبيب : دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد الله الصنعاني ، وهو الذي أشرف على قرطبة من الفج^(١) المسمى بفتح المائدة ، وأذن ، وذلك في غير وقت الأذان ، فقال له أصحابه في ذلك ، فقال : إن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلا أن تقوم الساعة ، هكذا ذكره غير واحد ، وقد كشف الغيب خلاف ذلك ، فاعل الرواية موضوعة أو مؤولة ، والله تعالى أعلم .

وذكره ابن عساكر في تاريخه ، وطول ترجمته ، وقال : إن صنعاء المنسوب إليها قرية من قرى الشام ، وليست صنعاء اليمن ، وقد قيل : إنه لم يرو عن حنش الشاميون ، وإنما روى عنه المصريون ، وحدث حنش عن عبد الله بن عباس أنه قال له : إن استطعت أن تلقى الله تعالى وسيفك حليته حديد فافعل ، وكان عبد الملك بن مروان حين غزا المغرب مع معاوية بن خديج^(٢) نزل عليه بإفريقية سنة خمسين ، فحفظ له ذلك ، فعفا عنه حين أتى به في وثاق حين ثار مع ابن الزبير ، وسئل أبو زرعة عن حنش فقال : ثقة ، ولم يذكر ابن عساكر أن حنشاً لقب له ، وأن اسمه حسين ، بل اقتصر على اسمه حنش ، ولعله الصواب ، لأمقاله ابن وضاح ، والله تعالى أعلم .

وفي تاريخ ابن القرضي أبي الوليد أن حنشاً كان بسرّسطة ، وأنه الذي أسس جامعها ، وبهائمات ، وقبره بها معروف عند باب اليهود بغربي المدينة .
وفي تاريخ ابن بشكوال أنه أخذ أيضاً قبلة جامع إلبيرة ، وعدّل وزن قبلة جامع قرطبة الذي هو فخر الأندلس^(٣) .

(١) الفج : الطريق (٢) في ب « بن خديج » بالخاء المعجمة - وهو تحريف ، وقد نص غير واحد أنه بمهملتين مصغرا
(٣) انظر أيضاً الجزء الأول (ص ٢٦٠ و ٢٦٩)

ومن التابعين الداخلين للأندلس أبو عبد الله على بن رباح ، اللخمي .
ذكر ابن يونس في تاريخ مصر أنه ولد سنة خمس عشرة عام اليزموك ،
وكان أعور ذهب عينه يوم ذات السوارى في البحر مع عبد الله بن سعيد سنة
أربع وثلاثين ، وكان يفد ليامانية من أهل مصر على عبد الملك بن مروان ، وكانت
له من عبد العزيز بن مروان منزلة ، وهو الذي زَفَّ أم البنين بنت عبد العزيز
إلى الوليد بن عبد الملك ، ثم عنت ^(١) عليه عبد العزيز فأغراه إفريقية ، فلم يزل
يأفريقية إلى أن توفي بها ، ويقال : كانت وفاته سنة أربع عشرة ومائة ، قال
ابن بشكوال : أهل مصر يقولون : على بن رباح بفتح العين ، وأما أهل العراق
فعلّى بضم العين ، وقد سبق هذا الكلام عن ابن معين في الباب الثاني ^(٢) ، وقال :
وقال ابنه موسى بن على : من قال لى موسى بن عُلّى بالتصغير لم أجعله في حل .

ومن التابعين الداخلين أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الحُبْلِيُّ .
قال ابن بشكوال : إنه يروى عن أبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمر
رضي الله تعالى عنهم وغيرهم ^(٣) ، وروى عنه جماعة ، وذكر البخاري في تاريخه
الكبير أنه يعدّ في المصريين ، وذكر ابن يونس في تاريخ المغرب أنه توفي
بإفريقية سنة مائة ، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً ، رحمه الله تعالى ! ويذكر أهل
قرطبة أنه توفي بقرطبة ، وأنه دفن بقبليها ، وقبره مشهور يتبرك به ، والله تعالى
أعلم بحقيقة الأمر في ذلك .

ومن الداخلين من التابعين حَبَّان بن أبي جبلة .
ذكر ابن بشكوال أنه مولى قریش ، ويكنى أبا النضر ، وذكره أبو العرب
محمد بن تميم في تاريخ إفريقية ، وقال : حدثني فرات بن محمد أن عمر بن عبد العزيز

(١) عنت عليه : شق واشتد ، وأراد أنه غضب منه

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٦٠)

(٣) في الخلاصة أنه يروى عن أبي ذر وأبي أيوب وأبي سعيد

أرسل عشرة من التابعين يُفَقِّهُونَ أهلَ إفريقية منهم حِبَّانُ بنُ أبي جبلة ، روى عن عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس وابن عمر ، رضى الله تعالى عنهم ! ويقال : توفي بإفريقية سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وقيل : سنة خمس وعشرين ومائة ، وذكر ابن الفَرَّاضِ أنه غزا مع موسى بن نُصَير حين افتتح الأندلس حتى انتهى إلى حصن من حصونها يقال له قَرْقَشُونَة فتوفي به ، قال : وقال لنا أبو محمد الثغرى : بين قَرْقَشُونَة و بَرْشَلُونَة مسافة خمسة وعشرين ميلا ، وفيها الكنيسة المعظمة عندهم المسماة شنت مرية ، ذكر أن فيها سبع سوارٍ^(١) فضة خالصة لم ير الراؤن مثلها لا يحزم الإنسان بذراعيه واحدة منها مع طول مفرط ، هكذا نقله ابن سعيد عن ذكر ، والله تعالى أعلم^(٢) .

المغيرة بن
أبي بردة
العذري

ومن الداخلين من التابعين فيما ذكر : المغيرة بن أبي بردة نشيط بن كنانة العذري

روى عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ، ويروى عنه مالك في موطئه ، وذكره البخارى في تاريخه الكبير ، وفي كتاب الحافظ ابن بشكوال أنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَير فكان موسى بن نصير يخرججه على العساكر .

حيوة بن
رجاء التميمي

ومن التابعين حَيَوَة بن رجاء التميمي ذكر ابن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَير وأصحابه ، وأنه من جملة التابعين ، رضى الله تعالى عنهم ! قاله ابن بشكوال في مجموعه المترجم « بالتنبيه والتعيين ، لمن دخل الأندلس من التابعين » .

قال ابن الأبار : وقد سمعته من أبي الخطاب بن واجب ، وسمعه هو منه ، انتهى .

(١) السوارى : جمع سارية ، وهى العمود

(٢) ما ذكره المؤلف هنا هو تكرار لما ذكره فى الجزء الأول (ص ٢٦٠)

وقال ابن الأبار في موضع آخر ما صورته : رجاء بن حيوة مذكور في الذين دخلوا الأندلس من التابعين ، وفي ذلك عندي نظر ، وما أراه يصح ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

فانظر هذا فإنه سماه رجاء بن حيوة ، وذلك السابق حيوة بن رجاء ، قاله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر في ذلك .

عياض بن عقبة
الفهري

ومنهم عياض بن عقبة الفهري

من خيار التابعين ، ذكره ابن حبيب في الأربعة الذين حضروا غنائم الأندلس ، ولم يغلوا^(١) .

عبد الله بن
شماسة الفهري

ومنهم عبد الله بن شماسه الفهري

ذكر ابن بكش وال أنه مضى ، وأن البخاري ذكره في تاريخه

عبد الجبار بن
أبي سلمة

ومنهم عبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري

جده عبد الرحمن أحد العشرة^(٢) رضي الله تعالى عنهم ، وهو ممن ذكره ابن بشكوال في الأربعة من التابعين الذين لم يغلوا^(١) .

منصور بن
خزامة

ومنهم منصور بن خزامة فيما يذكر

قال ابن بشكوال : قرأت في كتاب روايات الشيخ أبي عبد الله بن عائذ الراوية رحمه الله تعالى قال : ومن دخل الأندلس من المعمرين ما وجدت بخط المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الناصر رضي الله تعالى عنه في بعض كتبه المختزنة أنه قال : طرأ علينا رجل أسود من ناحية السودان في سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، فذكر أنه منصور بن خزامة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يزعم أنه أدرك أيام عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، وأنه كان مرافقا ، وكان

(١) لم يغلوا : أراد لم يأخذوا شيئا لأنفسهم خفية قبل قسمة الغنائم (وانظر ج ١

ص ٢٦٩) (٢) يريد العشرة الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة

مع عائشة رضى الله تعالى عنها يوم الجمل ، وأنه شهد صِفَيْنَ ، وأن خزيمة أعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج عن الأندلس في سنة ثلاثين وثلثمائة إلى المغرب ، انتهى .

قلت: هذا كله لأصل له ، ويرحم الله تعالى حافظ الإسلام ابن حجر حيث كتب على هذا الكلام ماصورته : هذا هَذَيَانِ لأصل له ، ولا يغتر به ، وكذلك ترجمة أشج العرب اتفق الحفاظ على كذبه ، انتهى .

قلت : وما هو إلا من نمط عكراش ، والله تعالى يحفظنا من سماع الأباطيل بمنه ومن هذه الأكاذيب ما يذكرون عن أبي الحسن على بن عثمان بن خطاب ، وأنه يعرف بأبى الدنيا ، وأنه كان مُعَمَّرًا مشهوراً بصحبة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ! وأنه رأى جماعة من كبار الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، ووصفهم بصفاتهم ، وأنه رأى عائشة رضى الله تعالى عنها فيما زعم ، وقدم قُرْطُبة على المستنصر الحكم بن الناصر وهو ولى عهد ، وسأله أبو بكر ابن القوطية عن معازى على وكتبها عنه ، وقد ذكره ابنُ بَشْكُوَال وغيره فى كتبهم وتوارى عنهم ، فقد ذكر الثقات العارفون بالفتن أنه كذاب دجال مائن جاهل ، فإياك والاعتراض بمثل ذلك مما يوجد فى كتب كثير من المؤرخين بالشرق والأندلس ، ولا يلتفت إلى قول تميم ابن محمد التميمى : إنه كان إذ لقيه ابن ثلثمائة سنة وخمس سنين ، قال تميم : واتصلت بنا وفاته ببلده فى نحو سنة عشرين وثلثمائة ، وبالجملة فلا أصل له ، وإنما ذكرناه للتنبيه عليه

وقد عرفت بما ذكرناه التابعين الداخلين الأندلس ، على أن التحقيق أنهم لم يبلغوا ذلك العدد ، وإنما هم نحو خمسة أو أربعة كما ألعنابه فى غير هذا الموضع (١) ، والله تعالى أعلم .

(١) قد ذكر المؤلف أسماءهم وتحدث عن كل واحد منهم حديثاً مختصراً فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، فراجع الفهرس وارجع إلى الموضع الذى ذكر فيه كل واحد منهم ، وانظر بنوع خاص (ص ٢٦٠ و ٢٦٩)

مغيث بن
الحارث بن
الحويرث بن
جبله بن الأيهم
الغساني

ومن الداخلين إلى الأندلس مُغيث فاتح قرطبة
وقد تقدم بعض الكلام عليه ، وذكر ابن حيان والحِجَارِي أنه رومي ،
زاد الحِجَارِي وليس برومي على الحقيقة ، وتصحيح نسبه أنه مغيث بن الحارث بن
الحويرث بن جبله بن الأيهم الغساني ، سُبي من الروم بالمشرق وهو صغير ، فأدبه
عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد ، وأنجب في الولادة ، وصار منه بنو مغيث الذين
نجدوا في قرطبة ، وسادوا وعظم بيتهم ، وتفرعت دَوَاحَتُهُمْ^(١) ، وكان منهم عبد الرحمن
ابن مُغيث حاجب عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس وغيره ، ونشأ مغيث
بدمشق ، ودخل الأندلس مع طارق فاتحها ، وجاز على مافي طريقها من البلاد إلى
الشام ، وقدمه طارق لفتح قُرْطُبة ففتحها ووقع بينه وبين طارق ثم وقع بينه وبين
موسى بن نُصَيْر سيد طارق فرحل معهما إلى دمشق ثم عاد ظافراً عليهما إلى
الأندلس ، وأنسل^(٢) بقرطبة البيت المذكور ، وفي « المسهب » أنه فتح قرطبة في
شوال سنة ٩٢ ، ثم فتح الكنيسة التي تحصن بها ملك قرطبة بعد حصار ثلاثة
أشهر في محرم سنة ٩٣ ، ولم يذكر له مولدا ولا وفاة .

وذكر الحِجَارِي أنه تأدب بدمشق مع بني عبد الملك فأفصح بالعربية ، وصار
يقول من الشعر والنثر ما يجوز كتبه ، وتدرّب على الركوب ، وأخذ نفسه بالإقدام في
مضايق الحروب ، حتى تخرج في ذلك تخرجاً أهله للتقدم على الجيش الذي فتح
قرطبة ، وكان مشهوراً بحسن الرأي والكيد ، وقد قدمنا كيفية فتحه قرطبة
وأُسره ملكها الذي لم يؤمّر من ملوك الأندلس غيره ، لأن منهم مَنْ عقد على
نفسه أماناً ، ومنهم من فرّ إلى جليقية .

وذكر الحِجَارِي أنه لما حصل بيده ملك قرطبة وحريمه رأى فيهن جارية

(١) أصل الدوحة الشجرة العالية الكثيرة الأغصان ، استعارها للبيت الذي

ينجب كثيراً من أهل النباهة

(٢) أنسل : صار ذائلاً

كأنها ينيهن بدر بين نجوم ، وهى تكثر التعرض له بجهاها ، فوكل بها مَنْ عرض عليها العذاب إن لم تُقَرَّ بما عزمت عليه فى شأن مغيث ، وأنه قد فطن من كثرة تعرضها له بحسنها لما أضمرت من المكر فى شأنه ، فأقرت أنها أكرت التعرض لتقع بقلبه ، إذ حُسِنَها فَتَّان ، وقد أعدت له خرقة مسمومة لتمسح بها ذكره عند وقاعها ، فحمد الله تعالى على ما ألهمه إليه من مكرها ، وقال : لو كانت نفس هذه الجارية فى صدر أبيها ما أخذت قرطبة من ليلة ، وذكر أن سليمان بن عبد الملك لما أضغى إلى طارق فى شأن سيده موسى بن نصير فعذبه واستصفى أمواله أراد أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق ، وكان مغيث قد تغير عليه ، فاستشار سليمان مغيثاً فى تولية طارق ، وقال له : كيف أمره بالأندلس ؟ فقال : لو أمر أهلها بالصلاة إلى أى قبلة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا ، فعملت هذه المكيدة فى نفس سليمان ، وبدّاله فى ولايته ، فلقيه بعد ذلك طارق ، فقال له : ليتك وصفت أهل الأندلس بعصيانى ، ولم تضمّر فى الطاعة ما أضمرت ، فقال مغيث : ليتك تركت لى العليج^(١) فتركت لك الأندلس ، وكان طارق قد أراد أن يأخذ منه ملك قرطبة الذى حصل فى يده ، فلم يمكنه منه ، فأغرى به سيده موسى بن نصير ، وقال له : يرجع إلى دمشق وفى يده عظيم من عظماء الأندلس ، وليس فى أيدينا مثله ، فأى فضل يكون لنا عليه ؟ فطلبه منه ، فامتنع من تسليمه ، قال ابن حيان : فهجم موسى على العليج^(٢) وانتزعه من مغيث ، فقتل له : إن سرت به معك حيا ادعاه مغيث والعليج^(٣) لا ينكر ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ، فأضغنها^(٤) عليه مغيث ، وبالع فى أذيته عند سليمان .

وذكر الحِجَارَى فى « المسهب » أن لمغيث من الشعر ما يجوز كتبه ، فمن

(١) العليج - بكسر العين وسكون اللام - الرجل الضخم من رجال الكفار
 (٢) ضغنها واضطغنها : احتواها فى قلبه على حقد وموجدة وتطلب للانتقام ،
 ولم أقف على « أضغنها »

ذلك شعر خاطب به موسى بن نصير ومولاه طارقا ويكفي منه هنا قوله :
 أَعْنَتُكُمْ وَلَكِنْ مَا وَفَيْتُمْ فُسُوفُ أَعِيثَ فِي غَرْبٍ وَشَرْقٍ
 وعنوان طبقته في النثر أن موسى بن نصير قال له وقد عارضه بكلام في محفل من
 الناس : كَفَّ لِسَانَكَ ، فقال : لِسَانِي كَالْفَصْلِ ، مَا أَكْفَهُ إِلَّا حَيْثُ يَقْتُلُ ،
 وأضافه ابن حَيَّانَ وَالْحِجَارَى إِلَى وِلَاءِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وهو الذي وجهه إلى
 الأندلس غازيا ففتح قرطبة ، ثم عاد إلى المشرق ، فأعاده الوليد رسولا عنه إلى
 موسى بن نصير يستحثه على القدوم عليه ، فوفد معه ، فوجدوا الوليد قد مات ،
 فخدم بعده سليمان بن عبد الملك .

أيوب بن
 حبيب اللخمي

ومن الداخلين أيوب بن حبيب اللخمي ^(١) .
 ذكر ابن حيان أنه ابن أخت موسى بن نصير ، وأن أهل إشبيلية قدموه
 على سلطان الأندلس بعد قتل عبد العزيز بن موسى ، وانفقوا في أيامه على تحويل
 السلطان من إشبيلية إلى قرطبة ، فدخل إليها بهم ، وكان قيامه بأمرهم ستة أشهر
 وقيل : إن الذي نقل السلطنة من إشبيلية إلى قرطبة الحرث بن عبد الرحمن الثقفي ،
 قال الرازي : قدم الحرث واليا على الأندلس في ذى الحجة سنة سبع وتسعين ومعه
 أربع مائة رجل من وجوه إفريقية ، ففهم أول طوابع الأندلس المعدودين ، وقال
 ابن بشكوال : كانت مدة الحرسنتين وثمانية أشهر ، وكانت ولايته بعد قيام
 أيوب بن حبيب اللخمي ^(١) .

السمح بن
 مالك الخولاني

ومن الداخلين السَّمْحُ بْنُ مَالِكِ الْخَوْلَانِي .
 ولى الأندلس بعد الحرث بن عبد الرحمن السابق ، قال ابن حيان : ولده عمر بن
 عبد العزيز ، وأوصاه أن يُخَمَّسَ ^(٢) من أرض الأندلس ما كان عَنُوةً ^(٣) ، ويكتب إليه

(١) في الأصول هنا « أبوأيوب بن حبيب » وانظر الجزء الاول (ص ٢٧٩)

(٢) يخمس : يأخذ منها الخمس

(٣) العنوة - بفتح العين وسكون النون - الذي فتح بحرب ، وما فتح بتسليم

أهلها يقال له « صلح »

بصفقتها وأنهارها وبحارها ، قال : وكان من رأيه أن ينقل المسلمين عنها لانقطاعهم
وبُعْدِهِم عن أهل كلمتهم ، قالوا : وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم مع
الكفار إلى بَوَار^(١) إلا أن يستنقذهم الله تعالى برحمته .

وذكر ابن حيان أن قدوم السَّمَح كان في رمضان سنة مائة ، وأنه الذي بنى
قنطرة قُرْطُبة بعدما استأذن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ! وكانت دار
سلطانه قُرْطُبة .

قال ابن بشكوال : استشهد بأرض الفرنجة يوم التروية سنة اثنتين ومائة .
قال ابن حيان : كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر ، وذكر أنه قتل في الواقعة
المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البَلَّاط ، وكانت جنود الإفرنجية قد تكاثرت
عليه فأحاطت بالمسلمين ، فلم يَنْجُ من المسلمين أحد .

قال ابن حيان : فيقال : إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن .

وقدَّمَ أهل الأندلس على أنفسهم بعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي .

ولاية الأندلس
بعد السمع

وذكر ابن بشكوال أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس ، وأنه يروى عن
عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما ! قال : وكانت ولايته للأندلس في حدود
العشر ومائه من قبل عبدة بن عبد الرحمن القَيْسِي صاحب إفريقية ، واستشهد
في قتال العدو بالأندلس سنة خمس عشرة ، انتهى .

وفيه مخالفة لما سبق أنه ولى بعد السمع ، وأن السمع قتل سنة ١٠٢ ،
وهذا يقول تولى سنة ١١٠ ، فأين ذا من ذاك ؟ والله تعالى أعلم .

ووصفه الحُمَيْدِي بحسن السيرة والعدل في قسمة الغنائم ، وذكر الحِجَارَى أنه
ولى الأندلس مرتين ، وربما يحجب بهذا عن الإشكال الذي قدمناه قريبا ، ويضعفه

(١) البوار - بفتح البوار ، بزنة السحاب - الهلاك .

أن ابن حيان قال : دخل الأندلس حين وليها الولاية الثانية من قبل ابن الحبحاب في صفر سنة ثلاث عشرة ومائة ، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد ، وأصيب عسكره في شهر رمضان سنة ١١٤ ، في موضع يعرف ببلاط الشهداء .

قال ابن بشكوال : وتعرف غزوته هذه بغزوة البَلَّاط ، وقد تقدم مثل هذا في غزوة السمح ، فكانت ولايته سنة وثمانية أشهر ، وفي رواية سنتين وثمانية أشهر ، وقيل غير ذلك ، وكان سريرسلطانه حضرة قُرْطُبة

وولى الأندلس بعده عَنبَسَة بن سُحَيْم الكلبي ، وذكر ابن حيان أنه قدم على الأندلس واليا من قبل يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج حين كان صاحب إفريقية ، وكان قدومه الأندلس في صفر سنة ١٠٣ ، فتأخر بقدومه عبد الرحمن المتقدم الذكر ، قال ابن بشكوال : فاستقامت به الأندلس ، وضبط أمرها ، وغزب نفسه إلى أرض الإفرنجة وتوفي في شعبان سنة ١٠٧ ، فكانت ولايته أربعة أعوام وأربعة أشهر ، وقيل : ثمانية أشهر ، وذكر ابن حيان أنه في أيامه قام بجليقية عِلْجٌ خبيث يدعى بلای ، فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى^(١) قرائحهم حتى سماهم إلى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما يقبض بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطعمون في ذلك ، وقيل : إنه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح إلا الصخرة التي لا ذبها هذا العِلْجُ ومات أصحابه جوعا إلى أن بقي في مقدار ثلاثين رجلا ونحو عشرين نسوة ، وما لهم عيش إلا من عسل النحل في جباح^(٢) معهم في خروق الصخرة ، وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعياء المسلمين أمرهم ، واحتقروهم ، وقالوا : ثلاثون عِلْجًا ما عسى أن يجيء منهم ؟

(١) أذكى قرائحهم : أو قدها وأشعلها وأججها

(٢) كذا

فبلغ أمرهم بعد ذلك في القوة والكثرة والاستيلاء ما لا يخفاء به .

وملك بعده أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السمّة ^(١)

قال ابن سعيد : قال احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقب مَنْ كان فيها المدن العظيمة ، حتى إن حضرة قرطبة في يدهم الآن ، جبرها الله تعالى ! وهي كانت سرير السلطنة لعنيسة ، اه .

قال ابن حيان والحجّارى : إنه لما استشهد عنيسة قدّم أهل الأندلس عليهم عُذرة ^(٢) بن عبد الله الفهري ، ولم يعدّه ابن بشكوال في سلاطين الأندلس ، قال : ثم تتابعت ولاية الأندلس مرسلين من قبل صاحب إفريقية : أولهم يحيى بن سلامة ، وذكر الحجّارى أن عذرة كان من صلحائهم وفرسانهم ، وصار لعقبه نباهة ، وولده هشام بن عذرة هو الذى استولى على طليطلة قصبه الأندلس ، وفى عقبه بوادى آش من مملكة غرناطة نباهة وأدب ، قال ابن سعيد : وهم إلى الآن ذو بيت موصل ، ومجد مؤنل ، وكان سرير سلطنة عذرة قرطبة .

وولى بعده يحيى بن سلامة الكلبي ، قال ابن بشكوال : أنفذه إلى الأندلس بشر بن صفوان الكلبي والى إفريقية إذ استدعى منه أهلها واليا بعد مقتل أميرهم عنيسة ، فقدمها فى شوال سنة سبع ومائة ، وأقام عليها سنة وستة أشهر لم يغز فيها بنفسه غزوة ، ونحوه لابن حيان ، وكان سريره قرطبة .

وتولى بعده عثمان بن أبى نَسْعَةَ الخُثَعِمِي ، وذكر ابن بشكوال : أنه قدم عليها واليا من قبيل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب إفريقية فى شعبان سنة عشر ومائة ، ثم عزل سريعا بعد خمسة أشهر ، وكان سريره سلطانه بقرطبة .

وولى بعده حذيفة بن الأحوص القيسى ، قال ابن بشكوال : وأتى إليها

(١) السمّة - بكسر السين ، بزنة العدة والصفة - أصلها العلامة ، وأراد الاسم الذى يتسمى به كل ملك من ملوكهم ، كما يقال خاقان سمة ملوك الترك ، وفرعون سمة ملوك مصر ، والنجاشى سمة ملوك الحبشة ، وقصر سمة ملوك الروم ، وهكذا .

(٢) فى الأصول « عذرة » محرفا فى كل المواضع ، وانظر (١ / ٢٧٩)

واليا من قبل عبيدة المذكور ، على اختلاف فيه وفي ابن أبي نَسْعَةَ أيهما تولى قبل صاحبه ، وكان قدوم خُذَيْفَةَ في ربيع الأول سنة عشر ومائة ، وعزل عنها سريعا أيضا ، وقيل : إن ولايته استتمت سنة ، وكان بقرطبة .

وولى بعده الأندلس الهيثم بن عُبَيْد الكلابي^(١) ، قال ابن بَشْكُوَال : ولأه غيبدة المذكور فوافى الأندلس في المحرم سنة إحدى عشرة ومائة ، وقيل : إنه ولى سنتين وأياما ، وقد قيل : أربعة أشهر ، وكان بقرطبة .

وولى بعده محمد بن عبد الله الأشجعي ، قال ابن بشكوال : قدّمه الناس عليهم ، وكان فاضلا فصلى بهم شهرين .

قال : ثم قدم عليهم واليا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي تقدمت ترجمته ، وذكّرت ولايته الأولى للأندلس ، وليها من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية إلى أن استشهد كما تقدم .

وولى الأندلس بعده عبد الملك بن قَطَن الفهري ، وذكر الحجارى أن من نسله بنى القاسم أصحاب البونث وبنى الجدا أعيان إشبيلية ، قال ابن بشكوال : قدم الأندلس في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومائة فكانت مدة ولايته عامين وقيل : أربع سنين ، ثم عزل عنها ذميا في شهر رمضان سنة ست عشرة ومائة ، قال : وكان ظلوما في سيرته ، جائرا في حكومته ، وغزا أرض البشكنس فأوقع بهم ، وذكر ابن بَشْكُوَال أنه لما عزل وولى عقبة بن الحجاج وَثَبَ ابن قَطَن عليه فخلعه ، لا أدري أقتله أم أخرجه ، وملك الأندلس بقية إحدى وعشرين ومائة إلى أن رحل بليج بن بشر بأهل الشام إلى الأندلس ، فغلبه عليها ، وقتل عبد الملك ابن قَطَن ، وصلب في ذى القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة بعد ولاية بليج

(١) في الأصول هنا « الهيثم بن عدى الكلابي » وانظر الجزء الأول (ص ٢٧٩) فقد ورد فيه اسمه على ما أثبتناه هنا .

بعشرة أشهر ، وصلب بصحراء رِبَضْ قُرْطُبَة بُدْوَة النهر حيال رأس القنطرة ، وصلبوا عن يمينه خنزيرا وعن يساره كلبا ، وأقام شِلْوَه^(١) على جذعه إلى أن سرقه مواليه بالليل وغَيَّبُوهُ ، فكان المكان بعد ذلك يعرف بِمَصْلَبِ ابن قطن ، فلما ولى ابن عمه يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي استأذنه ابنه أمية بن عبد الملك ، وبني فيه مسجداً نُسِبَ إليه ، فقليل : مسجد أمية ، وانقطع عنه اسم المصلب ، وكان سن عبد الملك عند مقتله نحو التسعين ، وذكر ابن بشكوال أن عقبة بن الحجاج السلولى ولاء عبید الله بن الحبحاب صاحب إفريقية الأندلس ودخلها سنة سبع عشرة ومائة ، وقيل : في السنة التي قبلها ، فأقام بها سنين محمود السيرة ، مثابرا على الجهاد ، مفتتحا للبلاد ، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة ، وصار رباطهم على نهر ردونة ، فأقام عقبة بالأندلس سنة إحدى وعشرين ومائة ، وكان قد اتخذ بأقصى ثغر الأندلس الأعلى مدينة يقال لها أربونة كان ينزلها للجهاد ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ويُبَيِّنَ له عيوب دينه فأسلم على يده ألقارجل ، وكانت ولايته خمس سنين وشهرين ، قال الرازي : فثار أهل الأندلس بعقبة ، فخلعوه في صفر سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا على أنفسهم عبد الملك بن قطن ، وهي ولايته الثانية فكانت ولاية عقبة الأندلس ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفي في صفر سنة ١٢٣ ، وسريه قرطبة .

ومن الداخلين إلى الأندلس بلج بن بشر بن عياض^(٢) القشيري . قال ابن حيان : لما انتهى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب الأقصى والأندلس وخلصهم لطاعته وعيَّتهم في الأرض شَقَّ

بلج بن بشر
القشيري

(١) الشلو - بكسر الشين ، وسكون اللام - العضو من أعضاء اللحم ، وكل مسلوخ أخذ منه شيء وبقيت منه بقية ، وجمعه أشلاء ، وأراد هنا جثته .

(٢) رجعنا في الجزء الأول (ص ٢٧٩) أن كلمة «بن عياض» من زيادات النساخ وذكرنا وجه ماذهبنا إليه ، وإذا كان بلج بن بشر بن عياض كما نص عليه المؤلف هنا أكثر من مرة فإن ما في الأصل يكون صحيحاً أيضاً .

عليه فعزل عبيد الله بن الحبحاب عن إفريقية ، وولى عليها كلثوم بن عياض القشيري ، ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتالهم ، كان فيه مع ما انضاف إليه من جيوش البلاد التي صار عليها سبعون ألفاً ، ومع ذلك فإنه لما تلاقى مع ميسرة البربري المدعى للخلافة هزمه ميسرة وجرح كلثوم ولاذ بسبته ، وكان بلج ابن أخيه معه ، فقامت قيامة هشام لما سمع بما جرى عليه ، فوجه لهم حنظلة بن صفوان فأوقع بالبربر وفتح الله تعالى على يديه ، ولما اشتد حصار بلج وعمه كلثوم ومن معهما من فل أهل الشام بسبته وانقطعت عنهم الأقوات وبلغوا من الجهد إلى الغاية استغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس ، فثاقل عنهم صاحب الأندلس عبد الملك بن قطن خوفاً على سلطانه منهم ، فلما شاع خبر ضرهم عند رجال العرب أشفقوا عليهم ، فأغارهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين ميرة^(١) أمسكا من أرقامهم^(٢) ، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعة سوط ، ثم اتهمه بعد ذلك بتغريب الجند عليه^(٣) ، فسمّل عينيه ، ثم ضرب عنقه ، وصلب عن يساره كلباً ، واتفق في هذا الوقت أن برابر الأندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابر العدو على العرب انتقضوا على عرب الأندلس ، واقتدوا بما فعله إخوانهم ، ونصبوا عليهم إماماً ، فكثرت إيقاعهم بجيوش ابن قطن ، واستفحل أمرهم ، فخاف ابن قطن أن يلتقي منهم مالمقى العرب ببر العدو من إخوانهم ، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده ، فلم ير أجدى من الاستعداد بصعاليك عرب الشام أصحاب بلج الموتورين ، فكتب لبلج وقد مات عمه كلثوم في ذلك الوقت ، فأسرعوا إلى إجابته ، وكانت أمنيتهم ، فأحسن إليهم ، وأسبغ النعم عليهم ، وشرط عليهم أن يأخذ منهم رهائن ، فإذا فرغوا له من البربر هزمهم إلى إفريقية ، وخرجوا له عن أندلسه ، فرضوا بذلك ، وعاهدوه عليه ، فقدم عليهم وعلى جنده ابنه قطناً وأميه ، والبربر في جموع لا يحصيها غير

(١) الميرة - بكسر الميم - الطعام .

(٢) الأرقام : جمع رmq - بفتح الراء والميم جميعاً - وهو بقية النفس .

(٣) كذا ، ولعله « بتشبيب الجند عليه » .

رازقها ، فاقتتلوا قتالا صَعَبَ فيه المقام ، إلى أن كانت الدائرة على البربر ، فقتلتهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا قُلُوبَهُمْ ^(١) بالثغور ، وخفوا عن العيون ، فكَرَّرَ الشاميون وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ، فاشتدت شوكتهم ، وثابت همتهم ^(٢) ، وبطروا ، ونَسُوا العهود ، وطالبهم ابن قَطَنَ بالخروج عن الأندلس إلى إفريقية ، فتعللوا عليه ، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم في سَبْتَةِ ، وقتله الرجل الذي أغاثهم بالميرة ، فخلعوه ، وقَدَّمُوا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر ، وتبعه جند ابن قَطَنَ ، وحملوا عليه في قتل ابن قَطَنَ ، فأبى فثارت اليانية وقالوا : قد حميت لمضرك ، والله لا نطيعك ، فلما خاف تفرق الكلمة أمر بـابن قَطَنَ فأخرج إليهم وهو شيخ كبير كَفَرَّخَ نعامه قد حضر وقعة الخُرَّةَ مع أهل اليمامة ، فجعلوا يسبونهُ ، ويقولون له : أفلت من سيفنا يوم الخُرَّةَ ، ثم طالبتنا بتلك التَّرة ^(٣) فعرضتنا لأكل الكلاب والجلود وحبسنا بِسَبْتَةِ مَحْبَسِ الضنك حتى أمتنا جوعاً ، فقتلوه وصلبوه كما تقدم ، وكان أمية وقَطَنَ ابناه عند ما خُلع قد هربا ، وحشدا لطلب النار ، واجتمع عليهما العربُ الأقدمون والبربر ، وصار معهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري كبير الجند ، وكان في أصحاب بلج ، فلما صنع بابن عمه عبد الملك ماصنع فارقه ، فأنحاز فيمن يطلب ثأره ، وانضم إليهم عبد الرحمن ابن علقمة اللخمي صاحب أربونه ، وكان فارس الأندلس في وقته ، فأقبلوا نحو بلج في مائة ألف أو يزيدون ، وبلج قد استعدَّ لهم في مقدار اثني عشر ألفاً سوى عبيد له كثيرة وأتباع من البلديين ، فاقتتلوا ، وضرب أهل الشام ضرباً لم يصبر مثله أحد قط ، وقال عبد الرحمن بن علقمة اللخمي : أروني بلجاً ، فوالله لأقتله أو لأموتن دونه ، فأشاروا إليه نحوه ، فحمل بأهل الثغر حملة انفرج لها

(١) المل - بفتح الفاء وتشديد اللام - الجماعة المهزومون ، والثغور : جمع ثغر ، وهو الموضع يكون من البلاد على تخوم بلاد العدو .
(٢) ثابت همتهم : رجعت
(٣) الترة - بكسر التاء - النار

الشاميون ، والراية في يده ، فضر به عبدالرحمن ضربتين مات منهما بعد ذلك بأيام قلائل ، ثم إن البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمة قبيحة ، واتبعهم الشاميون يقتلون ويأسرون ، فكان عسكرياً منصوراً مقتولاً أميره ، وكان هلاك بلج في شوال سنة أربع وعشرين ومائة ، وكانت مدته أحد عشر شهراً ، وسريه قرطبة ، والعرب الشاميون الداخلون معه إلى الأندلس يعرفون عند أهل الأندلس بالشاميين ، والذين كانوا في الأندلس قبل دخوله يشهرون بالبلديين .

ولما هلك بلج قدم الشاميون عليهم بالأندلس ثعلبة بن سلامة العاملي ، وقد كان عندهم عهد الخليفة هشام بذلك ، فسار فيهم بأحسن سيرة ، ثم إن أهل الأندلس الأقدمين من العرب والبربر همّوا بعد الوقعة لطلب الثأر ، فأل أمره معهم إلى أن حصروه بمدينة ماردة ، وهم لا يشكّون في الظفر ، إلى أن حضر عيد تشاغلو به ، فأبصر ثعلبة منهم غيرة^(١) وانتشاراً وأشراً^(٢) بكثرة العدد والاستيلاء ، فخرج عليهم في صبيحة عيدهم وهم ذاهلون ، فهزمهم هزيمة قبيحة ، وأفشى فيهم القتل ، وأسر منهم ألف رجل ، وسبي ذريتهم وغيالهم ، وأقبل إلى قرطبة من سببهم بعشرة آلاف أوزيدون ، حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس وهو يريد أن يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة .

وأصبح الناس منتظرين لقتل الأسارى ، فإذا بهم قد طلع عليهم لواء فيه موكب ، فنظروا فإذا أبو الخطار قد أقبل والياً على الأندلس ، وهو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، وذكر ابن حيان أنه قدم والياً من قبل حنظلة بن صفوان صاحب إفريقية ، والخليفة حينئذ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وذلك في رجب سنة خمس وعشرين ومائة ، بعد عشرة أشهر وليها ثعلبة بن سلامة ،

(١) الغرة — بكسر الغين وتشديد الراء — الغفلة .

(٢) الأشتر — بفتح الألف والشين جميعاً — البطر وكهران النعمة .

قال : وكان مع فروسيته شاعراً محسناً ، وكان في أوّل ولايته قد أظهر العدل فدانت له الأندلس ، إلى أن مالت به العصبية اليانية على المضرية ، فهاج الفتنة العمياء ، وكان سبب هذه الفتنة أن أبا الخطار بلغ به التعصب لليانية أن اختصم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة كان أبلج^(١) حجة من ابن عم أبي الخطار ، فمال أبو الخطار مع ابن عمه ، فأقبل الكناني إلى الصميل بن حاتم الكلابي أحد سادات مضر ، فشكاه حيفَ أبي الخطار^(٢) ، وكان أياً للضم ، حامياً للعشيرة ، فدخل على أبي الخطار ، وأمض عتابه^(٣) ، فنجّبه^(٤) أبو الخطار ، وأغلظ له ، فرد الصميل عليه ، فأمر به أبو الخطار ، فأقيم ودّع قفاه^(٥) حتى مالت عمامته ، فلما خرج قال له بعض من على الباب : أبا جوشن ، مبال عمامتك مائلة ؟ فقال : إن كان لي قوم فسيقومونها وأقبل إلى داره ، فاجتمع إليه قومه حين بلغهم ذلك ممتعزين ، فباتوا عنده ، فلما أظلم الليل قال : ما رأيكم فيما حدث على فإنه منوط بكم ؟ فقالوا : أخبرنا بما تريد ، فإن رأينا تبع رأيك ، فقال : أريد والله إخراج هذا الأعرابي من هذا السلطان على ما خيلت ، وأنا خارج لذلك عن قرطبة ، فإنه ما يمكنني ما أريد إلا بالخروج ، فإلى أين ترون أقصد ؟ فقالوا : اذهب حيث شئت ، ولا تأت أبا عطاء القيسي ، فإنه لا يواليك على أمر ينفعك ، وكان أبو عطاء هذا سيداً مطاعاً يسكن بإستجة ، وكان مشاحناً للصميل ، مسامياً له في القدر ، فسكت عند ذكره أبو بكر بن الطفيل العبدي ، وكان من أشرفهم ، إلا أنه كان حدّث السن ، فقال له الصميل : ألا تتكلم ؟ فقال : أتكلم بواحدة ما عندي غيرها ، قال : وما هي ؟ قال : إن عدوت^(٦) إتيان أبي عطاء وشئت أمرك به لم يتم أمرنا وهلكننا ، وإن أنت قصدته لم ينظر

(١) أبلج حجة : أظهر وأقوى (٢) حيف أبي الخطار : ظلمه وانتقاصه حقه

(٣) أمض عتابه : اشتد فيه حتى ألمه به

(٤) نجّبه نجها - من باب فتح - رده أقبح الرد .

(٥) دع قفاه : ضرب (٦) عدوت : جاوزت

في شيء مما سلف بينكما ، وحركته الحمية لك ، فأجابك إلى ما تريد ، فقال له الصميل : أصبّت الرأي ، وخرج من ليلته ، وقام أبو عطاء في نُصْرته على ماقدّمه العبدى ، وعمد إلى ثوابه بن يزيد الجُذامي أحد أشراف اليمن وساداتهم ، وكان ساكناً بمورور وقد استفسد إليه أبو الخطار ، فأجابهما في القيام والتقدم على المضرية ، فاجتمعوا في شدونة^(١) ، وآل الأمر إلى أن هزموا أبا الخطار على وادى لُكّة ، وحصل أسيراً في أيديهم ، فأرادوا قتله ، ثم أرجئوه ، وأوثقوه وأقبلوا به إلى قرطبة ، وذلك في رجب سنة ١٢٧ بعد ولاية أبي الخطار بسنتين ، ولما سجن أبو الخطار في قرطبة امتنع له عبدُ الرحمن بن حسان الكلبي ، فأقبل إلى قرطبة ليلاً في ثلاثين فارساً معهم طائفة من الرّجالة ، فهجموا على الحبس وأخرجوه منه ، ومَضَوْا به إلى غرب الأندلس ، فعاد في طلب سلطانه ، ودبّ في يَمَانِيته حتى اجتمع له عسكر أقبل بهم إلى قرطبة ، فخرج إليه ثوابه ومعه الصّميل ، فقام رجل من المضرية ليلاً فصاح بأعلى صوته : يامعشر اليمن ، مالكم تتعرضون إلى الحرب وتَرِدُون المنايا عن أبي الخطار ؟ أليس قد قدرنا عليه لو أردنا قتله لقلعنا ، لكننا مَنَنَّا وغفونا وجعلنا الأمير منكم ، أفلا تفكرون في أمركم ، فلو أن الأمير من غيركم غُذِرْتُمْ ، ولا والله لانقول هذا رهبةً منكم ولا خوفاً لحربكم ، ولكن تخرجاً من الدماء ورغبة في عاقبة العامة ، فتسامع الناس به ، وقالوا : صدق ، فتداعوا للرحيل ليلاً ، فما أصبحوا إلا على أميال ، قال الرازي : ركب أبو الخطار البحر من ناحية تُونُس في الحرم سنة ١٢٥ ، وفي كتاب أبي الوليد بن القرضي : كان أبو الخطار أعزياً عصبياً ، أفرط في التعصب لليمانيين ، وتحامل على مُضَر ، وأسخط قيساً ، فثار به زعيمهم الصّميل ، فخلعه ، ونصب مكانه ثوابه ، وهاج بين الفريقين الحروب المشهورة ، وخلع أبو الخطار بعد أربع سنين وتسعة أشهر ، وذلك سنة ١٢٨ ، وآل أمره إلى أن قتله الصّميل .

(١) في ب « شدونة » بالبدال المهملة ، وما أثبتناه موافق لما في الروض .

وولى الأندلس ثوبة بن سلامة الجذامى ، قال ابن بشكُوَال : لما اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب القيروان ، فكتب إليه بعهد الأندلس ، وذلك سلخ رجب سنة ١٢٧ ، فضبط البلد ، وقام بأمره كله الصَّمِيل واجتمع عليه أهل الأندلس ، وأقام واليا سنة أو نحوها ، ثم هلك ، وفى كتاب ابن الفَرَضَى أنه ولى سنتين

ثم ولى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفِهْرَى ، وجدّه عقبة بن نافع صاحب إفريقية وبانى القيروان الحجاب الدعوة صاحب الغزوات والآثار الحميدة ، ولهذا البيت فى السلطنة بإفريقية والأندلس نبأه . وذكر الرازى أن مولده بالقيروان ، ودخل أبوه الأندلس من إفريقية مع حبيب بن أبى عبيدة الفهرى عند افتتاحهم ، ثم عاد إلى إفريقية ، وهرب عنه ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مُغاضبا له ، فهوى الأندلس ^(١) ، واستوطنها فساد ^(٢) بها ، قال الرازى : كان يوسف يوم ولى الأندلس ابن سبع وخمسين سنة ، وأقامه أهل الأندلس بعد أميرهم ثوبة ، وقد مكثوا بغير والٍ أربعة أشهر ، فاجتمعوا عليه بإشارة الصَّمِيل من أجل أنه قرشى رضى به الحيان ، فرفعوا الحرب ، ومالوا إلى الطاعة ، فدانت ^(٣) له الأندلس تسع سنين وتسعة أشهر ، وقال ابن حيان : قدمه أهل الأندلس فى ربيع الآخر سنة ١٢٩ ، واستبد بالأندلس دون ولاية أحد له غير من بالأندلس ، وحكى ابن حيان أنه أشد قول حرقة بنت النعمان بن المنذر يوم خلعه بالأمان من سلطانه ودخوله عسكر عبد الرحمن الداخل المروانى :

فينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة ننصف

قال ابن حيان : لما سمع أبو الخطار بتقديمه حرك يمانيته ، فأجابوا دعوته ، فأدى

(١) هوى الأندلس : أحبا (٢) ساد بها : صار سيديا

(٣) دانت له : خضعت وأطاعته

ذلك إلى وقعة شَقْنَدَة بين اليمانية والمُضَرِيَّة فيقال : إنه لم يك بالشرق ولا بالمغرب حرب أصدق منها جِلَادًا ولا أصبر رجالًا ، طال صبر بعضهم على بعض ، إلى أن فنى السلاح ، وتجاوزوا بالشعور ، وتلاطموا بالأيدى ، وكلَّ بعضهم^(١) عن بعض ، وثابت للصميل غِرَّة في اليمانية في بعض الأيام ، فأمر بتحريك أهل الصناعات بأسواق قرطبة ، فخرجوا في نحو أربعائة رجل من أنجادهم^(٢) بمحضهم من السكاكين والعصي ليس فيهم حامل رمح ولا سيف إلا قليلًا ، فرماهم على اليمانية وهم على غفلة ، وما فيهم من ييسط يد القتال ، ولا ينهض لدفاع ، فانهزمت اليمانية ووضعت المُضَرِيَّة السيف فيهم ، فأبادوا منهم خلقًا ، واختفى أبو الخطار تحت سرير رحي ، فقبض عليه وحى به إلى الصميل ، ف ضرب عنقه ، وقد ذكرنا خبر انخلاع يوسف عن سلطانه في ترجمة عبد الرحمن الداخل ، وهو آخر سلاطين الأندلس الذين ولوها من غير موارثة ، حتى جاءت الدولة المروانية .

وذكر ابن حيان أن القائم بدولة يوسف والمستولى عليها الصَّمِيل بن حاتم ابن شمر بن ذى الجوشن الكلّابى ، وجده شمر هو قاتل الحسين ، رضى الله تعالى عنه ! وكان شمر قد قرَّ من المختار بولده من الكوفة إلى الشام ، فلما خرج كلثوم بن عياض للمغرب كان الصميل فيمن خرج معه ، ودخل الأندلس في طاعة بلج ، وكان شجاعا جوادا جسورا على قلب الدول ، فبلغ ما بلغ ، وآل أمره إلى أن قتله عبدُ الرحمن الداخل المروانى في سجن قرطبة مخنوقا .

وذكر ابن حيان أنه كان ممن ثار على يوسف الفهرى عبد الرحمن بن علقمة اللخمى فارس الأندلس ، ووالى ثغر أربونة ، وكان ذا بأس شديد ووجهة عظيمة ، فبينما هو فى تدبير غزو يوسف إذ اغتاله أصحابه وأقبلوا برأسه إليه

(١) كل بعضهم : عجز وضعف

(٢) الأنجاد : جمع نجد - بفتح فضم - وهو الشجاع

ثم ثار عليه بعد ذلك بمدينة باجة عروة بن الوليد في أهل الذمة وغيرهم ، فملك إشبيلية ، وكثر جمعه ، إلى أن خرج له يوسف فقتله ، وثار عليه بالجزيرة الخضراء عامر العبدري ، فخرج له ، وأنزله على أمان في سكنى قرطبة ، ثم ضرب عنقه بعد ذلك . وقيل : إن أول من خرج على يوسف عمرو بن يزيد الأزرق في إشبيلية فظفر به فقتله ، وثار عليه في كورة سرقسطة الحباب الزهري إلى أن ظفر به يوسف فقتله ، ثم جاءته الداهية العظمى بدخول عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس وسعيه في إفساد سلطانه ، قتم له ما أَراده ، والله تعالى أعلم .

ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية ابن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان ، المعروف بالداخل .
وذلك أنه لما أصاب دولتهم ما أصاب ، واستولى بنو العباس على ما كان بأيديهم ، واستقر قَدَمُهُمْ في الخلافة ، فرَّ عبد الرحمن إلى الأندلس ، فنال بها ملكا أورثه عَقِبُهُ حَقْبَةً^(١) من الدهر .

عبد الرحمن
بن معاوية بن
هشام بن
عبد الملك
المعروف
بالداخل

قال ابن حيان في « المقتبس » : إنه لما وقع الاختلال في دولة بني أمية والطلب عليهم ، فر عبد الرحمن ، ولم يزل في فِرَارِهِ منتقلا بأهله وولده إلى أن حلَّ بقرية على القرات ذات شجر وغياض^(٢) ، يريد المغرب ، لما حصل في خاطره من بُشْرَى مَسْلَمَةٍ ، فمأحى عنه أنه قال : إني لجالس يوما في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه لرمَد كان بي ، وابني سليمان بكر ولدى يلعب قدامي ، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعا باكيا فأهوى إلى حجرِي ، فجعلت أدفعه لما كان بي ويأبى إلا التعلق ، وهو دَهْش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأُنظر ، فإذا بالرَّوْع^(٣) قد نزل بالقرية

(١) الحقة - بكسر الحاء وسكون القاف - للدة

(٢) الغياض : جمع غيضة ، وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء

(٣) الروع : الخوف والفزع

ونظرت فإذا بالرايات السود^(١) عليها مُنحطة وأُخ لي حَدَث السن كان معي يشتد^(٢) هارباً ويقول لي : النجاء يا أخى ، فهذه رايات المسوَّدة ، ف ضربت بيدي على دنائير تناولتها ، ونجوت بنفسى والصبي أخى معي ، وأعلمت أخواتى بمتوجَّهِي^(٣) ومكان مقصدي ، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بَدْر معهنّ ، وخرجت فكنت في موضع ناء عن القرية ، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل ، فأحاطت بالدار ، فلم تجد أثراً ، ومضيت ، ولحقني بدر ، فأتيت رجلاً من معارفى بشطّ القُرَات ، فأمرته أن يبتاع لي دوابّ وما يصلح لسفري ، فدلّ عليّ عبدٌ سوء له العامل ، فما راعنا إلا جَلْبَة الخيل تحفرنا فاشتدنا في الهرب ، فسبقناها إلى القُرَات ، فرمينا فيه بأنفسنا ، واخيل تنادينا من الشط : ارجعا لا بأس عليكما ، فسبحت حائثاً لنفسى وكنت أحسن السبع ، وسبح الغلام أخى ، فلما قطعنا نصف القرات قَصَرَ أخى ودُهِش ، فالتفت إليه لأقوَى من قلبه ، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخذعون عن نفسه ، فناديت به : تُقَتِّلُ يا أخى ، إلى ، إلى ، فلم يسمعني ، وإذا هو قد اغتر بأمانهم ، وخشى الفَرَق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا القرات ، وبعضهم قد همَّ بالتجرد للسباحة في أثرى ، فاستكفَّ أصحابه عن ذلك ، فتركوني ، ثم قدّموا الصبي أخى الذى صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه نُكلاً ملائى مخافة ، ومضيت إلى وجهي أحسب أنى طائر وأنا ساع على قدمي ، فلجأت إلى غَيْصَة أشبه ، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت أوُم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية .

قال ابن حيان : وسار حتى إفريقية وقد ألحقت به أخته شقيقته أم الأصغ مولاه بدرا ، ومولاه سالما ، ومعها دنائير للنفقة ، وقطعة من جوهر ، فنزل

(١) الرايات السود : كانت شعار العباسيين

(٢) يشتد : يسرع الجرى

(٣) المتوجه - بتشديد الجيم مفتوحة - المكان الذى تتوجه إليه

بإفريقية وقد سبقه إليها جماعة من قُلَّ بنى أمية ، وكان عند واليها عبد الرحمن بن حبيب
 القهرى يهودى حدثانى ^(١) صحب مسلمة بن عبد الملك ، وكان يتكهن له ويخبره
 بتغلب القرشى المروانى الذى هو من أبناء ملوك القوم ، واسمه عبد الرحمن ، وهو
 ذو ضفيرتين يملك الأندلس ويؤرشها عقبه ، فاتخذ القهرى عند ذلك ضفيرتين
 أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما جرى بعبد الرحمن ونظر إلى ضفيريته قال
 لليهودى : ويحك ! هذا هو ، وأنا قاتله ، فقال له اليهودى : إنك إن قتلتها فما
 هو به ، وإن غلبت على تركه إنه لهو ، وثقل قُلَّ بنى أمية على ابن حبيب صاحب
 إفريقية ، فطرد كثيراً منهم مخافة ، وتجنَّى على ابنين الوليد بن يزيد كانا قد
 استجارا به ، فقتلها ، وأخذ مالا كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن
 مروان ، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه ، وطلب عبد الرحمن فاستخفى ، انتهى .
 وذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببرقة مستخفياً خمس
 سنين ، وآل أمره فى سفره إلى أن استجار بينى رُسُتم ملوك تيهرت من المغرب
 الأوسط ، وتقلب فى قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قوم من زنانة ،
 وأخذ فى تجهيز بدر مولاة إلى العبور للأندلس لموالى بنى أمية وشيعتهم بها ، وكانت
 الموالى المروانية المدونة بالأندلس فى ذلك الأوان مابين الأربعمائة والخمسمائة ، ولهم
 جمة ^(٢) ، وكانت رياستهم إلى شخصين : أبى عثمان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله
 ابن خالد ، وهما من موالى عثمان رضى الله تعالى عنه ! وكانا يتوليان لواء بنى أمية
 يعقبان سَمْلَه ورياسة جند الشام النازلين بكورة البيرة ، فعبر بدر مولى عبد الرحمن
 إلى أبى عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكره فيه أياذى سَلَفَه من بنى أمية وسببه بهم
 ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله ، إذ كان الأمر لجده هشام فهو حقيق

(١) يقال « هذا رجل حدث ملوك » بكسر الحاء وسكون الدال - أى صاحب
 حديثهم وسمهم ، ويقال « رجل حدث » بزنة يفظ وندس - أى حسن الحديث ،
 فعمل هذا التعبير من ذاك أو محرف عنه .

(٢) الجمة - بالفتح - كل قوم انضموا فصاروا يدا واحدة ولم يحالفوا غيرهم

بوراثته ، ويسأله القيام بشأنه وملاقة مَنْ يثق به من الموالى الأموية وغيرهم ، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس ليُنْجِي عذرا في الظهور عليها ، ويعيده بإعلاء الدرجة ، ولطف المنزلة ، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه ، ويرجو قيامه معه ، يأخذ فيه مع اليمانية ذوى الحنق^(١) على المضرية لما بين الحيين من الترات^(٢) ، فمضى أبو عثمان لما دعاه إليه ، وبانت له فيه طمّاعية ، وكان عند ورود بدر قد تجهز إلى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصّميل بن حاتم وَجِهَ دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور : لو كنا ذا كرنا الصميل خبر بَدْرٍ وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا ، وكانا على ثقة في أنه لا يظهر على سرهما أحدا لمروته وأنفته ، فقال له : إِنْ نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجلالة المنزلة فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا ، قال أبو عثمان : فتمسح إذاً على أمره ، ونذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بها ، لا يريد غير ذلك ، فانفقا على هذا ، فلما ودّعا الصّميل حَلَّوا به في ذلك ، وقد ظهر لهما منه حقد على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لما حار به الحباب الزهري بكورة سرقسطة ، فقال لهما : أنا معكما فيما تحبان ، فاكتبنا إليه أن يعبر ، فإذا حضر سألنا يوسف أن ينزله في جواره وأن يحسن له ، ويزوجه بابنته ، فإن فعل وإلا ضربنا صُلْعته بأسيا فنا ، وصرنا الأمر عنه إليه ، فشكراه ، وقبلنا يده ، ثم ودعاه ، وأقام بطليطلة وقد ولّاه يوسف عليها وعزله عن الثغر ، وانصرفا إلى وطنهما بالبييرة ، وقد كانا لقيما من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم ، فطارحاهم أمر ابن معاوية ، ثم دسّا في الكور إلى ثقاتهما بمثل ذلك ، فدب أمره فيهم ديب النار في الجمر ، وكانت سنة خلف

(١) الحنق : الغضب

(٢) الترات : جمع ترة ، وهي النار .

بالأندلس بعد خروج من الجماعة التي دامت بالناس .
وفي رواية أن الصميل لأنّ لها في أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه
ثم دبر ذلك لما انصرفا ، فتراجع فيه ، فردّها ، وقال : إني روّيت في الأمر الذي أردته
معكما فوجدت الفتى الذي دعوتاني إليه من قوم لوبال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا
نحن وأتم في بؤله ، وهذا رجل تتحكم عليه ، ونميل على جوانبه ، ولا يسعنا بدل
منه ، والله لو بلغنا بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقكما عليه لرأيت أن لا أقصّر حتى
ألقا كما لثلا أغركما من نفسي ، فإني أعلمكما أن أول سيف يُسلّ عليه سيفي ، فبارك
الله لكما في رأيكما ، فقالا له : مالنا رأى إلا رأيك ، ولا مذهب^(١) لنا عنك ، ثم
انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان ، وانفصلا عنه إلى البيرة
عازمين على التصميم في أمره ، ويثسا من مضر وربيعة ، ورجعا إلى اليمانية ،
وأخذاف تهييج^(٢) أحقاد أهل اليمن على مضر ، فوجداهم قوما قد وغرت^(٣) صدورهم
عليهم ، يتمنون شيئا يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم ، واغتما بعد يوسف صاحب
الأندلس في الثغر ، وغبية الصميل ، فابتاعا مركبا ووجّها فيه أحد عشر رجلا منهم
مع بدر الرسول ، وفيهم تمام بن علقمة وغيره ، وكان عبد الرحمن قد وجّه خاتمه
إلى مواليه ، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر ، فبشوا من ذلك
في الجهات ماذب به أمرهم ، ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألقوه
بشط مغيلة من بلاد البربر ، وهو يصلي ، وكان قد اشتدّ قلقه وانتظاره لبدر رسوله ،
فبشره بدر بتمكن الأمر ، وخرج إليه تمام مكثراً لتبشيرِهِ ، فقال له عبد الرحمن :
ما اسمك ؟ قال : تمام ، قال : وما كنييتك ؟ قال : أبو غالب ، فقال : الله أكبر !
الآن تم أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته ، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك ، ولم

(١) مذهب : مصدر ميمي بمعنى الذهاب ، يريدان : أنهما لا يخرججان عن رأيه

(٢) تهييج الأحقاد : إثارتها من مكانها .

(٣) وغرت صدورهم : فسدت وامتلاّت ضعينة وشرأ

يزل حاجبه حتى مات عبد الرحمن ، وبادر عبد الرحمن بالدخول إلى المركب ، فلما همَّ بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه ، ففرقت فيهم من مال كان مع تمام صلّات^(١) على أقدارهم ، حتى لم يبق أحد حتى أرضاه ، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلق بحبل الهودج يعقل المركب ، فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف ، فقطع يد البربري ، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم ، حتى حلوا بساحل البيرة في جهة المنسكب ، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨ ، فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد ، فنقلاه إلى قرية طرش منزل أبي عثمان ، فجاءه يوسف بن بخت ، واثالت^(٢) عليه الأموية ، وجاءه جدران بن عمرو المذحجي من أهل مالقة ، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر ، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبي من إشبيلية فاستوزره ، واثالت^(٢) عليه الناس انشبالاً ، فقوى أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام ، وأمدّه الله تعالى بقوة عالية ، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر ، وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر ، وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسرقسطة ، وعلى عامر العبدري الثائر معه ، فبينما هو بوادي الرمل بمقرية من طليطلة وقد ضرب عنق عامر العبدري وابن عامر برأى الصُميل إذ جاءه قبل أن يدخل رواقه رسول يركض^(٣) من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق ، واجتماع الموالى المروانية إليه ، وتشوف^(٤) الناس لأمره ، فانتشر الخبر في العسكر لوقته ، وشمت الناس بيوسف لقتله القرشيين عامراً وابنه ، وختره بعهدها^(٥) ، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل ، وتنادوا بشعارهم ، وقوضوا عن عسكره .

(١) الصلّات - بكسر الصاد - جمع صلة ، وهي العطية .

(٢) اثالت عليه : كثرت وفودهم إليه (٣) يركض : يسرع

(٤) تشوف الناس : تطلعوا (٥) ختره بعهده : نقضه إياه

واتفق أن جادت السماء بوابل^(١) لا عهدَ بمثله لما شاء الله تعالى من التضيق على يوسف ، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصمائل قيس وأتباعه ، فأقبل إلى طليطلة وقال للصميل : ما الرأي ! فقال : بادر الساعة قبل أن يغلظ أمره ، فإني لست آمنُ عليك هؤلاء اليمانية لحنفهم علينا ، فقال له يوسف : أقول ذلك ؟ ومع مَنْ نسير إليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا ؟ وقد أنفضنا^(٢) من المال ، وأنضينا الظهر ، ونهكتنا المجاعة^(٣) في سفرتنا هذه ، ولكن نسير إلى قرطبة ، فنستأنف الاستعداد له ، بعد أن ننظر في أمره ويتبين لنا خبره ، فلعله دون ما كتب إلينا ، فقال الصميل : الرأي ما أشرتُ به عليك ، وليس غيره ، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه ، ومضوا إلى قرطبة ، وسار عبد الرحمن الداخل إلى إشبيلية ، وتلقاه رئيسُ عربيها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ، واجتمع الرأي على أن يقصدوا به دار الإمارة قرطبة ، فلما نزلوا بطشانة قالوا : كيف نسير بأمر لولاء له ولا علم نهتدي إليه ؟ فجأوا بقناة وعمامة ليعقدوها عليه ، فكروا أن يُميلوا القناة لتعقد تطيرا فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين ، فصعد رجل فرعَ إحداها فعقد اللواء والقناة قائمة ، كما سيأتي ، وحكى أن فرقا العالم صاحب الحدثان مر بذلك الموضع ، فنظر إلى الزيتونتين ، فقال : سيعقد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمر لا يثور عليه لواء إلا كسره ، فكان ذلك اللواء يسعد به هو وولده من بعده ، ولما أقبل إلى قرطبة خرج له يوسف ، وكانت المجاعة توالى قبل ذلك ست سنين فأورثت أهل الأندلس ضعفا ، ولم يكن عيش عامة الناس بالعسكر ما عدا أهل الطاقة مخرجوا من إشبيلية إلا القول الأخضر الذي يجدونه في طريقهم ، وكان الزمان زمان ربيع ، فسمى ذلك العام عام الخلف ،

(١) الوابل : المطر الكثير الشديد .

(٢) تقول « أنفض القوم » إذا هلكت أموالهم وفي زادهم ، أو إذا أفنوه ، وحقيقته أنهم صاروا بحيث نقضوا أوعيتهم .

(٣) نهكتنا المجاعة : أضعتنا وأضنتنا وجهدتنا وأذهبت من لحومنا

وكان نهر قرطبة حائلا ، فسار يوسف من قرطبة وأقبل ابن معاوية على بر إشبيلية والنهر بينهما ، فلما رأى يوسف تصميم عبد الرحمن إلى قرطبة رجع مع النهر مُحَاذِيَا له ، فتسيرا والنهر حاجز بينهما ، إلى أن حل يوسف بصحراء الصارة غربي قرطبة ، وعبد الرحمن في مقابلته ، وتراسلا في الصالح ، وقد أمر يوسف بذبح الْجَزُر^(١) ، وتقدم بعمل الأطعمة ، وابن معاوية آخذ في خلاف ذلك قد أعد للحرب عُدَّتْهَا ، واستكمل أُهْبَتَهَا ، وسهر الليل كله على نظام أمره ، كما سذكروه ، ثم انهزم أهل قرطبة ، وظفر عبد الرحمن الداخل ، ونُصِرَ نصرًا لا كفاءًا له^(٢) ، وانهزم الصَّمِيل ، وفر إلى شوزر من كورة جَيَّان ، وفر يوسف إلى جهة ماردة .

وذكر أن أبا الصَّبَّاح رئيس اليمانية قال لهم عند هزيمة يوسف : يا معشر يمن ، هل لكم إلى فتحين في يوم ، قد فرغنا من يوسف وصميل ، فلنقتل هذا الفتى المَقْدَامَةَ^(٣) ابن معاوية ، فيصير الأمر لنا نقدم رَجُلًا مَنَا ، ونحل عنه^(٤) المضريبة ، فلم يجبه أحد لذلك ، وبلغ الخبر عبد الرحمن فَأَسْرَهَا في نفسه إلى أن اغتاله بعد عام ، فقتله .

ولما انقضت الهزيمة أقام ابن معاوية بظاهر قرطبة ثلاثة أيام ، حتى أخرج عيال يوسف من القصر ، وعَفَّ ، وأحس السيرة ، ولما حصل بدار الإمارة ، وحل محل يوسف ، لم يستقر به قرار من إفلات يوسف والصميل ، فخرج في إثر عدوه واستخلف على قرطبة القائم بأمره أبا عثمان ، واستكتب كاتب يوسف أمية بن زياد ، واستناب إليه إذ كان من موالى بنى أمية ، ونهض في طلب يوسف ، فوقع يوسف على خبره ، فخالفه إلى قرطبة ، ودخل القصر وتحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع فاستنزله بالأمان ، ولم يزل

(١) الجزر - بضمين - في الأصل الإبل ، واحدها جزور

(٢) لا كفاء له : لانظير له ولا مثيل .

(٣) المقدمة : مبالغة من الإقدام ، والتناء فيه لزيادة المبالغة كثناء علامة .

(٤) لعله « ونجلى عنه »

عنده إلى أن عقد الصلح بينه وبين ابن معاوية ، وكان عقد الصلح المشتمل عليه وعلى وزيره الصَّمِيل في صفر سنة ١٣٩ ، وشارطه على أن يَخْلِي بينه وبين أمواله حيثما كانت ، وأن يسكن بلاط الحر منزلة بشرقي قرطبة على أن يختلف كل يوم إلى ابن معاوية ويُرِيه وجهه ، وأعطاه رهينة على ذلك ابنه أبا الأسود محمد بن يوسف ، زيادةً على ابنه عبد الرحمن الذي أسره ابنُ معاوية يوم الواقعة ورجع العسكران وقد اختلطا إلى قرطبة .

وذكر ابن حيان أن يوسف بن عبد الرحمن نكث ^(١) سنة ١٤١ ، فهرب من قرطبة ، وسعى بالفساد في الأرض ، وقد كانت الحال اضطربت به في قرطبة ودرس له قوم قاموا عليه في أملاكه ، زعموا أنه غصبهم إياها ، فدفع معهم إلى الحكام ، فأغنتوه ، وحمل عنه في التألم بذلك كلام رفع إلى ابن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل إلى السعاية به والتخويف منه ، فاشتد تَوَحُّشُهُ ^(٢) ، فخرج إلى جهة ماردة ، واجتمع إليه عشرون ألفاً من أهل الشتات ، فغلظ أمره ، وحدثته نفسه بقاء ابن معاوية ، فخرج نحوه من ماردة ، وخرج ابن معاوية من قرطبة ، فبينما ابنُ معاوية في حصن المدور مستعداً ، إذ التقى بيوسف عبد الملك بن عمر بن مروان صاحب إشبيلية ، فكانت بينهما حرب شديدة انكشف عنها يوسف بعد بلاء عظيم منهزماً ، واستَحَرَّ القتل ^(٣) في أصحابه ، فهلك منهم خلق كثير ، وسار يوسف لناحية طُلَيْطَلَة ، فلقية في قرية من قرأها عبد الله بن عمرو الأنصاري ، فلما عرفه قال لمن معه : هذا الفهري يفر ، قد ضاقت عليه الأرض ، وقتله الراحة له ، والراحة منه . فقتله ، واحتز رأسه ، وقدم به إلى عبد الرحمن ، فلما قرب وأوذن ^(٤) عبد الرحمن به أمره أن يتوقف به دون جسر

نقض يوسف
بن عبد الرحمن
عقد الصلح

(١) نكث : خالف ما كان قد تعاهد عليه

(٢) اشتد توحشه : أي أنه وجد وحشة شديدة ، والاشتياحاش : ضد الاستئناس

(٣) استحر القتل : اشتد (٤) أوذن به : أعلم به

قرطبة ، وأمر بقتل ولده عبدالرحمن المحبوس عنده ، وضم إلى رأسه رأسه ، ووضعها على قناتين مُشَهَّرَيْن إلى باب القصر ، وكان عبد الرحمن لما فر يوسف قد سجن وزيره الصَّمِيل لأنه قال له : أين توجه ؟ فقال : لا أعلم ، فقال : ما كان ليخرج حتى يعلمك ، ومع ذلك فإن ولدك معه ، وأكده عليه في أن يحضره ، فقال : لو أنه تحت قدمي هذه ما رفعها لك عنه ، فاصنع ما شئت ، فحينئذ أمر به للحبس وسجن معه ولدى يوسف أبا الأسود محمد المعروف بعد بالأعمى وعبد الرحمن ، فتهياً لهما الحرب من نقب ، فأما أبو الأسود فنجاً سالماً ، واضطرب في الأرض يبغي الفساد إلى أن هلك حَتَفَ أَنْفَه^(١) ، وأما عبدالرحمن فأثقله اللحم فأنهر ، فرد إلى الحبس ، حتى قتل كما تقدم ، وأنف الصميل من الحرب ، فأقام بمكانه ، فلما قتل يوسف أدخل ابنُ معاوية على الصميل من خنقه ، فأصبح ميتاً ، فدخل عليه مشيخة المضرة في السجن ، فوجدوه ميتاً ، وبين يديه كأس ونقل ، كأنه بغت على شرابه ، فقالوا : والله إنا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها ولكن سقيتها .

ومما ظهر من بطش الأمير عبد الرحمن بن معاوية وصرامته فتكه بأحد دعاة أمثلة من بطش دولته رئيس اليمانية أبي الصباح بن يحيى ، وكان قد ولاه إشبيلية وفي نفسه منه عبيد الرحمن الداخل ما أوجب فتكه به .

ومن ذلك النوع حكايته مع العلاء بن مغيث اليحصبي ، إذ ثار بباجة ، وكان قد وصل من إفريقية على أن يُظهر الرايات السود بالأندلس ، فدخل في ناس قليلين ، فأرسي بناحية باجة ، ودعا أهلها ومن حولهم ، فاستجاب له خلق كثير ، إلى أن لقيه عبد الرحمن بجهة إشبيلية فهزمه ، وجىء به وبأعلام أصحابه ، فقطع يديه ورجليه ، ثم ضرب عنقه وأعناقهم ، وأمر ففرطت الصمك^(٢) في آذانهم

(١) مات فلان حَتَفَ أَنْفَه : أي أهملات في غير معركة حرب ، وفي لامية السمائل :

وما مات منا سيد حَتَفَ أَنْفَه ولا طل منا حيث كان قتيل

(٢) يريد أنه كتب اسم كل واحد منهم في ورقة ، ثم جعلت هذه الورقة كالقرط في أذن صاحبها .

بأسمائهم ، وأودعت جوالقا محصنا ، ومعهما اللواء الأسود ، وأنفذ بالجوالق تاجرا من ثقاته ، وأمره أن يضعه بمكة أيام الموسم ، ففعل ، ووافق أبا جعفر المنصور قد حج ، فوضعه على باب سُرّادقه ، فلما كشفه ونظر إليه سَقَطَ في يده ، واستدعى عبد الرحمن وقال : عرضنا هذا البائس - يعني العلاء - للحتفِ ما في هذا الشيطان مطمع ، فالحمد لله الذي صير هذا البحر بيننا وبينه .

ولما أوقع عبد الرحمن باليمنية الذين خرجوا في طلب ثار رئيسهم أبي الصباح اليحصبي وأكثرت القتل فيهم ، استوحش من العرب قاطبة ، وعلم أنهم على دَغَلٍ ^(١) وحقد ، فانحرف عنهم إلى اتخاذ الماليك ، فوضع يده في الابتياح ، فابتاع موالى الناس بكل ناحية ، واعتضد ^(٢) أيضا بالبرابر ، ووجه عنهم إلى بر العدو فأحسن لمن وفد عليه إحسانا رغب مَنْ خلفه في المتابعة ، قال ابن حيان : واستكثر منهم ومن العبيد ، فاتخذ أربعين ألف رجل ، صار بهم غالبا على أهل الأندلس من العرب ، فاستقامت مملكته وتوطدت

وقال ابن حيان : كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئا من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لا يُخْلِدُ إلى راحة ، ولا يسكن إلى دَعَاة ، ولا يَكِلُ الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعا ، مقداما ، بعيد الغور ، شديد الحدة ، قليل الطمأنينة ، بليغا ، مفرّها ، شاعرا ، محسنا ، سمحا ، سخيا ، طلق اللسان ، وكان يلبس البياض ، ويعتم به ، ويؤثره ، وكان قد أُعْطِيَ هبة من وليه وعدوه ، وكان يحضر الجنائز ، ويصلى عليها ، ويصلى بالناس إذا كان حاضرا الجمع والأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس ، والشئ بينهم ، إلى أن حضر في يوم جنازة فتصدى له

صفات
عبد الرحمن
الداخل

(١) أنهم على دغل : فساد سريرة وسوء طوية

(٢) اعتضد : تنوى ، وجعلهم كالعضدله .

في منصرفه عنها رجل متظلم عامي وقَّاح ذو عارضة فقال له : أصلح الله الأمير ! إن قاضيك ظلمي ، وأنا أستجيرك من الظلم ، فقال له تنصف إن صدقت ، فمد الرجل يده إلى عنانه وقال : أيها الأمير أسألك بالله لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافي فإنه معك ، فوجم الأمير والتفت إلى مَنْ حوله من حَشَمه ، فرآهم قليلا ، ودعا بالقاضي ، وأمر بإنصافه ، فلما عاد إلى قصره كلمه بعضُ رجاله بمن كان يكره خروجه وابتذاله فيما جرى ، فقال له : إن هذا الخروج الكثير - أبق الله تعالى الأمير! - لا يَجْمُلُ بالسلطان العزيز ، وإن عيون العامة تخلق بتجلته ، ولاتؤمن بؤادهم عليه ، فليس الناس كما عُهِدوا ، فترك من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل ، ووكل بذلك ولده هشاما .

ومن نظم عبد الرحمن الداخل ما كتب به إلى أخته بالشام :

بعض شعر
عبد الرحمن

أيها الراكب الميمم أرضى أقرَّ مِنِّي بعضَ السلام لبعضي
إن جسمي كما تراه بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
قدَّرَ البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الدهر بالقراق علينا فعسى باجماعنا سوف يقضى

وكتب إلى بعض مَنْ وفد عليه من قومه لما سأله الزيادة في رزقه ، واستقل ما قبله به وذكره بحقه بهذه الأبيات :

شтан من قام ذا امتعاض مُنْتَضِي الشَّفَرَتَيْنِ نَصْلاً^(١)
خُجَاب قَفَرًا وَشَقْ بَحْرًا مُسَامِيَا بَلْجَةً وَخُحْلًا
دبر ملكا وشاد عزًّا ومنبرًا للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومَصَّرَ المصر حين أجلى

(١) امتعض فلان من كذا : أى شق عليه فغضب منه ، وانتضى فلان سيفه :

أى استله من غمده ، والشفرة - بفتح الشين وسكون الفاء - حد السيف .

ثم دعا أهله إليه حيث انتأوا أن هلم أهلا
فجاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلا
فقال أمتنا ونال شبعنا ونال مالا ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا أعظم من منعم ومولى

الوفود على وحكى ابن حيان أن عبد الرحمن لما أذن له يوسف صاحب الأندلس واستقر
عبد الرحمن ملكه استحضر الوفود إلى قرطبة ، فأنشأوا عليه ، ووالى القعود ^(١) لهم في قصره عدة
أيام في مجالس يكلم فيها رؤسائهم ووجوههم بكلام سرهم وطيب نفوسهم ، مع
أنه كساهم وأطعمهم ووصلهم ، فأنصرفوا عنه محبورين ^(٢) مغتبطين ، يتدارسون
كلامه ، ويتهافتون بشكره ، ويتهاونون بنعمة الله تعالى عليهم فيه ، وفي بعض
مجالسهم هذه مثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه ^(٣) فقال له : يا ابن الخلائف
الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت ، وبك عذت ، من زمن ظلم ،
ودهر غشوم ، قلل المال ، وكثر العيال ، وشعث الحال ، فصير إلى نذاك المال ،
وأنت ولى الحمد والمجد ، والمرجو للرفد ، فقال له عبد الرحمن مسرعا : قد سمعنا
مقاتلك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ،
فلا تعودن ولا سواك مثله من إراقة ماء وجهك بتصریح المسألة والإلحاف في الطلبة ،
وإذا ألم بك خطب أو حزنك أمر فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك ، كما نستريك
خلتك ^(٤) ، ونكف شمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عز
وجهه بإخلاف الدعاء وصدق النية ، وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون
منه من حسن منطقه وبراعة أدبه ، وكف فيما بعد ذوى الحاجات عن مقابلته بها
شفاهها في مجلسه .

(١) والى القعود موالاة : تابعه وكرره

(٢) محبورين - بالحاء المهملة - مسرورين ، من الجبور وهو السرور

(٣) يستجديه : يطلب جده ، وهو العطاء (٤) خلتك - بفتح الخاء - حاجتك

قال ابن حيان : ووقع إلى سليمان بن يقظان الأعرابي على كتاب منه سلك به سبيل الخداع : أما بعد ، فدعني من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدّن يدًا إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين بفانها عن رصف المعصية ، نكالا بما قدمت يدك ، وما الله بظلام للعبيد .

وفي «المسهب» أن عبد الرحمن كان من البلاغة بالمكان العالي ، الذي يرتد عنه أكثر بني مروان حسيراً .

عبد الرحمن
وبدر موله

وقد جرى بينه وبين موله بدر مالا يجب إهماله ، وذلك أنه لما سعى بدر في تكميل دولته من ابتدائها إلى استقرارها صحبه عجب وامتنان كاد يرّدان به حياض المنية ، فأول ما بدأ به أن قال : بعنا أنفسنا وخطرنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصى أمله ، وقال وقد أمره بالخروج إلى غزاة : إنما تعبنا أولًا لنستريح آخرًا ، وما أرانا إلا في أشدّ ما كنا ، وأطال أمثال هذه الأقوال ، وأكثر الاستراحة في جانبه ، فهجره وأعرض عنه ، فزاد كلامه ، وكتب له رقعة منها : أما كان جزائي في قطع البحر ، وجوّب القفر^(١) ، والإقدام على تشيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير المهجر ، الذي أهانني في عيون أ كفاي ، وأشمت بي أعدائي ، وأضعف أمرى ونهي عند من يلوذ بي ، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفدني^(٢) على الطمع والرجاء ، وأظن أعداءنا بني العباس لو حصّلت بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا ، فإن الله وإنا إليه راجعون . فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غيظه عليه ، فوقع عليها : وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك ، وسوء خطابك ، ودناءة أدبك ، ولئيم معتقدك ، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متانا أتيت بما يهدم كل متات مشيد مما تمن به ، مما قد أضجر الأسماع تكراره ، وقدحت

(١) جاب البلاد يحوبها : قطعها ، والقفر - بالفتح - الأرض الخالية الموحشة .

(٢) حفده يحفده - من باب ضرب - خدمه ، وخف في العمل له .

فى النفوس إعادته ، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك ، وزدنا فى هجرك وإبعادك ، وهضمنا جناح إدلالك^(١) ، فلعل ذلك يقيم منك^(٢) ويردعك حتى تبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى ، فنحن أولى بتأديبك من كل أحد ، إذ شرك مكتوب فى مثالبنا ، وخيرك معدود فى مناقبنا ، فلما ورد هذا الجواب على بدر سقِط فى يده ، وسلم للقضاء ، وعلم أنه لا ينفع فيه قول ، ووجه عبد الرحمن من استأصل ماله ، وألزمه داره ، وهتك حرمة ، وقص جناح جاهه ، وصيره أهون من قعيس على عمته ، ومع هذا فلم ينته بدر عن الإكثار من مخاطبة مولاه ، تارة يستلينه ، وتارة يذكره ، وتارة ينفث مصدورا بخط قلمه ما يلقيه عليه بلسانه ، غير مفكر فيما يؤل إليه ، إلى أن كتب له : قد طال هجرى ، وتضاعف همى وفكرى ، وأشد ما على كوفى سليبا من مالى ، فعسى أن تأمرلى بإطلاق مالى وأتخذ به فى معزل لا أشغل بسلطان ، ولا أدخل فى شىء من أموره ما عشت ، فوقع له : إن لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك لكان بعض ما استوجبته ، ولا سبيل إلى رد مالك ، فإن تركك بمَعَزَل فى بَلَهْنِيَةِ الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلّى من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه بالنقمة ، فأيأس من ذلك ، فإن اليأس مُريح ، فسكت لما وقف على هذه الإجابة مدة إلى أن أتى عيد فاشتد به حزنه لما رأى من حاجة مَنْ يلوذه به وهمهم بما يفرح به الناس ، فكتب إليه فى ذلك رقعة منها : وقد أتى هذا العيد الذى خالفت فيه أكثر من أساء إليك وسعى فى خراب دولتك ، ممن عفوت عنه ، فتبَنَّكَ النعمة^(٣) فى ذَرَاكَ ، واقتعد ذِرْوَةَ العز ، وأنا على ضد من هذا سليبا من النعمة ، مُطَرِّحا حضيض الهوان ، أيأس مما يكون ، وأقرع السن على ما كان ، فلما وقف على هذه الرقعة أمر بنفيه

(١) الأصل فى « هاض » قولهم « هاض فلان العظم » إذا كسره بعد الجبور ، وقولهم « هاض أمر كذا فلانا » إذا رده إلى المرض بعد ما كان قد تماثل للشفاء .

(٢) قعنه : أذله ، وقع منه : نال منه نيلا عظيما يبلغ مساوته وإهانيته .

(٣) يقال « تبَنَّكَ فلان العز » إذا تمسكن منه ، وذراك - بفتح الدال - جانبك

عن قرطبة إلى أقصى الثغر ، وكتب له على ظهر رقعته : لتعلم أنك لم تزل بمقتك ، حتى ثقلت على العين طلعته ، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فبالله إلا ما أقصرت ، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق معي الدنيا ، ورأيتك تشكول فلان وتتألم من فلان ، وما تقوله عليك ، ومالك عدوٌّ أكبر من لسانك ، فما طاح بك غيره ، فاقطعه قبل أن يقطعك .

ولما فتح الداخل سرقسطة ، وحصل في يده نائرها الحسين الأنصاري ، تأديب
عبد الرحمن
لأتباعه
وشدخت رؤس وجوهها بالعمد ، وانتهى نصره فيها إلى غاية أمله ، أقبل خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه به من الجند ، فهناه بصوت عال ، فقال : والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ على فيه النعمة من هو فوق فأوجب على ذلك أن أنعم فيه على من هو دوني لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال ، من تكون حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها ؟ حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ، وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها ، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة ، فقال : ولعل فتوحات الأمير يقتزن اتصالاً جليل وذنوبي ، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة ، لأعذمني الله تعالى ، فتهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نبهونا على أنفسكم ، إذا لم تجدوا من ينهنا عليها ، ورفع مرتبته ، وزاد في عطائه . ولما أنحى أصحابه على أصحاب الفهرى بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال : لاستأصلوا شأفة أعداء^(١) ترجون صداقتهم ، واستبقوهم لأشدَّ عداوةً منهم ، يشير إلى استبقائهم ليستعان بهم على أعداء الدين

(١) الشأفة - بفتح الشين وسكون الهمزة - الأصل ، وقرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ، وإذا قطعت مات صاحبها ، وقول العرب « استأصل الله شأفته » يريدون به أزاله كما تزال هذه القرحة ، ويراد أزاله من أصله .

ولما اشتد الكرب بين يديه يوم حربه مع الفهرى ، ورأى شدة مقاساة أصحابه ، قال : هذا اليوم هو أس ما بينى عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ترجحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون .

ولما خرج من البحر أول قدومه على الأندلس أتوه بخمر ، فقال : إني محتاج لما يزيد في عقلى ، لا لما ينقصه ، فعرفوا بذلك قدره ، ثم أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال : إن هذه من القلب والعين بمكان ، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتى فيما أطلبه ظلمتها ، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتى ، ولا حاجة لى بها الآن وردها على صاحبها .

حملة عبدالرحمن
وبعده عن
الصغائر

ولما استقامت له الدولة بلغه عن بعض من أعانه أنه قال : لولا أنا ما توصل لهذا الملك ، ولكن منه أبعدمن العيوق ، وأن آخر قال : سعدة أعانه ، لا عقله وتدييره ، فخره ذلك إلى أن قال :

لا يُلَفَّ ممتنٌ علينا قائل	لولاي ما ملك الأنام الداخل
سعدى وحزمى والمهند والقنأ	ومقادر بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب	نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا	أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعدة لا عقله	خير السعادة ما حماها العاقل
أبنى أمية قد جبرنا صدعكم	بالغرب رغماً والسعود قبائل
مادام من نسلى إمام قائم	فالملك فيكم ثابت متواصل

وحكى ابن حيان أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام حدثوه يوماً فى بعض مجالسهم عنده ما كان من العَمَر بن يزيد بن عبد الملك أيام محنتهم ، وكلامه لعبد الله بن على بن عبد الله بن عباس الساطى بهم ، وقد حضروا رواقه وفيه وجوه

المسودة من دعاة القوم وشيعتهم راداً على عبد الله فيما أراقه من دماء بني أمية ،
وسلبهم والبراءة منهم ، فلم تردعه هيئته وعصف ريحه واحتفال جمعه عن معارضته
والرد عليه بتفضيله لأهل بيته والذب عنهم ، وأنه جاء في ذلك بكلام غاظ عبد الله
وأغصه بريقه ، وعاجل الغمر بالحنف ، فمضى وخلف في الناس ماخلف من تلك
المعارضة في ذلك المقام ، وكثر القوم في تعظيم ذلك ، فكان الأمير عبد الرحمن
احتقر ذلك الذي كان من الغمر في جنب ما كان منه في الذهاب بنفسه عن
الإذعان لعدوهم ، والأنف من طاعتهم ، والسعى في اقتطاع قطعة من مملكة
الإسلام عنه ، وقام عن مجلسه ، فصاغ هذه الأبيات بديهة^(١) :

شتان من قام ذا امتعاض	فمرّ ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتا لعزم	مجرداً للعداة نصلا
فجاب قفراً وشق بجرأ	ولم يكن في الأنام كلاً
فشاد ملصكا وشاد عزرا	ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجنند حين أودى	ومصر مصر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعاً	حيث انتأوا أن هلم أهلا

وله غير ذلك من الشعر ، وسيأتي بعضه مما يقارب هذه الطبقة .

وأول ناصر لعبد الرحمن سائر معه في الخول والاستخفاء مولاه المتقدم الذكر ،
سعى في سلطانه شرقاً وغرباً وبرأً وبحراً ، فلما كمل له الأمر سلبه من كل نعمة ،
وسجنه ، ثم أقصاه إلى أقصى الثغر ، حتى مات وحاله أسوأ حال ، والله تعالى أعلم
بالسرائر ، فاعل له عذراً ويلومه من يسمع مبدأه ومآله .

ورأس الجماعة الذين توجه إليهم بدر في القيام بسلطانه أبو عثمان ، ولما توطدت

(١) سبقت بعض هذه الأبيات (في ص ٣٧ من هذا الجزء) وفي بعض ما ذكر
هناك مخالفة لما ذكر هنا ، فارجع إليها في ذلك الموضع

فتك
عبد الرحمن
بن عاونوه
في ملكه

دولة الداخل استغنى عنه وعن أمثاله ، فأراد أبو عثمان أن يشغل خاطره ، وينظر في شيء يحتاج به إليه ، فجعل ابن^(١) أخيه يشور عليه في حصن من حصون البيرة ، فوجه عبد الرحمن مَنْ قبض عليه وضرب عنقه ، ثم أخذ أبو عثمان مع ابن أخى الداخل ، وزَيْن له القيام عليه ، فسعى لعبد الرحمن بابن أخيه قبل أن يتم أمره ، فضرب عنقه وأعناق الذين دبروا معه ، وقيل له : إن أبا عثمان كان معه ، وهو الذى ضمن له تمام الأمر ، فقال : هو أبوسلمة^(٢) هذه الدولة ، فلا يتحدث الناس عنه بما تحدثوا عن بنى العباس في شأن أبى سلمة ، لكن سأعتبه عتباً أشد من القتل ، وجعل يوعده ، ورجع له إلى ما كان عليه في الظاهر .

وكان صاحبه الثانى في الموازنة والقيام بالدولة صهره عبد الله بن خالد ، وكان قد ضمن لأبى الصباح رئيس اليمانية عن الداخل أشياء لم يف بها الداخل ، وقتل أبا الصباح ، فانعزل عبد الله وأقسم لا يشتغل بشغل سلطان حياته ، فمات منفرداً عن السلطان .

وكان ثالثهما في النصرة والاختصاص تمام بن علقمة ، وهو الذى عَبرَ البحر إليه وبشره باستحكام أمره ، فقتل هشام بن عبد الرحمن وَلَدَ تمام المذكور ، وكذلك فعل بولد أبى عثمان المتقدم الذكر ، قال ابن حيان : فذاقنا من تُكَلٍّ ولديهما على يدي أعز الناس عليهما ما أراهما أن أحدا لا يقدر أن ينظر في تحسين عاقبته وإذا تتبع الأمر في الذين يقومون في قيام دولة كان مآلهم مع من يظهرونه هذا المآل وأصعب .

(١) في ب « فجعل ابن أخته »

(٢) أبوسلمة : حفص بن سليمان ، الحلال ، مولى بنى الحارث بن كعب ، ويعرف بأبى سلمة الحلال ، كان من الساعين في تدبير أمر بنى العباس هو وأبوسلم الحراساني ، ولكنه قتل في عهد أبى العباس السفاح ، دعاه أبو العباس للسمرعنده ، وخلع عليه ، فلما خرج يريد منزله قتله المزار بن أنس وأسيد بن عبد الله ، فقيل لأبى العباس : قتل الخوارج أبا سلمة ، فقال : للدين وللهم !

وذكر أن أول حُجَّاب الداخل تمام بن علقمة مولاة ذو العمر الطويل ،
 ثم يوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان ، وله بقرطة عَقِبَ نابه ،
 ثم عبد الكريم بن مهران من ولد الحارث بن أبي شمر الغساني ، ثم عبد الرحمن
 ابن مغيث بن الحارث بن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني ، وأبوه مغيث فاتح
 قرطبة الذي تقدمت ترجمته ، ثم منصور الخصى ، وكان أول خصي استحجبه
 بنو مروان بالأندلس ، ولم يزل حاجبه إلى أن توفي الداخل .

وزراء
 عبد الرحمن ولم يكن للداخل من يطلق عليه سِمَة وزير^(١) ، لسكنه عين أشياخا للمشاورة
 والمؤازرة ، أولهم أبو عثمان المتقدم الذكر ، وعبد الله بن خالد السابق الذكر ،
 وأبو عبدة صاحب إشبيلية ، وشُهَيْد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان
 ابن الحكم ، وكان من سَبِي البرابر ، وقيل : إنه رومي ، وبنو شُهَيْد الفضلاء
 من نسله ، وعبد السلام بن بسيل الرومي مولى عبد الله بن معاوية ، ولولده نباهة^(٢)
 عظيمة في الوزارة وغيرها ، وثعلبة بن عبيد بن النظام الجُدَمي صاحب سَرَقُسطة
 لعبد الرحمن ، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته ، وأول من خاض النهر
 وهو عريان يوم الوقعة بقرطبة ، ولعقبه في الدولة نباهة^(٢) .

كتاب
 وأول من كتب له عند خلوص الأمر له واحتلاله بقرطبة كبير نقيبائه أبو عثمان
 وصاحبه عبد الله بن خالد المتقدما الذكر ، ثم لزم كتابته أمية بن يزيد مولى
 معاوية بن مروان ، وكان في عديد من يشاوره أيضا ويفضل أمره وآراءه ، وكان
 يكتب قبله ليوسف الفهري ، وقيل : إنه ممن اتهم في مملأة اليزيدي في إفساد
 دولة عبد الرحمن ، فاتفق أن مات قبل قتل اليزيدي واطلاع عبد الرحمن
 على الأمر .

(١) السمة - بكسر السين ، بزة الصفة - هنا : الاسم ، يعني لم يكن يقال لأحدهم «وزير»

(٢) لهم نباهة : أي ذبوع صيت وارتفاع شان

قضاء

عبد الرحمن

وذكر ابن زيدون أن الداخل أُلقي على قضاء الجماعة بقرطبة يحيى بن يزيد
اليحصبي ، فأقره حيناً ، ثم ولي بعده أبا عمرو معاوية بن صالح الحمصي ، ثم عمر
ابن شراحيل ، ثم عبد الرحمن بن طريف ، وكان جدار بن عمرو يقضى
في العساكر .

الوافدون على

عبد الرحمن

من بني أمية

وكان الداخل يرتاح لما استقر سلطانه بالأندلس إلى أن يَفِدَ عليه فَلُيِّتَهُ
بني مروان ، حتى يشاهدوا ما أنعم الله تعالى عليه ، وتظهر يده عليهم ^(١) ، فوفد عليه
من بني هشام بن عبد الملك أخوه الوليد بن معاوية وابن عمه عبد السلام بن
يزيد بن هشام ، قال ابن حيان : وفي سنة ١٦٣ قَتَلَ الداخلُ عبدَ السلام بن
يزيد بن هشام المعروف باليزيدي ، وقتل معه من الوافدين عليه عبيد الله بن أبان
ابن معاوية بن هشام المعروف باليزيدي ، وهو ابن أخي الداخل ، وكان تحت
تدبير يُبرِمانه في طلب الأمر ، فَوَشَّى بهما مولى لعبيد الله بن أبان ، وكان
قد ساعدهما على ما هما به من الخلاف أبو عثمان كبير الدولة ، فلم ينله ما نالهما .

وذكر الحِجَارِي أن الداخل كان يقول : أعظم ما أنعم الله تعالى به علي بَعْدَ
تمكني من هذا الأمر القدرة على إيواء من يَصِلُ إلى من أقاربني ، والتوسع
في الإحسان إليهم ، وكبرى في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من
هذا السلطان الذي لا مَنَّةَ علي فيه لأحد غيره

وذكر ابن حزم أنه كان فيمن وفد عليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ،
فسعى في طلب الأمر لنفسه ، فقتله سنة ١٦٧ ، وقتل معه من أصحابه هُذَيْل بن
الصَّمِيل بن حاتم ، ونفي أخاه الوليد بن معاوية والد المغيرة المذكور إلى العدو بماله
وولده وأهله .

وفي « المسهب » حدث بعضُ موالى عبد الرحمن الخاصين به أنه دخل على

الداخل إثر قتله ابن أخيه المغيرة المذكور ، وهو مُطَرِّق شديد الغم ، فرفع رأسه إلى وقال : ما عجبى إلا من هؤلاء القوم ، سَعَيْنَا فيما يَضْجَعُهُمْ في ^(١) مهَادِ الأَمْنِ ^{عبدالرحمن} ^{يقتل ابن أخيه} والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ، ويسر الله تعالى أسبابه أقبلوا علينا بالسيوف ، ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به حتى أمنوا ودرّت عليهم أخلافُ النعم هَزُّوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم النعم إذ أطلعنا على عَوْرَاتِهِمْ ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدّى ذلك إلى أن ساء ظننا في البرى منهم ، وساء أيضا ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه ، وإن أشد ما على في ذلك أخى والد هذا المخذول ، فكيف تطيب لى نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه؟! أم كيف يجتمع بصرى مع بصره؟! اخرج له الساعة فاعتذر إليه ، وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها إليه ، واعزم عليه في الخروج عنى من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بر العُدوة .

قال : فلما وصلت إلى أخيه فوجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء ، فأنسته وعرفته ، ودفعت له المال ، وأبلغته الكلام ، فتأوّه وقال : إن المشؤم لا يكون بليغا في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه ، وهذا الولد العاق الذى سعى في حَتْفِهِ قد سرى ما سعى فيه إلى رَجُلٍ طَلَبَ العافية ، وقع بكِسْرٍ بيت في كَنَفٍ من يحمل عنه معرة الزمان وكلّه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لا مرد لما حكم به وقضاه ، ثم ذكر أنه أخذ في الحركة إلى بر العُدوة .

قال : ورجعت إلى الأمير فأعلمته بقوله ، فقال : إنه نطق بالحق ، ولكن لا يخذعنى بهذا القول عما فى نفسه ، والله لو قدر أن يشرب من دمي ماعف عنه

(١) سَعَيْنَا فيما يَضْجَعُهُمْ في مهَادِ الأَمْنِ : هذه العبارة كناية عن أنه مهد لهم الأمور ومكنهم من الاستقرار والراحة ، بعد القلق في البلاد وامتلأ قلوبهم خوفا

لحظة ، فالحمد لله الذى أظهرنا عليهم بمانويناه فيهم ، وأذلهم بما نوهه فينا .
واعلم أنه دخل الأندلس أيام الداخل من بنى مروان وغيرهم من بنى أمية
جماعة كثيرون سرد أسماءهم غير واحد من المؤرخين ، وذكر أعقابهم بالأندلس ،
ومنهم جزى بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز ، وسيأتى قريباً .

الثائرون على
عبد الرحمن وقد ثار على عبد الرحمن الداخل من أعيان الغرب وغيرهم جماعة كثيرون
ظفره الله تعالى بهم ، وقد سبق ذكر بعضهم ، ومنهم الدعى الفاطمى البربرى
بشنت مرية فأعياد الداخل أمره ، وطال شره سنين متوالية ، إلى أن فتك به بعض
أصحابه فقتله .

ومنهم حيوة بن ملابس الحضرمى رئيس إشبيلية ، وعبد الغفار بن حميد
اليحصبي رئيس لبلة ، وعمر بن طالوت رئيس باجة ، اجتمعوا وتوجهوا نحو قرطبة
يطلبون دم رئيس اليمانية أبى الصباح ، فقتلوا فى هزيمة عظيمة ، وقيل : نجوا
بالفرار ، فأمنهم الداخل .

وفى سنة ١٥٧ ثار بسر قسطة الحسين بن يحيى بن سعد ^(١) بن عبادة
الخزرجى ، وشاعيه سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبي رأس القن ، وآل أمرها إلى
أن فتك الحسين بسليمان ، وقتل الداخل الحسين كأمراً .

وفى سنة ١٦٣ ثار الدماح بن عبد العزيز الكنانى بالجزيرة الخضراء ،
فتوجه له عبد الرحمن الداخل ، ففر فى البحر إلى المشرق .

قال ابن حيان : كان مولد عبد الرحمن الداخل سنة ١١٣ ، وقيل : فى التى
قبلها ، بالعلياء من تدمر ، وقيل : بدير حنا ^(٢) من دمشق ، وبها توفى أبوه معاوية
فى حياة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، وكان قدر شحه للخلافة . وبقبر معاوية

(١) فى ب « الحسين بن يحيى بن سعيد بن عبادة »

(٢) رجحنا فى تعليقاتنا على الجزء الأول (ص ٣١٢) أن « دير حنا » محرف

عن « دير خالد » وبيننا وجه هذا الترجيح ، فارجع إليه هناك

المذكور استجار الكميّة الشاعر حين أهدر^(١) هشام دمه ، وتوفى الداخل لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧١ ، وهو ابن سبع وخمسين سنة وأربعة أشهر ، وقيل : اثنتان وستون سنة ، ودفن بالقصر من قرطبة ، وصلى عليه ابنه عبد الله .

وكان منصوراً مؤيداً مُظَفَّرًا على أعدائه ، وقد سردنا من ذلك جملة ، حتى قال بعضهم : إن الراية التي عقدت له بالأندلس حين دخلها لم تُهزَم قط ، وإن الوهن^(٢) ما ظهر في ملك بني أمية إلا بعد ذهاب تلك الراية ، قال أكثر هذا مؤرخ الأندلس الثبّت الثقة أبو مروان بن حيّان ، رحمه الله تعالى !

ولا بأس أن نورد زيادة على ما سلف وإن تكرر بعض ذلك ، فنقول : قال بعض المؤرخين من أهل المغرب بعد كلام ابن حيان الذي قدمنا ذكره ، ما نصه : كان الإمام عبد الرحمن الداخل راجح العقل ، راسخ الحلم ، واسع العلم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، لم ترفع له قط راية على عدوّ إلا هزمه ، ولا بلد إلا فتحه ، شجاعاً ، مقداماً ، شديد الحذر ، قليل الطمأنينة ، لا يُخْلِد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة^(٣) ، ولا يكل الأمر إلى غيره ، كثير الكرم ، عظيم السياسة ، يلبس البياض ، ويعتم به ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويصلى بالناس في الجمع والأعياد ، ويخطب بنفسه ، جَنَد الأجناد ، وعقد الرايات ، واتخذ الحجاب والكتاب ، وبلغت جنوده مائة ألف فارس .

وملخص دخوله الأندلس أنه لما اشتدّ الطالب على فلّ بن أمية بالشرق من وراثي ملكهم بنى العباس خرج مستتراً إلى مصر ، فاشتد الطالب على مثله ، فاحتال حتى وصل برقة ، ثم لم يزل متوغلاً في سيره إلى أن بلغ المغرب الأقصى ، ونزل بنفزة^(٤) وهم أخواله ، فأقام عندهم أياماً ثم ارتحل إلى مُغيلة بالساحل ، فأرسل مولاه

(١) أهدر دمه : جعله مباحاً لاعتقوبة على من أراقه

(٢) الوهن : الضعف (٣) الدعة - بفتح الدال والعين - السكون والاستقرار

(٤) في ب « بنفزة » براء مهملة .

بدرا بكتابه إلى مواليتهم بالأندلس عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد وتمام بن علقمة وغيرهم ، فأجابوه واشتروا مركبا وجهازه بما يحتاج إليه ، وكان الذي اشتراه عبيد الله بن عثمان ، وأركب فيه بدرا ، وأعطاه خمسمائة دينار برسم النفقة ، وركب معه علقمة بن تمام بن علقمة ، وبينما هو يتوضأ لصلاة المغرب على الساحل إذ نظر إلى المركب في لجة البحر مقبلا حتى أرسى أمامه ، فخرج إليه بدر ساجحا ، فبشره بما تم له بالأندلس ، وبما اجتمع عليه الأمويون والموالي ، ثم خرج إليه تمام ومن معه في المركب فقال له : ما اسمك وما كنييتك ؟ فقال : أسمى تمام ، وكنيتي أبو غالب ، فقال : تم أمرنا وغلبنا عدونا إن شاء الله تعالى ، ثم ركبوا المركب معه فنزل بالمنكب ، وذلك غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ .

فلما اتصل خبر جَوَازِهِ^(١) بالأموية أتاه عبيد الله بن عثمان وجماعة فتلقوه بالإعظام والإكرام ، وكان وقت العصر ، فصلى بهم العصر ، وركبوا معه إلى قرية طرش من كور البيرة فنزل بها ، وأتاه بها جماعة من وجوه الموالى وبعض العرب ، فبايعوه وكان من أمره ما يذكر ، وقيل : إنه أقام بالبيرة حتى كمل من معه ستمائة فارس من موالى بنى أمية ووجوه العرب ، فخرج من البيرة إلى كورة رية فدخلت في جماعته ثم بايعته أهلها وأجنادها ، ثم ارتحل إلى شذونه ثم إلى مُدَوَّر ، ثم سار إلى أشبيلية وقال بعضهم : لما أراد عبد الرحمن قصد قرطبة عند دخوله الأندلس من المشرق نزل بطشانة ، فأشاروا عليه أن يعقد له لواء^(٢) ، فجاؤا بعمامة وقناة ، فسكرهوا أن يُمِيلُوا القناة تطيرا ، فأقاموها بين شجرتين من الزيتون متجاورتين ، وصعد رجل على فرع إحداها فعقد اللواء والقناة قائمة ، وتبرك هو وولده بهذا اللواء^(٣) ، فكان بعد

(١) جوازه : أراد انتقاله من شاطئ إفريقية إلى شاطئ الأندلس

(٢) اللواء : الراية ، والعلم

أَنْ يَلِيَّ لَا تُحَلُّ مِنْهُ الْعَقْدَةُ^(١) التي عقدت أولاً ، بل تعقد فوقها الأولوية الجدد ، وهي مستكنة تحتها ، ولم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة إلى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وقيل : إلى ابنه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، فاجتمع الوزراء على تجديد اللواء ، فلما رأوا تحت اللواء أسماً لا خَلَقَهُ^(٢) ملفوفة معقدة جهلوا فاسترذلوها ، وأمروا بحملها ونَبَذُهَا^(٣) ، وجددوا غيرها ، وكان جهور بن يوسف بن بخت شيخهم غائباً ، فحضر في اليوم الثاني ، وطولع بالقصة ، فأنكرها أشد إنكار ، وساء ما فعلوه ، وقال : إن جهلتم شأن تلك الأخلاق^(٤) فكان ينبغي أن تتوقفوا عن نبذها^(٥) حتى تسألوا المشايخ وتنفكروا في أمرها ، وخبرهم خبرها ، فتطلبوا تلك الأخلاق^(٦) فلم توجد ، ويقال كما قال ابن حيان : إنه لم يزل يعرف الوهن في ملك بني أمية بالأندلس من ذلك اليوم ، وقد كان الذي عقده أولاً عبد الله بن خالد من موالى بني أمية ، وكان والده خالد عقد لواء مروان بن الحكم جد عبد الرحمن الأعلى لما اجتمع عليه بنو أمية وبنو كلب بعد انقراض دولة بني حَرْب^(٧) على قتال الضحاك بن قيس الفهري يوم مَرْج رَاهِطٍ ، فانتصر على الضحاك وقتله ، ولما عرف الأمير بقصة اللواء حزن أشد حزن ، وانفتقت عليه إثر ذلك الفُتُوقُ العظام ، وكانوا يرون أنها جرت بسبب اللواء لأنه لم ينهزم قط جيش كان تحتها ، على ما اقتضته حكمة الله التي لا تتوصل إليها الأفسار ، وتولى حمل هذا اللواء لعبد الرحمن الداخل أبو سليمان داود الأنصاري ، ولم يزل يحمله ولده من بعده إلى أيام محمد بن عبد الرحمن . ولمَّا تَلَاقي عبد الرحمن الداخل مع أمير الأندلس يوسف الفهري بالقرب من قُرْطُبة وتراسلا ، فخادعه يومين آخرها يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائة ، أظهر

(١) يريد الرقعة التي عقدوها على القناة أول الأمر .

(٢) الأسما : البالية ، وكذلك الأخلاق (٣) نبذها : طرحها ورمىها

(٤) يريد بني حرب أبناء أبي سفيان الذين أولهم معاوية

عبدُ الرحمن قبولَ الصلح ، فبات الناس على ذلك ليلة العيد ، وكان قد أسرَ خلافَ ما أظهر ، واستعد للحرب ، ولما أصبح يوم الأضحى لم يَنْشَبْ^(١) أن غشيت الخيلُ ، ووكلَ عبد الرحمن بخالد بن زيد الكاتب رسولَ يوسف جماعةً ، وأمرهم إن كانت الدائرة عليهم أن يضربوا عنقه ، وإلا فلا ، فكان خالد يقول : ما كان شيء في ذلك الوقت أحبَّ إلى من غلبة عبد الرحمن الداخل عدو صاحبي ، وركب عبد الرحمن جواداً ، فقالت اليمانية الذين أعانوه : هذا فتى حديثُ السن تحتَه جواد وما نأمن أول رَدْعَةٍ^(٢) يردعها أن يطير منهزماً على جواده ويدعنا ، فأتى عبد الرحمن أحدُ مواليه فأخبره بمقاتلتهم ، فدعا أبا الصباح ، وكان له بغل أمهيب يسميه الكوكب ، فقال له : إن فرسى هذا قلق تحتى ، لا يمكننى من الرمي ، فقدم إلى بغلك الحمود أركبه ، فقدمه ، فلما ركب اطمأن أصحابه ، وقال عبد الرحمن لأصحابه : أى يوم هذا ؟ قالوا : الخميس يوم عرفة ، فقال : فالأضحى غداً يوم الجمعة ، والمتزاحفان أموى وفهري ، والجندان قيس ويمن ، قد تقابل الأشكال جدا ، وأرجو أنه أخو يوم مَرَجٍ راهط ، فأبشروا وجدوا ، فذكرهم يوم مرج راهط الذى كانت فيه الوقعة بين جده مروان بن الحكم وبين الضحاك بن قيس الفهري ، وكانت يوم الجمعة ويوم أضحى ، فدارت الدائرة لمروان على الضحاك ، فقتل الضحاك ، وقتل معه سبعون ألفاً من قبائل قيس وأحلافهم ، وقيل : إنه لم يحضر مَرَجٍ راهط من قيس مع مروان غير ثلاثة نفر : عبد الرحمن بن مسعدة الفزاري ، وابن هبيرة الحاربي ، وصالح الغنوى ، وكذا لم يحضر مع عبد الرحمن الداخل يوم الصّارة غربى قرطبة من قيس غير ثلاثة : جابر بن العلاء بن شهاب ، والحصين ابن الدجن ، العقيليان ، وهلال بن الطفيل العبدى ، وكان الظفر لعبد الرحمن ،

(١) لم ينشب : لم يلبث ، وهذا اللفظ عند العرب يدل على السرعة

(٢) الأصل في هذه الكلمة قولهم « ردع السهم » من باب فتح - إذا ضربه

بنصله الأرض ليثبت في سنخه ، وذلك إذا كان قلعا ، يريد أول هجمة تقع بينه وبين عدوه

وانهزم يوسف ، وصبر الصَّمِيل بن حاتم بعده معذرا وعشيرته يحفونه ، فلما خاف انهزامهم عنه تحول على بغله الأشهب معارضةً لعبد الرحمن الداخل ، فمر به أبو عطاء فقال له : يا أبا جوشن ، احتسب نفسك ، فان للأشباه أشباها : أموى بأموى ، وفهرى بفهرى ، وكلبي بكلي ، ويوم أضحي بيوم أضحي ، ويمنى بقيسى ، والله إني لأحسب هذا اليوم بمثل مَرَجٍ رَاهِطٍ سواء ، فقال له الصمیل : كبرت وكبر علمك ، الآن تنجلي الغماء ، وسَحْرُكَ منتفخ^(١) ، فأنثنى أبو عطاء لوجْهه منقلبا ، وانهزم الصَّمِيل ، وملك عبد الرحمن قُرْطُبَةَ .

نسب يوسف
الفهرى

ويوسف الفهرى هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى ، بآني القيروان ، وأمير معاوية على إفريقية والمغرب ، وهو مشهور . وأما الصَّمِيل فهو ابن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن ، وقيل : الصمیل بن حاتم ابن عمرو بن جندع بن شمر بن ذى الجوشن ، كان جده شمر من أشرف الكوفة وهو أحد قتلة الحسين رضى الله تعالى عنه ! ودخل الصمیل الأندلس حين دخل كُثُوم بن عياض المغرب غازيا ، وساد بها ، وكان شاعراً كثير السكر أمياً لا يكتب ، ومع ذلك فأنتهت إليه في زمانه رئاسة العرب بالأندلس ، وكان أميرها يوسف الفهرى كالمغلوب معه ، وكانت ولاية الفهرى الأندلس سنة تسع وعشرين ومائة ، فدانت له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه كما مر انتقل سلطانها إلى بنى أمية ، واستفحل مُلكهم بها إلى بعد الأربعائة ، ثم انتثر سلكهم ، وباد ملكهم ، كما وقع لغيرهم من الدول في القرون السالفة ، سُنَّةَ الله التي قد خلت في عبادته وكانت مدة الأمراء قبل عبد الرحمن الداخل من يوم فتحت الأندلس إلى هزيمة يوسف الفهرى والصمیل ستاً وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام ، لأن

(١) السحر - بفتح السين وسكون الحاء المهملة - الرئة ، ويقال « انتفخ سحر فلان » ومعناه الحرفي اتسعت رئته وانتفخ بها صدره ، وهذه كناية عن أنه قد امتلأ زهواً وعجباً بنفسه .

الفتح كان حسبا تقدم لحمس خَلَوْنَ من شَوَّال سنة اثنتين وتسعين ، وهزيمة يوسف يوم الأضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ، والله غالبٌ على أمره .

وحكى أن عبد الرحمن بن معاوية دخل يوما على جده هشام ، وعنده أخوه مَسْلَمَةُ بن عبد الملك ، وكان عبد الرحمن إذ ذاك صبيا ، فأمر هشام أن يُنَعَّى عنه ، فقال له مَسْلَمَةُ : دعه يأمر المؤمنين ، وضمَّه إليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذا صاحب بنى أمية ، ووزرهم ^(١) عند زوال ملكهم ، فاستَوْص به خيرا ، قال : فلم أزل أعرف مزيةً من جدى من ذلك الوقت .

وكان الداخل يقاس بأبى جعفر المنصور في عزمه وشدته وضبط المملكة ، وواقفه في أن أم كل منهما بربرية ، وأن كلا منهما قتل ابن أخيه ، إذ قتل المنصور ابن السفاح ، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية .

ومن شعر عبد الرحمن وقد رأى نخلة برُصافته :

تبدَّتْ لنا وَسْطُ الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرُّب والنوى وطول اكتئابى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سَقَّتْكَ غَوَادى المزن فى المنتأى الذى يصحُّ ويستمرى المساكين بالوَبْلِ

وكان نقش خاتمه « بالله يثق عبد الرحمن ، وبه يعتصم » وأشاع سنة ١٦٣ الرحيل إلى الشام لانزعاجها من بنى العباس ، وكاتب جماعة من أهل بته ومواليه وشيعته ، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس فى طائفة ، ويذهب بعامة مَنْ أطاعه ، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسن الأنصارى الذى انْتَزَى ^(٢) عليه

نبوءة مسلمة
أبى عبد الملك
لعبد الرحمن

موازنة بين
عبد الرحمن
والمنصور
العباسى

(١) الوزر - بفتح الواو والزأى جميعاً - الملجأ والحصن

(٢) انتزى عليه : ثار ، ويقال « فلان منتر إلى الشر » إذا كان وثابا إليه سوارا

بَسْرَقُطَّة ، فبطل ذلك العزم .

ومن شعر عبد الرحمن أيضا قوله يتشوق إلى معاهد الشام :
أيها الراكب الميمم أرضى أفر مني بعض السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكه بأرض
قدّر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا فغسى باجتماعنا سوف يقضي
وترجمة الداخل طويلة ، وقد ذكر منها ما فيه مقنع ، انتهى . والله تعالى
الموفق للصواب .

وفي بنائه جامع قرطبة يقول بعضهم :

وأبرز في ذات الإله وجهه ثمانين ألفاً من الجُيُنِ وعَسَجِدِ
وأنفقها في مسجد زانه التقى وقرّ به دينُ النبي محمد
تري الذهب الوهاج بين سموكه يلوح كليلح البارق المتوقد

أبو الأشعث
الكلبي

ومن الوافدين على الأندلس أبو الأشعث الكلبي .

دخل الأندلس ، وكان شيخاً مُسنّاً يروى عن أمه عن عائشة رضي الله تعالى
عنها ! إلا أنه كان مُندراً^(١) صاحب دُعابة ، وكان مختصاً بعبد الرحمن بن معاوية ،
وله منه مكانة لطيفة يدلُّ بها عليه^(٢) ، ولما توفي حبيب بن عبد الملك بن عمر بن
الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكانت له من عبد الرحمن خاصة لم تكن لأحد
من أهل بيته ، جعل عبد الرحمن يبكي ويحتهد في الدعاء والاستغفار لحبيب ، وكان
إلى جنبه أبو الأشعث هذا قائماً ، وكانت له دالة عليه ودُعابة يحتملها منه ، فأقبل
عند استقباره كالخطاطب المتوفى علانية يقول : يا أبا سليمان ، لقد نزلت بحفرة قلماً

(١) مندرا : يأتي بالادر من القول أو الفعل ، تقول «أندر الرجل» إذا فعل ذلك

(٢) يدل بها عليه : يعني أنه كان مجترئاً عليه ثقة بمحبته وارتكانا إلى عظيم منزلته .

يغنى عنك فيها بكاء الخليفة عبد الرحمن بعده ، فأعرض عنه عبد الرحمن ، وقد كاد التسم يغلبه ، هكذا ذكره ابن حبان رحمه الله تعالى في «المقتبس» ، ونقله عنه الحافظ ابن الأبار .

جزى بن عبد العزيز بن مروان
ومن الداخلين إلى الأندلس جُزَيُّ بن عبد العزيز ، أخو عمر بن عبد العزيز ،
رضى الله تعالى عنه !

دخل الأندلس ، ومات في مدة الداخل ، وكان من أولياء الله تعالى مقتنياً^(١)
سبيل أخيه عمر بن عبد العزيز ، رحمهما الله تعالى ! .

ومنهم بكر بن سواد بن ثمامة ، الجذامي .
بكر بن سواد بن ثمامة الجذامي

ويكنى أبا ثمامة ، وجده صحابي ، وكان بكر هذا فقيهاً كبيراً من التابعين ،
روى عن جماعة من الصحابة كعبد الله بن عمرو بن العاص وقيس بن سعد بن
عبادة وسهل بن سعد الساعدي وسفيان بن وهب الخولاني وحَبَّان بن سمح الصَّدَائِي ،
وقيد اسمه الدار قطنى رحمه الله تعالى حَبَّان - بكسر الحاء المهملة ، وبياء معجمة
بواحدة - ونقله الأمير كذلك ، وهو ممن وفَدَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وشهد فتح مصر ، قال ابن يونس : ويقال فيه حبان بالكسر وحَبَّان بالفتح أصح
اتتهى ، وضبطه بعضهم بالياء المثناة تحت

رجع - ومن روى عنه بكر من الصحابة أبو ثور الفهمي ، وأبو عميرة المزني ،
وروى عن جماعة من التابعين أيضاً كسعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن
وعُروة بن الزبير وجماعة سواهم يكثر عددهم ويطول سرُّدهم منهم ربيعة بن قيس
الحلي وأبو عبد الرحمن الحُبَلِي وزِيَاد بن نعيم الحضرمي وسفيان بن هاني الجيشاني
وسعيد بن شمر السبائي وعبد الله بن المستورد بن شداد الفهري وعبد الرحمن بن أوس

(١) مقتنيا سبيله : مقتدياً بما كان يصنعه ، ومتبعاً الطريق الذي كان يسلكه .

المزني وزيادة بن ثعلبة البَلَوِي وشيبان بن أمية القتباني وعامر بن ذريح الحميري وعير بن الفيض اللخمي وأبو حمزة الخولاني وعياض بن فروخ المعافري ومسلم بن مخشى المدبجي وهاني بن معاوية الصدفى وغيرهم ممن اشتمل على ذكرهم التاريخان لابن عبد الحكم وابن يونس .

ومن روى عن بكر المذكور عبد الله بن لهيعة وعمر بن الحارث وجعفر بن ربيعة وأبو زُرْعَة بن عبد الحكم الإفريقى وغيرهم .

قال ابن يونس : توفي بإفريقية في خلافة هشام بن عبد الملك ، وقيل : بل غرق في سَجَاز الأندلس ، سنة ثمان وعشرين ومائة : قال : وجده ثُمَامَة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله بمصر حديث رواه عمرو بن الحارث

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد القيرواني المالكي في تاريخه المسمى برياض النفوس وقد ذكر بكر هذا : إنه كان أحد العشرة التابعين ^(١) ، يعنى الموجهين إلى إفريقية من قبل عمر بن عبد العزيز في خلافته ليفقهوا أهل إفريقية ويعلموهم أمر دينهم ، قال : وأغرب بحديث عن عقبة بن عامر ، لم يروه غيره فيما علمت ، حدث عبد الله بن لهيعة عنه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان رأس مائتين فلا تأمر بمعروف ، ولا تنه عن منكر ، وعليك بخاتمة نفسك » وحكى المالكي أيضا عن أبي سعيد بن يونس قال : كان فقيهاً مفتياً ، سكن القيروان ، وكانت وفاته كما تقدم ، وذكره الحميدى في الداخلين إلى الأندلس ، ولم يذكره ابن القرضى .

ومنهم زريق بن حكيم ، أحد المعدودين في الداخلين إلى الأندلس
ذكره أبو الحسن بن النعمة عن أبي المطرف عبد الرحمن بن يوسف الرفاء

(١) انظر الجزء الأول (ص ٢٦٠) ثم انظر الجزء الرابع (ص ٨ و ١٣)

القرطبي ، وحكى أنه كتب ذلك من خطه ، وسماه مع جماعة منهم حبان بن أبي جبلة وعلى بن أبي رباح وأبو عبد الرحمن الحُبلي وحنش بن عبد الله الصنعاني ومعاوية بن صالح وزيد بن الحباب العكلى ، وانتهى عددهم بزريق هذا سبعة ، ولم يذكره ابن القرضى ولا غيره ، قاله الحافظ أبو عبد الله القضاى .

ومنهم زيد بن قاصد السكسكى

زيد بن قاصد
السكسكى

قال ابن الأبار : وهو تابعى ، دخل الأندلس وحضر فَتْحَهَا ، وأصله من مصر ، يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه ! وروى عنه عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم الإفريقى ، ذكره يعقوب بن سفيان ، وأورد له حديثاً من كتاب الحميدى ، انتهى .

ومنهم زرة بن روح الشامى

زرة بن روح
الشامى

دخل الأندلس ، وَحَدَّثَ عنه ابنه مسامة بن زرة بحكاية عن القاضى مهاجر ابن نوفل .

ومنهم محمد بن أوس بن ثابت ، الأنصارى

محمد بن أوس
ابن ثابت
الأنصارى

قال ابن الأبار : تابعى ، دخل الأندلس ، يروى عن أبي هريرة ، قرأته بخط ابن حبيش ، وقال أبوسعيد بن يونس مؤرخ مصر : إنه يروى عنه الحارث بن يزيد ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان ، وكان غزاً المغرب والأندلس مع موسى بن نُصَيْر ، ويروى عن أبي هريرة رضى الله عنه ! وقال الحميدى : إنه كان من أهل الدين والفضل معروفًا بالثق ، ولى بحر إفريقية سنة ثلاث وتسعين ، وغزاً المغرب والأندلس مع موسى ابن نُصَيْر ، فيما حكاه ابن يونس صاحب تاريخ مصر ، وكان على بحر تونس سنة ثنتين ومائة على ماحكاه عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، ولما قتل يزيد بن أبي مسلم والى إفريقية اجتمع رأى أهلها عليه ، فولوه أمرهم ، وذلك فى خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان ، إلى أن ولى بشر بن صَفْوَان السكسكى إفريقية ، وكان على

عبد الملك بن
عمر بن مروان
الأموي

مصر فخرج إليها واستخلف أخاه حفظة ، انتهى .

ومنها عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم ، الأموي

فر من الشام خوفاً من المسودة ، فر بمصر ومضى إلى الأندلس ، وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فأكرمه ونوّه به ^(١) ، وولاه إشبيلية لأنه كان قُعدد ^(٢) بني أمية ، ثم إنه لما وجد الداخل يدعو لأبي جعفر المنصور أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة ، وذكّره بسوء صنيع بني العباس ببني أمية ، فتوقف عبد الرحمن في ذلك ، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له ، وذلك أنه قال له حين امتنع من ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي ، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة بالمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر ، ولما زحف أهل غرب الأندلس نحو قرطبة لحرب الأمير عبد الرحمن أنهض إليهم عبد الملك هذا ، فهض في معظم الجيش ، وقدم ابنه أمية أمامه في أكثر العساكر ، فخالطهم أمية ، فوجد فيهم قوة ، فخاف الفضيحة معهم ، فأنحاز منهمزماً إلى أبيه ، فلما جاءه سَقَطَ في يده ، وقال له : ما حالك على أن استخففت بي وجرت الناس على والعدو ؟ إن كنت قد فررت من الموت فقد جئت إليه ، فأمر بضرب عنقه ، وجمع أهل بيته وخاصته وقال لهم : طردنا من الشرق إلى أقصى هذا الصقع ، ونحسد على لقمة تبقى الرّمق ، اكسروا جفون السيوف ، فالموت أولى أو الظفر ، ففعلوا وحلوا ، وتقدمهم ، فهزم اليمانية وأهل إشبيلية ، ولم تقم بعدها لليمانية قائمة ، وقتل بين الفريقين ثلاثون ألفاً ، وجرح عبد الملك ، فأتاه عبد الرحمن وجُرَّحُه يجرى دماً وسيفه يقطر دماً ، وقد لصقت يده بقائم سيفه ، فقَبَلَ بين عينيه ، وجَزَّاه خيراً ، وقال له : يا ابن عم ، قد أنكحت ابني وولي عهدي هشاماً ابنتك فلانة ، وأعطيتها كذا وكذا ، وأعطيتك

(١) نوه به : رفع ذكره وعظم أمره

(٢) يقال « فلان قعد دبنى فلان » إذا كان أقربهم أباً إلى جدهم الأعلى ، يعنى

أنه في طبقة من طبقات النسب أعلى من طبقاتهم جميعاً

كذا ، ولأولادك كذا ، وأقطعتك وإياهم كذا ، ووليتكم الوزارة .
ومن شعره لما نظر نخلة منفردة بإشبيلية فتذكر وطنه بالشام ، وقال :
يا نَخْلَ أنت فريدة مثلى في الأرض نائية عن الأهل ^(١)
تبكى وهل تبكى مكمة عجماء لم تُجَبَّلْ على جبل
ولو أنها عَقَلَتْ إذا لبكت ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت وأخرجني بغضى بنى العباس عن أهلى

ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس هاشم بن الحسين بن إبراهيم بن جعفر
الحسين الطالبي ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين !
ونزل حين دخوله بلبلة ، وتعرف منازلهم فيها بمنازل الهاشمي ، وذكره أمير
المؤمنين الحكم المستنصر في كتابه « أنساب الطالبيين والعلميين القادمين إلى
المغرب » .

عبد الله
ابن المغيرة ،
الكناني
ومن الداخلين إلى الأندلس عبد الله ابن المغيرة ، الكناني ، حليف بنى
عبد الدار .

سماه أبو محمد الأصيلي الفقيه في الداخلين الأندلس من التابعين ، حكى ذلك
عنه أبو القاسم بن بشكوال في مجموعه المسمى « بالتنبية والتعيين » قال ابن الأبار :
وما أراه يتابع عليه ، وذكره أبو سعيد بن يونس من أهل إفريقية ، انتهى ،
وذكر أنه يروى عن سفيان بن وهب أنخولاني .

عبد الله المعمر
لحق بعض التابعين
ومنهم عبد الله المعمر الذي طرأ على الأندلس في آخر الزمان ، وكان يزعم أنه

(١) نخل : مرخم نخلة ، وليس هو باسم جنسى جمعى ، بدليل خطاب المفردة المؤنثة في
قوله « أنت فريدة » ونائية : بعيدة ، يقول : إنها نبتت في غير مكان النخل

قال ابن الأبار : روى عنه أبو محمد أسد الجهني ، ذكر ذلك القيسي ، وفيه عندي نظر ، انتهى .

ومنهم أبو عمرو عبد الرحمن بن شماسه بن ذئب ، المهري

أبو عمرو
عبد الرحمن
ابن شماسه
المهري

روى عن أبي ذر ، وقيل : عن أبي نضرة عن أبي ذر ، وعائشة وعمرو بن العاص وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وأبي نضرة الغفاري وعقبة بن عامر الجهني وعوف ابن مالك الأشجعي ، ومعاوية بن خديج^(١) ومسلمة بن مخلد وأبي رهم ، ذكره ابن يونس في تاريخ مصر ، وسماه ابن بشكوال في الداخلين الأندلس من التابعين ، وروى ذلك عن الحُمَيدى ، قاله ابن الأبار ، وقال ابن يونس : وآخر من حدث عنه بمصر حرملة بن عمران .

عبد الله بن
سعيد بن عمار
بن ياسر

ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر ، رضي الله تعالى عنه ! .

وقد ذكره ابن حيان في مقتبسه ، وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري كتب له أن يدافع عبد الرحمن المرواني الداخل للأندلس ، وكان المذكور إذ ذاك أميراً على اليمانية من جند دمشق ، وإنما رَكَنَ إليه في محاربة عبد الرحمن لما بين بني عمار وبني أمية من الثأر بسبب قتل عمار بصِيفَيْن ، وكان عمار رضي الله تعالى عنه من شيعة على كرم الله وجهه

وهذا عبد الله بن سعيد هو جد بني سعيد أصحاب القلعة الذين منهم عدة رؤساء وأمرأء وكتاب وشعراء ، ومنهم صاحب « المغرب » وغير واحد ممن عرفنا به في هذا الكتاب ، ومن مشاهيرهم أبو بكر محمد بن سعيد بن خلف بن سعيد صاحب أعمال غَرْناطة في مدة المُلُكَيْنِ ، قال : وهو القائل يفخر :

(١) « ابن خديج » وقع هنا بالحاء المهملة على الصواب في جميع الأصول ، وانظر الهامشة رقم ٢ في ص ٦ من هذا الجزء .

إن لم أكن للعلاء أهلاً بما تراه فمن يَكُونُ
فكل ما أبتغيه دوني ولي على هَمَّتِي دِيُونُ
ومن يَرُمُّ ما يقلُّ عنه فذاك من فعله جنون
فرع بأفق السماء ساءم وأصله راسخٌ مَكِينُ

وقوله :

الله يعلم أني أحبُّ كسب المعالي
* وإنما أتَوَانِي عنها لسوء المآل
تحتاج للكُدِّ والبذل ل واصطناع الرجال
دَعَّ كل من شاء يسمو لها بكل احتيال
فخالهم في انعكاس بها وحالي حالي

وتراجعهم واسعة ، وقد بسطت في « المسهب » و « المغرب » وغيرها ، وقد قدمنا في الباب قبل هذا من أخبار بني سعيد هؤلاء ما يُثْلَج الصَّدْرُ فليراجع .

أبو زكريا ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن
عبد الرحيم بن نصر بن إسحاق بن عمرو بن مزاحم بن غياث ، التميمي ، البخاري ، الحافظ ،
أحمد ، البخاري تزيل مصر .
الحافظ

سمع ببخارى بلده من إبراهيم بن محمد بن يزداد وأخيه أحمد ، وكانا يرويان
معاً عن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي وعن أبي الفضل السليمانى ببيكند (١) ، وأبى
عبد الله محمد بن أحمد المعروف بغنجار ، وأبى يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبى

(١) بيكند - بكسر الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الكاف - بلدة بين بخارى
وجيحون على مرحلة من بخارى ، لها ذكر في الفتوح ، وكانت بلدة كبيرة حسنة
كثيرة العلماء ، خربت منذ زمان ، وكل بلدة من بلاد ما وراء النهر لها مزارع وقرى
إلا بيكند وحدها ، غير أن بها من الرباطات مالا يعلم ببلاد ما وراء النهر أكثر منها ،
قاله ياقوت نقله عن صاحب كتاب الأقاليم .

وأقرانه باليمن ، وأبي القاسم تمام بن محمد الرازي بدمشق ، وابن أبي كامل بأطرابلس الشام ، وأبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ بمصر ، وله رواية عن أبي نصر الكلابة وأبي عبد الله الحاكم وأبي بكر بن فورك المتكلم وأبي العباس بن الحاج الإشبيلي وأبي القاسم علي بن أحمد الخزاعي صاحب الهيثم بن كليب وأبي الفضل العباس بن محمد الحداد التنيسي وأبي الفتح محمد بن إبراهيم بن الجحدري وأبي بكر محمد بن داود العسقلاني وهلال الحفار وصدة بن محمد بن مروان الدمشقي ، ولقي بإفريقية العابد ولي الله سيدي محرز بن خلف التيمي مولاهم وصحبه ، وقال : لقد هبته يوم لقيته هئية لم أجدها لأحد في نفسى من الناس ، ودخل الأندلس وبلاد المغرب ، وكتب بها عن شيوخها ، ولم يزل يكتب إلى أن مات حتى كتب عن دونه ، وله رسالة الرحلة وأسبابها وقول لا إله إلا الله وثوابها ، فسمع منه أبو عبد الله الرازي وذكره في مشيخته ، قال الحافظ ابن الأبار : ومنها نقلت اسمه وتعرفت دخوله الأندلس ، وحدّث عنه هو وجماعة منهم أبو مروان الطنبلي ، وقال : هو من الرحالين في الآفاق ، أخبرني أنه يحدّث عن مئين من أهل الحديث ، وأبو عبد الله الحميدي وأبو بكر الطائفي وأبو عبد الله بن منصور الحضرمي وأبو سعيد الرهاوي وأبو محمد جعفر بن محمد السراج وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي وأبو الحسن بن مشرف الأنطاكي وأبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي وأبو محمد شعيب ابن سبعون الطرطوشي وأبو بكر بن نعمة العابد وأبو الحسن علي بن الحسين الموصلي الغراف وأبو عثمان سعد بن عبد الله الحيدري من شيوخ السلفي ، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السامي ، وأبو إسحاق الكلّاعي من شيوخ أبي بحر الأسدي ، وأبو محمد بن عتاب كتب إليه بجميع ما رواه ولم يعرف ذلك في حياته ، وسماه أبو الوليد بن الدباغ في الطبقة العاشرة من طبقات أئمة المحدثين من تأليفه ، مع أبي عمر بن عبد البر وأبي محمد بن حزم وأبي بكر بن ثابت الخطيب ، وذكره

أبو القاسم بن عساكر في تاريخه ، وقال : سمع بما وراء النهر والعراق ومصر واليمن والقيروان ، ثم سكن مصر ، وقدم دمشق قديماً وحدث بها ، وسمى جماعة كثيرة من الرواة عنه ، وحكى أنه قال : لى ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث أريد أن أمضى وأجىء بها ، قال : وسئل عن مولده ، فقال : فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، قال : وتوفى بالخوراء^(١) سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ! انتهى .

قلت : والذى أعتقده أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث ، وهو ثقة عدل ليس له مجازفة ، والحق أباج .

عبد الجبار بن
أبى سلمة
القرشى ،
الزهرى ، الفقيه

ومن دخل الأندلس من المشرق عبد الجبار بن أبى سلمة الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف ، القرشى ، الزهرى .

دخل الأندلس مع موسى بن نصير ، وكان على ميسرة معسكره ، ونزل بأجّة ثم بطليوس ، ومن نسله الزهريون الأشراف الذين كانوا بإشبيلية انتقلوا إلى سكنها قديماً ، هكذا فى خبر القاضى أبى الحسين الزهرى منهم عن أبى بكر بن خير وغيره ، قال ابن بشكوال فى مجموعته المسمى « بالنبية والتعيين » ، لم يدخل الأندلس من التابعين : عبد الجبار بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف من التابعين ، وقع ذكره فى كتاب شيخنا أبى الحسن بن مغيث ، انتهى .

قال ابن الأبار : ولم يزد على هذا ، انتهى .

أبو محمد
عبد الوهاب
ابن عبد الله
الطنطائى

ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق أبو محمد عبد الوهاب بن عبد الله ابن عبد الوهاب .

من أهل مصر ، وسكن بغداد ، ويعرف بالطنطائى قرية بمصر نسب إليها ،

(١) الخوراء - بفتح الحاء وسكون الواو - كورة من كور مصر القبلة فى آخر حدودها من جهة الحجاز ، وهى على البحر فى شرق القانم ، وقيل : الخوراء مرفأ سفن مصر إلى المدينة . قاله ياقوت .

روى عن أبي محمد الشارمساحي ، وتفقه به ، وقدم الأندلس رسولا بزعمه من عند الخليفة العباسي ، فسكن مُرْسِيَةَ ، ودرس بها ، وخرج منها سنة اثنتين وأربعين وستمائة بعد أن تملكها النصاري صلحا ، وأسر بناحية صقلية ، قال ابن الأبار : ثم بلغني أنه تخلص ولحق ببلده ، رحمه الله تعالى ! .

ومنهم عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب ، يكنى أبا القاسم .

أبو القاسم
عبد الخالق
ابن إبراهيم
الخطيب

قال ابن الأبار : لا أعرف موضعه من بلاد المشرق ، وكان أدبيا قويا العارضة ، مطبوع الشعر ، مديد النفس . ومن شعره من قصيدة صنعها في وقت رحلته إلى الأندلس قوله :

على النذل أو فاحل عقال الركائب وللضيم أو فاحل صدور الكتائب^(١)
فإما حياة بعد إدراك مُنِيَّةٍ وإما ممات تحت عز القواضب^(٢)
فما العيش في ظل الهوان بطيب وما الموت في سُبُلِ العلاء بعائب

أبو محمد
عبد اللطيف
بن أحمد

ومنهم أبو محمد عبد اللطيف بن أبي الطاهر أحمد بن محمد بن هبة الله ، الهاشمي ، الصدي .

الهاشمي
الصدي ، الترسى

من أهل بغداد ، يعرف بالترسي ، دخل الأندلس ، وكان يزعم أنه روى عن أبي الوقت السجزي وأبي الفرج [بن] الجوزي وغيرهما ، وله تأليف سماه « بالدليل في الطريق » من أقاويل أهل التحقيق « ذكره أبو عبد الله محمد بن سعيد الطراز وضعفه بعد ما سمع منه ، أخذ عنه وسمع منه هو وأبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم المغيلي وغيرهما ، وقال : ورد علينا غرناطة قريبا من سنة ثلاث عشرة وستمائة ،

(١) « على النذل » يتعلق بفعل محذوف ، والتقدير : أقم على النذل ، واحلل عقال الركائب : كناية عن السفر والانتقال ، والعقال - بكسر العين - ما تربط به الدابة .
(٢) منية - بضم فسكون - ما يتمناه الإنسان ، والقواضب : السيوف القاطعة ، واحدها قاضب ، وقوله « قضب يقضب » من باب ضرب - أي قطع .

وتوفى - عفا الله تعالى عنه - ! بإشبيلية قريباً من هذا التاريخ ، وقال فيه أبو القاسم بن فرقد : عبد اللطيف بن عبد الله ^(١) الهاشمي البغدادي النرسي ، منسوب إلى قرية من قرى بغداد ، سمع صحيح البخاري من أبي الوقت السجزي ، وروى عن غيره ، وله تأليف ، قال ابن الأبار : في التصوف ، منها تأليف في إباحة السماع ، قرأت عليه أكثره ، وقرأت عليه عوالي النقيب بمدينة إشبيلية بحومة القصر المبارك عام خمسة عشر وستائة .

أبو بكر
عمر بن عثمان
الخراساني
الباخرزي
الماليني

ومنهم أبو بكر عمر بن عثمان بن محمد بن أحمد ، الخراساني ، الباخرزي ، الماليني ، يكنى أبا بكر ، سمع من أبي الخير أحمد بن إسماعيل الطالقاني القزويني وأبي يعقوب يوسف بن عمر بن أحمد الخالدي الزنجاني ، وقدم الأندلس ، وحدث بصحيفتي الأشج وجعفر بن نسطور الرومي ، وسمع منه بقرآنطة ومُرسيّة وغيرها من بلاد الأندلس ، وحدث عنه أبو القاسم الملاحى ، وسمع منه بمآلقه أبو جعفر ابن عبد الجبار وأبو على بن هاشم في صفر سنة ٦٠٠ ، ومولده في ربيع الأول سنة ٥٦٠ ، انتهى من تكملة ابن الأبار .

قلت : ولا يخفى على مَنْ له بصر بعلم الحديث أن الأشج وابن نسطور لا يلتفت إليهما ، ويرحم الله تعالى السلفي الحافظ إذ قال :

حديث ابن نسطور وقيس ويعنم وبعد أشج الغرب ثم خراش
ونسخة دينار ونسخة تربة أبي هذبة القيسي شبه فراش
قال ابن عات : كان الحافظ السلفي إذا فرغ من إنشاد هذين البيتين ينفخ في يديه إشارة إلى أن هذه الأشياء كالريح ، انتهى .

علي بن بندار
البغدادي
البرمكي

ومن الواقدين على الأندلس من أهل المشرق على بن بُندار بن إسماعيل بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، البرمكي ، من أهل بغداد .
قدم الأندلس تاجراً سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وكان قد أخذ عن أبي

(١) الذي مضى « عبد اللطيف بن أحمد »

الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلس الفقيه الداودي ، وتلمذ له ، وسمع منه الموضح والمنجح من تأليفه في الفقه ، وما تم له من أحكام القرآن ، هكذا نقله الحافظ ابن حزم عن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله المعنى بهذا الشأن ، رحمه الله تعالى !

ومنهم أبو العلاء عبيد بن محمد بن عبيد ، أبو العلاء ، النيسابوري .

أبو العلاء عبيد
بن محمد
النيسابوري

لقيه الحافظ أبو علي الصديقي ببغداد وأخذ عنه إذ قدمها حاجا ، وهو يحدث عن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد البصري ، قال أبو علي : وأراه دخل الأندلس ، ويغلب على ظني أني لقيته بسر قسطة ، ذكر ذلك القاضي عياض في المعجم من تأليفه ، والله تعالى أعلم .

ومنهم سهل بن علي بن عثمان ، التاجر ، النيسابوري ، يكنى أبا نصر .

أبو نصر سهل
بن علي
النيسابوري

سمع جماعة من الخراسانيين وغيرهم ، منهم أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي وأبو الفتح السمرقندي ، وأدرك الإمام أبا المعالي الجويني ، وحضر مجلسه ودرسه ، ولقي بعده أصحابه القشيري والطوسي وغيرهما ، وكان شافعي المذهب ، ذكره عياض وقال : حدثني بحكايات وفوائد ، وأنشدني لأبي طاهر السلفي ، وأجازني جميع رواياته وحدثني أن وفاة أبي المعالي كانت بنيسابور سنة خمس أو أربع وسبعين وأربعمائة ، وقال أبو محمد العثماني : أنشدني أبو نصر سهل بن علي النيسابوري الحقواني قال : أنشدنا أبو الفتح نصر بن الحسن ، أنشدنا أبو العباس العذري ، قال : أنشدنا أبو محمد بن حزم الحافظ لنفسه :

ولما رأيت الشيبَ حل مفارق نذيراً بِتَرَحُّالِ الشَّبَابِ الْمُفَارِقِ^(١)
رجعت إلى نفسي فقلت لها انظري إلى ما أتى ، هذا ابتداء الحقائق

(١) المفارق بفتح الميم - جمع مفروق ، وهو الموضع الذي يفرق فيه الشعر من الرأس ، والمفارق في آخر البيت : اسم الفاعل فعله « فارقه يفارقه » ومعناه تركه .

دعى دَعَوَاتُ اللّٰهُ قد فات وقتها كما قد أفات الليل نور المشارق
 دعى منزل اللذات ينزل أهله وجدي لما ندعى إليه وسابق^(١)
 قال عياض : توفي سهل هذا غريقا في البحر منصرفا إلى بلده من المرية ،
 رحمه الله تعالى ! .

أبو المكارم
 هبة الله بن
 الحسين ،
 المصري

ومنهم أبو المكارم هبة الله بن الحسين ، المصري .
 كان من أهل العلم ، عارفا بالأصول ، حافظا للحديث ، متيقظا ، حسن
 الصورة والشّارة ، دخل الأندلس ، وولى قضاء إشبيلية منها آخر شعبان سنة تسع
 وسبعين وخمسمائة .

قال ابن الأبار : وبه صُرف أبو القاسم الخولاني ، وأقام بها سنة ، وحضر
 غزوة شنترين ، وكان قدوم أبي المكارم هذا الأندلس خوفا من صلاح الدين
 يوسف بن أيوب في قوم من شيعة العبيدي ملك مصر ، ووفد أيضا معه أبو الوفاء
 المصري ، ثم استصحبه أمير المؤمنين يعقوب المنصور معه في غزوة قفصة الثانية ،
 وولاه حينئذ قضاء تونس ، وكان قد ولى قضاء فاس ، وولى أيضا أبو الوفاء صاحبه
 القضاء ، وتوفي وهو متولى قضاء تونس سنة ست وثمانين وخمسمائة ، رحمه
 الله تعالى ! .

أبو زكريا يحيى
 بن عبد الرحمن
 القيسى
 الدمشقى

ومنهم يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن عبد الله ، القيسى ، الدمشقى .
 أصله من دمشق ، وبها ولد ، ويعرف بالأصبهاني في مجلس أبي طاهر
 السلفى لدخوله إياها وإقامته بها أزيد من خمسة أعوام لقراءة الخلافات ، ويكنى
 أبا زكريا ، وسمع بالمشرق أبا بكر بن ما شاده السكرى وأبا الرشيد بن خالد البيع
 وأبا الطاهر السلفى وغيرهم ، وقصد المغرب بعد أداء الفريضة فلقى ببجاية أبا محمد

(١) في ب « وجدي لما تدعى إليه » بناء المضارعة ، وهو تحريف ، إذ لو كان
 الفعل بالياء لقال « وجدي لما تدعين إليه » ولا يستقيم الوزن عليه ، لا جرم جعلناه
 بنون المضارعة التي للتكلم المعظم نفسه .

عبد الحق الإشبيلي ، وأجازه وَحَصَّهُ على الوعظ والتذكير ، فامتثل ذلك ، ودخل الأندلس ، وتجوّل ببلادها ، واستوطن غَرْ نَاطَه منها ، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي ، عارفاً بالأصول والتصوف ، زاهداً ، ورعاً ، كثير المعروف والصدقة ، يعظ الناس ، ويسمع الحديث ، ولم يكن بالضابط فيما قاله الحافظ ابن الأبار ، قال : وله كتاب « الروضة الأنيقة » من تأليفه ، حدث عنه جماعة من الجلة ، منهم أبو جعفر بن حميرة الضبي ، وابنا حَوْط الله أبو محمد وأبو سليمان ، وأبو القاسم الملاحى ، وأبو العباس بن الجيار ، وأبو الربيع بن سالم ، وقال : أنشدني عند توديعي إياه غَرْ نَاطَة قال : سمعت بعض المذكورين ينشد :

يا زائراً زار وما زاراً كأنه مُقْتَبِسٌ نارا^(١)
مر بباب الدار مستعجلاً ما ضره لو دخل الدار
نفسى فداء لك من زائر ما زار حتى قيل قد سارا^(٢)

وسمع منه أبو جعفر بن الدلال كتاب « المعالم » للخطّابي في شرح سنن أبي داود بقراءة جميعه عليه .

ومولده في شوال سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وتوفي بغَرْ نَاطَة بعد أن سكنها يوم الإثنين سادس شوال سنة ثمان وستائة ، قال ابن الأبار : وفي هذا اليوم بعينه كانت وفاة شيخنا أبي عبد الله بن نوح بِلَكْنَسِيَة ، رحمهما الله تعالى ! . ومن الوافدين من المشرق إلى الأندلس إسماعيل بن عبد الرحمن بن على ، القرشى .

من ذرية عبد بن زَمْعَة أخى سَوْدَة أم المؤمنين ، رضى الله تعالى عنها ! . رحل من مصر إلى الأندلس في زمن السلطان الحاكم المستنصر بالله أعوام

(١) الأصل في مادة « ق ب س » القبس - بفتح القاف والباء جميعاً - الذي هو القطعة من النار ، واقتبس النار : أخذ منها جذوة ، وقوله « كأنه مقتبس ناراً » كناية عن السرعة هنا (٢) هذا البيت من قولهم في مثل « ما سلم حتى ودع »

الستين وثلاثمائة حين ملك بنو عُبيد مصر وأظهروا فيها معتقدهم الخبيث ، فخلَّ يومئذ من الحكم المستنصر محل الرحب والسعة ، ولما ثارت الدولة العامرية أوى إلى إشبيلية ، وأوطنها دارا ، واتخذها قَرَارًا ، وبها لقيه أبو عمر بن عبد البرعلامة الأندلس فدرس عليه ، واقتبس مما لديه ، وقد ذكره في تاريخ شيوخه ، ولم يزل عقبه بها إلى أن نجم منهم أبو الحسين سالم بن محمد بن سالم ، وهو من رجال « الذخيرة » وله نثر ، كما تفتح الزَّهر ، وتدفق البحر ، ونظم كما اتسق الدر ، وسَقَرَت عن محاسنها الأنجم الغُرُّ ، فمن نظمه قوله :

خليليَّ ، هل ليلي ونجد كعهدنا فيا حبذا ليلي ويا حبذا نجد
عسى الدَّهرُ أن يقضى لنا بالتفاتة فياربِّ عهدٍ قد يجدده بُعْدُ

وله أثناء رسالة قوس :

قوسُ العلا وُضِعَتْ في كفِّ باريها وأسهم الخطب عادت نحو راميها
وإنما الشمس لاحت في مطالعها بلى وأجرى جياذ الخليل مُجْريها
ونشأ هذا النجم الثاقب ، والصَّيِّب الساكب ، وقد أخذ من العلوم في غير مافن ، وحقق فيه كل ما ظن ، وذكره في « المسهب » و « سمط الجمان » وفضله أشهر رحمه الله تعالى ! .

ومنهم أبو علي القالي ، صاحب الأمالى والنوادر .

وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن ، فأمر ابنه الحكم وكان يتصرف عن أمر أبيه كالوزير عاملهم ابن رماحس أن يجيء مع أبي علي إلى قرطبة ، ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل السكورة تكرمه لأبي علي ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل ، فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم ، ويتناشدون الأشعار ، إلى أن تحاوروا يوما وهم سائرون ، أدبَ عبد الملك بن مروان ومساءلته جاساءه عن أفضل المناديل وإنشاده بيت عبدة بن الطيب :

أبو علي
إسماعيل بن
القاسم ، القالي

ثُمَّتَ قُمْنَا إِلَى جُرْدٍ مَسُومَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ
وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا علي ، فأنشد الكلمة في البيت « أعرافها لأيدينا مناديل » فأنكرها ابن رفاعه الألبيري ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفي خلقه حَرَجٌ وزَعَارَةٌ ، فاستعاد أبا علي البيت مثبِتًا مرتين في كليهما أنشده « أعرافها » فلوى ابنُ رفاعه عِنايه منصرفا وقال : مع هذا يُوفَدُ علي أمير المؤمنين ويتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ؟ ! والله لا تبتعه خُطْوَةٌ ، وانصرف عن الجماعة ، ونَدَبَهُ أميره ابن رماحس أن لا يفعل ، فلم يُجِدْ فيه حيلة ، وكتب إلى الحَكَم يعرفه ويصف له ما جرى لابن رفاعه ويشكوه ، فأجابه علي ظهر كتابه : الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء وافد أهل العراق إلينا ، وابن رفاعه أولى بالرضا عنه من السخط ، فدَعَهُ لشأنه ، واقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته ، فسوف يُعْلِيهِ الاختبار إن شاء الله تعالى أو يحطه .

وبعض المؤرخين يزعم أن وفادة أبي علي القالي إنما كانت في خلافة الحَكَم المستنصر بالأندلس ، لافي خلافة أبيه الناصر ، والصواب أن وفادته في أيام الناصر ، لما ذكره غير واحد من حَصَرِهِ وعِيَّهِ عن الخطبة يوم احتفال الناصر لرسول الإفرنج كما أُلْعِنَ به في غير هذا الموضع ^(١) .

وفي القالي يقول شاعر الأندلس الرمادي :

مَنْ حَاكَمَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَذُولِي الشَّجْوُ شَجْوِي وَالْعَوِيلُ عَوِيلِي ^(٢)
فِي أَى جَارِحَةٍ أَصُونُ مُعَذِّبِي سلمت من التعذيب والتكيل
إِنْ قَلْتُ فِي بَصْرِي قُتْمٌ مَدَامَعِي أَوْ قَلْتُ فِي قَلْبِي قُتْمٌ غَلِيلِي ^(٣)

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٣٤١ وما بعدها)

(٢) الشجو - بفتح فسكون - الحزن ، والعويل : البكاء .

(٣) الغليل - بفتح الغين المعجمة - حرقه الباطن من عطش أو حزن أو نحوها

لكن جعلت له المسمع موضعا وحجبتها عن عدل كل عدول
ولما سمع المتنبي البيت الثاني قال : يصونه في استه .

وكان الرمادى لما سمع قول المتنبي :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مُحَاظَبَتى إياك لم تَرَنِ
قال : أظنه ضَرْطَة ، والجزاء من جنس العمل .

وباسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله طرز الشيخ أبو على القالى كتاب
« الأمالى » .

وكان الحكم كريما ، مَعْنيا بالعلم ، وهو الذى وَجَّه إلى الحافظ أبى الفرج
الأصبهاني ألف دينار على أن يوجه له نسخة من كتاب الأغاني ، وألف أبو محمد
الفهرى كتابا في نسب أبى على البغدادى ورواياته ودخوله الأندلس ، وحكى ابن
الطيلسان عن ابن جابر أنه قرأ هذين البيتين في لوح رخام كان سقط من القبة
المبنية على قبر أبى على البغدادى عند تدهمها ، وهما :

صِلُوا لحد قبرى بالطريق وودعوا فليس لمن وارى الترابُ حبيب^(١)

ولا تَدْفِنُونى بالعراء فر بما بكى أن رأى قَبْرَ الغريب غريب

واسم أبى على إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن
سليمان ، وجده سليمان مولى عبد الملك بن مروان ، وكان أبو على أحفظ أهل
زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين ، وأخذ الأدب عن أبى بكر بن دُرَيْد الأزدى
وأبى بكر بن الأنبارى وابن دُرُسْتَوَيْه وغيرهم ، وأخذ عنه أبو بكر الزبيدى
الأندلسى صاحب مختصر العين ، ولأبى على التصانيف الحسان كالأمالى والبارع ،
وطاف البلاد ، وسافر إلى بغداد سنة ٣٠٣ ، وأقام بالموصل لسماع الحديث من

(١) صلوا : فعل أمر مسند لواو الجماعة ، ماضيه « وصل » يريد اجعلوا قبرى
متصلا بالطريق ليراه المارة .

أبي يعلى الموصلي ، ودخل بغداد سنة ٣٠٣ . وأقام بها إلى سنة ٣٢٨ ، وكتب بها الحديث ، ثم خرج من بغداد قاصدا الأندلس ، وسمع من البغوي وغيره . قال ابن خلكان : ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلثمائة انتهى .

وهو مما يعين أنه يعين أنه قدم في زمن الناصر ، لافي زمن ابنه الحكم كما تقدم ، وقد صرح بذلك الصفدي في الوافي فقال : ولما دخل المغرب قصد صاحب الأندلس الناصر لدين الله عبد الرحمن ، فأكرمه ، وصنف له ولولده الحكم تصانيف وبحث علومه هناك ، انتهى .

وقال ابن خلكان إنه استوطن قرطبة إلى أن توفي بها في شهر ربيع الآخر وقيل : جمادى الأولى سنة ٣٥٦ ، ليلة السبت لست خلون من الشهر المذكور ، ودفن ظاهر قرطبة ، ومولده بمنأجر^(١) من ديار بكر سنة ٢٨٨ ، وقيل : سنة ٢٨٠ وإنما قيل له « القالي » لأنه سافر إلى بغداد مع أهل قاليقلا ، وهي من أعمال ديار بكر .

وهو من محاسن الدنيا ، رحمه الله تعالى !

وعيدون : بفتح العين ، وسكون الياء المثناة التحتية ، وضم الذال المعجمة

وقال ابن خلكان في ترجمة ابن القوطية : إن أبا علي القالي لما دخل الأندلس اجتمع به ، وكان يبالغ في تعظيمه ، قال له الحكم بن عبد الرحمن الناصر : مَنْ أَنْبَأُ مَنْ رَأَيْتَهُ ببلدنا هذا في اللغة؟ فقال : محمد بن القوطية ، وكان ابن القوطية مع هذه الفضائل من العباد النسك ، وكان جيد الشعر صحيح الألفاظ حسن المطالع والمقاطع

ابن القوطية
من تلاميذ
القالي

(١) في الأصل « ومولده بمنأجر - إلخ » وصوبناه من وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٠٥/١ بتحقيقنا) وقال ياقوت « منأجر د . وأهله يقولون : منأجر كرد بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يعد في أرمنية ، وأهله أرمن وروم ، وإليه ينسب الوزير أبو نصر المنأزي ، وكان فاضلا أديبا جيد الشعر وكان وزيرا لبعض آل مروان ملوك ديار بكر ، ومات في سنة ٤٣٧ هـ . وابن خلكان ينص على أن « منأجر د » غير منأجر كرد « القلعة التي من أعمال خلاط ، فانظره في آخر الترجمة رقم ٥٨ في (١٢٦/١ بتحقيقنا) .

إلا أنه تركه ورفضه ، وقال الأديب أبو بكر بن هذيل : إنه توجه يوماً إلى صَيِّعَةٍ له
بَسْفَحَ جبل قُرْطُبَةٍ ، وهى من بقاع الأرض الطيبة المُوَرِّقَةِ ، فصادف أبا بكر بن
القوطية المذكور صادراً عنها ، وكانت له أيضاً هناك ضيعة ، قال : فلما رآنى عرج
علىَّ ، واستبشر بلىقائى ، فقلت مداعباً له :

من أين أقبلت يا مَنْ لا شبيه له وَمَنْ هو الشمس والدنيا له فَلَكُ
قال : فتبسم وأجاب بسرعة :

من منزل تُعْجِبُ النساءُ خلوتهُ وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا^(١)
فما تمالككت أن قبلت يده ، إذ كان شيخى ، ودعوت له ، انتهى .

وهو صاحب كتاب « الأفعال » التى فتح فيه هذا الباب ، فتلاه ابن القَطَّاع
وله كتاب « المقصور والممدود » جمع فيه ما لا يحصى ولا يعد ، وأعجز مَنْ بعده به ،
وفاق من تقدّمه ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ! .

ومن أخذ عن أبى على القالى بالأندلس أبو بكر محمد الزبيدى صاحب كتاب
« مختصر العين » وغيره ، وكان الزبيدى كثيراً ما ينشد :

الفقر فى أوطاننا غُرْبَةٌ والمال فى الغربة أوطان
والأرض شىء كلها واحد والناس إخوان وسيران

وترجمة الزبيدى واسعة ، وكان مؤدباً مؤيداً هشام ، ووصفه بأنه كان فى صباه فى
غاية الحذق والذكاء ، رحمه الله تعالى ! .

وكان القالى قد بحث على ابن دُرُسْتُويَه كتاب سيبويه ، ودقق النظر ،
وانتصر للبصريين ، وأملى شيئاً من حفظه ككتاب النوادر ، والأمالى ، والمقصود
والممدود ، والإبل ، والخيل ، والبارع فى اللغة نحو خمسة آلاف ورقة ، ولم يصنف
مثله فى الإحاطة والجمع ، ولم يتم ، ورتب كتاب المقصور والممدود على التفعيل

مصنفات
أبى على القالى

(١) الفتاك : جمع فاتك ، وأراد به اللاهى المحب للبطالة والاهو ، بدليل مقابلته بالنسك

ومخارج الحروف من الحلق مستقصى في بابه لا يشذ منه شيء ، وكتاب « فعلت وأفعلت » وكتاب « مقاتل الفرسان » و « تفسير السبع الطوال »
وكان الزبيدي إماما في الأدب ، ولكنه عرف فضل القالي ، فقال إليه ،
واختص به ، واستفاد منه ، وأقر له .

وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الأمر وبعدها ينشط أبا علي ، ويعينه على
على التأليف بوسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام ، وكانوا يسمونه
« البغدادي » لوصوله إليها من بغداد ، ويقال : إن الناصر هو الذي استدعاه من بغداد
لولائه فيهم ، وفيه يقول الرمادي متخلصا في لاميته السابق بعضها :

روض تعاوده السحاب كأنه	متعاهد من عهد إسماعيل
قسه إلى الأعراب تعلم أنه	أولى من الأعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغاتٍ فرقت	فيهم وحاز لغاتٍ كل قبيل ^(١)
فالشرق خال بعده وكأنما	نزل الخراب بربعه المأهول
فكأنه شمس بدت في غربنا	وتغيبت عن شرقهم بأفول ^(٢)
يا سيدي هذا ثنائي لم أقل	زورا ولا عرضت بالتنويل
من كان يأمل نائلا فأنا أمروء	لم أرج غير القرب في تأملي

وقد تقدمت أبيات القالي التي أجاب بها منذر بن سعيد في الباب قبل هذا ، فلترجع
ثمة ، والله تعالى أعلم .

ومن الوافدين إلى الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد بن الحسين^(٣) بن عيسى
البغدادي ، اللغوي .

وأصله من الموصل ، قال ابن بسام : ولما دخل صاعد قرطبة أيام المنصور بن

(١) يريد أن كل أعرابي يعرف لغة قبيلته دون غيرها ، أما هو فقد جمع معرفة
لغات كل القبائل ، ولبت أن العلماء حين عرفوا ذلك ميزوا لغة كل قبيلة عن لغة غيرها
من القبائل ، إذا لأفاد البحث العلمي من ذلك الشيء الكثير (٢) الأفول : الغروب ،
ضد الطلوع (٣) لصاعد ترجمة في الذخيرة (٢/١/٤) وسماه «أبا العلاء صاعد بن الحسن»

أبو العلاء
صاعد بن
الحسين
البغدادي

أبى عامر عزم المنصور على أن يقفى به آثار أبى على البغدادي الوافد على بنى أمية ،
فما وجد عنده ما يرتضيه ، وأعرض عنه أهل العلم ، وقدحوا في علمه وعقله ودينه ،
ولم يأخذوا عنه شيئاً لقلة الثقة به ، وكان ألف كتاباً سماه كتاب « الفصوص »
فدَحَضُوهُ ورفضوه ونبذوه في النهر ، ومن شعره قوله :

ومفهمف أبهى من القمر قهر الفؤاد بفاتن النظر
خالسته تُفَاحَ وجنته فأخذتها منه على غَرَرٍ
فأخافني قوم فقلت لهم : لا قطع في ثمر ولا كثر^(١)
والسكَّارُ : الجُمَّارُ ، وهذا اقتباس من الحديث

وقال الحميدى : سمعت أبا محمد بن حزم الحافظ يقول : سمعت أبا العلاء صاعدا
ينشد بين يدي المظفر عبد الملك بن أبى عامر من قصيدة يهنيه فيها بعيد الفطر
سنة ٣٩٦ :

حسبت النعمين على البرايا فألفت اسمه صَدَرَ الحساب
وما قدَّمته إلا كَأَنى أقدم تالياً أم الكتاب

وذكر الحميدى أن عبد الله بن ما كان الشاعر تناول نرجسة فركبها في وردة ثم قال
لصاعد ولأبى عامر بن شهيد : صفها ، فأخفا ، ولم يتجه لهما القول ، فبينما هم على
ذلك إذ دخل الزهيرى صاحب أبى العلاء وتلميذه ، وكان شاعراً أديباً أُمياً لا يقرأ ،
فلما استقر به المجلس أخبر بما هم فيه ، فجعل يضحك ويقول :

ما للأديبين قد أعيتهما مليحة من ملح الجنة

نرجسة في وردة ركبت كمقلة تطرف في وَجْنة انتهى

ومن غريب ما جرى لصاعد أن المنصور جلس يوماً وعنده أعيان مملكته ودولته

(١) ورد في حديث « لا قطع في ثمر ولا كثر » والسكَّار - بفتح الكاف - والثاء
الثلاثة جميعاً - هو جمار النخل ، والجمار : شحم النخل الذى يكون في وسط النخلة ،
ومعنى الحديث أنه لا حد على من أخذهما ، وقد اقتبس الشاعر هذا الحديث ، وتضمن
ذلك تشبيه المتغزل فيه بالجمار في نضاعة البياض .

من أهل العلم كالزبيدي والعاصمي وابن العريف وغيرهم ، فقال لهم المنصور : هذا الرجل الوافد علينا يزعم أنه متقدم في هذه العلوم ، وأحب أن يمتحن ، فوجه إليه فلما مثل بين يديه والمجلس قد احتفل خجل فرفع المنصور محله وأقبل عليه ، وسأله عن أبي سعيد السيرافي ، فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه ، فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتاب ، فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحوليس جل بضاعته ، فقال له الزبيدي : فما تحسن أيها الشيخ ؟ فقال : حفظ الغريب ، قال : فما وزن أولق^(١) ، فضحك صاعد ، وقال : أمثلي يسأل عن هذا ؟ إميا سأل عنه صبيانُ المكتب ، قال الزبيدي : قد سألتك ، ولا نشك أنك تجهله ، فتغير لونه ، وقال : أفعل وزنه ، فقال الزبيدي : صاحبكم مُمَخَرَق^(٢) ، فقال له صاعد : إخال الشيخ صناعته الأبنية ، فقال له : أجل ، فقال صاعد : وبضاعتي أنا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار ، وفك المعنى ، وعلم الموسيقى ، فقال : فناظره ابن العريف ، فظهر عليه صاعد ، وجعل لا يجري في المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعرا شاهدا ، وأتى بحكاية تجانسها ، فأعجب المنصور ، ثم أراه كتاب النوادر لأبي على القالى ، فقال : إن أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل لا أورد فيه خبرا مما أورده أبو على ، فأذن له المنصور في ذلك ، وجلس بجامع مدينة الزاهرة على كتابه المترجم بالقصوص ، فلما أكمله تتبعه أدباء الوقت ، فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم ، وسألوا المنصور في تجليد كراريس بياض تزال جدتها ، حتى توهم القدم ، وترجم عليه كتاب « الفكت » تأليف أبي الغوث الصنعاني ، فترامى إليه صاعد حين رآه ، وجعل يقبله ، وقال : إى والله ، قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان ، فأخذه المنصور من يده خوفاً أن

(١) الأولق - بفتح الهمزة وسكون الواو - شبه الجنون ، ووزنه فوعل ، وأصوله « ألق » .

(٢) مخرق فلان - بوزن دحرج - أى موه وكذب ، والأرجح أن هذه الكلمة بهذا المعنى مولدة ، وليست أصيلة في العربية .

يفتحه ، وقال له : إن كنت قد قرأته كما تزعم ، فعلام يحتوى ؟ فقال : وأبيك لقد
بَعْدَ عهدي به ، ولا أحفظ الآن منه شيئاً ، ولكنه يحتوى على لغة منشورة لا يشوبها^(١)
شعر ولا خبر ، فقال له المنصور : أَبَعَدَ اللهُ مثلك ! فما رأيت أ كذب منك ، وأمر
بإخراجه ، وأن يقذف كتاب « الفصوص » في النهر ، فقال فيه بعض الشعراء :
قد غاص في النهر كتاب الفُصُوصُ وهكذا كل ثقیل يغوص
فأجابه صاعد :

عاد إلى مَعْمُودِنِهِ ، إنما توجد في قعر البحار الفصوص
قال ابن بسام : وما أظن أحداً يجترى على مثل هذا ، وإنما صاعد اشترط أن لا يأتي
إلا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه بما كان يَتَنَفَّقُ به^(٢) من الكذب^(٣) .
وحكى ابن خلكان أن المنصور أثابه على كتاب « الفصوص » بخمسة
آلاف دينار !

ومن أعجب ما جرى له أنه كان بين يدي المنصور ، فأحضرت إليه وردة في
غير وقتها لم يستقم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلاً :

أتتكَ أبا عامر وَرْدَةٌ يذكرك المسكُ أنفاسها

كعدراء أبصرها مُبْصِر فغطت بأكامها رأسها

فسرّ بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضراً ، فحسده ، وجرى إلى مُناقضته ،
وقال لابن أبي عامر : هذان البيتان لغيره ، وقد أشدنيهما بعضُ البغداديين لنفسه
بمصر ، وهما عندي على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : أرنيه ، فخرج ابنُ
العريف ، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلسَ ابنِ بدر ، وكان أحسن أهل زمانه
بديهة ، فوصف له ما جرى ، فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتي صاعد :

(١) لا يشوبها : لا يخالطها

(٢) يتنفق به : يروج به ما عنده ، من النفاق وهو الرواج

(٣) وقال ابن بسام أيضاً بعد أن حكى قصة الوردة والبركة « والحسد موروث ،

وقديم لا حديث ، وليس في الحيوان ، أخبث في ذاته من الإنسان » اهـ

غدوتُ إلى قصر عَبَّاسَة وقد جدَّلَ النومُ حراسَهَا (١)
فألفيتها وهي في خدرها وقد صرَّعَ السكرُ آناسَهَا (٢)
فقلت : أسارٍ على هَجْعَة فقلت : بلى ، فرمت كاسَهَا
ومدت يديها إلى وردة يحاكي لك الطيبُ أنفاسَهَا
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكلها راسَهَا
وقالت : خف الله لا تفضحنَّ في ابنة عمك عباسَهَا
فوليت عنها على غفلة وما خنت ناسي ولا ناسَهَا (٣)

فطار ابن العريف بها ، وعَاقَبَهَا على ظهر كتاب بخط مصري ومداد أشقر ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآها اشتد غيظه على صاعد ، وقال للحاضرين : غدا أمتحنه ، فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد ، ولم يبق في موضع لي عليه سلطان ، فلما أصبح وَجَّهَ إليه فأحضر ، وأحضر جميع الندماء ، فدخل بهم إلى مجلس محفل قد أعدَّ فيه طبقاً عظيماً فيه سقائف مصنوعة من جميع النواير ، ووضع على السقائف لُعب من ياسمين في شكل الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء ، قد أُلقي [فيها] اللآلئ مثل الحصباء ، وفي البركة حية تسبح ، فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور : إن هذا يوم إما أن تسعد فيه معنا ، وإما أن تشقى بالضد عندنا ، لأنه قد زعم قومٌ أن كل ما تأتي به دعوى ، وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدي ملك قبلي شكاه ، فصفه بجميع ما فيه ، وعبر بعضٌ عن هذه القصة بقوله : أمر فعي له طبق فيه أزهار ورياحين وياسمين وبركة ماء حصباء واللؤلؤ ، وكان في البركة حية تسبح ، وأحضرها صاعد ، فلما شاهد ذلك قال له المنصور : إن هؤلاء يذكرون أن كل ما تأتي به دعوى لا صحة لها ، وهذا

(١) جدل النوم حراسها : ألقاهم على الجدالة ، وهي الأرض ، يريد أنه صرعهم ، ووقع في الذخيرة « عشوت إلى قصر عباسَة »

(٢) آناس - كما ضبطناه - جمع أنس - بفتح الألف والنون جميعاً - ورسم في الذخيرة « أناس » بضم الهمزة وتشديد النون - على أنه جمع أنس

(٣) في الذخيرة « فوليت عنها على غفلة » وهي أوفق بعجز البيت

طبق ماظننت أنه عمل ملك مثله ، فإن وصفته بجميع ما فيه علمت صحة ما تذكره ،
فقال صاعد بديهة :

أبا عامر هل غير جدّوك واكف
يسوق إليك الدهر كل غريبة
وشائع نور صاغها هامر الحيا
ولما تناهى الحسن فيها تقابلت
كمثل الظباء المستكنة كنسا
وأعجب منها أنهن نواظر
حصاها الآلى ساجح في عبابها
تري ما تراه العين في جنباتها
من الوحش حتى يبنهن السلاحف
فاستغربت له يومئذ تلك البديهة في مثل ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه ،
وكان إلى ناحيته من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النوار تجذف بمجاذيف
من ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور : أحسنت ، إلا أنك أغفلت ذكر المركب
والجارية ، فقال للوقت :

وأعجب منها غادة في سفينة
إذا راعها موج من الماء تتقى
متى كانت الحسناء ربان مركب
ولم ترعني في البلاد حديقة
مكالة تصبو إليها المهاتف^(٥)
بسكانها ما أندرته العواصف
تصرف في يميني يديه المجاذف
تنقلها في راحتين الوصائف^(٦)

(١) في الذخيرة « يسوق إليك الدهر كل عجيبة »

(٢) في الذخيرة « عليها فنها عبقر ورفارف »

(٣) في الذخيرة « ضمت إليها الطرائف »

(٤) في الذخيرة « من الرقش مسموم اللعابين راجف »

(٥) في ١ « المهاتف » وفي الذخيرة « المهاف »

(٦) في الذخيرة « تنقلها في راحتين المناصف »

ولا غرو أن شأقت معاليك روضة وشتمها أزهيرُ الربا والزخارف^(١)
فأنت امرؤ لورمتَ نقل مُتَالع ورَضَوِي دَرَسَهَا من سَطَاك نواسف^(٢)
إذا قلتُ قولاً أو بدتُ بديهةً فيكُنِّي له إني لمجدك واصف
فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب ، ورتب له في كل شهر ثلاثين ديناراً ،
وألحقه بالندماء .

قال : وكان شديد البديهة في ادعاء الباطل ، قال له المنصور يوماً : ما الخبرُ ؟
فقال : حشيشة يُعَمَّدُ بها اللبن ببادية الأعراب ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عَقَدَتُ محبتها بقلبي كما عَقَدَ الحليبُ الخنبشارُ

وقال له يوماً ، وقد قدَّم إليه طبق فيه تمر : ما التمرُ كل في كلام العرب ؟ فقال « يقال
تمرُّ كَلِّ الرجلُ تمرُّ كَلًا » إذا التف في كسائه ، وكان مع ذلك عالماً .

قال : وكان لابن أبي عامر فتى يسمى فاتنا أُوحد لا نظير له في علم كلام العرب
فناظر صاعداً هذا فقطعه وظهر عليه وبكته ، فأعجب المنصور منه ، فتوفي فأتى هذا
سنة ٤٠٢ ، وبيع في تركته كتب مضبوطة جلييلة مصححة ، وكان منقاداً لما
نزل به من المُلَّة فلم يتخذ النساء كغيره ، وكان في ذلك الزمان بقرطبة جملة من
الفتيان الخنايث ممن أخذ بأوفر نصيب من الأدب .

قال : ورأيت تأليفاً لرجل منهم يعرف بحبيب ترجمه بكتاب « الاستظهار
والمغالبة ، على من أنكر فضائل الصقلية » وذكر فيه جملة من أشعارهم وأخبارهم
ونواذرهم .

وقال ابن بسام وغيره : ومن عجائب ما جرى لصاعد أنه أهدى إيلاً^(٣)
إلى المنصور ، وكتب على يد موصله :

يا حِرَزَ كلِّ مُخَوِّفٍ وأمان كلِّ مُشَرَّدٍ ومعز كلِّ مذل
ياسلك كلِّ فضيلة ونظام كلِّ جزيلة وثراء كلِّ معيل

(١) في ب « ولا غرو أن شأقت » (٢) في الذخيرة « العواصف »
(٣) الإيل - بكسر الهمزة وضمها والياء مشددة مفتوحة - الوعل الذكر ،
وهو التيس الجبلي .

ومنها :

ما إن رأت عيني وعلمك شاهد جدوى علائك في مُعمِّ نُحُول^(١)

ومنها :

وأبى مؤانس غربتى وتحفظى من صفر أيامى ومن مستعملى
عبد جذبت بَصْبَعَهُ ورفعت من مقداره أهدي إليك بإيل
سميته غَرْسِيَّةً وبعثته فى حبله ليصح فيه تفاؤلى
فلئن قبلت فتلك أنفُسُ مِنَّةٍ أهدي بها ذو منحة وتطول
منحتك غادية السرور بعزة وحلت أوجاً بالسحاب الخضيل
فقضى فى سابق علم الله سبحانه وتعالى أن ملك الروم غَرْسِيَّة^(٢) أسر فى ذلك اليوم
بعينه الذى بعث فيه بالإيل ، وسماه باسمه على التفاؤل ، انتهى .

وكان غرسية أُمِنَع من النجم ، وسبب أخذه أنه خرج يتصيد ، فلقيته
خيل للمنصور من غير قصد ، فأسرته وجاءته به ، فكان هذا الاتفاق مما
عظم به العجب .

ولنورد من أخبار صاعد فنقول : حكى أن المنصور قال بسبب هذه القضية :
إنه لم يتفق لصاعد هذا الفأل الغريب إلا لحسن نيته وسريته ، وصفاء باطنه ،
فرفع قدره من ذلك اليوم فوق ما كان ، ورجحه على أعدائه ، وحق له ذلك .

وفى الزهرة الثامنة والعشرين من كتاب « الأزهار المشورة » ، فى الأخبار
المأثورة « حكى أن صاعداً قال : جمعت خِرَقَ الأكياس والصرر التى قبضت فيها
صلات المنصور محمد بن أبى عامر ، فقطعت لكافور الأسود غلامى منها قميصاً
كالرقعة ، وبكرت به معى إلى قصر المنصور ، فاحتلت فى تنشيطه حتى طابت

(١) الجدوى - بفتح الجيم - ومثله الجدوى - بزنة الفتى - العطاء ، والمعم : الكريم
العمومة ، والنحول : السكريم الخوولة ، يريد أنه كريم من جهتي نسبه .
(٢) هو غرسية بن شانجه ، وبذلك ورد فى النخبة (٢٣ / ١ / ٤)

نفسه فقلت : يا مولانا لعبدك حاجة ، فقال : اذكرها ، قلت : وصول غلامي كافور إلى هنا ، فقال : وعلى هذه الحال ؟ فقلت : لا أقنع بسواه إلا بحضوره بين يديك ، فقال : أدخلوه ، فثُلَّ قائماً بين يديه في مرقعته وهو كالنخلة إشرافاً ، فقال : قد حضر ، وإنه لبازل الهيئة ، فمالك أضعته ؟ فقلت : يا مولانا هنالك الفائدة ، أعلم يا مولاي أنك وهبت لي اليوم ملء جلد كافور مالا ، فتهلل^(١) وقال : لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معاني الشكر ! وأمر لي بمال واسع وكسوة ، وكسا كافوراً أحسن كسوة ، انتهى .

ولما دخل صاعد دانية ، وحضر مجلس الموفق مجاهد^(٢) العامري أمير البلد كان في المجلس أديب يقال له بشار ، فقال للموفق : دعني أعبت بصاعد ، فقال له : لا تتعرض إليه ، فإنه سريع الجواب ، فأبى إلا مُساءلته ، وكان بشار المذكور أعمى ، فقال لصاعد : يا أبا العلاء ما الجرئفل في كلام العرب ؟ فعرف صاعد أنه وضع هذه الكلمة ، وليس لها أصل في اللغة ، فقال بعد أن أطرق ساعة : الجرئفل في اللغة الذي يفعل بنساء العميان ولا يتجاوزهن إلى غيرهن ، وهو في ذلك كله يصرح ولا يكتئ ، فنجبل بشار وانكسر ، وضحك مَنْ كان حاضراً ، فقال له الموفق : قلت لك لا تفعل فلم تقبل ، انتهى .

والجرئفل - بضم الجيم والراء^(٣) ، وسكون النون ، وضم الفاء ، وبعدها لام . ولصاعد أخبار ونوادير كثيرة غير ما تقدم ، وله مع المنصور بن أبي عامر رحمه الله تعالى من ذلك كثير ، وبعضه ذكرناه في هذا الكتاب .

ومن حكاياته أنه خرج معه يوماً إلى رياض الزاهرة ، فمدَّ المنصور يده إلى شيء من الريحان المعروف بالترنجان ، فعبث به ورماه إلى صاعد ، وأشار إليه أن

(١) تهلل : أشرق وجهه واستبشر .

(٢) في ابن خلكان (١٨١/٢) بتحقيقنا « مجاهد بن عبد الله »

(٣) كذا ، وضبطه في ابن خلكان بالعبرة « بفتح الجيم والراء وسكون النون إلخ »

أن يقول فيه ، فارتجل :

* لم أدر قبل ترنجان عبثت به *

الآيات الآتية^(١)

شئ من أخبار
المنصور بن
أبي عامر

وهذا المنصور بن أبي عامر قد تقدّمت جملة من أخباره ، ومن أعجب ما وقع له ما رأيته بخزانة فاس في كتاب ألفه صاحبه في الأزهار والأنوار ، حكى فيه في ترجمة النيلوفر أن المنصور لما قدم عليه رسول ملك الروم الذي هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم ، فأمر المنصور أن يُغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيْلوفر^(٢) ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً على قدر ما تسع النيْلوفر ، ثم ملأ بها جميع النيْلوفر الذي في البركة ، وأرسل إلى الرومي فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامي بالزاهرة بحيث يُشرف على موضع البركة ، فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة ، ويبد خمسمائة أطباق ذهب ، ويبد خمسمائة أطباق فضة ، فتعجب الرسول من حسن صورهم وحمل شارتهم ، فلم يدر ما المراد ، فحين أشرقت الشمس ظهر النيْلوفر من البركة ، وبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيْلوفر ، وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب ، حتى التقطوا جميع ما فيها ، وجاؤا به فوضعه بين يدي المنصور ، حتى صار كوما بين يديه ، فتعجب النصراني من ذلك ، وأعظمه ، وطلب المهادنة من المسلمين ، وذهب مسرعاً إلى مُرسِله ، وقال له : لا تُعَادِ هؤلاء القوم ، فإنّي رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها ، انتهى .

وهذه القضية من الغرائب ، وإنها لحيلة عجيبة في إظهار عز الإسلام وأهله .

(١) انظر الآيات في ص ٩٤ الآتية ، وفي الذخيرة (١٢/١/٤)

(٢) النيْلوفر - بكسر النون ، وبعضهم يفتحها - ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة له أصل كالجنذر وساق أملس يطول بحسب عمق الماء ، فإذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر ، وهو أعجمي .

وكان المنصور^(١) بن أبي عامر آية الله سبحانه في السعد ونصرة الإسلام ، قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان : إنه لما انتهت خلافة بني مروان بالأندلس إلى الحكم تاسع الأئمة ، وكان مع فضله قد استهواه حب الولد ، حتى خالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا دون مشيخة الإخوة وفتيان العشيرة ، ومن كان ينهض بالأمر ويستقل بالملك ، قال ابن بسام : وكان يقال « لا يزال ملك بني أمية بالأندلس في إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء ، فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه فيما بينهم أدبر وانصرم^(٢) » ولعل الحكم لحظ ذلك ، فلما مات الحكم أخفى جوذر وفائق فتيآه ذلك ، وعزما على صرف البيعة إلى أخيه المغيرة ، وكان فائق قد قال له : إن هذا لا يتم لنا إلا بقتل جعفر المصحفي ، فقال له جوذر : ونستفتح أمرنا بسفك دم شيخ مولانا ، فقال له : هو والله ما أقول لك ، ثم بعثا إلى المصحفي ونعيا إليه الحكم ، وعرفاه رأيهما في المغيرة ، فقال لهما المصحفي : وهل أنا إلا تبع لسكما ، وأتما صاحبا القصر ، ومدبرا الأمر ، فشرعا في تدبير ما عزما عليه ، وخرج المصحفي وجمع أجناده وقواده ونعى إليهم الحكم ، وعرفهم مقصود جوذر وفائق في المغيرة ، وقال : إن بقينا على ابن مولانا كانت الدولة^(٣) لنا ، وإن بدلنا استبدلنا ، فقالوا : الرأي رأيك ، فبادر المصحفي بإفخاذ محمد بن أبي عامر مع طائفة من الجند إلى دار المغيرة لقتله ، فوافاه ولا خبر عنده ، فعنى إليه الحكم أخاه ، فجزع ، وعرفه جلوس ابنه هشام في الخلافة ، فقال : أنا سامع مطيع ، فكتب إلى المصحفي بحاله ، وما هو عليه من الاستجابة ، فأجابه المصحفي بالقبض عليه ، وإلا وجهه غيره ليقته ، فقتله خنقا ، فلما قتل المغيرة واستوثق الأمر لهشام ابن الحكم افتتح المصحفي أمره بالتواضع والسياسة واطراح الكبر ومساواة الوزراء

(١) تجد كلام ابن حيان بأكمل ما هنا في الذخيرة (٤ / ١ / ٣٩ وما بعدها) ويظهر من مقارنة النصين أن المؤلف تصرف في العبارة بشيء من الحذف .

(٢) أدبر : رجع ، وانصرم : تفرق ، وهو يريد معنى انتهاء ملكهم .

(٣) الدولة : الريح والغلبة والنصرة

في الفرش ، وكان ذلك من أول ما استحسن منه ، وتوفر على الاستئثار بالأعمال والاحتجان للأموال ، وعارضه محمد بن أبي عامر فتى ماجداً أخذ معه بطرفي نقيض بالبخل جوداً وبلاستبداد أثره ، وتملك قلوب الرجال إلى أن تحركت همته للمشاركة في التدبير بحق الوزارة ، وقوى على أمره بنظره في الوكالة ، وخدمته للسيدة صُبْح أم هشام ، وكانت حاله عند جميع الخدم أفضل الأحوال بتصدّيه لمواقع الإرادة ، ومبالغته في تأدية لطيف الخدمة ، فأخرجت له أم هشام الخليفة إلى الحاجب جعفر المصحفي بأن لا يفرد عنه برأى ، وكان غير متخيل منه سكونا إلى ثقته ، فامتثل الأمر وأطلعته على سره ، وبالع في بره ، وبالع محمد بن أبي عامر في مخادعته والنصح له ، فوصل المصحفي يده بيده ، واستراح إلى كفايته ، وابن أبي عامر يكثر به ، ويضرب عليه ، ويفرغى به الحرة ، ويتناقضه في أكثر ما يعامل به الناس ، ويقضى حوائجهم ، ولم يزل على ما هذه سبيله إلى أن انحل أمر المصحفي ، وهوى نجمه ، وتفرّد محمد بن أبي عامر بالأمر ، ومنع أصحاب الحكم ، وأجلاهم ، وأهلكهم ، وشردهم ، وشتمهم ، وصادرهم ، وأقام من صنائعهم من استغنى به عنهم ، وصادر الصقالبة ، وأهلكهم ، وأبادهم في أسرع مدّة .

قال ابن حيان : وجاشت^(١) النصرانية بموت الحكم ، وخرجوا على أهل الثغور فوصلوا إلى باب قرطبة^(٢) ، ولم يجدوا عند جعفر المصحفي غناء ولا نصرة ، وكان مما أتى عليه أن أمر أهل قلعة رباح بقطع سد نهرهم ، لما تخيله من أن في ذلك النجاة من العدو ، ولم تقع حيلته لأكثر منه ، مع وفور الجيوش وجحوم الأموال ، وكان ذلك من سقطات جعفر ، فأنف محمد بن أبي عامر من هذه الدّنية ، وأشار على جعفر بتبديد الجيش بالجهاد ، وخوفه سوء العاقبة في تركه ، وأجمع الوزراء على

(١) جاشت : تحركت ونارت

(٢) في النسخة « غناء صراخهم إلى باب قرطبة » وحذف ما حذفه المؤلف غير المعنى بعض الشيء .

ذلك ، إلامن شَذَّ منهم ، واختار ابن أبي عامر الرجال ، وتجهز للغزاة ، واستصحب مائة ألف دينار ، ونفذ بالجيش ، ودخل على الثغر الجوفى ، ونازل حصن الحافة ، ودخل الربض ، وغنم وقفل فوصل الحضرة بالسبي بعد اثنين وخمسين يوما ، فعظم السرور به ، وخاصت قلوب الأجناد له ، واستهلكوا في طاعته لما رأوه من كرمه .

ومن أخبار كرمه ما حكاه محمد بن أفلح غلام الحكم قال : دُفِعْتُ إلى مالا أطيعه من نفقة في عُرْس ابنة لى ، ولم يبق معى سوى لجام مُحَلَّى ، ولما ضاقت بى الأسباب قصده بدار الضرب حين كان صاحبها ، والدرهم بين يديه موضوعة مطبوعة ، فأعلمته ما جئت له ، فابتهج بما سمعه منى ، وأعطانى من تلك الدراهم وزن اللجام بمحديده وسُيُوره ، فلأحجرى ، وكنت غير مصدق بما جرى لعظمه ، وعملت العرس ، وفَضَّت لى فضلة كثيرة ، وأحبه قلبى حتى لو حملنى على خلع طاعة مولاي الحكم لقمعت ، وكان ذلك فى أيام الحكم قبل أن يقتعد ابن أبى عامر الذرورة .

وقال غير واحد : إنه صنع يومئذ قصرا من فضة لصُبْح أم هشام ، وحمله على رؤس الرجال ، فحلب حبها بذلك ، وقامت بأمره عند سيدها الحكم ، وحدث الحكم خواصه بذلك ، وقال : إن هذا الذى قد جاب عقول حرمنا بما يتخفهم به ، قالوا : وكان الحكم أشدة نظاره فى علم الحدثنان يتخيل فى ابن أبى عامر أنه المذكور فى الحدثنان ، ويقول لأصحابه : أما تنظرون إلى صُفْرة كفيه ، ويقول فى بعض الأحيان : لو كانت به شَجَّة^(١) لقلت إنه هو بلا شك ، فقضى الله أن تلك الشَجَّة^(١) حصلت للمنصور يوم ضربه غالب بعد موت الحكم بمدة .

(١) شجة بشجه - مثل رده يرده - شجة : وهى الجرح والكسر ، والأصل فيها أنها جراحة الرأس خاصة ، وقد تستعار لغيره من الأعضاء .

قال ابن حيان : وكان بين المصحفي وغالب صاحب مدينة سالم وشيخ الموالي وفارس الأندلس عداوة عظيمة ، ومباينة شديدة ، ومقاطعة مستحكمة ، وأعجز المصحفي أمره ، وضعف عن مبادراته ، وشكا ذلك إلى الوزراء ، فأشاروا عليه بملاطفته واستصلاحه ، وشعر بذلك ابن أبي عامر ، فأقبل على خدمته ، وتجرد لإتمام إرادته ، ولم يزل على ذلك حتى خرج الأمر بأن ينهض غالب إلى مقدمة جيش الثغر ، وخرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثانية ، واجتمع به ، وتعاقدا على الإيقاع بالمصحفي ، وقفل ابن عامر ظافراً غانماً ، وبعده صيته ، فخرج أمر الخليفة هشام بصرف المصحفي عن المدينة ، وكانت في يده يومئذ ، وخلع على ابن أبي عامر ولا خبر عند المصحفي ، وملك ابن أبي عامر الباب بولايته للشرطة ، وأخذ عن المصحفي وجوه الحيلة ، وخلاه وليس بيده من الأمر إلا أقله ، وكان ذلك بإعانة غالب له ، وضبط المدينة ضبطاً أنسى به أهل الحضرة من سلف من الكفاة^(١) وتولى السياسة ، وانهمك ابن أبي عامر في صحبة غالب ، ففطن المصحفي لتدبير ابن أبي عامر عليه ، فكاتب غالباً يستصلحه ، وخطب أسماء بنته لابنه عثمان ، فأجابه غالب لذلك ، وكادت المصاهرة تتم له ، وبلغ ابن أبي عامر الأمر ، فقامت قيامته ، وكاتب غالباً يخوفه الحيلة ، ويهيج حقوده ، وألقى عليه أهل الدار وكتبوه فصرفوه عن ذلك ، ورجع غالب إلى ابن أبي عامر ، فأنكحه البنت المذكورة ، وتم له العقد في محرم سنة سبع وستين وثلاثمائة ، فأدخل السلطان تلك الابنة إلى قصره ، وجهازها إلى محمد بن أبي عامر من قبله ، فظهر أمره وعز جانبه^(٢) ، وكثر رجاله ، وصار جعفر المصحفي بالنسبة إليه كلاًشئ ، واستقدم السلطان غالباً ، وقلده الحجابة شركة مع جعفر المصحفي ، ودخل ابن أبي عامر على

(١) الكفاة : جمع كاف ، وهو الذي يقوم بالأمر في كفاية لا يحوج إلى من يعينه

(٢) عز جانبه : صار عزيزاً قوياً لا يطمع فيه طامع .

ابنته ليلة النيروز ، وكانت أعظم ليلة عرس في الأندلس ، وأيقن المصحفي بالنكبة وكَفَّ عن اعتراض ابن أبي عامر في شيء من التدبير ، وابنُ أبي عامر يسايره ولا يظاھرہ ، وانفضَّ عنه الناس ، وأقبلوا على ابن أبي عامر إلى أن صار المصحفي يغدو إلى قصر قرطبة ويروح وهو وحده ، وليس بيده من الحجابة سوى اسمها ، وعوقب المصحفي بإعانتته على ولاية هشام ، وقتل المغيرة ، ثم سخط السلطان على المصحفي وأولاده وأهله وأسبابه وأصحابه ، وطولبوا بالأموال ، وأُخذوا برفع الحساب لما تصرفوا فيه ، وتوصل ابن أبي عامر بذلك إلى اجتثاث أصولهم وفروعهم ، وكان هشام ابن أخى المصحفي قد توصل إلى أن سرق من رؤس النصارى التي كانت تحمل بين يدي ابن أبي عامر في الغزاة الثالثة ليُقدِّمَ بها على الحضرة ، وغازله ذلك منه ، فبادره بالقتل في المطبق قبل عمه جعفر المصحفي ، فما استقصى^(١) ابن أبي عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة ، وكانت من أعظم قصور قرطبة ، واستمرت النكبة عليه سنتين مرة يحتبس ومرة يترك ومرة يُقَرُّ بالحضرة ومرة ينفر عنها ، ولا براح له من المطالبة بالمال ، ولم يزل على هذا الحكم حتى استصفي ، ولم يبق فيه محتمل ، واعتقل في المطبق بالزھراء إلى أن هلك ، وأخرج إلى أهله ميتاً ، وذكر أنه سَمَّه في ماء شربه ، قال محمد بن إسماعيل : سرت مع محمد بن مسلمة إلى الزھراء لنسلم جسد جعفر بن عثمان إلى أهله بأمر المنصور ، وسرنا إلى منزله فكان مغطى بخلق كساء^(٢) لبعض البوابين ألقاه على سريرہ ، وغُسل على فردة باب اختلج من ناحية الدار ، وأخرج وما حضر أحد جنازته سوى إمام مسجدہ المستدعى للصلاة عليه ومن حضر من ولده ، فعجبت من الزمان ، انتهى .

وما أحسن عبارة المطمح عن هذه القضية إذ قال : قال محمد بن إسماعيل

(١) في ب « فلما استقصى . . . حتى باع »

(٢) الخلق - بفتح الحاء واللام جميعاً - البالي ، وإضافة « خلق » إلى « كساء »

من إضافة الصفة إلى الموصوف .

كاتب المنصور : سرت بأمره لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولده ، والحضور على إنزاله في ملحدته ، فنظرت له ولا أثر فيه ، وليس عليه شيء يُؤار به ، غير كساء خلق لبعض البوابين ، فدعاه محمد بن مسلمة بغاسل فغسله والله على فرجة باب اقتطع من جانب الدار ، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار ، وخرجنا بنعشه إلى قبره ومامعنا سوى إمام مسجد المستدعي للصلاة عليه ، وما تجاسر أحد منا للنظر إليه ، وإن لي في شأنه لخبراً ما سمع بمثله طالب وعظ ، ولا وقع في سمع ولا تصور في لحظ ، وقفت له في طريقه من قصره ، أيام نهيه وأمره ، أروم [أن] أناوله قصة^(١) ، كانت به مختصة ، فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه ، وكثرة من حَفَّ به ، وأخذ الناس السكك عليه وأفواة الطرق داعين ، ومارين بين يديه وساعين ، حتى ناولت قصتي^(٢) بعض كتابه الذين نصبهم جناحي موكبه لأخذ القصص ، فأنصرفت وفي نفسي ما فيها من الشرقي بحاله والغصص ، فلم تطل المدة حتى غضب عليه المنصور واعتقله ، ونقله معه في العزوات واحتمله ، واتفق أن نزلت بجليقية إلى جانب خبائه في ليلة نهى فيها المنصور عن وقود النيران ليخفي على العدو أثره ، ولا ينكشف إليه خبره ، فرأيت والله عثمان ولده يسقيه دقيقاً قد خلطه بماء يقيم به أودّه ، ويمسك بسببه رَمَقه ، بضعف حال وعدم زاد ، وهو يقول :

أراها توفّي عند موعتها الحرا	تعاطيت صرف الحادثات فلم أزل
فإني لا أنسى لها أبداً ذكرا	فله أيام مضت بسبيلها
وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا	تجافّت بها عنا الحوادث برهة
ولا نظرت منها حوادثه شزراً ^(٣)	ليالي ما يدرى الزمان مكانها

(١) القصة : الورقة يشرح فيها ظلامة أو نحوها (العريضة)

(٢) تقول « نظر فلان شزراً » إذا نظر بتؤخر عينه كالسكاره الغاضب

ابن أبي عامر
وغالب
الناصرى

وما هذه الأيام إلا سحائب على كل أرض تُمطر الخير والشر
وأما غالب الناصرى فإنه حضر مع ابن أبي عامر في بعض الغزوات ، وصعدا إلى
بعض القلاع ، لينظرا في أمرها ، فجرت مُحَاوَرَةٌ بين ابن أبي عامر وغالب ، فسبَّه
غالب وقال له : يا كلب ، أنت الذى أفسدت الدولة ، وخربت القلاع ، وتحكمت
في الدولة ، وسَلَّ سيفه فضربه ، وكان بعض الناس حبس يده ، فلم تتم الضربة
وشجَّه ، فألقى ابن أبي عامر نفسه من رأس القلعة خوفاً من أن يُجهز عليه ، فقصي
الله تعالى أنه وجد شيئاً في الهواء منعه من الهلاك ، فاحتمله أصحابه وعالجوه حتى
برىء ، ولحق غالب بالناصرى ، فجيش بهم ^(١) ، وقابله ابن أبي عامر بمن معه ^(٢) من
جيوش الإسلام ، فحكمت الأقدار بهلاك غالب ، وتم لابن أبي عامر ما جد له ،
وتخلصت دولته من الشوائب .

ابن أبي عامر
والمؤيد

قالوا : ولما وقعت وحشة بين ابن أبي عامر والمؤيد ، وكان سببها تضريب
الحساد فيما بينهما ، وعلم أنه ماذهى إلا من جانب حاشية القصر فرقمهم ومزقمهم ،
ولم يدع فيه منهم إلا من وثق به أو عجز عنه ، ثم ذكر له أن الحرم قد انبسطت
أيديهن في الأموال المحتزنة بالقصر ، وما كانت السيدة صُبْحُ أخت رائق تفعله
من إخراج الأموال عندما حدث من تغييرها على ابن أبي عامر ، وأنها أخرجت
في بعض الأيام مائة كوز مختومة على أعناق الخدم الصقالبة فيها الذهب والفضة ،
وموتت ذلك كله بالمرى والشهد وغيره والأصباغ المتخذة بقصر الخلافة ، وكتبت
على رؤوس السكيزان أسماء ذلك ، ومرت على صاحب المدينة ، فما شك أنه ليس
فيها إلا ماهو عليها ، وكان مبلغ ما حملت فيها من الذهب ثمانين ألف دينار ،
فأحضر ابن أبي عامر جماعة وأعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظ الأموال بأنهما كه

(١) جيش بهم : يريد أنه استكثر بهم ، أو اتخذ منهم جيشاً .

(٢) في ب « وقابله ابن أبي عامر بمن منعه من جيوش الإسلام »

في العبادة ، وأن في إضاعتها آفة على المسلمين ، وأشار بنقلها إلى حيث يؤمن عليها فيه ، فحمل منها خمسة آلاف ألف دينار عن قيمة ورق وسبع مائة ألف دينار ، وكانت صُبح قد دافعت عما بالقصر من الأموال ، ولم تمكن من إخراجها ، فاجتمع ابن أبي عامر بالخليفة هشام ، واعترف له بالفضل والغناء في حفظ قواعد الدولة ، فخرست أسنة العدا والحسدة ، وعلم المنصور ما في نفوس الناس لظهور هشام ورؤيتهم له ، إذ كان منهم من لم يره قط ، فأبرزه للناس وركب الركبة المشهورة ، واجتمع لذلك من الخلق ما لا يحصى ، وكانت عليه الطويلة والقضيب في يده زى الخلافة ، والمنصور يسايره ، ثم خرج المنصور لآخر غزواته ، وقد مرض المرض الذي مات فيه ، وواصل شن الغارات ، وقويت عليه العلة ، فاتخذ له سرير خشب ووُطئ^(١) عليه ما يقعد عليه ، وجعلت عليه ستارة ، وكان يُحمَل على أعناق الرجال والعساكر تحف به ، وكان هجر الأطباء في تلك العلة لاختلافهم فيها ، وأيقن بالموت ، وكان يقول : إن زمانى يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما أصبح فيهم فيهم أسوأ حالة منى ، ولعله يعنى من حضر تلك الغزاة ، وإلا فعساكر الأندلس ذلك الزمان أكثر من ذلك العدد ، واشتغل ذهنه بأمر قرطبة وهو في مدينة سالم ، فلما أيقن بالوفاة أوصى ابنه عبد الملك وجماعته وخلا بولده وكان يكرر وصايته ، وكلما أراد أن ينصرف يرده ، وعبد الملك يبكى ، وهو ينسكرك عليه بكاءه ويقول : وهذا من أول العجز ، وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر .

وخرج عبد الملك إلى قرطبة ومعه القاضي أبو ذكوان ، فدخلها أول شوال ، وسكن الإرجاف^(٢) بموت والده ، وعرف الخليفة كيف تركه .

(١) وطئ عليه : مهد وذلك ، والمراد أنه وضعت له فوقه حشية لينه

(٢) أرجف الناس بموته : خاضوا في أخباره وأكثروا من ذكره

ووجد المنصور خِفةً فأحضر جماعة بين يديه ، وهو كاتِّليال لا يُبين الكلام ، وفاة المنصور وأكثر كلامه بالإشارة كالمسلم المودع ، وخرجوا من عنده ، فكان آخر العهد به ومات لثلاث بقين من شهر رمضان ، وأوصى أن يدفن حيث يقبض ، فدفن في قصره بمدينة سالم .

واضطرب العسكر ، وتلوّم ولده أياما ، وفارقه بعض العسكر إلى هشام ، وقفل هو إلى قرطبة فيمن بقي معه ، ولبس فتيان المنصور المُسوح والأكسية بعد الوشي والخبر والخز .

وقام ولده عبد الملك المظفر بالأمر ، وأجراه هشام الخليفة على عادة أبيه ، وخلع عليه ، وكتب له السجل بولاية الحجابة ، وكان الفتيان قد اضطربوا فقوّم^(١) المائل ، وأصلح القاسد ، وجرت الأمور على السداد ، وانشرحت الصدور بما شرع فيه من عمارة البلاد ، فكان أسعد مولود ولد في الأندلس .

ولمnsk عنان القلم في أمر ابن أبي عامر ، فقد قدمنا في محله جملة من أحواله ، وما ذكرناه هنا وإن كان محله ماسبق وبعضه قد تكرر معه فهو لا يخلو من فوائد زوائد ، والله تعالى ولي التوفيق .

رجع إلى أخبار صاعد اللغوى البغدادي :

وحكى أنه دخل على المنصور يوم عيد ، وعليه ثياب جُدُد وخف جديد ، فمشى على حافة البركة لأزدحام الحاضرين في الصف ، فزلق فسقط في الماء ، فضحك المنصور ، وأمر بإخراجه ، وقد كاد البرد أن يأتى عليه ، فخلع عليه ، وأدنى مجلسه^(٢) ، وقال له : هل حضرك شئ ؟ فقال :

شيئان كانا في الزمان عجيبة ضرط ابن وهب ثم وقعة صاعد

(١) قوم : عدل وأقام

(٢) أدنى مجلسه : يريد أنه جعله قريبا منه في المكان ، تسكريما له وتشريفا

فاستبرد مأثى به أبو مروان الكاتب الجزيرى ، فقال : هلا قلت :

سرورى بغرَّتكَ المشرقة وديمة راحَتِكَ المَغْدِقَةُ^(١)

ثنائى نشوان حتى غرقت فى لجة البركة المطبقة^(٢)

لئن ظلَّ عبدك فيها الغريقَ فجودك من قبلها أغرقه^(٣)

فقال له المنصور : لله درك يا أبا مروان ! قسناك بأهل بغداد ففضلتهم ، فبمن

نقيسك بعد^(٤) ؟ انتهى .

وقال فى الذخيرة فى ترجمة صاعد : وفد على المنصور نجما من المشرق غرب ،

ولساناً عن العرب أعرب ، وأراد المنصور أن يقفى به آثار أبى على القالى فألقى

سيفه كهاما ، وسحابه جهاما ، من رجل يتكلم بملء فيه ، ولا يوثق بكل ما يذره

ولا ما يأتيه ، انتهى باختصار .

وأصل صاعد من ديار الموصل ، وقال ارتجالاً وقد عبث المنصور بترنجان^(٥) :

لم أدر قبل ترُنْجَانٍ عَمِثَتْ به أن الزمرد أغصان وأوراق

من طيبه سرق الأترج نكهته ياقوم حتى من الأشجار سُرِّاقُ

كأنما الحاجب المنصور علمه فعل الجميل فطابت منه أخلاق

وقدّمه الحجارى بقوله :

كأن إيريقنا والراحُ فى فمه طيرٌ تناول ياقوتاً بمنقار

وقبله :

وقهوة من فم الإريق صافية كدمع مفجوعة بالإلف معبار^(٦)

(١) أصل الديمة المطر الدائم الذى لا ينقطع ، والراحة هنا اليد .

(٢) فى الذخيرة « ثنائى نشوان حتى هويت »

(٣) فى الذخيرة « فجودك من قبل ذا أغرقه » (٤) فى الذخيرة « فبمن تقاس بعد »

(٥) انظر ص ٨٣ و ٨٤ والذخيرة (١٢/١/٤) وفيها فى أولها « أن الزمرد

قضباق وأوراق » (٦) فى ب « كالدمع مفجوعة بالإلف معيار » محرفاً ، وأثبتنا

ما فى الذخيرة (١٥/١/٤) والمعبار : السكينة العبرة وهى الديمة

وقال في بدائع البدائه : دخل صاعد اللغوى على بعض أصحابه في مجلس شراب ،
فملاً الساقى قدحاً من إبريق ، فبقيت على فم الإبريق نقطة من الراح قد تكونت
ولم تقطر ، فاقترح عليه الحاضرون وصف ذلك فقال :

* وقهوة من فم الإبريق ساكبة * البيتین

ثم قال بعدهما : وإنما هدم صاعد قول الشريف أبي البركات علي بن الحسين اللغوى :

كأن ریح الروض لما أتت ففتت علينا مسك عطار
كأنما إبريقنا طائر يحمل ياقوتاً بمنقار انتهى
ومن نظم صاعد :

قلت له والرقیب يُعجله مودعا للفرار : أين أنا
فمَدَّ كَنَمًا إلى ترائبه وقال : سرِّ وادعاً فأنت هنا
وقال صاعد ، لما أمر المنصور بن أبي عامر بمعارضة قصيدة لأبي نواس :
إني لأستحي عُلَّا ك من ارتجال القول فيه
من ليس يُدرك بالروية كيف يدرك بالبدية

وقال حاشد البغدادي في صاعد اللغوى ، وكان صاعد ينشدهما ويبيكى ويقول :
ما هجيت بشيء أشد على منهما :

اقبل هُدَيْتَ أبا العلاء نصيحتي بقبولها وبواجب الشكر
لا تهجونَّ أسنَّ منك فربما تهجو أباك وأنت لاتدرى

نعوذ بالله من لسان الشعراء ، وأنواع البلاء ، بجاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .
ومن نظم صاعد قوله :

بعث إليك من خيرى روضٍ مخرمة كأوراق العقيق
توكل بالغروب عن التصابي وتصطاد الخليج من الطريق

وروى صاعد عن القاضي أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى ، وأبى على الحسن

ابن أحمد الفارسي ، وأبي بكر بن مالك القطيعي ، وأبي سليمان الخطابي ، وغيرهم .
قال الحميدي : خرج من الأندلس في الفتنة ، فمات بها قريبا [من] سنة
عشر وأربعمائة .

وقال ابن حزم : توفي بصقلية سنة سبع عشرة وأربعمائة .

وقال ابن بشكوال في حقه : إنه يتهم بالكذب وقلة الصدق فيما يورده ،
عفا الله تعالى عنه ! وقدم الأندلس من مصر أيام المؤيد وتحكم المنصور بن أبي عامر
في حدود سنة ٣٨٠ ، فأكرمه المنصور ، وزاد في الإحسان إليه ، والإفضال عليه ،
وكان عالما باللغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب
المعاشرة ، فبِكَهَ المجالسة .

وقال بعضهم : دخل صاعد على المنصور وعنده كتاب ورد عليه من عامل له
في بعض الجهات اسمه مَيْدُمان بن ^(١) يزيد يذكر فيه القلب والتربيل ^(٢) ، وهما عندهم اسم
الأرض قبل زراعتها ، فقال له : يا أبا العلاء ، قال : لبيك يا مولانا ، فقال :
هل رأيت أووصل إليك من الكتب القوالب والروالب لميدمان بن يزيد ^(١) ، قال :
إني والله ببغداد في نسخة لأبي بكر بن دريد بخطه ككراع النمل في جوانبها ،
فقال له : أما تستحيي أبا العلاء من هذا الكذب ؟ هذا كتاب عاملي ببلد كذا
واسمه كذا يذكر فيه كذا ، فجعل يحاف له أنه ما كذب ، ولكنه أمرٌ وافق ،
ومات عن سِنَّ عالية ، رحمه الله تعالى ! .

ومن الوافدين على الأندلس من المشرق الشيخ تاج الدين بن حمويه
السرخسي .

ولد سنة ٥٧٣ ، وقد ذكر في رحلته عجائب شاهدها بالمغرب ومشايخ لقيهم ،
ابن حمويه
السرخسي

(١) في ب « برمان بن يزيد » في الموضعين ، وأثبتنا ما ورد في النخبة
(٢) في ب هنا « يذكر فيه القلب والتدليل » وأثبتنا ما يوافق ما في النخبة
وما جاء في قوله « القوالب والروالب لميدمان بن يزيد » الآتي بعد سطر

فمنهم الحافظ أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن حَوْط الله الأنصاري ، قال : سمعت عليه سنة سبع وتسعين وخمسمائة الحديث وشيئا من تصانيف المغاربة ، وروى لنا عن الحافظ أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن قرقول ، وولي ابن حَوْط الله المذكور قضاء غرناطة ، وأدرك ابن بشكوال وابن حيش وابن حميد المرسى النحوى وأبا يزيد السهيلي صاحب الروض وغيرهم ، ومن الشيوخ الذين لقيهم السرخسي المذكور بالمغرب الفقيه ابن أبي تميم قال : وأنشدني :

اسمع أخى نصيحتي والنصح من محض الديانة

لأنقربن إلى الشهاداة والوساطة والأمانه

تَسْلَمُ مِنْ أَنْ تُعْزَى لَزْوٍ رَ أَوْ فُضُولٍ أَوْ خِيَانِهِ

وذكر أنه أدرك الشيخ الولي العارف بالله سيدي أبا العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي صاحب الحالات والكرامات الظاهرة والطريقة الغريبة والأحوال العجيبة ، قال : أدركته بمراكش سنة أربع وتسعين وخمسمائة وقد ناهز الثمانين ، ومهما حصل عنده مال فرقه في الحال ، وتركته في سنة ثمان وتسعين حيا يرزق ، انتهى .

وولي الله السبتي قد ذكرت في غير هذا الموضع بعض أحواله ، فلتراجع في الباب الثامن من ترجمة لسان الدين بن الخطيب ، ومحلّه مقصود لقضاء الحاجات ، وقد زرته مرارا عديدة سنة ١٠١٠ .

وقال لسان الدين في « نفاضة الجراب » : كتبت عن السلطان الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر ونحن بفاس يخاطب الضريح المقصود ، والمنهل المورد ، والمرعى المفتجع ، والخوان الذي يكفى الغرثي^(١) ، ويمرض المرضى ، ويقوت الزمئي^(٢) (١) الخوان - بكسر الخاء - بزنة الكتاب - المائدة ، والغرثي : جمع غرثان كعطشان هو الجائع .

(٢) الزمئي : جمع زمن - بفتح فكسر - وهو المبطل المثوف ، ولعل أصل العبارة « ويقوى الزمئي » .

ويتعداهم إلى أهل الجِدَّة زعموا والغنى ، قبرولى الله سيدى أبى العباس السبتي
تفعنا الله به ، وجبر حالنا ، وأعاد علينا النعم ، ودفع عنا النقم .

يا ولى الإله أنت جَوَاد وقَصَّدْنَا إلى حماك المنيع

رَاعِنَا الدهرُ بالخطوب فجئنا نرتجى من علاك حسن الصنيع

فدَدْنَا لك الأكفَّ نرجى عَوْدَةَ العز تحت شَمْلٍ جميع

قد جَعَلْنَا وسيلة تُرَبِّك الزا كى وزُنِّى إلى العليم السميع

كم غريب أُسْرِى إليك فوافى برضاً عاجل وخير سريع

يا ولى الله الذى جعل جاهه سببا لقضاء الحاجات ، ورفع الأزمات ، وتصريفه
ياقيا بعد الممات ، وصدَّقَ نقولَ الحكايات ظهورُ الآيات^(١) ، نفعنى الله بنبى
فى بركة تربك ! وأظهر على أثر توسلى بك إلى الله ربك ! مُزَقَّ شَمْلٍ ، وفرق
بينى وبين أهلى ، وتعدى علىّ ، وصُرفت وجوه المكاييد إلىّ ، حتى أخرجت من
وطنى وبلدى ، ومالى وولدى ، ومحل جهادى ، وحقّى الذى صار لى طوعا عن
آبائى وأجدادى ، عن بيعة لم يحلَّ عقدتها الدين ، ولا ثبوت جرّحة تشين ،
وأنا قد قرعت بابَ الله سبحانه بتأميلك ، فالتمس لى قبوله بقبولك ، ورُدَّنّى إلى
وطنى على أفضل حال ، وأظهر على كرامتك التى تُشَدُّ إليها ظهور الرجال ، فقد
جعلتُ وسيلتى إليك رسول الحق ، إلى جميع الخلق ، والسلام عليك أيها الولى
الكريم ، الذى يأمن به الخائف وينتصف الغريم ، ورحمة الله ، انتهى .

رجع - والسرخسى المذكور قال فى حقه بعض الأئمة : إنه الشيخ الإمام ،
شيخ الشيوخ ، تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن على بن محمد بن حمويه ، له
رحلة مغربية ، انتهى .

(١) الآيات : جمع آية ، وأصلها العلامة ، وأراد بها الكرامة ، وهذه الفقرة
كقولهم « صدق الخبر الخبر » أى صدق الابتلاء والتجربة الحديث .

وهو من بيت كبير ، وقال البدرى في حقه ما صورته : تاج الدين ، شيخ الشيوخ بدمشق ، أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين ، له كتاب في ثمان مجلدات ذكر فيه أصول الأشياء ، وله « السياسة الملوكية » صنفها للملك الكامل محمد ، وغير ذلك ، وسمع الحديث ، وحفظ القرآن ، وكان قد بلغ الثمانين ، وقيل : لم يبلغها ، وقد سافر إلى بلاد المغرب سنة ثلاث وتسعين ، واتصل بمراكش ، عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، فأقام هنالك إلى سنة ستائة ، وقدم مصر ، وولى مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين ابن حمويه ، انتهى .

وقال غيره : إنه كان فاضلاً متواضعاً نزهاً حسن الاعتقاد ، قال أبو المظفر : كان يحضر مجالس ، وأنشدني يوماً :

لم ألق مستكبراً إلا تحوّل لي عند اللقاء له الكبر الذي فيه

ولا خلّالى من الدنيا ولذتها إلا مقابلتي للتيه بالتيه^(١)

وقال السرخسى المذكور في رحلته : إني وإن كنت خراسانى الطينة ، لكنى شامى المدينة ، وإن كانت العمومة من المشرق ، فإن الخولة من المغرب ، فحدّث باعثٌ يدعو إلى الحركات والأسفار ، ومشاهدة الغرائب فى النواحي والأقطار ، وذلك فى حال ريعان الشباب الذى تُعَصِّده عزائم النفوس بنشاطها ، والجوارح بحفّة حركاتها وانبساطها ، فخرجت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة إلى زيارة البيت المقدس وتجديد العهد ببركاته ، واغتنام الأجر فى حلول بقاعه ومزاراته ، ثم سرت منه إلى الديار المصرية ، وهى آهلة بكل ما تتجمل به البلاد وتزدهى ، وينتهى وصف الواصف لشؤونها ولا تنتهى ، ثم دخلت الغرب من الإسكندرية فى البحر ودخات مدينة مراكش أيام السيد الإمام أمير المؤمنين أبى يوسف يعقوب المنصور

(١) التيه - بكسر التاء - عجب المرء بنفسه وكبرياؤه على غيره ، وهذا البيت

يلحظ معنى قولهم « الكبر على أهل الكبر صدقة »

حديث
للسرخسى عن
منصور بنى
عبد المؤمن

ابن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، فاتصلت بخدمته ، والذي علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن ، ، ويحفظ متون الأحاديث ويُتقنها ، ويتكلم في الفقه كلاماً بليغاً ، وكان فقهاء الوقت يرجعون إليه في الفتاوى ، وله فتاوى مجموعة حسباً أدى إليه اجتهاده ، وكان الفقهاء ينسبونه إلى مذهب الظاهر ، وقد شرحت أحوال سيرته ، وما جرى في أيام دولته ، في كتاب التاريخ المسمى « عطف الذيل » وقد صنف كتاباً جمع فيه متون أحاديث صحاح تتعلق بها العبادات سماه « الترغيب » وتهدده ملك الإفرنج الفُتُشُ في كتابه مرقه ، وقال لرسوله : (ارجع إليهم فلما أتيتهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون) إن شاء الله تعالى ، ثم قال للكاتب : اكتب على هذه القطعة ، يعنى من كتابه الذى مرقه : الجواب ماترى لا ماتسمع :

فلا كُتِبَ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّةُ وَالْقَنَا وَلَا رُسُلٌ إِلَّا الْخَمِيسُ الْعَرَمَرُمُ

ومن شعره أبيات كتب بها إلى الغرب ، وهى :

يا أيها الراكب المزجى مطيته على عذافرة تشقى بها الأكم (١)

بلغ سُلَيْمَى على بعد الديار بها بينى وبينكم الرحمن والرحم

يا قومنا لا تشبوا الحرب إن خمدت واستمسكوا بعرى الإيمان واعتصموا

كم جَرَّبَ الحرب مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلَكُمْ من القرون فبادت دونها الأمم

حاشى الأعارب أن ترضى بمنقصة ياليت شعرى هل ترأهم علموا

يقودهم أرمنى لا خلاق له كأنه بينهم من جهلهم علم

يعنى بالأرمنى قرقوش مملوك بنى أيوب الذى كان ذهب إلى بلاد الغرب الأدنى ، وأوقد النار الحربية من طرابلس إلى تونس مع ابن غانية اللمتونى ، وحديثه مشهور ، وتتمام الأبيات :

(١) المزجى : اسم الفاعل من « أزجى مطيته » أى ساقها ، والعذافرة - بضم

العين وفتح الدال معجمة - الناقة الشديدة العظيمة ، والأكم : جمع أكمة - بفتح

وقوله « تشقى بها الأكم » كناية عن كونها تقطعها غير هيابة لكونها سريعة قوية

الله يعلم أنى مادعوتكم دعاء ذى قوة يوما فينتقم
ولا لجأت لأمر يستعان به من الأمور وهذا الخلق قد علموا
لكن لأجزي رسول الله عن نسب يُنمى إليه وترعى تلکم الذمم
فإن أتيتم فخل الوصل متصل وإن أتيتم فعند السيف نحتكم
ثم قال السرخسي : وبلغنى أن قوما من الغرباء قصدوه ، ومعهم حيوانات مُعلّمة
منها أسد وغراب ، أما الأسد فيقصد من دون أهل المجلس ، ويربض ^(١) بين يديه ،
وربما أوما بالسجود ومد ذراعيه ، وأما الغراب فكان يقول : النصر والتمكين ،
لسيدنا أمير المؤمنين ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

أنس السبل ابتهاجا بالأسد ورأى شبه أبيضه قصد
أنطق الخالق مخلوقاته شهدوا والكل بالحق شهد
أنك خير من صفوته بعد ما طال على الناس الأمد

فأعطاهم وكساهم ، وأحسن حباهم

و بلغنى أن قوما أتوه بفيل من بلاد السودان هدية ، فأمر لهم بصلة ، ولم يقبله
منهم ، وقال : نحن لا نريد أن نكون أصحاب الفيل ^(٢) .

وقال لى يوماً : كيف ترى هذه البلاد ؟ وأين هى من بلادك الشامية ؟ فقلت :
ياسيدنا ، بلادكم حسنة أنيقة محملة مكملة ، وفيها عيب واحد ، فقال : ماهو ؟
فقلت : أنها تُدعى الأوطان ، فتبسم وظهر لى إعجابه بالجواب ، وأمر لى من غد
بزيادة رتبة وإحسان .

وحدثنى بعض عمالهم أنه فرق على الجند والأمراء والفقراء في عيد سنة أربع
وتسعين ثلاثة وسبعين ألف شاة من ضأن ومعز

(١) ربض يربض ربوضاً - مثل جلس يجلس جلوساً - برك

(٢) في الآية الكريمة عن أصحاب الفيل « ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل
عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل » وهو يريد ألا يكون ممن يقال فيهم
مثل ذلك .

وَدَرَج^(١) إلى رحمة الله تعالى سنة خمس وتسعين وخمسة ، وكان قد استخلف ولده محمدا وقرر الأمر له ، انتهى .

قلت : بهذا وأمثاله تعلم فساد مازعمه غير واحد أن يعقوب المنصور هذا تخلى عن الملك ، وفر زاهدا فيه إلى المشرق ، وأنه دفن بالبقيع ، لأن هذه مقالة عامية لا يثبتها علماء المغرب ، وسبب هذه المقالة تولع العامة به ، فكذبوا في موته ، وقالوا : إنه ترك الملك ، وحكوا ما شاع إلى الآن وذاع مما ليس له أصل ، ويرحم الله تعالى الإمام العلامة القاضي الشريف الغرناطي شارح الخرزجية ، إذ قال في شرح مقصورة حازم عند ذكره وقعة الأرك ما معناه : إن بعض الناس يزعمون أن المنصور ترك الملك وذهب إلى المشرق ، وهذا كلام لا يصح ، ولا أصل له . انتهى . وقال في « المغرب » : كان أبوه يوسف قد استوزره في حياته ، وخرج بين يديه ، وتمرس ، وهزم الفرنج الهزيمة الفظيعة ، وتولع بالعلم حتى نفى التقليد وحرق كتب المذاهب ، وقتل على السكر ، انتهى .

وحكى لسان الدين الوزير ابن الخطيب في شرح كتابه « رقم الخلل » ، في نظم الدول « أن المنصور طلب من بعض أعيان دولته رجلين لتأديب ولده يكون أحدهما براً في عمله^(٢) ، والآخر بجرأ في علمه ، فجاءه بشخصين زعم أنهما على وفق مقترح المنصور ، فلما اختبرهما لم يجدهما كما وصف ، فكتب إلى الآتي بهما (ظهر الفساد في البر والبحر) انتهى . وناهيك بهذا دلالة على قوة فطنته ومعرفته ، رحمه الله تعالى .

حديث

للسرخسي عن
أبي الريع
سليمان بن
عبد الله بن
عبد المؤمن

رجع إلى أخبار السرخسي :

وقال في رحلته لما ذكر السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن أمير المؤمنين

(١) درج في الأصل سار ، وأراد بهذه العبارة أنه مات

(٢) يريد أنه ثابت ثابت ثبوت البر ، والبر في الأصل : خلاف البحر .

عبد المؤمن بن علي ، وكان في تلك المدة يلي مدينة سجلماسة وأعمالها : اجتمعت به حين قدم إلى مراكش بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعته ولده محمد ، فرأيته شيخاً بهيئاً المنظر ، حسن الخبر ، فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية ، ومن كلامه في جواب رسالة إلى ملك السودان لغانة ينكر عليه تعويق التجار قوله : نحن نتجاوز بالإحسان ، وإن تخالفنا في الأديان ، وتتفق على السيرة المرضية ، وتتألف على الرفق على الرعية ، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعانیه إلا النفوس الشريرة الجاهلة ، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ، وتردد الجالابة إلى البلد مفيد لسكانها ، ومعين على التمكن من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية لكننا لاستصوب فعله ، ولا ينبغي لنا أن نهى عن خلق وتأتى مثله^(١) ، والسلام ووقع إلى عامل له كثرت الشكاوى منه : قد كثرت فيك الأقوال ، وإغضائي عنك رجاء أن تتيقظ فتصلح الحال ، وفي مبادرتي إلى ظهور الإنكار عليك نسبة إلى شر الاختيار وعدم الاختبار ، فاحذر فإنك على شفا جرف هار .

ومن شعرد المشهور قصيدة يمدح فيها ابن عمه المنصور يعقوب :

هَبَّتْ بنصركم الرياح الأربع	وجرت بسعدكم النجوم الطلوع
واستبشّر الفلك الأثير تيقنا	أن الأمور إلى مرادك ترجع
وأمدك الرحمن بالفتح الذي	ملا البسيطة نوره المتشعشع
لم لا وأنت بدلت في مرضاته	نفساً تُفدّيها انحلالاً تقي
ومضيت في نصر الإله موصما	بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
لله جيشك والصورم تَدْتَضِي	والخيل تجري والأسنة تلمع

(١) أخذ هذه الفقرة من معنى ما ينسب إلى أبي الأسود الدؤلي :

لأنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك ، إذا فعلت ، عظيم

من كل مَنْ تقوى الإله سِلاحُهُ
ما إن له غير التوكل مَفْرَعُ
لا يُسْلِمُونَ إلى النوازل جارهم
يوماً إذا أضحى الجوار يُصَيِّعُ
ومنها يصف انهزام العدو :

إن ظن أن فراره مُنْج له
فبجهله قد ظن ما لا ينفع
أين المفر ولا فرار لهارب
والأرض تُنْشَرُ في يديك وتجمع
أخليفة الله الرضا هُنَيْتُهُ
فتح يُمَدُّ بما سواه ويُشَقَّعُ
فلقد كسوت الدين عزاً شاححاً
ولبست منه أنت ما لا يخلع
هيهات سرُّ الله أودع فيكم
والله يعطى من يشاء ويمنع
لكم الهدى لا يدَّعيه سواكم
ومن ادعاه يقول ما لا يُسْمَعُ
إن قيل مَنْ خير الخلائق كلها
فإليك يا يعقوب تومى الأصبع^(١)
إن كنت تَقْلُو السابقين فإنما
أنت المقدم والخلائق تُبْعُ^(٢)
خذها أمير المؤمنين مديحة
من قلب صدق لم يَشْنُهُ تَصْنَعُ
واسلم أمير المؤمنين لأمة
أنت المأذ لها وأنت المفرع
فالمُدح من غيرى إليك تَطْبَعُ
وعليك يا عَلم الهداة تحية
يفنى الزمان وعرفها يتَضَوَّعُ^(٣)

قال لى الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلانى : دخلت إلى السيد أبى الربيع بقصر
سجلماسة ، وبين يديه أنطاخ عليها رؤس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار
بين سجلماسة وغانة ، وهو ينسكت الأرض بقضيب من الأبنوس ، ويقول :
ولا غرو أن كانت رؤس عداته جواباً إذا كان السيوف رسائله
ومات بعد السائمة ، رحمه الله تعالى ! انتهى

(١) تومى : تشير ، وأصله تومى ، - بالهمز - فقلب الهمزة المتطرفة المكسور
ما قبلها ياء .

(٢) تبع : جمع تابع ، وأراد أن الخلائق كلها أتالية له في الفضل وهو سابقهم جميعاً .

(٣) العرف - بفتح فسكون - الريح الطيبة ، ويتضوع : ينتشر ويفوح

وقال لما هجره أمير المؤمنين يعقوب المنصور ، ووافق ذلك أن وفدَ على حضرة
الخلافة مراكش جمعٌ من العرب والغزَّ من بلاد المشرق ، ونزلوا بتمرتاسقت
ظاهر مراكش ، واستأذنوا في وقت الدخول ، فكتب إلى المنصور :

يا كعبة الجود التي حَجَّتْ لها عَرَبُ الشَّامِ وعُزُّها والديَّامُ
طوبى لمن أمسى يطوف بها غداً ويحلّ بالبيت الحرام ويحرمُ
ومن العجائب أن يفوز بنظرة مَنْ بالشَّامِ ومن بمكة يُحرَّمُ

فعفا عنه ، وأحسن إليه ، وأمره بالدخول بهم ، والتقدم عليهم

حديث
لابن سعيد
صاحب
« المغرب »
عن أبي الربيع
سليمان بن
عبد المؤمن

وقال في « المغرب » في حق السيد أبي الربيع المذكور ، ما ملخصه : لم يكن في
بنى عبد المؤمن مثله في هذا الشأن الذي نحن بصدده ، وكان تقدم على مملكتي
سجلماسة وبجاية ، وكان كاتباً شاعراً أديباً ماهراً ، وشعره مدون ، وله أغاز ، وهو
القائل في جارية اسمها ألوف :

خليلي قولاً أين قلبي ومَنْ به وكيف بقاء المرء من بعد قلبه
ولو شئتُما اسم الذي قد هويته لصحفتما أُمري لكم بعد قلبه (١)

وله الأبيات المشهورة التي منها :

أقول لركب أدْجَلُوا بسُحَيْرَةٍ قِفُوا ساعةً حتى أزورَ ركبَها
وأملأ عيني من محاسن وجهها وأشكو إليها إن أطالت عتابها
فإن هي جادت بالوصال وأنعمت وإلا فحسبي أن رأيت قِبابَها

وقال يخاطب ابن عمه يعقوب المنصور :

فلأملأن الخافقين بذِكرِكُم مادمت حَيًّا ناظماً ومُرْسِلاً
ولأبذلن نصحي لكم جَهْدِي وذَا جَهْدُ الْمُقِلِّ وما عسى أن أفعلا

(١) أُمري لكم هو قوله « قولاً » وقلبه أن تصيره « ألوق » ثم تصحفه إلى
« ألوف » وهو الاسم الذي يلغز فيه .

ولأَخْلِصَنَّ لَكَ الدَّعَاءَ ، وما أنا أَهْلُ لَه ، ولعلَّه أَنْ يُقْبَلَ
وله مختصر كتاب « الأغاني » انتهى

حديث
للسرخسي عن
أبي الحسن
علي بن عمر
ابن عبد المؤمن
رجع - وذكر السرخسي أيضا في رحلته السيد أبا الحسن علي بن عمر بن
أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وقال في حقه : إنه كان من أهل الأدب والطرب ، ولي
بجاية مدة ، ثم عزل عنها لإهماله وإغفاله وانهماكه في ملاذه ، أنشدني محمد بن سعيد
المهدي كاتبه قال : كتب الأمير أبو الحسن إلى أمير المؤمنين يعقوب يمدحه
ويستزيده ، ويطلب منه ما يتقضى به ديونه :

وَجُوهَ الْأُمَانِي بِكُمْ مُسْفِرَةٌ وضاحكة لى مُسْتَبْشِرَةٌ
وَلِي أَمَلٌ فِيكُمْ صَادِقٌ قريب عسى الله أن يوسر^(١)
على ديون وتصحيفها وعندكم الجود والغفره

يعنى ذنوب

وحدثني الشيخ أبو الحسن بن فشتال الكاتب وقد أنشدته :
أوحشتني ولو أطلعت على الذي لك في ضميري لم تكن لي موحشا
فقال : أنشدته هذا البيت في مجلس السيد أبي الحسن ، فقال لي ولمن حضر : هل
تعرفون لهذا البيت ثانياً ؟ فما فينا من عرفه ، فأنشدنا :
أترى رُشيتَ على أطراح مودتي ولقد عهدتك ليس تثنيك الرُشا
أوحشتني - البيت ، انتهى

حديث عن
أبي الحسن من
« المغرب »
وقال في « المغرب » في حق السيد المذكور ، ماملخصه : كان هذا السيد
أبو الحسن قد ولي مملكة تلمسان وبجاية ، وله حكايات في الجود برمكية^(٢) ، ونفس
عالية زكية ، كتب إليه السيد أبو الربيع يوم جمعة :

(١) في ب « عسى الله أن يسره » ولايم بها الوزن .

(٢) برمكية : نسبة إلى برمك جد البرامكة وزراء هارون الرشيد

اليوم يوم الجمعة يوم سرور ودعة
وشملنا مفترق فهل ترى أن نجتمع

فأجابه بقوله :

اليوم يوم الجمعة وربنا قد رفعه
والشرب فيه بدعة فهل ترى أن ندعه

قال : ولقظة « السيد » في المغرب بذلك العصر لا تطلق إلا على بني عبد المؤمن ابن علي ، انتهى .

رجع - قال السرخسي ، وقد ذكر في الرحلة المذكورة السيد أبا محمد عبد الله صاحب فاس : وله من أبيات في الفخر وقد انتحلها غيره :

حديث
للسرخسي عن
أبي محمد
عبد الله
صاحب فاس

أست ابن من تشي الليالي انتقامهم وترجو نداهم غايات السحاب
يخطون بالخطى في حومة الوغى سطور المنايا في نحور المقانب^(١)
كتاباً بأطراف العوالي ونفسه دم القلب مشكولاً بنضح الترائب
وما كنت أدري قبلهم أن معشراً أقاموا كتاباً من نفوس الكتاب
وأشدني المقدم الأمير أبو زيد بن بكيت قال : أنشدني بعض السادة من بني عبد المؤمن :

فديت من أصبحت في أسرِهِ وليس لي من حكمه فادي
إن حل يوماً وادياً كان لي جنة عدن ذلك الوادي
ثم ذكر رحمه الله تعالى جملة من علماء الأندلس والمغرب لقيهم في هذه الرحلة .
ومن نظم السرخسي المذكور قوله رحمه الله تعالى :

من نظم
السرخسي

يا ساهر المقلة لا عن كرى غفلت عن هجعي وأوصابي^(٢)

(١) الخطي : الرمح ، منسوب إلى الخط ، والمقانب : جمع مقنب ، بزنة منبر ، وهو الجماعة من الجيش .

(٢) المهجع : المهجوع وهو النوم ، والأوصاب : الأوجاع ، واحدها وصب ، بفتحتين

للم يكن وجهك لى قبلة ما أصبح الحاجب محرابى
 وكان متفناً فى العلوم ، وهو عم الأمراء الوزراء الرؤساء فخر الدين وإخوته ، ومن
 مصنفاته « المسالك والممالك » و « عطف الذيل » فى التاريخ ، وله أموال وتخاريج
 وقدمه المنصور صاحب المغرب على جماعة ، وتوفى رحمه الله تعالى بدمشق ، ودفن
 فى مقابر الصوفية عند المنبيع ، وكان على الهمة ، شريف النفس ، قليل الطمع ،
 لا يلتفت إلى أحد رغبة فى دنياه ، لامن أهله ولا من غيرهم ، وذكره صاحب
 « المرأة » وغيره ، وترجمته واسعة ، رحمه الله تعالى !

ومن الوافدين على الأندلس ظفر البغدادى .

ظفر البغدادى

سكن قرطبة ، وكان من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط
 كعباس بن عمر الصقلى ويوسف البلوطى وطبقتهما ، واستخدمه الحكم المستنصر
 بالله فى الوراقه^(١) ، لما علم من شدة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها ، وقد أشار
 ابن حيان فى كتاب « المقتبس » إلى ظفر هذا ، رحمه الله تعالى !

ومنهزم الرازى ، وهو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط ، الكتانى ، الرازى
 والد أبى بكر محمد صاحب التاريخ ، غلب عليه اسم بلده ، وكان يفد من
 المشرق على ملوك بنى مروان تاجرا ، وكان مع ذلك متفناً فى العلوم ، وهلك
 مُنْصَرَفَه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بالبيرة ، فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣
 ذكره ابن حيان فى « المقتبس » .

محمد بن موسى
 الكتانى ،
 الرازى

ومنهزم الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث
 ابن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان ، التميمى ، الدارمى ، البغدادى
 سمع من أبى طاهر محمد بن عبد الرحمن الخالص وغيره ، وخرج من بغداد

أبو الفضل
 محمد بن
 عبد الواحد
 التميمى ،
 الدارمى ،
 الوزير

(١) الوراقه : صناعة النسخ ونقل الكتب

رسولا عن أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي رضى الله تعالى عنه إلى صاحب إفريقيا المعز بن باديس ، واجتمع مع أبي العلاء المعري بالمرّة ، وأنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب ، فقبل عينيه ، وقال له : الله أنت من ناظم ! وخرج من إفريقيا من أجل فتنة العرب ، وخيم عند المأمون بن ذى النون بطليطلة ، وله فيه أمداح كثيرة ، ومن فرائد شعره قوله :

يا ليل ألا انجلت عن قلق طلت ولا صبر لى على الأرق^(١)
جفت لحاظي التغميض فيك فما تطبق أجفانها على الحدق
كأننى صورة ممثلة ناظرها الدهر غير منطبق

وقال :

يزرع ورداً ناضراً ناظرى فى وجنة كالقمر الطالع
أمنع أن أطفأ أزهاره فى سنة المتبوع والتابع
فلم منعم شفتي قطفها والشرع أن الزرع للزارع
هكذا نسبها له غير واحد كابن سعيد وابن كتيبة ، وبعضهم ينسبها للقاضى عبد الوهاب .

قلت : وقد أجاب عنها بعض المغاربة بقوله :

سلمت أن الحكم ما قاتم وهو الذى نصّ عن الشارع
فكيف تبغى شفة قطفه وغيرها المدعو بالزارع

ورده شيخ شيوخنا الإمام الحافظ أبو عبد الله التذمى ثم التماسانى بقوله :

فى ذا الذى قد قلتم مبحث إذ فيه إيهام على السامع
سلمت الحكم له مطلقاً وغير ذا نصّ عن الشارع

يعنى أنه يلزم على قول المجيب أن يباح له النظر مطلقاً ، والشرع خلافه .

وأجاب بعض الحنفية بقوله :

لأن أهل الحب في حكمنا عبيدنا في شرعنا الواسع
والعبد لا ملك له عندنا فحقه للسيّد المانع

وهو جواب حسن لا بأس به

ورأيت جوابا لبعض المغاربة على غير رويّة ، وهو :

قل لأبي للفضل الوزير الذي باهى به مغربنا الشرق
غرست ظلما وأردت الجنى وما لعرق ظالم حق

قلت : وهذا مما يعين أن الأبيات لأبي الفضل الدارمي المذكور في الذخيرة ،

لا للقاضي عبد الوهاب ، والله تعالى أعلم .

ومن شعر الوزير المذكور قوله :

بين كريمين منزل واسع والودّ حالٌ تُقربُ الشاسع

والبيت إن ضاق عن ثمانية متسع بالوداد للتاسع

وولد رحمه الله تعالى سنة ثمان وثمانين وثلثمائة ، وهو من بيت علم وأدب ، قال

الحميدى : أخبرني بذلك أبو عمر رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث ،

وتوفى بطليطلة سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وقال ابن حيان : توفى ليلة الجمعة

لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، في كنف المأمون

يحيى بن ذى النون ، وذكر أنه كان يُتهم بالكذب ، فالله تعالى أعلم بحقيقة الأمر .

وقال ابن ظافر في كتابه « بدائع البداهة » مانصه : حضر أبو الفضل الدارمي

البغدادى مجلس المعز بن باديس ، وبالمجلس ساق وسيم قد مسك عذاره وورد خديه ،

ومجزت الراح أن تفعل في الندامى فعل عينيه ، فأمره المعز بوصفه ، فقال بديها :

ومُعَذَّرَ نقش الجلالِ بِمِسْكِهِ خَدَّاهُ بدم القلوب مضرجا

لما تيقن أن سيف جفونه من ترّجسٍ جعل العذار بنفسجا

وقوله في جارية تبخرت بالنند :

ومَحْطُوطَةُ المُنْتَنِ مَهْضُومَةُ الحَشَى مُنْعَمَةُ الأُرْدافِ تَدْمِي مِنَ المَسِّ (١)

(١) محطوطة المنتن : ممدوتهما ، وفي ب « محطوطة » محرفا

إذا ما دُحَانُ الند من حَبِيبِهَا عَلَا على وجهها أبصرت غَيًّا على شمس
وقوله :

ولأغرزن بمهجتي في حبه غرزا يطيل مع الخطوب خطابي
ولئن تعزز إن عندي ذلة تستعطف الأعداء للأحباب
وقوله :

دَعَتْنِي عَيْنَاكَ نحو الصبا دُعَاءٌ يكرر في كل ساعه
ولولا وَحَقِّكَ عُذْرُ المشيب لقلت لعينيك سمعاً وطاعه
وقد تمثل بهذين البيتين لسان الدين بن الخطيب في خطبة تأليفه المسمى « بروضه التعريف ، بالحلب الشريف » .

وقال أبو الفضل الدارمي المذكور أيضاً :

سطا الفراق عليهم غَفَلَةٌ ففَدَّوْا من جوره فِرَقًا من شدة الفِرَقِ (١)
فسرتُ شرقاً وأشواقى مُغْرَبَةً يابعد ما نرحت عن طُرُقهم طُرُقِي
لولا تدارك دمعى يوم كاظمة لأحرق الركب ما أبديتُ من حُرْقِي
ياسارق القلب جهرًا غير مكترث أُمِنْتُ في الحب أن تُعْدَى على السَّرَقِ (٢)
أُرمقُ بعين الرضا تُنْعَشُ بعاطفة قبل المنية ما أبقيتُ من رَمَقِي (٣)
لم يبق منى سوى لفظٍ يَبُوحُ بما ألقى فيا عجباً للفظ كيف بقى
صِلْنِي إذا شئتُ أو فاجهر علانية فكل ذلك محمول على الحدق

وقال :

تذكرُ نجدًا والحمى فبكى وجدا وقال : سقى الله الحمى وسقى نجدًا
وخفة أنفاس الخُرَامِي عَشِيَّة فهاجت إلى الوجد القديمه وجدا
فأظهر سُـلُوانًا وأضمر لوعة إذا طفئت نيرانها وَقَدَّتْ وَقَدًا

(١) فرقا - بكسر ففتح - جمع فرقة ، والفرق - بفتح الفاء والراء جميعاً - الخوف

(٢) السرقة - بفتح السين والراء جميعاً - السرقة

(٣) في نسخة عند ب « تنعش بعافية »

ولو أنه أعطى الصباية حكمها لأبدى الذى أخفى وأخفى الذى أبدى
وقال أيضاً :

قلت للملقى على الخدين من وَرْدٍ خَارَا^(١)
أَسْبَلَ الصَّدْعُ عَلَى خَدِّكَ مِنْ مِسْكٍ عَذَارَا^(٢)
أَمْ أَعَانَ اللَّيْلَ حَتَّى قَهَرَ اللَّيْلُ النَّهَارَا
قال: مَيِّدَانُ جَرَى الْحَسَنَ عَلَيْهِ فَاسْتَدَارَا
رَكَضَتْ فِيهِ عَيُونَ فَانَارَتْهُ غَبَارَا

وقال :

وكتب أهديت نفسى له فَهَى مِنْ السَّوْءِ فَدَى نَفْسَهُ
فلست أدري بعد ما حَلَّ بِي بِمِسْكِهِ أَتَلَفَ أَمْ نَفْسَهُ^(٣)
سَلَطَ خَذْيَهُ عَلَى مَهْجَتِي فَاسْتَأْصَلَتْهَا وَهَى مِنْ غَرَسِهِ^(٤)

وقال :

وشادن أسرف فى صده وزاد فى التيه على عبده
الحسن قد بث على خده بنفسجا يزهو على ورده
رأيته يكتب فى طرسه خطأ يبارى الدر من عقده
فَخِلْتُ مَا قَدْ خَطَهُ كَفَهُ لِلْحَسَنِ قَدْ خُطَّ عَلَى خَدِهِ

وقال :

إني عشقت صغيرا قد دَبَّ فِيهِ الْجَمَالُ
وكاد يغشى حديث الفضول منه الدَّلَالُ
لومر فى طُرُقِ الهَجَرِ لَا اعْتَرَاهُ ضَلَالُ
يريك بدرا منيرا فى الحسن وَهُوَ هَلَالُ

(١) أصل الحار - بكسر الحاء ، بزنة الكتاب - ماتعطى به الجارية وجهها

(٢) الصدغ - بالضم - شعر يتدلى على الخد ، ويلوى ، ويشبه بالعتوب

(٣) النقس - بالكسر - المداد الذى يكتب به

(٤) استأصلتها : أراد أتلفها كلها ، والضمير المؤنث يعود إلى المهجة

وقال :

ظبي إذا حَرَكَ أصداعه لم يلتفت خَلْقٌ إلى العِطْرِ
غَفَى بشعري منشداً ليتنى اللفظ الذي أودِعَهُ شعري
فكلما كَرَّرَ إنشاده قبلته فيه ولم يَذَرِ

وقال :

أينفع قولي إنني لا أحبه ودمعي بما يُمليه وجدى يكتب
إذا قلت للواشين لست بعاشق يقول لهم فيض المدامع يكذب

وقال :

وهبني قد أنكرتُ حبك جملةً وآليت أني لا أروم محطها
فمن أين لي في الحب جَرَحُ شهادةٍ سقامي أملاها ودمعي خطها

وقال :

أنا أخشى إن دام ذا الهجر أن يذس شط من حبه عِقَالٌ وثاق
فأريح الفؤاد مما اعتراه وأرُدُّ المـوى على العشاق

وقال :

كلانا لعمري ذائبان من الموى فنارك من جمر وناري من هجر
فأنتِ على ما قد تقاسين من أذى فصدرك في نار وناري في صدري

وقال :

ومن عجب العشق أن القتل يحن ويصـبو إلى القاتل^(١)

وقال :

ألم أجعل مُسَارَ النقع بجرأً على أن الجياد له سَفِين^(٢)

(١) في « ومن أعجب » ومعنى هذا البيت متصل بقول الآخر :

خليلى - فيما عشتما - هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

(٢) النقع - بالفتح - الغبار .

وقال :

أصبحت أحلب تيسا لا مدرَّ له والتيسُ مَنْ ظَنَّ أن التيسَ محبوب
وأما الحكيم أبو محمد المصري وهو القائل :

رعى الله دهرًا قد نعمنا بطيبه لياليه من شمس الكؤوسِ أصائلُ
ونرجسنا در على التبر جامدُ وخمرتنا تبرُّ على الدر سائل

فقد ترجمه في « الذخيرة » فليراجع ، فإن الذخيرة غريبة في البلاد الشرقية ، وقد كان عندي بالمغرب من هذا النوع ما أستعين به ، فخلفته هنالك ، والله تعالى يلم الشمل ، وقد ذكر فيها أنه مغربي سافر إلى مصر ، ف قيل له « المصري » لذلك ، فليعلم ، والله تعالى أعلم .

ومن الوافدين على الأندلس أشهب بن العضد الخراساني .

قال ابن سعيد : أنشدنا لما وفد على ابن هود في إشبيلية قصيدة ابن النبيه .

* طاب الصُّبُوحُ لنا فهاك وهات *

وادعاها ، وفيها :

في روضة غنَّا تخال طيورَها وغصونَها همزا على أَلْفَاتِ^(١)

ولم أجد هذا البيت في قصيدة ابن النبيه ، انتهى .

ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو الحسن البغدادي الفكيك^(٢) .

وهو مذکور في الذخيرة ، وكان حلوا الجواب ، مليح التندر ، يضحك من

حضر ، ولا يضحك هو إذا ندر ، وكان قصيرا دميما .

قال : ورأيت يومًا وقد لبس ثوبا^(٣) أحمر على بياض ، وفي رأسه طرطورا خضر ،

عم عليه عمة لازوردية ، وهو بين يدي المعتمد بن عباد ينشد شعرا قال فيه :

وأنت سليمان في ملكه وبين يديك أنا الهُدُودُ

(١) غنا : أصله غناء ، فقصره حين اضطر لإقامة الوزن

(٢) في الذخيرة « وكان أيضا في أصحاب ابن شهيد رجل بغدادي يعرف بالككة

له نوادر تضحك » وكتب ناشرها أن الفكيك المعروف لم يدرك الوزير ابن شهيد .

(٣) في ١ « لبس طاقا أحمر »

أشهب
بن العضد
الخراساني

أبو الحسن
الفكيك
البغدادي

وأنشد له في المعتمد :

أبا القاسم الملك المعظم قدره سواك من الأملاك ليس يُعَظَّمُ
لقد أصبحت حمص بعدلك جنة وقد أبعدت عن ساكنيها جهنم
ولى في مُحْيَاك الربيع وإننى أزخرف أعلام الثناء وأزفم^(١)
وأنفقت ما أعطيتنى ثقة بما أوئل فالدينار عندى درهم
وقلبى إلى بغداد يصبو وإننى لنشر صباها دائما أُنَسِّمُ

وقال :

وروى على ربع العتيق دموعه عقيقا فقيها توأم وفريد^(٢)
شهدت وما تغنى شهادة عاشق بأن قتيل الغانيات شهيد

ومنها :

إذا قابله قَبَلُوا تَرب أرضه وهم لعلاه رُكْع وسجود
وقد هزَّ منه الله للملك صارما تقام بحدى شَفَرَتِيه حدود

وقال :

لأية حالٍ حالٍ عن سنة الكرى ولم أضغ يوما فى هواه إلى العذل^(٣)

ومنها :

كأن بقاء الطلِّ فوق جفونها دموع التصابي حِرْن فى الأعين النُجْلِ

ومنها :

تملكت رقى بالعوارف منعا وأغنيتهى بالجود عن كل ذى فضل^(٤)
وأنسيتنى أرض العراق ودجلة وربعى حتى ما أحنّ إلى أهلى

وقال فى المقتدر بن هود :

(١) فى صدر هذا البيت « ولى بحياك الربيع عاما وأشهرا »

(٢) توأم: أراد به الذى معه مثله ، والفريد : المنفرد ، وفى « وذرى على ربع العتيق »

(٣) حال : ماض معناه تحول (٤) العوارف : جمع عارفة ، وهى المعروف

لعزك دَلَّتْ ملوك البشر
وأصبحتَ أخطرَهم بالقنا
سهرتَ وناموا على المآثرات
وجليتَ في حيث صَلَّى الملوكُ
وعفرتَ تيجانهم في العفر
وأركبهم لجواد الخطر
فما لهمُ في المعالي أثر
فكل بذيلِ العلا قد عَثَرَ^(١)

ومنها :

وأتم ملوك إذا شاجروا
وأظلمت من قسيده :

غنى حسامك في أرجاء قرطبة
حيث الدماء مُدام والقنا زهر
وكان مشهورا بالمهجاء ، وله في نقيب بغداد وكانت في عنقه غُذَّة :

بَلَعَ الأمانة فهي في حُلُومِهِ
وقال في ناصر الدولة بن حمدان :

ولئن غلظت بأن مَدَحْتِكَ طالبا
فالدولة الغراء قد غلظت بأن
إن تم أمرك مع يدٍ لك أصبحت
ومما ينسب إليه ، وقيل لغيره :

ووعدتني وَغَدًا حسبتك صادقا
فإذا جُمِعْتُ أنا وأنت بمجلس
فجعلت من طمعي أجيء وأذهب
قالوا مسيلةً وهذا أشعب^(٢)

ومنها إبراهيم بن سليمان الشامي .

إبراهيم بن
سليمان الشامي

دخل الأندلس من المشرق في أخريات أيام الحكم شاديا للشعر ، وهو من

(١) في ب « وجلت في حيث ضل الملوك » محرفا

(٢) مسيلة : رجل من بني جنيقة ادعى النبوة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم
وقوتل في حروب الردة ، وضرب مثلاً لأكذب الناس ، وأشعب : رجل يضرب به
المثل في الطمع .

موالى بنى أمية ، ولم ينفق على الحكم ، وتحرك في أيام ولده الأمير عبد الرحمن فنفق عليه ، ووصله ، ثم في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكان أدرك بالمشرق كبار المحدثين كأبي نواس وأبي العتاهية .

ومن شعره ما كتب به إلى الأمير عبد الرحمن :

يا من تعالى من أمية في الذرى قدما فأصبح على الأركان
إب الغمام غيائه في وقته والغيث من كفيك كل أوان
فالغيث قد عم البلاد وأهلها وطمئت بينهم فبل لسانى
وله في الأمير عبد الرحمن بن الحكم :

ومن عبد شمس بالمغرب عصبة فأسعدوا الرحمن حيث أحلها
دحا تحتها مهذا من العزأما ومد جناحا فوقها فأظلمها^(١)

ومنهم أبو بكر بن الأزرق ، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن حامد ابن موسى بن العباس بن محمد بن يزيد ، وهو الحصني ، ابن محمد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان .

من أهل مصر ، خرج من مصر سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة ، وصار إلى القيروان ، وامتنح بها مع الشيعة ، وأقام محبوسا بالمهدية ، ثم أطلق ووصل الأندلس سنة تسع وأربعين ، فأحسن إليه المستنصر بالله الحكم ، وكان أدبيا حكيما ، سمع من خاله أبي بكر أحمد بن مسعود الزهرى ، وولد سنة تسع عشرة وثلثمائة بمصر ، وتوفي بقرطبة في ذى القعدة سنة خمس وثمانين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى !

ومن الوافدين على الأندلس من المشرق رئيس الغننين أبو الحسن على بن نافع ، الملقب بزرياب^(٢) ، مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي .

(١) دحا الله الأرض : بسطها ، يريد أن الله تعالى مكن لهم في الأرض وحاطهم برعايته

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٣٢٢) ثم انظر الجزء الثالث

قال في « المقتبس » : زرياب لقب غلب عليه ببلاؤه من أجل سواد لونه ، مع فصاحة لسانه ، وحلاوة شمائله ، شبه بطائر أسود غرد عندهم ، وكان شاعراً مطبوعاً ، وكان ابنه أحمد قد غلب عليه الشعر أيضاً ، وكان من خبره في الوصول إلى الأندلس أنه كان تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد ، فتلقف من أغانيه استراقاً ، وهدي من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت وصورة الطبع إلى ما فاق به إسحاق ، وإسحاق لا يشعر بما فُتح عليه ، إلى أن جرى للرشيدي مع إسحاق خبره المشهور في الاقتراح عليه بمنع غريب مجيد للصنعة ، لم يشتهر مكانه إليه ، فذكر له تلميذه هذا ، وقال : إنه مولى لكم ، وسمعت له نزعات حسنة ، ونغمات رائقة ، ملتاطة بالنفس ^(١) ، إذا أنا وقفتُ على ما استغرب منها وهو من اختراعي واستنباط فسكري ، وأحدس ^(٢) أن يكون له شأن ، فقال الرشيد : هذا طليقي ، فأخضرنه لعل حاجتي عنده ، فأخضره ، فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب ، وسأله عن معرفته بالغناء ، فقال : نعم أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلا لك ، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك ، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق ، فلما أدنى إليه وقف عن تناوله ، وقال : لي عود نحتته بيدي ، وأرهفته بإحكامي ، [و] لا أرتضى غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه ، فأمر بإدخاله إليه ، فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذي دفعه قال له : ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده ، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودى ، فقال له : ما أراها إلا واحداً ، فقال : صدقت يا مولاي ، ولا يؤدي النظر غير ذلك ، ولكن عودى وإن كان في قدر

(١) ملتاطة بالنفس : لاصقة بها ، يقولون « هذا أمر لا يلتاط بصغرى » يريدون لا يلتاط بقلبي ، والمقصود أنه أمر غير محبوب

(٢) أحدس : مضارع من الحدس وهو التخمين ، والمراد الظن

جسم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه ، وأوتار من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثة ورخاوة ، وبمئها ومثلها اتخذتهما من مضران شبل أسد ، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة^(١) أضعاف ما لغيرها من مضران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بهما ليس لغيرها ، فاستبرع الرشيد وصفه وأمره بالغناء ، فجس ، ثم اندفع فغنائه :

يأيها الملك الميمون طائر هارون راح إليك الناس وابشكروا

فأتمَّ النوبة ، وطار الرشيد طرباً ، وقال لإسحاق : والله لولا أني أعلم من صدقك لي على كتمانك إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لترتكب إعلامي بشأنه ، فخذ إليك واعتن بشأنه ، حتى أفرغ له ، فإن لي فيه نظراً ، فسقط في يد إسحاق^(٢) ، وهاج به من داء الحسد ما غلب [على] صبره ، فخلا بزرياب وقال : يا علي ، إن الحسد أقدم الأدواء وأدوؤها ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ، [و] لاحيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك ، وقصدت منفعتك فإذا أنا قد أتيت نفسي من مأمنها بإذنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي ، وترتقي أنت فوق ، وهذا مالا أصاحبك عليه ولو أنك ولدي ، ولولا رعي لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك ، يكون في ذلك ما كان ، فتخير في ثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفاً إلي ، فخذ الآن حذرک منى فلست والله أبقي عليك ، ولا أدع اغتيالک باذلاً في ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك ، فخرج زرياب لوقته ، وعلم قدرته على ما قال ، واختار القرار قدامه ،

(١) في « الجدة »

(٢) سقط في يده - بالبناء للمجهول - كناية يراد بها معنى ندم وتخير وتحسر

على ما كان منه .

فأعانه إسحاق على ذلك سريعاً ، ورأش جناحه ^(١) ، فرحل عنه ، ومضى يبغي مغرب الشمس ، واستراح قلب إسحاق منه .

وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه ، فأمر إسحاق بحضوره ، فقال : ومن لي به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يُزهِى به من غنائه ، فما يرى في الدنيا من يَعدِّله ، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدّر التقصير به ، والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً غنى ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمر المؤمنين ، فإنه كان به لَمَمٌ ^(٢) يغشاه ويفرط خبطه ، فيفزع من رآه ، فسكن الرشيد إلى قول إسحاق ، وقال : على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير .

ومضى زرياب إلى المغرب ، فَنَسِيَ بالمشرق خبره ، إذ لم يكن اسمه شهر هنالك شهرته بالصقع الذي قطنه ، ونزعت إليه نفسه ، وسَمَتْ به همته ، فأَمَّ أمير ^(٣) الأندلس الحكم الملبان لمواليه ، وخاطبه ، وذكر له نزاعه إليه ، واختياره إياه ، ويعلمه بمكانه من الصناعة التي ينتحلها ، ويسأله الإذن في الوصول إليه ، فسرَّ الحكم بكتابيه وأظهر له من الرغبة فيه والتطلع إليه وإجمال الموعد ما تمناه ، فسار زرياب نحوه بعياله وولده ، وركب بحر الزُّفَّاق إلى الجزيرة الخضراء ، فلم يزل بها حتى توالى عليه الأخبار بوفاة الحكم ، فهم بالرجوع إلى العدوَّة ، فكان معه منصور اليهودي المغنى رسول الحكم إليه ، فثَنَاهُ عن ذلك ورغبه في قصد القائم مقام ^(٤) الحكم ، وهو عبد الرحمن ولده ، وكتب إليه بخبر زرياب ، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطاعه إليه ، والسرور بقدمه عليه ، وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ، ويوصلوه إلى قرطبة ، وأمر خصياً من أكابر خصيانه أن يتلقاه ببغال ذكور

(١) رأش جناحه : كناية يراد بها قواه وشد ساعده .

(٢) اللمم - بفتح اللام والميم جميعاً - الجنون الخفيف ، أو طرف من الجنون يعلم بالإنسان . (٣) أم : قصد (٤) في « مكان الحكم »

وإناث وآلات حسنة ، فدخل هو وأهله البلد ليلاً صيانة للحرم ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه ، وخَلَعَ عليه ، وبعد ثلاثة أيام استدعاه ، وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتباً ، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه - وكانوا أربعة : عبد الرحمن ، وجعفر ، وعبيد الله ، ويحيى - عشرون ديناراً لكل واحد منهم كل شهر ، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، منها لكل عيد ألف دينار ، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار ، وأن يقطع له من الطعام العام ثلثمائة مدى ثلثائها شعير وثلثها قمح ، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار ، فلما قضى له سؤله وأنجز موعوده وعلم أن قد أرضاه وملك نفسه استدعاه ، فبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه ، فما هو إلا أن سمعه فاستهوله واطَّرح كل غناء سواه ، وأحبه حباً شديداً ، وقدمه على جميع المغنين ، وكان لما خلا به أكرمه غاية الإكرام ، وأدنى منزلته ، وبسط أمله ، وذاكره في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء ، فحرك منه بجزراً زحَرَ عليه مدّه^(١) ، فأعجب الأمير به ، وراقه ما أورده ، وحضر وقت الطعام فشرفه بالأكل معه هو وأكابر ولده ، ثم أمر كاتبه بأن يعقد له صكاً بما ذكرناه آنفاً ، ولما ملك قلبه واستولى عليه حبه ، فتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراد .

وذكر أن زرياب ادعى أن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد ، كان يهُبُّ من نومه سريعاً فيدعو بحار يتيه غزلان وهنيدة ، فيأخذان عودهما ، ويأخذوه عوده ، فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ، ثم يعود عجلاً إلى مضجعه ، وكذلك يحكى عن إبراهيم الموصلي في لحنه البديع المعروف بالماخوري أن الجن

(١) في « خرك عايه بحرا - إلخ » زخر البحر : طما وتما ، والمد : ارتفاع ماء البحر ، وقالوا « زخر القوم » إذا جاشوا لفير أو حرب

طارحته إياه ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

وزاد زرياب بالأندلس في أوتار عوده وترا خامساً اختراعاً منه ، إذ لم يزل العودُ ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع ، فزاد عليها وترا خامساً أحمر متوسطاً ، فاكْتَسَبَ به عوده ألطفَ معنى وأكمل فائدة ، وذلك أن الزير^(١) صُيغَ أصفر اللون ، وجعل في العود بمنزلة الصفراء من الجسد ، وصيغ الوتر الثاني بعده أحمر ، وهو من العود مكان الدم من الجسد ، وهو في الغلظ ضعف الزير ، ولذلك سمي مثني ، وصيغ الوتر الرابع أسود ، وجعل من العود مكان السوداء من الجسد ، وسمى البهم ، وهو أعلى أوتار العود ، وهو ضعف المثلث الذي عطل من الصيغ وترك أبيض اللون وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد ، وجعل ضعف المثني في الغلظ ، ولذلك سمي المثلث ، فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع تقضى طبائعها بالاعتدال ، فالهم حار يابس يقابل المثني وهو حار رطب وعليه تسويته ، والزير حار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب ، قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه ، إلا أنه عطل من النفس ، والنفس مقرونة بالدم ، فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموي هذا الوتر الخامس الأحمر الذي اخترعه بالأندلس ، ووضعه تحت المثلث وفوق المثني ، فأكمل في عوده قوى الطبائع الأربع ، وقام الخامس المزيّد مقام النفس في الجسد .

وهو الذي اخترع بالأندلس مضرب العود من قوادم النّسر ، معتاضاً به من مرهف الخشب^(٢) ، فأبرع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخففته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه .

(١) الزير ، والبهم ، والمثني ، والمثلث : أسماء لأوتار العود .

(٢) في ب « مرهف الخشب » ، وفي ا « مرهف الخشب » وأحسبه محرفاً عما أثبتته ، ويراد بمرهف الخشب المرقق المدقق منه .

وكان زرياب عالماً بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة ، واختلاف طبائعها وأهويتها وتشعب بحارها ، وتصنيف بلادها ، وسكانها ، مع ما سنح له من فك كتاب الموسيقى ، مع حفظه عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها ، وهذا العدد من الألحان غاية ما ذكره بطليموس واضع هذه العلوم ومؤلفها .

وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة للملوكية ما لم يُجدّه أحد من أهل صناعته ، حتى اتخذهُ ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه ، واستحسنه من أطعمته ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به .

فمن ذلك أنه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل أو امرأة يرسل جُمته^(١) مفروقاً وسط الجبين عاماً للصدغين والحاجين ، فلما عين ذوو التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها إلى آذانهم ، وإسداها إلى أصداعهم ، حسبما عليه اليوم الخدم الخصية والجواري - هوت إليه أفئدتهم ، واستحسنوه .

ومما سنه لهم استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج لطرده ريح الصنان من مغانيهم^(٢) ، ولا شيء يقوم مقامه ، وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد ، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وضر^(٣) ، فدلهم على تصعيدها بالملح ، وتبييض لونها ، فلما جربوه أحمده جِدّاً . وهو أول من اجتنب بقلّة الهليون المسماة بلسانهم الإسفراج ، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله .

(١) في ١ « يرسل شعره مفروقاً غاما »

(٢) المغابن : الأماكن التي يكثر فيها العرق من الجسد ويخاف منه فيها النتن كالإبطين

(٣) الوضر - بفتح الواو والضاد جميعاً - الوسخ الناشئ عن الدم .

ومما اخترعوه من الطبخ اللون المسمى عندهم بالتقايا^(١) ، وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلى بالسنبوسق والكباب ، ويليه عندهم لون التقلية المنسوبة إلى زرياب .

ومما أخذ عنه الناس بالأندلس تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة ، وإيثاره فرش أنطاع الأديم^(٢) اللينة الناعمة على ملاحف الكتان ، واختياره سفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن الأديم بأقل مسحة ، ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذى يليق به ، فإنه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وجعلهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن فى ست بقين من شهر يونيه الشمسى من شهورهم الرومية ، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسى منها ثلاثة أشهر متوالية ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة ، ورأى أن يلبسوا فى الفصل الذى بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من مصبغهم حجاب الخبز والملحم والحرر والدرايع^(٣) التى لا بطائن لها لقربها من لطف ثياب البياض الظواهر التى ينتقلون إليها خلفتها وشبهها بالحاشى ثياب العامة ، وكذا رأى أن يلبسوا فى آخر الصيف وعند أول الخريف الحاشى المرؤية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد فى الغدوات ، إلى أن يقوى البرد فينتقلون إلى أثخن منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف القراء .

واستمر بالأندلس أن كل من افتتح الغناء فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأى نقر كان ، ويأتى أثره بالبسيط ، ويختم بالحركات والأهزاج تبعاً لمراسم زرياب .

(١) فى أصل « بالتقايا » وفى نسخة عندها « بالتقايا »

(٢) الأديم : الجلد ، وفى أمثالهم « كدابة وقد حلم الأديم »

(٣) الدرايع : جمع دراعة - بضم الدال - وهى جبة من صوف مشقوقة المقدم

وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالتعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوى الصوت ، فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على القم ، فإن كان ألس الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه^(١) بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه ، وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا حَجَّام ، أو يصيح آه ، ويمدّ بها صوته ، فإن سمع صوته بهما صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا يعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفّس عرف أن سوف ينجب^(٢) ، وأشار بتعليمه ، وإن وجده خلاف ذلك أبعده .

وكان له من ذكور الولد ثمانية : عبد الرحمن ، وعبيد الله ، ويحيى ، وجعفر ، ومحمد ، وقاسم ، وأحمد ، وحسن . ومن الإناث ثنتان : عليّة ، وحمدونة . وكلهم غنى ، ومارس الصناعة ، واختلفت بهم الطبقة ، فكان أعلاهم عبيد الله ، ويتلوه عبد الرحمن ، لكنّه ابتلى من فرط التيه وشدة الزهو^(٣) وكثرة العجب بغضائه والذهاب بنفسه بما لم يكن له شبه فيه ، وقلماً يسلم مجلس حضوره من كدر يحدثه ، ولا يزال يجترى على الملوك ، ويستخفّ بالعظماء ، ولقد حمّله سخفه على أن حضر يوماً مجلس بعض الأكابر الأعظم في أنس قد طاب به سروره ، وكان صاحب قنص تغلب عليه لذته ، فاستدعى بازياً كان كائناً به كثير التذكر له ، فجعل يمسح أعطافه ويُعدّل قوامه ، ويرتاح لنشاطه ، فسأله عبد الرحمن أن يهبه له ، فاستحيا من رده ، وأعطاه إياه مع ضنّه به ، فدفعه عبد الرحمن إلى غلامه ليعجل به إلى منزله ،

(١) راضه على كذا يروضه : ذلّه ، ويراد منه معنى عوده إياه .

(٢) ينجب : يصير نجيباً

(٣) الزهو : الخيلاء والكبر ، وقد زهى فلان - بالبناء للمجهول - تكبر

وأسرَّ إليه فيه بِسْرٍ لم يطلع عليه ، ففضى لشأنه ، ولم يلبث أن جاءه بطيفورية مُعْطَاة مكرمة بطابع مختم عليها من فضة ، فإذا به لون مصوص^(١) قد اتخذ من البازي بعد ذبحه على ما حده لأهله ، وذهب إلى الانتقال إليه^(٢) في شرابه ، وقال لصاحب المجلس : شاركني في ثَقْلِي هذا فإنه شريف [الموكب] بديع الصنعة ، فلما رآه الرجل أنكر صفته ، وعاب لجه ، وسأله عنه ، فقال : هو البازي الذي كنت تعظم قدره ، ولا تصبر عنه [و] قد صيرته إلى ماترى ، فغضب صاحب المنزل حتى ربا في أثوابه ، وفارقه حامله ، وقال له : قد كان والله أيها الكلب السفیه على ما قدرته وما اقتديت فيه إلا بكبار الناس المؤثرين لمثله ، وما أسعفتك به إلا معظماً من قدرك ما صَغُرَتْ من قدرى ، وأظهرت من هوان السنة عليك باستحلالك لسباع الطير المنهى عنها ، ولا أدع والله الآن تأديبك إذ أهملك أبوك معلم الناس المروءة ، ودعاه بالسَّوْط ، وأمر بنزع قَلَنْسُوتِه ، وساط هامته مائة سوط ، فاستحسن جميع الناس فعله به وأبدوا الشَّامَةَ به .

وكان محمد منهم مؤثراً ، وكان قاسم أحذقهم غناء مع تجويده ، وتزوج الوزير هشام بن عبد العزيز حمدونة .

وذكر عبادة الشاعر أن أول من دخل الأندلس من المغنين علون وزرقون ، أول من دخل الأندلس من المغنين دخلا في أيام الحكم بن هشام ، فنفقا عليه ، وكانا محسنين ، لكن غناؤهما ذهب لغلبة غناء زرياب عليه .

وقال عبد الرحمن بن الشعر منجم الأمير عبد الرحمن ونديمه في زرياب :

يا على بن نافع يا على أنت المهذب اللوذعي
أنت في الأصل حين يُسأل عنه هاشمي وفي الهوى عبشمي^(٣)

مما مدح به
زرياب

(١) كذا ، ولعل أصل العبارة « فإذا به لون مخصوص »

(٢) في ١ « الانتقال عليه »

(٣) عبشمي : نسبة إلى عبد شمس على طريق النحت

وقال ابن سعيد : وأنشد لزرياب والدى في معجمه :

من شعر زرياب

علقتُها رِيحانة هيفاء عاطرة نضيرة
بين السمينة والمزينة والطويلة والقصيرة
لله أيام لنا سلفت على دَرِّ المطيرة
لا عيب فيها للعتيم غير أن كانت يسيرة

متعة جارية
زرياب

وكان لزرياب جارية اسمها مُتَعَّة^(١) ، أدّبها وعلمها أحسن أغانيه حتى شبت ، وكانت رائعة الجمال ، وتصرفت بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم تغنيه مرة وتسقيه أخرى ، فلما فطنت لإعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة ، فأبى إلا التستر ، فغتمته بهذه الأبيات ، وهي لها في ظن بعض الحفاظ :

يا من يغطي هواه من ذا يُعْطَى النهار ؟
قد كنت أملك قلبي حتى عَلَقْتُ فطارا^(٢)
يا ويلتنا أترأه لى كان ، أو مستعارا
يا بآبى قُرْشَى خلعتُ فيه العذارا

حمدونة بنت
زرياب

فلما انكشف لزرياب أمرها أهداها إليه ، فحظيت عنده^(٣) .
وكانت حمدونة بنت زرياب متقدمة في أهل بيتها ، محسنة لصناعتها ، متقدمة على أختها عليّة ، وهي زوجة الوزير هشام^(٤) بن عبد العزيز كما مر ، وطال عمر عليّة بعد أختها حمدونة ، ولم يبق من أهل بيتها غيرها ، فافتقر الناس إليها ، وحملوا عنها .

مصاييح
جارية أخذت
عن زرياب

وكانت مصاييح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل أخذت عن زرياب الغناء ، وكانت غاية في الإحسان والنبيل وطيب الصوت ، وفيها يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وكتب به إلى مولاها :

(١) في ب « اسمها منفعة » (٢) علقت : أحببت ، وتقول : علق فلان فلانة - من باب فرح - وتعلقها ، أى عشقها (٣) حظيت عنده : صارت ذات حظوة ، وهي المسكنة والمنزلة (٤) فى ١ هنا « هاشم بن عبد العزيز »

يا من يَصْنُ بصوت الطائر الغرِدِ ما كنت أحسب هذا الضن من أحد^(١)
لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
من أبيات ، فخرج حافياً لما وقف على ذلك ، وأدخله إلى مجاسه ، وتمتع من
سماعها ، رحم الله تعالى الجميع ! .

وقال علوية : كنت مع المأمون لما قدم الشام ، فدخلنا دمشق ، وجعلنا نطوف
فيها على أماكن بنى أمية ، فدخلنا قصرًا مفروشاً بالرخام الأخضر ، وفيه بركة
يدخلها الماء ويخرج منها فيسقي بستاناً ، وفي القصر من الطيور ، ما يغنى صوته
عن العود والمزمار ، فاستحسن المأمون ما رأى ، وعزم على الصَّبوح ، فدعا بالطعام
فأكلنا وشربنا ، ثم قال لي : غنَّ بأطيب صوت وأطربه ، فلم يمر على خاطري
غير هذا الصوت :

لو كان حولي بنو أمية لم ينطق رجال أراهمُ نطقوا
فنظر إلى مغضبا ، وقال : عليك لعنة الله وعلى بنى أمية ! فعلت أنى قد أخطأت ،
فجعلت أعتذر من هَفَوَتِي ، وقلت : يا أمير المؤمنين ، أتولمني أن أذكر موالى
بنى أمية ، وهذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس ، يركب في أكثر من مائة مملوك
وفي ملكه ثلثمائة ألف دينار دون الضياع ، وإني عندكم أموت جوعا ،
وفي الحكاية طول واختلاف ، ومحل الحاجة منها ما يتعلق بزرياب ، رحم الله
تعالى الجميع ! .

وذكرها الرقيق^(٢) في كتاب « معاقرة الشراب » على غير هذا الوجه ، ونصه :
وركب المأمون يوما من دمشق يريد جبل التاج ، فمر ببركة عظيمة من برك
بنى أمية ، وعلى جانبها أربع سروات ، وكان الماء يدخل سَيِّحا ، فاستحسن المأمون

(١) الغرد - بفتح فكسر - الوصف من قولهم « غرد الطائر » من مثال فرح
- إذا رفع صوته وطرب به ، ويقال « غرد » بكسر فسكون - أيضاً ، والضم : البخل ،
يقول : إن السباح للناس باستماع هذا الصوت لا يحشمك شيئا ولا ينقص منه ، فلماذا
تبخل عليهم بذلك ؟ (٢) ويقول أحيانا « ابن الرقيق »

الموضع ، ودعا بالطعام والشراب ، وذكر بنى أمية ، فوضع منهم وتَنَقَّصَهُمْ ، فأخذ علوية العود واندفع يغنى :

أرى أسرتى فى كل يوم وليلة يَرُوحُ بهم داعى المنون ويغتدى
أولئك قوم بعد عز وثروة تفانوا فإلّا أذرف العين أ كمد^(١)

فضرب المأمون بكأسه الأرض ، وقال لعلوية : يا بن القاعلة ، لم يكن لك وقت تذكر مواليك فيه إلا هذا الوقت ؟ فقال : مولاكم زرياب عند موالى بالأندلس يركب فى مائة غلام ، وأنا عندكم بهذه الحالة ، فغضب عليه نحو شهر ، ثم رضى عنه ، انتهى .

ونحوه لابن الرقيق^(٢) فى كتابه « قطب السرور » وقال فى آخر الحكاية : وأنا عندكم أموت من الجوع ، ثم قال : وزرياب مولى المهدي^(٣) ، ووصل إلى بنى أمية بالأندلس فعلت حاله ، حتى كان كما قال علوية ، انتهى . ولما غنى زرياب^(٤) بقوله :

ولو لم يَشْقِنِي الظاعنون لَشَقْنِي حمام تداعت فى الديار وَقُوعُ
تداعين فاستبكين من كان ذاهوى نوائح ما تجرى لهن دموع
ذيلها عباس بن فرناس يمدح بعض الرؤساء بديهة فقال :

شدت بمحمود يدًا حين خانها زمان لأسباب الرجاء قَطُوعُ
بنى لِمَسَاعَى الجود والجحد قبلة إليها جميع الأجودين ركوع
وكان محمود جوادا ، فقال له : يا أبا القاسم ، أعز ما يحضرنى من مالى القبة ، يعنى قبة قامت عليه بخمسمائة دينار ، وهى لك بما فيها مع كسوتى هذه ، ونكون فى ضيافتك بقية يومنا ، ودعا بكسوة فلبسها ، ودفع إليه الكسوة .

(١) فإلا : مؤلفة من ثلاث كلمات ، الفاء العاطفة ، وإن الشرطية ، ولا النافية ، وأذرف العين : أسيل دمعها ، وأ كمد : أحزن

(٢) انظر الهامشة رقم ٢ فى ص ١٢٨ وص ١٣١ وص ١٤٤

(٣) فى ب « ولى المهدي » (٤) فى ا « ولما غنى ابن زرياب »

الأمير شعبان
بن كوجبا

ومن الوافدين من المشرق الأمير شعبان بن كوجبا^(١) .

من غز الموصل ، وفد على أمير المؤمنين يعقوب المنصور ملك الموحدين ، ورفع له أمداحا جليلة ، وقدمه على إمارة مدينة بسطة من الأندلس .

قال أبو عمران بن سعيد : أنشدني لنفسه :

يقولون إن العدل في الناس ظاهر ولم أر شيئا منه سرا ولا جهرا

ولكن رأيت الناس غالب أمرهم إذا ما جنى زيد أقادوا به عمرا^(٢)

وإلا فما بال النطاسي كلما شكوت له يمتني بدى قصد اليسرى^(٣)

ومن الوافدين من المشرق على الأندلس أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني .

من أهل بغداد ، وسكن القيروان ، ويعرف بالرياضي ، وكان له سماع ببغداد

من جلة المحدثين والفقهاء والنحويين ، لقي الجاحظ والمبرد وثعلبا وابن قتيبة ،

ولقي من الشعراء أبا تمام والبحترى ودعبلًا وابن الجهم ، ومن الكتاب سعيد بن

حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن أبي طاهر وغيرهم ، وهو الذي أدخل إفريقية

رسائل المحدثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم ، وكان علما أديبا ، ومرسلا بليغا ،

ضاربا^(٤) في كل علم وأدب ، سمع وكتب بيده أكثر كتبه ، مع براعة خطه

وحسن وراقته .

وحكى أنه كتب على كبره كتاب سيبويه كله بقلم واحد ، ما زال يبريه حتى

قصر ، فأدخله في قلم آخر ، وكتب به حتى فنى بتمام الكتاب .

وله تأليف : منها « لقط المرجان »^(٥) وهو أكبر من « عيون الأخبار »^(٦) وكتاب

« سراج الهدى » في القرآن ومشكله وإعراجه ومعانيه ، و « المرصعة » و « المديحة »

وجال في البلاد شرقا وغربا من خراسان إلى الأندلس ، وقد ذكر ذلك

في أشعاره .

(١) في ب « شعبان بن كوجبا » (٢) أقادوا : أقاموا القود ، وهو العقوبة

(٣) في ب « قصد اليسرى » وما أثبتناه عن أدق

(٤) في أ « ضاربا في كل علم » (٥) في أ « لقيط المرجان »

(٦) « عيون الأخبار » كتاب لابن قتيبة طبع في أربعة أجزاء بدار الكتب المصرية

وكان أديب الأخلاق ، نزيه النفس ، كتب لأمير إفريقية إبراهيم بن أحمد ابن الأغلب ، ثم لابنه أبي العباس عبد الله ، وكان أيام زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك الأغلبة على بيت الحكمة ، وتوفي بالقيروان سنة ثمان وتسعين ومائتين في أول ولاية عبيد الله الشيعي ، وهو ابن خمس وسبعين سنة .

ومن ألم يذكره المؤرخ الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالبرقيق^(١) وقال عريب بن سعد^(٢) في حقه : إنه كان أديباً شاعراً مرسلًا حسن التأليف ، وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن ، وذكر له معه قصة ذكرها ابن الأبار في كتابه « إفادة الوفاة » وحكى أن له مسنداً في الحديث ، وكتاباً في القرآن سماه « سراج الهدى » والرسالة الوحيدة ، والمؤنسة ، وقطب الأدب ، وغير ذلك من الأوضاع .

قال : وكتب لبني الأغلب حتى انصرفت أيامهم ، ثم كتب لعبيد الله حتى مات ومن الرواة عنه أبو سعيد عثمان بن سعيد^(٣) الصيقل مولى زيادة الله ابن الأغلب ، وأسند إليه الحافظ ابن الأبار رواية شعر أبي تمام بأن قال : قرأت شعر حبيب على أبي الربيع بن سالم ، وقرأت جملة منه على غيره ، وناولني جميعه وحدثني به عن أبي عبد الله بن زرقون عن الخولاني عن أبي القاسم حاتم بن محمد عن أبي غالب تمام بن غالب بن عمر اللغوي عن أبيه أبي تمام عن أبي سعيد المذكور ، يعنى ابن الصيقل ، عن أبي اليسر عن حبيب ، وهو إسناد غريب ، انتهى .

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن منصور ، الغساني ، الدمشقي ، المعروف بالسنبوري
 وسنبور : من بلاد مصر ، روى عن أبي القاسم بن عساكر وأبي الين الكندي وأبي المعالي القراوي وأبي الطاهر الخشوعي وغيرهم

أبو إسحاق
 إبراهيم بن
 خلف ، الغساني
 الدمشقي
 السنبوري

(١) انظر الهامشة رقم ٢ في ص ١٢٨ والهامشة رقم ٢ في ص ١٢٩ ، وانظر ص ١٤٤
 (٢) في ب « وقال علي بن سعيد في حقه » (٣) في ا « عثمان بن سعيد الصيقل »

قال أبو العباس النبائي : قدم علينا - يعني إشبيلية - سنة ثلاث وستمائة ،
وسمى جماعة من شيوخه ، وحكى أنه كان يروى موطأ أبي مصعب وصحيح
مسلم بعلو .

وقال أبو سليمان بن حَوْط الله : أجازني وابني محمدا جميعاً ما رواه عن شيوخه
الذين منهم أبو الفخر فنا خسرو بن فيروز الشيرازي ، وذكر أن روايته بنزول ، لأنه
لم يرحل إلا بعد وفاة الشيوخ المشاهير بهذا الشأن .

وقال أبو الحسن بن القطان ، وسماه في شيوخه : قدم علينا تونس سنة اثنتين
وسمائة ، واستجزته لابني حسن فأجازه وإيأي ، قال : وانصرف من تونس إلى
إلى المغرب ، ثم الأندلس ، وقدم علينا بعد ذلك مرا كش مُفْلِتًا من الأسر ، فظهر
في حديثه عن نفسه نجازف واضطراب وكذب زَهْد فيه ، وأثر ذلك انصرف إلى
إلى المشرق راجعاً ، وقد كان إذا أجاز ابني كتب بخطه جملة من أسانيده وسمى
كتبنا منها الموطأ والصحيحان وغير ذلك ، قال : وقد تبرأت من عُهْدَةِ جميعه لما
أثبت من حاله ، وحدثني أبو القاسم بن أبي كرامة صاحبنا بتونس أن السهري
هذا لما انصرف إلى مصر امتحن بملسكها الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب
لأجل مُعَادَاتِهِ أَبَا الخطاب بن الجميل ، فَضْرِبَ بالسياط ، وطيف به على جمل مبالغة
في إهانته ، انتهى .

وقال بعض المؤرخين في حقه ، مانصه : الشيخ المحدث الرحالة إبراهيم السهري
صاحب الرحلة إلى البلاد ، دخل الأندلس كما ذكره ابن النجار وغيره ، وهو الذي
ذكر لمشايخ الأندلس وعلمائها أن الشيخ أبا الخطاب بن دَحِيَّة يدَّعي أنه قرأ على
جماعة من شيوخ الأندلس القدماء ، فأنكروا ذلك وأبطلوه وقالوا : لم يَلَقْ هؤلاء
ولا أدرتهم ، وإنما اشتغل بالطلب أخيراً ، وليس نسبه بصحيح فيما يقوله ، ودَحِيَّة
لم يُعَقَّب ، فكتب السهري محضراً وأخذ خطوطهم فيه بذلك ، وقدم به ديار
مصر ، فعلم أبو الخطاب بن دَحِيَّة بذلك ، فاشتكى إلى السلطان منه ، وقال :

حديث عن
أبي الخطاب
ابن دحية
وكلام العلماء
فيه

هذا يأخذ عرضي ويؤذيني ، فأمر السلطان بالقبض عليه ، فقبض وضرب [بالسَّياط] وأشهر على حمار ، وأخرج من ديار مصر ، وأخذ ابن دَحِيَّة الحَضَرَ وحرقه ، ولم يزل ابن دَحِيَّة على قرب من السلطان إلى حين وفاته ، وبنى له داراً للحديث ، وهى الكاملية بين القصرين ، فلم يزل يحدث بها إلى أن مات وقد ذكرنا فى ترجمة ابن دَحِيَّة من هذا الكتاب شيئاً من أحواله ، وأن الناس فيه معتقد ومنتقد ، وهكذا جرت العادة خصوصاً فى حق الغريب المنتسب للعلم .

* وعند الله تجتمع الخصوم *

ومن كان عليه لاله أبو الحسن محمد بن نصر المعروف بابن عنين فانه قال فيه :

دَحِيَّة لم يُعْقَبْ فَلَمْ تَعْتَزِ إِلَيْهِ بِالْبَهْتَانِ وَالْإِفْكَ^(١)

ما صح عند الناس شىء سوى أنك من كَلْبٍ بلا شك

هكذا ذكره ابن النجار ، وأطال فى الوقعة فى أبى الخطاب بن دَحِيَّة

وقال الذهبى : قرأت بخط الضياء عندما ذكر ابن دَحِيَّة أنه قال : لقيته بأصبهان ، ولم أسمع منها شيئاً ، وأخبرنى إبراهيم السنهورى بأصبهان أنه دخل المغرب ، وأن مشايخه كتبوا له جَرَحَه وتضعيفه ، وقد رأيت أنا منه غير شىء مما يدل على ذلك ، وبسببه بنى السلطان الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة وجعله شيخها ، وقد سمع منه الإمام أبو عمرو بن الصلاح الموطأ سنة نيف وستائة ، وأخبره به عن جماعة منهم أبو عبد الله بن زرقون .

وقال ابن واصل : كان أبو الخطاب - مع فرط معرفته بالحديث ، وحفظه الكثير منه - متهماً بالمجازفة فى النقل ، وبلغ ذلك الملك الكامل ، فأمره أن يعلق شيئاً على كتاب «الشَّهاب» ، فعلق كتاباً تكلم فيه على أحاديثه وأسانيده ، فلما

(١) دَحِيَّة : صحابى ينسب إليه أبو الخطاب ، وتعتزى . تنتسب ، والبهتان :

الكذب وما لا أصل له ، والإفك - بالكسر - التقول

وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد أيام : قد ضاع منى ذلك الكتاب ، فعلق لى مثله ، ففعل ، فجاء فى الثانى مناقضة للأول ، فعلم الملك الكامل صحة ما قيل عنه ، ونزلت مرتبته عنده ، وعزله عن دار الحديث أخيرا ، وولى أخاه أبا عمرو عثمان .

وقال ابن نقطة : كان أبو الخطاب موصوفا بالمعرفة والفضل ، ولم أزه ، إلا أنه كان يدعى أشياء لاحقيقة لها ، ذكر لى أبو القاسم بن عبد السلام - وكان ثقة - قال : نزل عندنا ابن دحية فقال : إنى أحفظ صحيح مسلم والترمذى ، فأخذت خمسة أحاديث من الترمذى ومثلها من المسند ومثلها من الموضوعات ، فجعلتها فى جزء ، ثم عرضت عليه حديثا من الترمذى فقال : ليس بصحيح ، وآخر فقال : لا أعرفه ، ولم يعرف منها شيئا ، فأفسد نفسه بذلك .

وقال سبط ابن الجوزى : إنه كان يتزید^(١) فى كلامه ، ويثلب^(٢) المسلمين ، ويقع فيهم ، فترك الناس الرواية عنه وكذبوه ، وقد كان الملك الكامل مقبلا عليه ، فلما انكشف له شأنه أخذ منه دار الحديث وأهاناه .

وقال العماد بن كثير : قد تكلم الناس فيه بأنواع من الكلام ، ونسبه بعضهم إلى وضع حديث فى قصر صلاة المغرب ، وكنت أود أن أقف على إسناده ليعلم كيف رجاله ، وقد أجمع العلماء - كما ذكره ابن المنذر وغيره - على أن صلاة المغرب لا تقصر^(٣) ، واتفق أنه وصل فى جمادى الأولى سنة ٦١٦ إلى غزة ، فخرج كل من فى غزة بالأسلحة والعصى والحجارة إلى الموضع الذى هو فيه ، وضربوه ضربا شديدا بعد أن انهزم من كان معه ، انتهى .

وقد منا فى ترجمته توثيق جماعة له ، فربك أعلم بحاله .

(١) يتزید فى كلامه : يزيد فى أثنائه من عنده

(٢) يثلب المسلمين : ينتقصهم ويرميهم بما يعيبهم

(٣) روى شيخ الإسلام إبراهيم البيهقورى من متأخرى علماء الشافعية قولاً لبعض العلماء أنه يرى قصر صلاة المغرب إلى ركعتين فى السفر الذى تقصر فيه الرباعية

ومنهم عبد الله بن محمد بن آدم ، القارى ، الخراسانى .

أبو محمد
عبد الله بن محمد
ابن آدم ،
القارى
الخراسانى
رحل من خراسان إلى الأندلس ، يكنى أبا محمد ، ذكره أبو عمرو المقرئ ، وقال : سمعته يقرأ مرات كثيرة ، فكان من أحسن الناس صوتا ، ولم تكن له معرفة بالقراءة ولا دراية بالأداء ، انتهى .

ومنهم عبد الرحمن بن داود بن علي ، الواعظ .

أبو البركات
عبد الرحمن
ابن داود
(الزبزارى)
الواعظ
من أهل مصر ، يعرف بالزبزارى ، يكنى أبا البركات وأبا القاسم ، ويلقب زكى الدين ، قدم على الأندلس ، وتحوّل في بلادها واعظا ومذكرا ، وسمع منه الناس بقرطبة وإشبيلية ومُرْسِيَّة وبلَنْسِيَّة سنة ٦٠٨ .

قال ابن الأبار : وسمعت ، وعظه إذ ذاك بالمسجد الجامع من بلَنْسِيَّة ، وادعى الرواية عن أبي الوقت السَّجَزِيَّ والسَّانِيَّ وأبى الفضل عبد الله بن أحمد الطوسى وأبى محمد بن المبارك بن الطبايع وأبى النضر محمد بن يوسف الغزنوى وشهادة الكتّابة بنت الأبرى ، زعم أنه قرأ عليها صحيح البخارى ، وجماعة بالمشرق والأندلس لم يلقّهم ولم يسمع منهم ، ورُبما حَدَّثَ بواسطَةِ^(١) عن بعضهم ، وأكثرهم مجهولون ، وفقت على ذلك في فهرست روايته ، فزهد أكثر السامعين منه ، وأطَرَحُوا الرواية عنه^(٢) ، ومنهم أبو العباس النبائى وأبو عبد الله بن أبى البقاء ، وجمع أربعين حديثا مسالة سماها بالآلىء المنفصلة ، حدث فيها عن ابن بشَّـكُوال وابن غالب الشراط وغيرهما من الأندلسيين الذين لم يلقّهم ولا أجازوا له ، أخذها عنه ابن الطليسان وغيره ، وكان - مع هذا - فقيها على مذهب الشافعى ، رضى الله تعالى عنه ! فصيحجا ، مشاركا في فنون من العلم ، سمح الله تعالى له ! انتهى .

ولا بأس أن نذكر جملة من النساء القادمات من المشرق على الأندلس ،

(١) حدث بواسطَةِ : كان بينه وبين المحدث عنه راو آخر كتم اسمه . وذلك من التدليس ، وقد يكون الوساطة ضعيفا ، فلذلك لا يثق العلماء بتن يكتم اسم من يروى عنه ويتجاوزوه إلى من فوقه

(٢) أطرحوا الرواية عنه : يريد تركوها ، وأصل الطرح الرمي

ثم نعود أيضا إلى ذكر أعلام الرجال ، فنقول :
عابدة المدينة من النساء الداخلات الأندلس من المشرق عابدة المدينة ، أم ولد حبيب ابن الوليد المرواني ، المعروف بدحون .

وكانت جارية سوداء ، من رقيق المدينة ، حالكة اللون ، غير أنها تروى عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة وغيره من علماء المدينة ، حتى قال بعض الحفاظ : إنها تروى عشرة آلاف حديث .

وقال ابن الأبار : إنها تسند حديثاً كثيراً ، وهي أم ولد^(١) بشر بن حبيب ، والذي وهبها لدحون في رحلته إلى الحج هو محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك ابن مروان ، فقدم بها الأندلس ، وقد أعجب بعلمها وفهمها ، واتخذها لقراشه ، رحم الله تعالى الجميع ! .

ومنهن فضل المدينة .

فضل المدينة

وكانت حاذقة بالغناء ، كاملة الخصال ، وأصلها لإحدى بنات هرون الرشيد ، ونشأت وتعلمت ببغداد ، ودرجت من هناك إلى المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ! فازدادت ثمَّ طبقتها في الغناء ، واشترت هنالك للأمير عبد الرحمن صاحب الأندلس مع صاحبها علم المدينة ، وصواحب غيرها إليهن تنسب دار المدينيات بالقصر ، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ونصاعة ظرفهن ورقة أدبهن ، وتضاف إليهن جارية^(٢) قلم ، وهي ثالثة فضل وعلم في الحظوة عند الأمير المذكور ، وكانت أندلسية الأصل ، رومية من سبي البشكنس ، وحملت صبية إلى المشرق ، ف وقعت بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعلمت هنالك الغناء فحزفته^(٣) ،

(١) في ١ « وهي أم ولده بشر بن حبيب » وهو الظاهر

(٢) حذفته : مهت فيه ، وصارت حاذقة به

(٣) كذا ، ولعل أصل العبارة « جاريته قلم »

وكانت أديبة ، ذاكرة ، حسنة الحظ ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الآداب .

ومن النساء الداخلات إلى الأندلس من المشرق قر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي ، صاحب إشبيلية .
 قر : جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي

وكانت من أهل الفصاحة والبيان ، والمعرفة بصوغ الألقان ، وجلبت إليه من بغداد ، وجمعت أدبا وظرفا ، ورواية وحفظا ، مع فهم بارع ، وجمال رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها ، ولها في مولاهما تمدحه :

ما في المغرب من كريم يُرْتَجَى إلا حليف الجود إبراهيم
 إني حَلَلْتُ لديه منزلَ نعمةٍ كل المنازل ما عداه ذميم
 وأنشد لها السالمى لما ذكرها عدة أشعار : منها قولها تتشوق إلى بغداد :

آها على بغدادها وعراقها وطلبائها والسحر في أحداقها
 ومجالها عند القرات بأوجه تبدو أهلتها على أطواقها
 متبخرات في النعيم كأنما خلق الهوى العذرى من أخلاقها^(١)
 نفسى الفداء لها فأى محاسن في الدهر تُشرق من سنا إشراقها

ومنهن الجارية العجفاء

الجارية
 العجفاء ، المغنية

قال الأرقى : قال لى أبو السائب ، وكان من أهل الفضل والنسك : هل لك في أحسن الناس غناء ؟ فجننا إلى دار مسلم بن يحيى مولى بنى زهرة ، فأذن لنا فدخلنا بيتا عرضه اثنا عشر ذراعا في مثلها ، وطوله في السماء ستة عشر ذراعا ، وفي البيت ثمرتان قد ذهب عنهما اللحمه وبقى السدى ، وقد خُشيتا بالليف ، وكريسان قد تفسكا من قدمهما ، ثم اطلعت علينا عجفاء كلفاء ، عليها هَرَوِي أصفر غسيل ،

(١) الهوى العذرى : المنسوب إلى بنى عذرة ، قوم مجنون ليلى وغيره من ذوي الصباية ، ويراد به العشق العفيف الطاهر الذى لا ريبه فيه

وكان وركيها في خيط من وسخها ، فقلت لأبي السائب : بأبي أنت ! ماهذه ؟
فقال : اسكت ، فتناولت عودا فغنت :

بيد الذي شغف القواد بكم تفريح ما ألقى من الهم^(١)
فاستيقنى أن قد كلفت بكم ثم أفعلى ما شئت عن علم
قد كان صرّم في الممات لنا فعجلت قبل الموت بالصرم

قال : فتحسنت في عيني ، وبدا ما أذهب الكلف عنها ، وزحف أبو السائب
وزحفت معه ، ثم تغنت :

برح الخفاء فأيمّا بك تسكتم ولسوف يظهر ما تسر فيعلم^(٢)
مما تضمن من عزيز قلبه يا قلب إنك بالحسن لمغرم
ياليت أنك يا حسام بأرضنا تلقى المراسى طائعا وتخيم
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه ونكون إخوانا فلا ذاتنقم

فقال أبو السائب : إن يقيم هذا فأعضّه الله تعالى بكذا وكذا من أبيه ، ولا يكنى ،
فزحفت مع أبي السائب حتى فارقنا النمرقتين ، وربت العجفاء في عيني كما يربو
السويق بماء مزنّة ، ثم غنت :

يا طول ليلى أعالج السقما أدخل كل الأحبة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبدا فاليوم أمسى فراقكم عزما

فألقيت طيلسانى ، وأخذت شادكونة فوضعتها على رأسى ، وصحت كما يصاح على
اللوييا بالمدينة ، وقام أبو السائب فتناول ربة في البيت فيها قوارير ودهن ،
فوضعها على رأسه ، وصاح صاحب الجارية وكان أثلغ : قوانينى ، يعنى قواريرى ،
فاصطكت القوارير وتكسرت ، وسال الدهن على رأس أبي السائب وصدده ،

(١) في « بيد الذي شغف » بالعين مهملة ، وكلاهما صحيح ، وبهما قرى في

قوله تعالى : (قد شغفها حبا) (٢) في « فأيمّا بك تسكتم »

وقال للعجفاء : لقد هجبت لي داء قديماً ، ثم وضع الربعة ، وكنا نختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس فابتيغت له العجفاء ، وتحمّلت إليه .

ومن القادمين على الأندلس من المشرق الشيخ عبد القاهر بن محمد ابن عبد الرحمن ، الموصلي .

قال أبو حيان : قدم علينا رسولاً من ملك مصر إلى ملك الأندلس ، فسمعت منه بالمرية ، انتهى .

وممنهم أحمد بن الحسن بن الحارث بن عمرو بن جرير بن إبراهيم بن مالك ، المعروف بالأشتر ، بن الحارث ، النخعي .

يكفي أبا جعفر ، دخل الأندلس في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وأصله من الكوفة ، وكان يروي أحاديث عظيمة العدد ، ذكر ذلك الرازي ، وحكي أن الأمير محمد روى عنه منها ، وأنزله برية .

وممنهم أحمد بن أبي عبد الرحمن ، واسمه يزيد بن أحمد بن عبد الرحمن^(١) ، أحمد بن يزيد القرشي ، الزهري ، من ولد عبد الرحمن بن عوف .

من أهل مصر ، وفد على الناصر بقرطبة ، وكان دخوله إليها في محرم سنة ٣٤٣ هـ ، فأكرم الناصر مشواه^(٢) وكان فقيه أهل مصر ، ذكره ابن حيان .

وممنهم أبو الطاهر إسماعيل بن الإسكندراني .

لحق ببلده أبا طاهر السلفي ، وسمع منه ، ودرس عليه كتاب الاصطلاح للسمعاني ، وقدم الأندلس ، ودخل مرسية تاجراً ، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي وأنشد عن السلفي^(٣) قوله :

أنا من أهل الحديث وهم خير فئة

(١) في ١ « بن أبي عبد الرحمن » هنا أيضاً

(٢) مشواه : مكان ثوائه ، أي إقامته

(٣) في ب « وأنشد على السلفي قوله »

أبو جعفر أحمد
ابن الحسن
النخعي

أحمد بن يزيد
القرشي ،
الزهري ،
المصري

أبو الطاهر
إسماعيل بن
الإسكندراني

عشت تسعين وأر جو أن أعيش لمائه

فعاش كما تمنى ، رحمه الله تعالى !.

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل بن بشر ، الأنطاكي ، الإمام ،

أبو الحسن
علي بن محمد

لأنطاكي

التميمي

نزيل الأندلس ومقرّرها ومسندها ، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن إبراهيم

ابن عبد الرزاق ومحمد بن الأخرم وأحمد بن يعقوب التائب وأحمد بن محمد

ابن خشيش ومحمد بن جعفر بن بيان ، وصنف قراءة ورش ، قرأ عليه جماعة :

منهم أبو الفرج الهيثم الصباغ وإبراهيم بن مبشر المقرئ وطائفة آخرون من قراء

الأندلس ، وسمع منه عبد الله بن أحمد بن معاذ الداراني .

قال أبو الوليد بن الفرضي : أدخل الأنطاكي الأندلسَ علماً جماً ، وكان بصيراً

بالعربية والحساب ، وله حظ من الفقه ، قرأ الناسُ عليه ، وسمعت أنا منه ، وكان

إماماً في القراءات^(١) ، لا يتقدمه أحد في معرفتها في وقته ، وكان مولده بأنطاكية

سنة ٢٩٩ ، ومات بقرطبة في ربيع الأول سنة ٣٧٧ ، رحمه الله تعالى !

ومنهم عمر بن مودود بن عمر ، الفارسي ، البخاري ، يكنى أبا البركات .

أبو البركات

عمر بن مودود

الفارسي ،

البخاري

ولد بساماس ، ونشأ بها ، وكتب الحديث هنالك ، وتعلم العربية والفقه ،

وهو من أبناء الملوك ، وانتقل إلى المغرب ، فدخل الأندلس ، ونزل مالقة في حدود

ثلاثين وستائة ، ودخل إشبيلية ، وكانت له رواية بالمشرق .

قال ابن الأبار : أجاز لي ما رواه ، ولم يسم أحداً من شيوخه ، وبلغني أنه

سمع صحيح البخاري بالدامغان^(٢) على أبي عبد الله محمد بن محمود ، وكانت إجازته لي

سنة ٦٣١ ، وعاش بعد ذلك ، وتوفي بمراكش بعد الأربعين وستائة ، وحدث

(١) في ١ « وكان رأساً في القراءات »

(٢) الدامغان : بلد كبير بين الري ونيسابور ، وهو قسبة قومس ، وقد نسب إليها

جماعة وافرة من أهل العلم

بالأندلس ، وأخذ عنه الناس ، وكان من أهل التصوف والتحقيق بعلم الكلام ،
رحمه الله تعالى !

نجم الدين بن
مذهب الدين
البغدادي

ومنهم الشريف الأجل الرحالة الشيخ نجم الدين بن مذهب الدين .
وكنت لا أتحقق من أي البلاد هو من المشرق ، ثم إني علمت أنه من بغداد
إذ وقفت على كتابين كتبهما في شأن العناية به الأديب العلامة أبو المطرف
أحمد بن عبد الله بن عميرة الخزومي : أحدهما لأبي العلاء حسان ، والثاني للكاتب
أبي الحسن العنسي ^(١) ، وهو الذي يفهم منه أنه من بغداد .
ونص الأول :

يا ابن الوصي إذا حملت وصيتي أوجبت حقاً للحقوق يُضافُ
وتحييتي كلُّ التحايا دونها وكذلك دون رسولها الأشراف
أحسنُ بأن تلقى ابنَ حسان بها مهترة لورودها الأعطافُ
كالروض باكره الندى فلِعَرَفِها يا ابنَ النبي على الندى مَطَافُ
وعلاكَ إن أبا العلا ومكانه يُلقَى به الإسعاد والإسعاف
وأحق من عرف الكرام بوصفهم من جُمعت منهم له أوصاف
هذه ياسيدي تحية تجب لها إجابة وحية ^(٢) ، وتصلح بها هشاشة وأريحية ، أودعتها
بطن هذه العُجالة ، وبعثتها مع صدر من أبناء الرسالة ، ولله دره من راضع در النبوة ،
متواضع مع شرف الأبوة ، نازعته لُطرف الأشعار ، وأطراف الأخبار ، فوجدته ^(٣)
بحراً حصاه الدر النفيس ، وروضاً يجني منه أطياب السم ^(٤) الجليس ، ويُنعَتُ
بنجم الدين وهو كنعته نجم يضيء سناه ، ويحل بيتاً من الشرف ربه بناءً ، وقد
جاب القضاء العريض ، ورأى القصور الحمر والبيض ، وورد الحُجُون ، بعد ما شرب

(٢) وحية : سريعة

(١) في ١ « الغنى »

(٤) في ١ « أطياب التمر »

(٣) في ١ « فوجدت بحراً »

من ماء جيحون ، وزار مشاهد الحرمين ، ثم سار في أرض الهرمين ، وفارق إفريقية لهذا الأفق مختاراً ، وعبر إلى الأندلس فأطال بها اعتباراً ، وتشوق إلى حضرة الأنوار المنفاضة ، والنعم السابغة النضفاضة ، وجعل قصدها بحجة سفره طواف الإفاضة ، وهمه أن يشاهد سناها العلوى ، ويبصر ما يحقر عنده المرئى والمروى ، وهى غاية يقول للأمل : عليها أطلت حومى^(١) ، وجنة يتلو الداخل لها (يا ليت قومي)^(٢) وسيدى هو منها باب على الفتح بنى ، وجناب عنان الأمل إليه ثنى ، وقصده من هذا الشريف أجل قاصد ، وأظلمته سماء المجد بحمال المشتري وظرف غطارد ، ومتى نعتناه فالخبر ليس كالعيان ، ومتى شهبناه فالتمويه بالشبه عقوق العقيان ، ومن يفضح قريحته بأن يقول لها صفيه ، لكن يعرف عن نفسه بما ليس فى وسع واصفيه ، ويقتضى من عزيمة بره مالا سعة المترخص فيه ، إن شاء الله تعالى ، وهو يديم غلام ، ويحرس مجدم وسناكم ، بمنه ، والسلام الكريم ، الطيب العيم ، يخصكم به معظم مجدم ، المعتد بذخيرة ودمكم ، المحافظ على كريم عهدكم ، ابن عميرة ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، فى الرابع والعشرين لربيع الآخر من سنة ٦٣٩ انتهى .

ونص الثانى : هل لك يا سيدى أبا الحسن ، فيمن له كل شاهد حسن ، فى الشرف المنتقى له قدم أثبتتها بالوصى والحسن ، أيها الأخ الذى مَلَكَته قيادى ، وأسكنته فؤادى ، عهدى بك تعتام^(٣) الآداب النقية ، وأشتاق اللطائف المشرقية ، وتنصف فترى أن فى سيلنا جفَاء ، وفى مغربنا جفَاء ، وأن الحاسن نبت أرض ما بها ولدنا ، وزرع وادٍ ليس مما عهدنا ، وأنا فى هذا أشايحك وأتابلك ، وأناضل من ينازلك وينازحك ، وقد أنانا الله تعالى بحجة تقطع الحجج ، وتسكت المهج ، (١) فى ب « يقول الآمل عليها أطلت حومى » والحوم : مصدر « حام حول الشيء » إذا طاف

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون)

(٣) تعتام : تقصد وتختار

وهو الشريف الأجل ، السيد المبارك نجم الدين بن مهذب الدين نجل الذرية
الختارة ، ونجم الدرية السيارة ، جرى مع زعزع ونسيم ، ورّع في جيم وهشيم^(١) ،
وشاهد عجائب كل إقليم ، وشرق إلى مطلع ابن جلا^(٢) ، وغرب حتى نزل بشاطئ
سلا ، وقد توجه الآن إلى حضرة الإمامة الرشيدية أيدها الله تعالى لينتهي من
أصابع العد إلى العقدة ، ويحصل من تحض^(٣) الحقيقة على الزبدة^(٤) ، وقد علم أنه
ما كل الخطب كخطبة المنبر ، ولا جميع الأيام مثل يوم الحج الأكبر ، وأدبه ياسيدي من
نسبة أفته ، بل على شكل حسبه وخاتمه ، فإذا رأيته شهدت بأن الشرق قد
أنحف إفريقية ببغداد^(٥) ، بل رمانا بجملة أفلاذ ، والحظ فيما يجب من بره وتأنيسه ،
إنما هو في الحقيقة لجائسه ، فيا غبطة من يسبق لجواره ، ويقبس من أنواره ،
وأنت لا محالة تفهمه فهمي ، وتشيم من شيمه عارضا برى القلوب الهيم يهمي^(٦) ،
وتضرب في الأخذ من فوائده وقلائده بسهم وددت أنه سهمي ، والسلام ، انتهى

ومنه تقي الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن الغرس^(٧) ، تقي الدين محمد
الحنفي ، المصري .

قال الوادي أشي فيه : إنه من أعيان مصر ، قال : وسألته هل يقع بين أهل
مصر تنازع في تفضيل بعض المذاهب على بعض ؟ فأجابني بأن هذا لا يقع عندهم
بين أهل الرسوخ في العلم ، وذوى المعرفة والفهم ، وإنما يصدر هذا بين الناشئين
قال : وللحنفية الظهور عليهم حين يقولون لهم : لنا عليكم اليد الطولى في الخبر ،
لكونه بمصر يطبخ في القرن بأروات الدواب ، وكذلك تسخين الحمام ، فإن
المالكية وغيرهم بمصر يقلدون الحنفية في ذلك ، قال : وسألته حفظه الله تعالى
هل اللوباء بمصر وقت معلوم ؟ فقال لي : جرت العادة عندهم بقدر الله تعالى وسره

(١) الجسيم - بفتح الجيم - ما غطي الأرض من النبات ، والهشيم - بفتح الهاء - النبات
المتكسر (٢) ابن جلا : القمر ، وجلا : الشمس (٣) محض الحقيقة « بالحاء المهملة
(٤) زبدة الشيء - بالضم - خلاصته (٥) في ب « قد أنحفه أبرقة ببغداد »
(٦) في ا « عارضا يبرد القلوب الهيم يهمي » (٧) في ا « بن الغرس »

في خليقته أن كل سنة أولها ثاء مثلثة^(١) يكون فيها الوباء ، والله تعالى أعلم ، وأن هذا مُتَعَارَفٌ عندهم ، هكذا قال لي ، وعِيبٌ ما يقع من بعض النقاد بتونس وما يصدر عنهم بكثرةٍ من إلقاءهم الأسئلة العويصة في أصول الدين وغيرها على مَنْ يرد عليهم قصداً في تعجيزه وتعنيته ، ثم قال : إن من المنقول عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى أن من حفظت عنه تسعة وتسعون خصلة تقتضي الكفر وواحدة تقتضي الإيمان أن الواحدة المقتضية للإيمان تغلب وتبقى حرمتها عليه ، انتهى .

وقد ذكرنا في الباب الأول من هذا القسم حكاية البصري المغني القادم من المشرق من البصرة على عبد الوهاب الحاجب بإفريقية في دولة بني المعز بن باديس ، وسَرَدْنَا دخوله عليه في مجلس أنسه ، وما اتفق في ذلك له معه ، وأنه وصف له بلاد الأندلس وحسنها وطيبها ، فارتحل المغني إليها ، ومات بها ، حسبما لخصناه من كلام الكاتب ابن الرقيق^(٢) الأديب المؤرخ في كتابه « قطب السرور » ولولا أنه لم يسم المغني المذكور لجعلنا له ترجمة في هذا الباب ، إذ هو به أليق ، والأمر في ذلك سهل ، والله تعالى موفق للصواب .

الشيخ يوسف
الدمشقي
الشاذلي

ومنها الولي الصالح العارف بالله سيدي يوسف الدمشقي ، رضى الله تعالى عنه ! وهو كما قال ابن داود من كبار الأولياء ، شاذلي الطريقة ، قدم من المشرق إلى الأندلس ، وكان يأتي مدينة وادي آش الكَرَّةَ بعد الكرة لزيارة معارف له بها ، وكان من الذين أخفاهم الله ، لا يعرف به إلا من تعرف له ، أعاد الله تعالى علينا من بركاته ! .

قال العلامة ابن داود : وحدثني مولاي والدي رضى الله تعالى عنه من لفظه

(١) أي سنة ثنتين ، وثلاث ، وثمان ، وثمان عشرة ، وثلاث عشرة ، وثمان عشرة ، وهكذا . والحمد لله الذي أذهب عن مصر هذا الوباء بفضل ماعله عبادته من وسائل حفظ الصحة ؛ إن ربنا لغفور شكور . (٢) انظر ص ١٢٨ و ١٢٩ و ١٣١

بتلمسان أمنها الله تعالى يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول الشريف سنة ٨٩٥ ، قال : دخل على سنة شهر رمضان المعظم في زمان ولايتي الخطابة والإمامة بالعراص من خارج وادي آش ، أعادها الله تعالى ! فقعدت أول ليلة منه منفرداً بالمسجد الأعظم من الرباط المذكور بين العشاءين ، وفكرت في ذكر أتخذته في هذا الشهر المبارك يكون جامعاً بين الدنيا والآخرة ، فأجمعت على مطالعة حلية النواوي لعلّي أفهم على ما اختاره لذلك ، فلما أصبحت دخلت إلى المدينة ، ولم أكن أظلمت على فكرتي أحداً ، فلقيني الحاج الأستاذ أبو عبد الله ابن خاف رحمه الله تعالى في الطريق ، فقال لي : سيدي يوسف الدمشقي يسلم عليك ويقول لك : الذكر الذي تعمر به هذا الشهر الفاضل « اللهم ارزقني الزهد في الدنيا ، ونور قاي بنور معرفتك » قال والدي رضي الله تعالى عنه : وكان هذا سبب تعرفي له ، ولقائي إياه ، وكنت قبل ذلك منكراً عليه لكثرة الدعاوى في هذا الطريق ، نفع الله تعالى به ! انتهى .

ولنجعل هذه الترجمة آخر هذا الباب ، تبركا بهذا الولي الصالح ، نفعنا الله تعالى ببركاته ! مع علمي بأن الوافدين من المشرق على الأندلس كثيرون جداً ، إلا أن عدم المادة التي أستعين بها في هذه البلاد تبين عذري ، ولو اجتمعت على كتبي الخاتمة بالمغرب لأتيت في ذلك [وغيره] بما يشفي ويكفي

❖ وفي الإشارة ما يُغني عن الكلام ❖

الباب السابع

في نبذة مما من الله تعالى به على أهل الأندلس من توقد الأذهان ، وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالى ما عَزَّ وهان ، وَحَوَّزهم في ميدان البراعة ، من قصب البراعة ، خَصَلَ الرهان ، وجملة من أجوبتهم ، الدالة على لَوْدَعِيَتهم ، وأوصافهم المؤذنة بآلَمِيَتهم ، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضح برهان

اعلم أن فضل أهل الأندلس ظاهر ، كما أن حسن بلادهم باهر ، ولذلك ذكر ابنُ غالب في « فرحة الأنفس » لما أثنى على الأندلس وأهلها أن بَطْلَمَيْوسَ جعل لهم من أجل ولاية الزُّهْرَة لبلادهم حُسْنَ المهمة في الملبس والمطعم ، والنظافة والطهارة ، والحب للهو والغناء ، وتوليد اللحون ، ومن أجل ولاية عَطَّارْد حسن التدبير ، والحرص على طلب العلم ، وحب الحكمة والفلسفة والعدل والإنصاف .

وذكر ابنُ غالب أيضا ما خَصَّوْا به من تدبير المشتري والمريخ وانتقد عليه بعضهم بأن أقاليم الأندلس الرابع والخامس والسادس في ساحلها الشمالى ، والسابع في جزائر الجوس ، وللأقليم الرابع الشمس ، وللخامس الزهرة ، والسادس عَطَّارْد ، والسابع القمر ، والمشتري للأقليم الثانى ، والمريخ للثالث ، ولا مدخل لهما في الأندلس ، انتهى .

ثم قال صاحب الفرحة : وأهلُ الأندلس عرب في الأنساب ، والعزة ، والأنفة ، وعُلُوُّ الهمم ، وفصاحة الألسُن ، وطيب النفوس ، وإباء الضيم ، وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية ، هِنْدِيُون فى إفراط عنايتهم بالعلوم ، وحبهم فيها ، وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون فى نظافتهم وظرفهم^(١) ، ورقة أخلاقهم ونباهتهم ، وذكاؤهم ، وحسن نظرهم ،

(١) فى ١ « فى ظرفهم ونظافتهم »

وجودة قرائحهم ، ولطافة أذهانهم ، وحدة أفكارهم ، ونفوذ خواطرهم ، يونانيون في استنباطهم للعياء ، ومُعَانَتِهِمْ لضروب الغراسات ، واختيارهم لأجناس القواكه ، وتديبرهم لتركيب الشجر ، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر ، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة ، ومنهم ابن بصال صاحب كتاب الفلاحة الذي شهدت له التجربة بفضله ، وهم أصبر الناس على مُطَاوَلَةِ التعب في تجويد الأعمال ومُقَاسَاة النَّصَبِ في تحسين الصنائع ، أحذق الناس بالفرُوسية ، وأبصرهم بالطعن والضرب .

وعَدَّ رحمه الله تعالى من فضائلهم اختراعهم للخطوط المخصوصة بهم ، قال : وكان خطهم أولاً مشرقياً ، انتهى .

قال ابن سعيد : أما أصول الخط المشرق وما تجد له في القلب واللعظ من القبول فمسلم له ، لكن خط الأندلس الذي رأيته في مصاحف ابن غطوس الذي كان بشرق الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة عندهم له حسن فائق ، ورونق أخذ بالعقل ، وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد ، انتهى .

ونحو صدر كلام ابن غالب السابق مذكور في رسالة لابن حزم ، وقال فيها : إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية ، وإحكام المهن الصورية ، تُركبون في مُعَانَاة الحروب ، ومعالجات آلاتها ، والنظر في مهاتها ، انتهى .

وعد ابن غالب من فضائلهم ^(١) اختراعهم للموشحات التي [قد] استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعا ، وأما نظمهم ونثرهم فلا يخفى على من وقف عليهما علو طبقاتهم .

ثم قال ابن غالب : ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم

عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيرة^(١) تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدو مع بلاد إفريقية ، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه ، وداخلوا أهلها ، وشاركوهم فيها ، فاستنبطوا المياه ، وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحى^(٢) الطاحنة بالماء وغير ذلك ، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها ، فشرفت بلادهم ، وصاححت أمورهم ، وكثرت مُستغلاتهم ، وعمتهم الخيرات ، فهم أشبه الناس باليونانيين فيما ذكرنا ولأن اليونانيين سكنوا الأندلس فورثوا عنهم ذلك ، وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها ، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجبّة الأموال والمستعملون في أمور المملكة ، ولا يستعمل بلدى ما وجد أندلسي ، وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأكملوا أعمالهم^(٣) ، وصيروهم أتباعاً لهم ، ومتصرفين بين أيديهم ، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم ، ويصير الذكر لهم ، قال : ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مبطل ، انتهى .

وقال ابن سعيد ، لما ذكر جملة من محاسن الأندلسيين : يعلم الله تعالى أنى ما أقصد إلا إنصاف المصنفين^(٤) الذين لا يميل بهم التعصب ، ولا يجمع بهم الهوى ، ولكن الحق أحق أن يتبع ، فلعل مُطَّلِعاً يقف على ما ذكره ابن غالب : فيقول : هذا الرجل تعصب لأهل بلده ، ثم يغمس التابع له والراضى بنقل قوله في هذه الصبغة ويحمّله على ذلك بعده عن الأرضين

ولو أبصرُوا لَيْلَى أَقْرُوا بحسبها وقالوا بآنى فى الثناء مُقَصَّر

(١) المبيرة : المملكة (٢) الأرحى : جمع رحي

(٣) فى ب « وأكملوا أعمالهم » والسياق يقتضى ما أثبتناه موافقا لما فى ا

(٤) فى ب « إنصاف المصنفين »

ويكفي في الإنصاف أن أقول : إن حضرة مراکش هي بغداد المغرب ، وهي أعظم مافي بر العُدوة ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت في مدة بنى عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صنائع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم إلى الآن ، ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التي كانت في مراکش بسلطان إفريقية الآن أبي زكريا يحيى بن أبي محمد بن أبي حَفْص ، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس وعرفاء صناعه من الأندلس وتماثيله التي بيني عليها ، وإن كان أعرف خلق الله باختراع محاسن هذا الشأن ، فإنما أكثرها من أوضاع الأندلسيين ، وله من خاطره تنبيهات وزيادة ظهر حسن موقعها ، ووجوه صنائع دولته لا [تكاد] تجدهم إلا من الأندلس فصح قول ابن غالب ، انتهى .

قال الحميدى : أشد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق ، وهي :

وماذا عليهم لو أجابوا فسلموا وقد علموا أنى المَشُوقُ المَتيَمُ ^(١)
سَرَوْا ونَجُومُ اللَّيْلِ زُهرٌ طَوَّالِعُ على أنهم بالليل للناس أنجم
وأخفَوْا على تلك المطايا مسيرهم فتمَّ عليهم فى الظلام التَّبَسُّمُ ^(٢)
فأفرط بعض الحاضرين فى استحسانها ، وقال : هذا ما لا يقدر أندلسى على مثله ،
وبالحضرة أبو بكر [بن] ^(٣) يحيى بن هذيل ، فقال بديها :

عرفت بعَرَفِ الرِّيحِ أين تيمموا وأين استقلَّ الظَّاعِنُونَ وخيموا
خليلى رُدَّأنى إلى جانب الحمى فلست إلى غير الحمى أتيَمُّ
أبيت سَميرَ الفرقدَيْنِ كأَنما وسادى قَتَادُ أو صَجِيعى أرقمُ
وأخوَرَ وَسَنانَ الجَفُونِ كأنه قضيبٌ من الرِّيحانِ لَدُنْ منعم
نظرت إلى أجفانه وإلى الهوى فأيقنت أنى لست منهنَّ أسلم

(١) في ١ « وماذا عليهم لو أثابوا فسلموا »

(٢) في ١ « فتمَّ عليها فى الظلام التَّبَسُّم » (٣) زيادة فى ١

كما أن إبراهيم أول نظرة رأى في الدرارى أنه سوف يَسْقَمُ^(١) ومن كلام ابن بسام صاحب «الذخيرة» : في جزيرة الأندلس أشرف عرب المشرق افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقي النسل فيها بكل إقليم ، على عرق كريم ، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر ، وشاعر فاهر . وذكر أن أبا على البغدادى صاحب الأملى الوافد على الأندلس في زمان بنى مروان قال : لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمر به من أهل الأمصار فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم ، بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم مُحَاصَّةً ومُقَايَسَةً . قال أبو على : فقلت إن نقص أهل الأندلس عن مقادير مَنْ رَأَيْتُ في أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم فسأحتاج إلى تَرْجُمان ، في هذه الأوطان ، قال ابن بسام : فبلغني أنه كان يَصِلُ كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذكائهم ، ويتغطى عنهم عند المباحثة والمناقشة^(٢) ، ويقول لهم : إن علمي علم رواية ، وليس علم^(٣) دراية ، فخذوا عني ما نقلت ، فلم آل لكم أن صححت ، هذا مع إقرار الجميع له يومئذ بسعة العلم وكثرة الروايات ، والأخذ عن الثقات ، انتهى .

ومن كلام الحِجَارَى في « المسهب » :

الأندلس عِراقُ المغربِ عزَّة أنساب ، ورقَّة آداب ، واشتغالا بفنون العلوم^(٤) ، واقتنانا في المنشور والمنظوم ، لم تضق لهم في ذلك ساحة ، ولا قصرت عنه راحة ، فما مرَّ فيها بمصرٍ إلا وفيه نجوم وبدور وشموس ، وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم ، وجعله نُصَبَ أعينهم من الأشجار والأنهار والطيور^(٥) والكوُس ،

(١) يشير إلى ما حكاه الله تعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام ، في قوله (فنظر

نظرة في النجوم ، فقال إني سقيم) والدرارى في البيت بمعنى النجوم

(٢) في ١ « المباحثة والمفانشة » (٣) في ١ « وليس بعلم دراية »

(٤) في ١ « بفنون العلم » وما أثبتناه موافقاً لما في بأوفى للسجع (٥) في ١ « والأطيار »

لا ينازعهم أحد في هذا الشأن ، وابنُ خَفَاجَة سابقهم في هذا المِضْمَارِ الحائِزِ فيه
 قصب الرهان ، وأما إذا هَبَّ نَسِيمٌ ، ودار كَأْسٌ في كف ظَبْيٍ رَخِيمٍ ، ورجع بَمٍّ
 وزير ، وصفق للماء خَرِيرٌ ، أَوْ رَقَّتْ العُشْيَةُ ، وخلصت ^(١) السحب أبرادها الفضية
 والذهبية ، أَوْ تَبَسَّمَ عن شعاعٍ نَعْرُ نَهْرٍ ، أَوْ تَرَقَّقَ بَطَلٌ جَفْنُ زَهْرٍ ، أَوْ خَفَّقَ
 بَارِقٌ ، أَوْ واصل طيف طارق ، أَوْ وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح ،
 وبات مع مَنْ يَهْوَاهُ كالماء والراح ، إلى أن وَدَّعَ حينَ أَقْبَلَ رائدُ الصبح ،
 أَوْ أَزْهَرَتْ دُوْحَةُ السَّمَاءِ بَزْهَرٍ كَوَاكِبُهَا ، أَوْ قَوَّضَتْ عند فيض نهر الصبح بيض
 مضاربها ، فأولئك هم السابقون السابقون ، الذين لَا يُجَارُونَ وَلَا يَلْحَقُونَ ،
 وليسوا بالمقصرين في الوصف إذا تعمقت السلاح ، وسالت حُلُجَّانُ الصَّوَارِمِ
 بين قُضْبَانِ الرماح ، وبنت الحرب من العَجَاجِ سماء ، وأطلعت شبه النجوم
 أسنَّةً وَأَجَرَتْ شبه الشَّفَقِ دماء ، وبالجملة فإنهم في جميع الأوصاف والتخييلات
 أُمَّةٌ ، وَمَنْ وَقَفَ على أشعارهم في هذا الشأن فَضَّاهُمْ فيه على أصناف الأمة ،
 وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية ، وبقاعهم النَصْرَةَ وهمهم الأبية ،
 ولشطار الأندلس من النوادر والتكتيكات ، والتركيبات وأنواع المضحكات ،
 ما تملأ الدواوينَ كثرته ، وتضحك الشكلى وأُسْلَى المسلوب قصته ، مما لو سمعه
 الجاحظ لم يعظم عنده ماحكي وما ركب ، ولا أستغرب أحدٌ ما أورده ولا تعجب ،
 إلا أن مؤلفي هذا الأفق طمعت بهمهم عن التصنيف في هذا الشأن فكاد يمرُّ
 ضياعاً ، فقامت محتسباً بالظرف ^(٢) فتداركته جامعاً فيه ما أمسى شعاعاً ^(٣) ، انتهى .

رسالة ابن حزم
 في فضائل أهل
 الأندلس

وقد رأيت أن أذكر رسالة أبي محمد بن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض
 فضائل علماء الأندلس ، لاشتمالها على ما نحن بصده ، وذلك أنه كتب أبو على

(١) في ١ « وخلصت السحب » محرفاً (٢) في ١ « فقامت محتسباً بالظرف »

(٣) شعاعاً - بالفتح ، بزة سحاب - أي متفرقا

الحسن بن محمد بن أحمد بن الرّيب التميمي القيرواني ، إلى أبي المغيرة عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم يذكر تقصير أهل الأندلس في تحليد أخبار علمائهم وما أثر فضائلهم وسير ملوكهم ، ما صورته :

كُتِبْتُ يَا سَيِّدِي ، وَأَجَلَ عَدَدِي ، كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ السَّعَادَةَ ، وَأَدَامَ لَكَ الْعِزَّ وَالسِّيَادَةَ ، سَائِلًا مُسْتَرَشِدًا ، وَبَاحِثًا مُسْتَخْبِرًا ، وَذَلِكَ أَنِّي فَسَكَّرْتُ فِي بِلَادِكَ إِذْ كَانَتْ قَرَارَةَ كُلِّ فَضْلٍ ، وَمَهْلَ كُلِّ خَيْرٍ وَنُبْلٍ^(١) ، وَمَصْدَرَ كُلِّ طُرْفَةٍ ، وَمُورِدَ كُلِّ تَحْفَةٍ ، وَغَايَةَ آمَالِ الرَّاعِيَيْنِ ، وَنَهَايَةَ أَمَانِي الطَّالِبِينَ ، إِنْ بَارَتْ تِجَارَةٌ فَلِإِذَاهَا تُجَلَّبُ ، وَإِنْ كَسَدَتْ بِضَاعَةٌ فَقِيهَا تَنْفَقُ ، مَعَ كَثْرَةِ عِلْمَائِهَا ، وَوُفُورِ أَدْبَائِهَا^(٢) ، وَجَلَالَةِ مُلُوكِهَا ، وَمَحَبَّتِهِمْ فِي الْعِلْمِ ، وَأَهْلُهُ يُعَظَّمُونَ مِنْ عَظَمَةِ عِلْمِهِ ، وَيَرْفَعُونَ مِنْ رَفْعِهِ أَدَبِهِ ، وَكَذَلِكَ سِيرَتُهُمْ فِي رِجَالِ الْحَرْبِ : يَتَقَدَّمُونَ مِنْ قَدَمَتِهِ شَجَاعَتُهُ ، وَعَظُمَتْ فِي الْحُرُوبِ نَكَائِيَتُهُ ، فَشَجَعَ الْجَبَانَ ، وَأَقْدَمَ الْهَيْبَانَ ، وَنَبَهَ الْخَامِلَ ، وَعَلَّمَ الْجَاهِلَ ، وَنَطَقَ الْغَيَّ ، وَشَعَرَ الْبَرَكِي ، وَاسْتَنْسَرَ الْبَغَاثَ ، وَتَشَعَّبَ بَنُ الْخَفَاثَ ، فَتَنَافَسَ النَّاسُ فِي الْعُلُومِ ، وَكَثُرَ الْحِزَاقُ بِجَمِيعِ الْفَنُونِ ، ثُمَّ هُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ^(٣) التَّقْصِيرِ وَنَهَايَةِ التَّنْفِيزِ ، مِنْ أَجْلِ أَنْ عُلَمَاءَ الْأُمَصَارِ دُونُوا فَضَائِلَ أُمَصَارِهِمْ ، وَخَلَدُوا فِي الْكِتَابِ مَا أَثَرُ بُلْدَانِهِمْ ، وَأَخْبَارَ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ ، وَالْكِتَابِ وَالْوُزَرَاءِ ، وَالْقَضَاةِ وَالْعُلَمَاءِ ، فَأَبْقَوْا لَهُمْ ذِكْرًا فِي الْغَابِرِينَ يَتَجَدَّدُ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَلِسَانَ صَدَقٍ فِي الْآخِرِينَ ، يَتَأَكَّدُ مَعَ تَصَرُّفِ الْأَعْوَامِ ، وَعِلْمًا وَكَمَاسَةً مَعَ اسْتَظْهَارِهِمْ عَلَى الْعُلُومِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ قَائِمٌ فِي ظِلِّهِ لَا يَبْرَحُ ، وَرَاتِبٌ^(٤) عَلَى كَعْبِهِ لَا يَتَزَحَّجُ ، يَخَافُ إِنْ صَنَّفَ ، أَنْ يُعْتَمَفَ ، وَإِنْ أَلْفَ أَنْ يَخَالَفَ ، وَلَا يُؤَالَفَ ، أَوْ تَخْطئه الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ، لَمْ يَتَعَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ نَفْسًا فِي جَمْعِ

كتاب
ابن الريب
يعيب أهل
الأندلس

(١) كلمة « ونبل » ساقطة من ا (٢) في ا « ومقصد كل طرفه »

(٣) في ا « ووفور آدابها » (٤) في ا « على غاية التقصير »

(٥) راتب : أى ثابت

فضائل أهل بلده ، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه ، ولا بلّ قلماً بمناقب كتابه ووزرائه ، ولا سود قرطاطاً بمحاسن قضّاته وعلمائه ، على أنه لو أطلق ما عقّل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه ، لوجد للقول مساعاً ، ولم تضق عليه المسالك ، ولم تخرج به المذاهب ، ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد ، ولكنهم أحدهم أن يطلب شأؤ من تقدمه من العلماء ليحوز^(١) قصبات السبق ، ويفوز بقُدح ابن مُقبل ، ويأخذ بكظم دغفل ، ويصير شجاً في حلق أبي العميثل ، فإذا أدرك بغيته ، وأخترته مَنِيته ، دفن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكره ، وانقطع خبره ، ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس ، فأتفوا دواوين بقي لهم بها ذكر مُجدّد طول الأبد .

فإن قلت : إنه كان مثل ذلك من علمائنا ، وألفوا كتباً لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحّحها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم غير رَوْحة راكب ، أو رحلة قارب ، لو نفث من بلدكم مصدر ، لأسمع من ببلدنا في القبور ، فضلاً عن في الدور والقصور ، وتلقّوا قوله بالقبول كما تلقوا ديوان أحمد بن عبد ربه الذي سماه بالعقد ، على أنه يلحقه فيه بعض اللوم ، لاسيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه ، أكثر الحز وأخطأ المفصل ، وأطال الهز لسيف غير مقصّل^(٢) ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيههم ، وإغفال ما يهمهم .

فأرشد أخاك أرشدك الله ! واهدِه هداك الله ! أن كانت عندك في ذلك الجلية ، وبيدك فصل القضية ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(١) في ١ « ليحز قصبات السبق »

(٢) في ب « غير مقصّل »

رد ابن حزم
على كتاب
ابن الريب
فكتب الوزير الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، عند وقوفه
على هذه الرسالة ، ما نصه :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى أصحابه
الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين الطيبين .

أما بعد يا أخى يا أبا بكر ، سلام عليك سلام أخ مشوق طالبت بينه وبينك
الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليالي ، ثم لقيك ^(١) في حال سفر وُنُقْلَة ، ووادك
في خلال جَوْلَة ورحلة ، فلم يقض من محاورتك ^(٢) أرباباً ، ولا بلغ في مجاورتك مطلباً ،
وإني لما احتلت بك ، وجالت يدي في مكنون كتبك ، ومضمون دواوينك ،
لحت عيني في تضاعيفها درجا ، فتأملته ، فإذا فيه خطاب لبعض الكتاب من
مصاقينا في الدار أهل إفريقية ، ثم ممن ضمنته حاضرة قَيْرُوانهم ، إلى رجل
أندلسي لم يعينه باسمه ، ولا ذكره بنسبه ، يذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس -
وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم ، وفي الغاية القصوى من
التحكم على وجوه المعارف - فإن همهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ،
ومكارم ملوكهم ، ومحاسن فقهائهم ، ومناقب قضائهم ، ومفاخر كتّابهم ، وفضائل
علمائهم ، ثم تعدّى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف
يجي ذكرهم ، ويبقى علمهم ، بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه
معه ، وحقق ظنه في ذلك ، واستدل على صحته عند نفسه بأن شيئاً من هذه
التأليف لو كان منا موجوداً لكان إليهم منقولاً ، وعندهم ظاهراً ، لقرب المزار ،
وكثرة السفار ، وتردّدِهم إليهم ، وتكرّرهم علينا ، ثم لما ضمنا المجلس الحافل
بأصناف الآداب ، والمشهد الأهل بأنواع العلوم ، والقصر المعمور بأنواع الفضائل ،

(١) في ١ ، ب « ثم لقيتك في حال سفر » والحديث كله جار على الغيبة

(٢) في ١ « فلم يقض من محاورتك . . . من محاورتك مطلباً »

والمنزّل الخفوف بكل لطيفة وسبعة من دقيق المعاني وجليل المعالي ، قرارة المجد ومحل السودد ، ومحط رحال الخائفين ، ومُلَقَى عصا التسيار عند الرئيس الأجل الشريف قديمه وحسبه ، الرفيع حديثه ومكتسبه ، الذي أجله عن كل خطة يشركه فيها من لا توازي قومه نومه ، ولا ينال خضره هويناه^(١) ، وأربى به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه ، ولا يدنو من المعالي دنوه ، ولا يعلو في حميد الخلال علوه ، بل أكتفى من مدحه باسمه المشهور ، وأجتزى من الإطالة في تقريره بمنتهى المذكور ، فحسبي بذنك العلمين دليلاً على سعيه المشكور ، وفضله المشهور ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب البونى أطل الله بقاءه ! وأدام اعتلاءه ! ولا عطل الحامدين من تحليمهم بحلّاه ! ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه ! فرأيت أنه أعزه الله تعالى حريصاً على أن يجابو هذا الخطاب ، وراعياً في أن يبين له ما لعله قد رآه فنسى أو بعد عنه فحفي ، فتناولت الجواب المذكور بعد أن بلغني أن ذلك الخطاب قد مات ، رحماً الله تعالى وإياه ! فلم يكن لقصده بالجواب معنى ، وقد صارت المقابر له معنى ، فلسنا بمُسْمِعِينَ مَنْ في القبور ، فصرفت عَنَّا الخطاب إليك ، إذ من قبلك صرت إلى الكتاب المجاب عنه ، ومن لدنك وصلت إلى الرسالة المعارضة ، وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تأليف أهل بلدنا مثل ما غاب عن هذا الباحث الأول ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن كنت في إخباري إليك بما أرسمه في كتابي هذا كمهدٍ إلى البُرْكَانِ نارِ الحَبَابِ^(٢) ، وباني صَوَى^(٣) في مِهْمَعِ القَصْدِ اللّاحِبِ ، فإنك وإن كنت المقصود والمواجه ، فإنما المراد من أهل تلك الناحية مَنْ نَأَى عنه علم ما استجلبه السائل الماضي ، وما توفيقى إلابالله سبحانه .

(١) الحضر - بضم الحاء وسكون الضاد - شدة العدو (٢) الحباب : ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج ، وربما قالوا الحباب اسم للشعاع الذي يرى في ذنبه .
(٣) في ب « وباني رضوي » محرفاً عما أثبتناه موافقاً لما في ١ ، والصوى : علامات توضع في الطريق لهداية السالكين ، وفي الحديث « إن للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق »

فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتباً جمّة :
 منها كتاب ضخّم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها ، وأمّهات مدنها وأجنادها
 الستة ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه مما ليس في غيره ، وهو كتاب مريح مليح ،
 وأنا أقول : لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر به ووصف
 أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرة في الحديث الذي روّيناه من
 طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبي الوليد
 عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه وعنهم أجمعين حدثته عن النبي صلى الله
 عليه وسلم أنه أخبرها بذلك ، لكفى شرفاً بذلك يسرّ عاجله ، ويفبط آجله .

فإن قال قائل : لعله صلوات الله تعالى عليه إنما عني بذلك الحديث أهل
 صقلية وإقريطش ، وما الدليل على ما ادعيته من أنه صلى الله عليه وسلم عني
 الأندلس حتماً ؟ ومثّل هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح ،
 وبيان لأئح ، لا يحتمل التوجيه ، ولا يقبل التجريح .

فالجواب - وبالله التوفيق - أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتى جوامع الكلم ،
 وفصل الخطاب ، وأمر بالبيان لما أوحى إليه ، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل
 سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبج البحر^(١) غزاة واحدة
 بعد واحدة ، فسألته أم حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم ، فأخبرها
 صلى الله عليه وسلم وخبره الحق بأنها من الأولين ، وهذا من أعلام^(٢) نبوته صلى الله
 عليه وسلم ، وهو إخباره بالشئ قبل كونه^(٣) ، وصح البرهان على رسالته بذلك ،
 وكانت من الغزاة إلى قبرس ، وخرت عن بعلتها هناك ، فتوفيت ، رحّمها الله تعالى !
 وهى أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر ، فثبت يقيناً أن الغزاة إلى قبرس هم

(١) ثبج البحر : وسطه (٢) أعلام النبوة : أراد دلائل نبوته وصدقته في دعوى الرسالة

(٣) قبل كونه : أى قبل حدوثه

الأولون الذين بشر بهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، ولا سبيل أن يظن به وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين قد سمى إحداهما أولى إلا والتالية لها ثانية ، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد ، وهذا مقتضى طبيعة صناعة المنطق ، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية ، ولا الثانية ثانية إلا لأولى ، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثان ضرورة ، وهو صلى الله عليه وسلم إنما ذكر طائفتين ، وبشر بفئتين ، وسمى إحداهما الأولين ، فاقتضى ذلك بالقضاء الصدق الآخرين ، والآخر من الأول هو الثاني الذي أخبر صلى الله عليه وسلم أنه خير القرون بعد قرنه ، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه خير من كل قرن بعده ، ثم ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية ، وكان الأمير بها في تلك السفن هُبيرة الفزاري ، وأما صقلية فإنها فتحت صدر أيام الأغالبة سنة ٢١٢ ، أيام قاد إليها السفن غازياً أسدُ بن الفرات القاضي^(١) صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى ، وبهامات ، وأما إقريطش فإنها فتحت بعد الثلاث والمائتين ، افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ ، من أهل قرية بطروج من عمل فحَصَ البَلُوط المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس ، وكان من فلَّ الرَبْصِيِّين ، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيام أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ ، وكان أكثر المفتحين لها أهل الأندلس .

وأما في قسم الأقاليم فإن قُرْطُبة مسقط رؤسنا ، ومَعَقَّ^(٢) تماثنا ، مع سُرَّ من رأى في إقليم واحد ، فلنا من التهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ، وإن كانت الأنوار

(١) في ب « الغازي صاحب أبي يوسف »

(٢) معق تماثنا : أخذه من قول الشاعر :

بلاد بها عقى الشباب تماثنى وأول أرض مس جلدى ترابها

ووقع في ب « ومعلق تماثنا »

لا تأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور ، وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدل عليها السكواكب ناقص من قُوَى دلائلها ، فلها من ذلك على كل حال حظ يفوق حظ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد التَّيَرَيْنِ بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن في العلوم والنفوذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر ، وأبانت التجربة ، فكان أهلها من التمكن في علوم القراآت والروايات وحفظ كثير من الفقه والبصّر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكانٍ رَحْبِ الفناء ، واسع العَطَن ، متناهي الأفطار ، فسيح المجال ، والذي نعاه علينا الكاتبُ المذكور لو كان كما ذكر لسكننا فيه شركاء لأكثر أمهات الخواضر ، وجلال البلاد ، ومُتَسَّعات الأعمال ، فهذه القيروان بلد الخطابِ لنا ، ما ذكر أني رأيت في أخبارها تأليفاً غير « المعرب ، عن أخبار المغرب » وحاشي تأليف محمد بن يوسف الوراق ، فإنه ألف للمستنصر رحمه الله تعالى في مسالك إفريقية وممالكها ديواناً ضخماً ، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتباً جمّة ، وكذلك ألف أيضاً في أخبار تيهرت ووهران وتونس^(١) وسجلماسة ونسكور^(٢) والبصرة وغيرها تأليف حسناً ، ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع ، أباه من وادي الحِجَّارة ، ومدّفنه بقرطبة ، وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقيروان .

ولابد من إقامة الدليل على ما أشرت إليه هنا إذ مرادنا أن تأتي منه بالمطلوب^(٣) فيما يستأنف إن شاء الله تعالى ، وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقيين ، دون محاشاة أحد ، بل قد تيقنّا إجماعهم على ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكنائها

(٢) في ب « ونسكور »

(١) في ا « وتونس »

(٣) في ا « بالمطلب »

إلى أن مات ، فإن ذكروا الكوفيين من الصحابة رضى الله تعالى عنهم صدّروا
 على وابن مسعود وحذيفة رضى الله تعالى عنهم ، وإنما سكن على الكوفة
 خمسة أعوام وأشهرًا ، وقد بقى ٥٨ عاما وأشهرًا بمكة والمدينة شرفهما الله تعالى .
 وكذلك أيضا أكثر أعمار من ذكرنا ، وإن ذكروا البصريين بدؤا بعمران
 ابن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبى بكرة ، وهؤلاء مواليدهم وعامة
 زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة أعمارهم حلت
 هنالك ، وإن ذكروا الشاميين نوّھوا بعبادة بن الصامت وأبى الدرداء
 وأبى عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعوية ، والأمر في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم ،
 وكذلك في المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوى ، وفي المكيين
 عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير ، والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا ،
 فمنّ هاجر إلينا من سائر البلاد ، فنحن أحقّ به ، وهو منا بحكم جميع أولى الأمر
 منا الذين إجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر منا إلى غيرنا
 فلا حظّ لنا فيه ، والمكان الذى اختاره أسعدُ به ، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم
 فكذلك لا ننازع في محمد بن هانىء سوانا ، والعدل أولى ما حرص عليه ، والنصف
 أفضل ما دُعى إليه ، بعد التفصيل الذى ليس هذا موضعه ، وعلى ما ذكرنا من
 الأنصاف تراضى الكل .

وهذه بغداد حاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة ، والحلّة التى سبق أهلها إلى حمل
 ألوية المعارف ، والتدقيق فى تصريف العلوم ، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء
 وحدة الأفكار ونفاذ الخواطر ، وهذه البصرة وهى عين المعمور فى كل ما ذكرنا ،
 وما أعلم فى أخبار بغداد تأليفا غير كتاب أحمد بن أبى طاهر ، وأما سائر التواريخ
 التى ألّفها أهلها فلم يخصّوا بلدتهم بها دون سائر البلاد ، ولا أعلم فى أخبار البصرة
 غير كتاب عمر بن شبة ، وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى

أبى سفيان في خطط البصرة وقطائعها ، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر كرى النسب وصفاها وذكر^(١) أسواقها ومحالها وشوارعها ، ولا أعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة ، وأما الجبال وخراسان وطبرستان وخرجرجان وكرمان وسجستان والسند وأرمينية وأذربيجان وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم في شيء منها تأليفا قصده به أخبار ملوك تلك النواحي ، وعلمائها وشعرائها وأطبائها ، ولقد تأقت النفوس^(٢) إلى أن يتصل بها تأليف في أخبار فقهاء بغداد ، وما علمناه علم^(٣) ، على أنهم العلية الرؤساء ، والأكابر العظام ، ولو كان في شيء من ذلك تأليف لكان الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تأليفهم ، وكما بلغنا كتاب حمزة بن الحسن الأصبهاني في أخبار أصبهان ، وكتاب الموصلي وغيره في أخبار مصر ، وكما بلغنا سائر تأليفهم في أنحاء العلوم ، وقد بلغنا تأليف القاضي أبى العباس محمد بن عبدون القيرواني في الشروط ، واعتراضه على الشافعي رحمه الله تعالى ، وكذلك بلغنا رد القاضي أحمد بن طاب التيمي على أبى حنيفة وتشيعه على^(٤) الشافعي ، وكتب ابن عبدوس^(٥) ومحمد بن سحنون وغير ذلك من خوامل تأليفهم^(٦) دون مشهورها .

وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر « أزهد الناس في عالم أهلهم » وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبي حرمة إلاف بلده » وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من قریش ، وهم أوفر الناس أحلاما ، وأصحهم عقولا ، وأشدهم تثبتا ، مع ما خضوبه من سكنهم أفضل

(١) في ١ « في وصفها وذكر أسواقها ومحالها - إلخ »

(٢) تأقت النفوس تنوق توقا : اشتاقت (٣) لعل الأصل « وما علمناه عمل »

(٤) في ب « وتشيعه على الشافعي »

(٥) في نسخة عند ب « وكتب ابن عبدون »

(٦) في ١ « حواصل تأليفهم » محرفا

البِقَاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه ، حتى خص الله تعالى الأوسَ والخزرجَ^(١) بالفضيلة التي أبانهم^(٢) بها عن جميع الناس ، والله يؤتي فضله من يشاء .

ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته ، وتبعمهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف مافي سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ومنتحل مدع ، وإن توسط قالوا : غث بارد وضعيف ساقط ، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولأمه الهبل ! وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شُفُوفاً باننا يعليه على نظرائه أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها فهناك حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضاً الأقوال ، وهدفاً للعطال ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعُرْضَةً للتطرق إلى عرضه ، ور بما نُحْل مالم يُقْل ، وطُوق مالم يتقلد ، وألحق به مالم يَفْه به ولا اعتقده قلبه ، وبالخرى وهو السابق المبرز إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من المتآلف وينجو من الخالف ، فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسير خطبه ، واستشنع هين سقطة ، وذهبت محاسنه ، وسُتِرت فضائله ، وهتفت ونودى بما أغفل ، فتنكسر^(٣) لذلك همته ، وتكل نفسه ، وتبرد حميته ، وهكذا عندنا نصيب من ابتداء يحوك شعراً ، أو يعمل بعمل رياسة^(٤) ، فإنه لا يُقْلَت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النُصْب إلا الناهض القاتل والمطفئ المستولى على الأمد .

وعلى ذلك فقد جمع مآظنه الظان غير مجموع ، وألقت عندنا تأليف في غاية الحسن ، لنا خطرَ السبق في بعضها : فمنها كتاب « الهداية » لعيسى بن دينار ،

(١) الأوس والخزرج : هم أهل المدينة المنورة الذين هاجر إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فكان لهم شرف إبوائه ونصرته
(٢) أبانهم : أى ميزهم وأظهرهم
(٣) فى ١ « فتتكسر لذلك همته »
(٤) فى ١ « أو يعمل رسالة »

وهي أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم ، وأجمعها للمعاني
 الفقهية على المذهب ، فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار في الأقضية
 وكتاب النكاح والطلاق ، ومن الكتب المالكية التي ألقت بالأندلس كتاب
 القصي مالك بن علي ، وهو رجل قرشي من بني فهر لقي أصحاب مالك وأصحاب أصحابه
 وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنات من الرسائل المولودات ، ومنها كتاب
 أبي إسحاق إبراهيم بن مزين في تفسير الموطأ والكتب المستقصية لمعاني الموطأ وتوصيل
 مقطوعاته من تأليف ابن مزين أيضاً ، وكتابه في رجال الموطأ ومالك عن كل
 واحد منهم من الآثار في موطئه .

وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد فهو الكتاب الذي
 أقطع قطعاً لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن
 جرير الطبري ولا غيره .

ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبته على أسماء الصحابة رضي الله تعالى
 عنهم ! فروى فيه عن ألف وثلثمائة صاحب ونيف ، ثم رتب حديث كل صاحب
 على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد
 قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه ، فإنه روى عن
 مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير ،
 ومنها مصنفه في فضل الصحابة والتابعين ومن دونهم الذي أرنبى فيه ^(١) على مصنف
 أبي بكر بن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق بن همام ومصنف سعيد بن منصور
 وغيرها وانتظم علماً عظيماً لم يقع في شيء من هذه ، فصارت تأليف هذا الإمام
 الفاضل قواعد الإسلام ، لانظير لها ، وكان متخيراً لا يقلد أحداً ، وكان ذا خاصة

من أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه ! .

ومنها في أحكام القرآن كتاب ابن أمية الحجارى ، وكان شافعى المذهب بصيرا بالكلام على اختياره ، وكتاب القاضى أبى الحكم منذر بن سعيد ، وكان داودى المذهب قويا على الانتصار له ، وكلاهما في أحكام القرآن غاية ، ولمنذر مصنفات منها كتاب « الإبانة ، عن حقائق أصول الديانة »

ومنها في الحديث مصنف أبى محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح ، ومصنف محمد بن عبد الملك بن أيمن ، وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغيره على ما ليس في كثير من المصنفات ، ولقاسم بن أصبغ هذا تأليف حسان جدا ، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل وكلامه ، ومنها كتاب « المجتبى ، على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى » وهو خير منه وأتق حديثا وأعلى سندا وأكثر فائدة ، ومنها كتاب في فضائل قریش [وكنانة] ، وكتابه في الناسخ والمسنوخ ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ ، ومنها كتاب « التمهيد » لصاحبنا أبى عمر يوسف بن عبد البر ، وهو الآن يعد في ^(١) الحياة لم يبلغ سن الشيخوخة ، وهو كتاب لأعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا فكيف أحسن منه ، ومنها كتاب « الاستذكار » وهو اختصار التمهيد المذكور ، ولصاحبنا أبى عمر بن عبد البر المذكور كتب لأمثله لها : منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر كتابا اقتصر فيه على ما بالفتى الحاجة إليه وبوبه وقربه فصار مغنيا عن التصنيفات الطوال في معناه ، ومنها كتابه في الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله على كثرة ما صنفوا في ذلك ، ومنها كتاب « الاكتفاء ، في قراءة نافع وأبى عمرو بن العلاء ، والحجة لكل واحد منهما »

(١) في « وهو الآن يعد في الحياة »

ومنها كتاب « بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، مما يجرى في المذاكرات ، من غرر الأبيات ونوادر الحكايات » ومنها كتاب « جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته »

ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن القرضي في المختار والمؤتلف في أسماء الرجال ، ولم يبلغ عبد الغني الحافظ البصري في ذلك إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين لا أعلم مثله في فنه البتة ، ومنها تاريخ أحمد بن سعيد ، ما وضع في الرجال أحد مثله إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي ، ولم أره ، وأحمد بن سعيد هو المتقدم في التأليف^(١) القائم في ذلك ، ومنها كتب محمد بن يحيى بن مفرج القاضي ، وهي كثيرة منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري ، وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري ومما يتعلق بذلك شرح الحديث لعامر بن خلف السرقسطي ، فاشأه^(٢) أبو عبيد إلا بتقدم العصر فقط .

ومنها في الفقه « الواضحة » والمالكيون لا تمنع بينهم في فضائلها واستحسانهم إياها ، ومنها « المستخرجة من الأسمعة » وهي المعروفة بالعينية ، ولها عند أهل إفريقية القدر العالي والطيران الحثيث ، والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحمد بن عبد الملك ابن هشام^(٣) الإشبيلي المعروف بابن الكوي^(٤) ، والقرشي أبو مروان المعيطي في جمع أقاويل مالكا كلها على نحو الكتاب الباهر الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد البصري أقاويل الشافعي كلها ، ومنها كتاب « المنتخب » الذي ألفه القاضي محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ، ومارأيت لمالكي قط كتابا أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها وتفريع وجوها ، وتأليف قاسم بن محمد

(١) في ١ « المتقدم إلى التأليف » (٢) شأه : فاقه ، وزاد عليه

(٣) في ١ « ابن هاشم »

(٤) في ١ « المعروف بابن الكوي » وفي نسخة عند « الكوري »

المعروف بصاحب الوثائق ، وكلها حسن في معناه ، وكان شافعي المذهب نظارا جاريا في ميدان البغداديين

ومنها في اللغة الكتاب « البارع » الذي ألفه إسماعيل بن القاسم يحتوي على لغة العرب ، وكتابه في المقصور والممدود والمهموز لم يؤلف مثله في بابيه ، وكتاب الأفعال لمحمد بن عمر بن عبد العزيز^(١) المعروف بابن القوطية بزيادات ابن طريف مولى العبيدين^(٢) فلم يوضع في فنه مثله ، وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيناني^(٣) في اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً وثقة نقل ، وهو أظن في الحياة بعد

وههنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها ، وهي أن أبا الوليد عبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف بابن القرضي ، حدثني أن أبا الجيش مجاهدا صاحب الجزائر ودانية وجهه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية وأبو غالب ساكن بها ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور « مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد » فرد الدنانير وأبى من ذلك ، ولم يفتح في هذا بابا البتة ، وقال : والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب ، لأنني لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب ، فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها ، واعجب لنفس هذا العالم [ونزاهتها] ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد في اللغة المعروف بكتاب « العالم » نحو مائة سفر على الأجناس في غاية الإيعاب ، بدأ بالقلك وختم بالذرة ، وكتاب « النوادر » لأبي علي إسماعيل بن القاسم ، وهو مبار لكاتب « الكامل » لأبي العباس المبرد ، ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً فإن كتاب أبي علي لأكثر لغة وشعرا ، وكتاب « القصص » لصاعد بن الحسن^(٤) الربعي ، وهو جار في مضمار الكتابين المذكورين .

(١) في ب ونسخة عند ا « لمحمد بن عامر العزى » (٢) في ا « العبيدين »

(٣) كذا في ا وأصل ب ، وفي نسخة عند ب « التيام »

(٤) في نسخة عند ب « لصاعد بن الحسين » وانظر (ص ٧٥ من هذا الجزء)

ومن الأنحاء تفسير الخو في لكتاب الكسائي، حسن في معناه ، وكتاب ابن سيده في ذلك المنبوز « بالعالم والمتعلم » وشرح له لكتاب الأخنس .
ومما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في أخبار شعراء الأندلس كتاب حسن ، وكتاب « الحداثق » لأبي عمر أحمد بن فرج عارض به كتاب الزهرة لأبي محمد بن داود رحمه الله تعالى ، إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتابُ فرداً في معناه ، ومنها كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » جمعه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الحسن الكاتب ، وهو حي بعد .

ومما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد [بن] الإفليلي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً .

ومن الأخبار توارىخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم ، وذلك كثير جداً ، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها ، وتوارىخ متفرقة رأيت منها : أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائعه وسيره وحروبه ، وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالخوف^(١) ، وفي أخبار بني^(٢) قيس والتجيين وبني الطويل والثغر ، وقد رأيت من ذلك كتباً مصنفة في غاية الحسن ، وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار رية وحصونها وحروبها وفقهاها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق الليثي ، وكتاب محمد بن الحارث الخشني في أخبار

(١) في « القائم بالخوف » (٢) في « بني قيس »

القُصَّة بقرطبة وسائر [بلاد] الأندلس ، وكتاب في أخبار الفقهاء بها ، وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في أنساب مشاهير أهل الأندلس في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها ، وكتاب قاسم بن أصبغ في الأنساب في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز ، وكتابه في فضائل بني أمية ، وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره ، وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعامل والأجناد الستة بالأندلس ، ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها أخبار شعراء إلبيرة في نحو عشرة أجزاء ، ومنها كتاب الطوابع في أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس تأليف أبي مروان بن حيان نحو عشرة أسفار من أجل كتاب ألف في هذا المعنى ، وهو في الحياة بعد لم يتجاوز الاكتحال^(١) ، وكتاب « المآثر العامرية » لحسين بن عاصم في سير ابن أبي عامر وأخباره ، وكتاب الأفتشين^(٢) محمد بن عاصم النحوى في طبقات الكتاب بالأندلس ، وكتاب سكن بن سعيد في ذلك ، وكتاب أحمد بن فرج في المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم ، وكتاب أخبار أطباء الأندلس لسليمان بن جليل .

وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن إسحاق وهي كتب حسنة رفيعة ، وكتب محمد بن الحسن المذحجيّ أستاذنا رحمه الله تعالى ! وهو المعروف بابن الكتاني وهي كتب رفيعة حسنة ، وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوى ، وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقنّ ، وكتب ابن الهيثم في الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وأنفعها .

(١) في ١ « لم يتجاوز الاكتحال » محرفا ، وانظر ص ١٧٠ الآتية

(٢) في ب « الأفتشين »

وأما الفلاسفة فإنني رأيت [فيها] رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون الشَّرْقَسْطَى المعروف بالحار دالة على تمسكه من هذه الصناعة ، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجِي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة .

وأما العدد والهندسة فلم يُقَسِّمَ لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا إلا أني سمعت مَنْ أثنى بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول : إنه لم يؤلف في الأرياج مثل زيج مسامة وزيج ابن السمح^(١) ، وهما من أهل بلدنا ، وكذلك كتاب [المساحة المجهولة]^(٢) لأحمد بن نصر فما تقدم إلى مثله في معناه .

وإنما ذكرنا التأليف المستحقة للذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلا في أحدها ، وهي إما شيء [يخترعه]^(٣) لم يسبق إليه ، أو شيء ناقص يتمه ، أو شيء مستغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه صاحبه^(٤) يصلحه .

وأما التأليف المقصورة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها .

وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقل لذلك تصرفهم في هذا الباب ، فهي على كل حال غير عَرِيَّة عنه ، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال ، نظار على أصوله ، ولهم فيه تأليف : منهم خليل بن إسحاق ، ويحيى بن السمينة ، والحاجب موسى بن حدير^(٥)

(١) في نسخة « ابن السمح » واتفقت ا ، ب على ما أثبتناه

(٢) هذه التسمية لا توجد في ب

(٣) كلمة « يخترعه » وقعت متأخرة في ا (٤) في ا « مؤلفه »

(٥) في ب « ابن حدير »

وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد ، وكان داعية إلى الاعتزال لا يستتر بذلك ، ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث ^(١) كتاب في هذا المعنى ، وهو وإن كان صغير الجرم قليل عدد الورق يزيد على المائتين زيادة يسيرة فعظيم الفائدة لأننا أسقطنا فيه المشاغب كلها ، وأضر بنا عن التطويل جملة ، واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحيح الراجعة إلى شهادة الحس وبديهية العقل [لها] بالصحة ، ولنا فيما تحققنا به تأليف جملة ^(٢) ، منها ما قد تم ، ومنها ما شارف التمام ، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله تعالى على باقيه ، لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها ، ولا أردنا السمعة فنسميها ، والمراد بها ربنا جل وجهه ، وهو ولي العون فيها ، والملىء بالجازاة عليها ، وما كان لله تعالى فيسبى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وبلدنا هذا - على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء - فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ريعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها .

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجب جعونة بن الصمة الكلبي في الشعر لم نبأ به إلا جريراً والفرزدق ، لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل ، لا على طريقة المحدثين ، وإذا سمينا بقى بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج النيسابورى وسليمان بن الأشعث السجستاني وأحمد بن شعيب النسائي ، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نبأ به إلا القفال ومحمد بن عقيل القرطبي ، وهو شريكهما في صحة المزني أبي ^(٣) إبراهيم والتلمذ له ^(٤) ،

(١) في « من مذاهب أهل الحديث » (٢) في « تأليف جملة »

(٣) في ب « المزني بن إبراهيم » (٤) في « والتلمذ له »

وإذا نعتنا عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار بهما إلا أبا الحسن ابن الغلس والخلال والديباجي ورؤيم بن أحمد . وقد شاركهم عبد الله في أبي سليمان وصحبته ، وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر^(١) بن لبابة وعنه محمد بن عيسى وفضل بن سلمة لم نطاح بهم إلا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن سحنون ومحمد ابن عبدوس ، وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرياحي وأبي عبد الله محمد بن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد .

ولم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلی لما تأخر عن شأو بشار [بن برد] وحبيب والمتنبی ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد ابن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ، وعبد الملك ابن سعيد المرادی ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه ، وحصان ممدوح الغرة .

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا ، وهو حي بعد لم يبلغ سن الاكتهال^(٢) ، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لسان عمرو وسهل ومحمد بن عبد الله بن مسرة في طريقه التي سلك فيها ، وإن كنا لانرضى مذهبه ، في جماعة يكثر تعدادهم .

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان ، ولم ننزيدا فيما رغب فيه إلا ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوابه ، والحمد لله الموفق لعلمه ، والهادي إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم ، وشرف وكرم ، انتهت الرسالة .

(١) كذا في أصل ١ ونسخة عند ب ، وفي أصل ب « محمد بن عمرو بن لبابة »

(٢) في ١ « لم يبلغ سن الاكتهال » وانظر ص ١٦٧ من هذا الجزء

وكتب الحافظ ابن حجر على هامش قوله فيها « وإنما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهرًا » مانصه : صوابه أربعة أعوام ، انتهى .

وقال ابن سعيد ، بعد ذكره هذه الرسالة ماصورته : رأيتُ أن أذيلَ ما ذكره الوزيرُ الحافظ أبو محمد بن حزم من مفاخر أهل الأندلس بما حضرني والله تعالى ولى الإعانة .

تذييل ابن
سعيد على
جواب ابن حزم

أما القرآن فمن أجل ما صنف في تفسيره كتاب « الهداية » ، إلى بلوغ النهاية « في نحو عشرة أسفار ، صنفه الإمام العالم الزاهد أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي ، وله كتاب تفسير إعراب القرآن ، وعد ابن غالب في كتاب « فرحة الأنفس » تأليف مكي المذكور ، فبلغ بها ٧٧ تأليفا ، وكانت وفاته سنة ٤٣٧ ، ولأبي محمد بن عطية الغرناطي في تفسير القرآن الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب والشرق ، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة .

وأما القراءات فلمكي المذكور فيها كتاب « التبصرة » وكتاب « التيسير » لأبي عمرو الداني مشهور في أيدي الناس .

وأما الحديث فكان بعصرنا في المائة السابعة الإمام أبو الحسن علي بن القطان القرطبي الساكن بحضرة مراکش ، وله في تفسير غريبه ^(١) وفي رجاله مصنفات ، وإليه كانت النهاية والإشارة في عصرنا ، وسمعت أنه كان اشتغل بجمع أمهات كتب الحديث المشهورة ، وحذف المكرر ، وكتاب رُزَيْن بن عمار الأندلسي في جمع ما يتضمنه كتاب مسلم والبخاري والموطأ والسنن والنسائي والترمذي كتاب جليل مشهور في أيدي الناس بالشرق والمغرب ، وكتاب « الأحكام » لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي مشهور متداول القراءة ، وهي أحكام كبرى ، وأحكام صغرى ، قيل : ووسطى ، وكتاب « الجمع بين الصحيحين » للحميدي مشهور .

(١) في « غرائب »

وأما الفقه فالكتاب المعتمد عليه الآن الذى ينطلق عليه اسم الكتاب عند المالكية حتى بالإسكندرية فكتاب « التهذيب » للبراذعى السرقسطى ، وكتاب « النهاية » لأبى الوليد بن رشد كتاب جليل معظم معتمد عليه عند المالكية ، وكذلك كتاب « المنتقى » للباجى .

وأما أصول الدين وأصول الفقه فلإمام أبى بكر ابن العربى الإشبلى من ذلك مامنه كتاب « العواصم والقواصم » المشهور بأيدى الناس ، وله تصانيف^(١) غير هذا ، ولأبى الوليد بن رشد فى أصول الفقه ما منه « مختصر المستصطفى » .

وأما التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف بالمتين فى نحو ستين مجلدة وإنما ذكر ابن حزم كتاب « المقتبس » وهو فى عشر مجلدات ، والمتين يذكر فيه أخبار عصره ، ويمعن فيها مما شاهده ، ومنه ينقل صاحب الذخيرة ، وقد ذيل عليه أبو الحجاج البيهقى أحد معاصرينا ، وهو الآن بإفريقية فى حضرتها تونس عند سلطانها تحت إحسانه الغمر ، وكتاب المظفر بن الأفتس ملك بَطْلَيْوَسَ المعروف بالمظفرى نحو كتاب المتين فى الكبر ، وفيه تاريخ على السنين ، وفنون آداب كثيرة ، وتاريخ ابن صاحب الصلاة فى الدولة الملتونية ، وذكر ابن غالب أن ابن الصيرفى الغرناطى له كتاب فى أخبار دولة لمتونة ، وأن أبا الحسن السالمى له كتاب فى أخبار الفتنة الثانية بالأندلس ، بدأ من سنة ٥٣٩ ، ورتبه على السنين وبلغ به سنة ٥٤٧ ، وأبو القاسم خلف بن بشكوال له كتاب فى تاريخ أصحاب الأندلس من فتحها إلى زمانه ، وأضاف إلى ذلك من أخبار قرطبة وغيرها ما جاء فى خاطره^(٢) ، وله كتاب « الصلة » فى تاريخ العلماء ، وللحميدى قبله « جذوة المقتبس » وقد ذيل كتاب الصلة فى عصرنا هذا أبو عبد الله بن الأبار البَلَنْسى

(١) فى ١ « وله تأليف فى غير هذا »

(٢) فى ١ « ماجاء لحاطره »

صاحب كتاب سلطان إفريقية^(١) ، وذكر ابنُ غالب أن الفقيه أباجعفر بن عبدالحق الخزرجي القرطبي له كتاب كبير بدأ فيه من بدء الخليقة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن ، قال : وفارقت سنة ٥٦٥ ، وأبو محمد بن حزم صاحب الرسالة المتقدمة الذكر له كتب جمّة في التواريخ ، مثل كتاب « نقط العروس » ، في تواريخ الخلفاء « وقد صنف أبو الوليد بن زيدون كتاب « التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس » على منزع كتاب التعيين في خلفاء المشرق للمسعودي ، وللقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي كتاب « التعريف ، بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم » وكتاب « جامع أخبار الأمم » وأبو عمر ابن عبد البر له كتاب « القصد والأمم » ، في معرفة أخبار العرب والعجم « وعريب بن سعد القرطبي^(٢) له كتاب « اختصار تاريخ الطبري » قد سعد باغتباط الناس به ، وأضاف إليه تاريخ إفريقية والأندلس ، ولأحمد بن سعيد بن محمد ابن عبد الله بن الفياض كتاب « العبر » وكتاب أبي بكر الحسين بن محمد الزبيدي في أخبار النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس ، وكتاب القاضي أبي الوليد بن الفرّضي في أخبار العلماء والشعراء وما يتعلق بذلك ، وليحيى بن حكم الغزّال تاريخ ألقه كله منظوما ، كما صنع أيضا بعده أبو طالب المتنبي من جزيرة شُقر في التاريخ الذي أورد منه صاحب الذخيرة ما أورد^(٣) ، وكتاب « الذخيرة لابن بسام في جزيرة الأندلس » ليس هذا مكان الإطناب في تفصيلها^(٤) وهي كالذيل على حدائق ابن فرج ، وفي عصرها صنف الفتح كتاب « القلائد » وهو مملوء بلاغة ، والمحاكمة بين الكتابين ذكرت بمكان آخر ، ولصاحب القلائد كتاب « المطمح » وهو ثلاث نسخ : كبرى ، ووسطى ، وصغرى ، يذكر فيها من

(١) في ١ « كاتب سلطان إفريقية » (٢) في ب « عريب بن سعيد »

(٣) في ١ « ما أورد من كتاب الذخيرة » (٤) في ١ « تفصيلها »

الذين ذكرهم في القلائد ومن غيرهم الذين كانوا قبل عصرهم ، وكتاب « سمط الجمان ، وسقط المرجان »^(١) لأبي عمرو بن الإمام بعد الكتابين المذكورين ، ذكر مَنْ أَخْلًا بتوفيته حقه^(٢) من الفضلاء ، واستدرك من أدركه بعصره في بقية المائة السادسة ، وذيل عليه - وإن كان ذيلًا قصيرًا - أبو بحر صفوان بن إدريس الرُّمى بكتاب « زاد المسافر » ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة ، وكتاب أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الحِجَارَى المسمى « بالمسهب ، في فضائل المغرب » صنّفه بعد الذخيرة والقلائد من أوّل ما عمرت الأندلس إلى عصره ، وخرج فيه عن مقصد الكتّابين إلى ذكر البلاد وخواصّها مما يختص بعلم الجغرافيا ، وخلطه بالتاريخ وتفنن الأدب على ما هو مذكور في غير هذا المكان ، ولم يصنف في الأندلس مثل كتابه ، ولذلك فضله المصنف له عبد الملك بن سعيد ، وذيل عليه ، ثم ذيل على ذلك أبناه أحمد ومحمد ثم موسى بن محمد ثم على بن موسى كاتب هذه النسخة ومكمل كتاب « فلك الأدب »^(٣) ، المحيط بحلى لسان العرب » المحتوى على كتابي « المشرق ، في حلى المشرق » و « المغرب ، في حلى المغرب » فيكفي الأندلس في هذا الشأن تصنيف هذا الكتاب بين ستة أشخاص في ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥ ، وقد احتوى على جميع ما يذاكر به ويحاضر بحلاه من فنون الأدب المختارة على جَهْد الطاقة في شرق وغرب على النوع الذي هو مذكور في غير هذا الموضع ، ومن أغفلت التنبيه على عصره ، وغير ذلك من المصنفين المتقدمي الذكر ، فيطلب الملتبس منهم في مكانه المنسوب إليه كابن بسام في شَتْرَيْن ، والفتح في إشبيلية ، وابن الإمام في استِجّة ، والحِجَارَى في وادي الحجارة .

(١) في ١ « سمط الجمان ، وسقط المرجان » (٢) في ١ « بتوفية حقه »

(٣) في ١ « فلك الأرب ، المحيط - إلخ »

وأما ماجاء منشورا من فنون الأدب^(١) فكتاب «سراج الأدب» لأبي عبد الله ابن أبي الخصال الشقورى رئيس كتاب الأندلس ، صنفه على منزع كتاب «النوادر» لأبي على ، و «زهر الآداب» للحصري ، وكتاب «واجب الأدب» لوالدى موسى بن محمد بن سعيد ، واسمه يغنى عن المراد به ، وكتاب «الآلئ» لأبي عبيد البكرى على كتاب «الأمالى» لأبي على البغدادى مفيد فى الأدب ، وكذلك كتاب «الاقتضاب» فى شرح أدب الكتاب «لأبي محمد ابن السيد البطليوسى» ، وأما شرح «سقط الزند» له فهو الغاية ، ويكفى ذكره عند أرباب هذا الشأن وثناؤهم عليه ، وشروح أبى الحجاج الأعم لشعر المتنبى والحماسة وغير ذلك مشهورة .

وأما [كتب] النحو فلاهل الأندلس من الشروح على «الجل» ما يطول ذكره ، فمنها شرح ابن خروف ، ومنها شرح الرُّندى ، ومنها شرح شيخنا أبى الحسن بن عصفور الإشبلى ، وإليه انتهت علوم النحو ، وعليه الإحالة الآن من المشرق والمغرب ، وقد أتيت له من إفريقية بكتاب «المقرب» فى النحو فتلقى باليمن من كل جهة ، وطار بجناح الاغتباط ، ولشيخنا أبى على الشلوين كتاب «التوطئة» على الجزولية وهو مشهور ، ولابن السيد وابن الطراوة والسَّهيلي من التقييدات فى النحو ما هو مشهور عند أصحاب هذا الشأن معتمد عليه ، ولأبى الحسن^(٢) بن خروف شرح مشهور على كتاب سيبويه .

وأما [كتب] علم الجغرافيا فيكفى فى ذلك كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى الأونبى وكتاب «معجم ما استعجم من البقاع والأماكن» وفى كتاب «المسهب» للحجّارى فى هذا الشأن وتذييلنا عليه فى هذا الكتاب الجامع ما جمع زبد الأولين والآخرين [فى ذلك] .

(١) فى نسخة عند ب «وأما الكتب التى فى فنون الأدب فمنها - إلخ»

(٢) فى ١ «ولابن الحسن بن خروف» محرفا

وأما [كتب علم] المويستقي فكتاب أبي بكر بن باجة الغرناطى فى ذلك فيه كفاية وهو فى المغرب بمنزلة أبى نصر الفارابى بالشرق ، وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التى عليها الاعتماد ، وليحيى الخُدُج المرسى كتاب الأغانى الأندلسية على منزع الأغانى لأبى الفرج ، وهو ممن أدرك المائة السابعة .

وأما [كتب الطب] فالمشهور بأيدى الناس الآن فى المغرب ، وقد سار أيضاً فى المشرق لنبله ، كتاب « التيسير » لعبد الملك بن أبى العلاء بن زُهر ، وله كتاب « الأغذية » أيضاً مشهور مغتبط به فى المغرب والمشرق^(١) ، ولأبى العباس بن الرومية الإشبلى من علماء عصرنا بهذا الشأن كتاب فى الأدوية المفردة ، وقد جمع أبو محمد المائتى الساكن الآن بقاهرة مصر كتاباً فى هذا الشأن حشر عليه ماسمع به فقد ر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقى وكتاب الزهراوى وكتاب الشريف الإدريسى الصقلى وغيرها وضبطه على حروف المعجم ، وهو النهاية فى مقصده .

وأما [كتب الفلسفة] فإمامها فى عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبى ، وله فيها تصانيف جَدها لما رأى انحراف منصور بنى عبد المؤمن عن هذا العلم ، وسجنه بسببها ، وكذلك ابن حبيب الذى قتله المأمون بن المنصور المذكور على هذا العلم بإشبيلية ، وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه^(٢) إظهاره ، فلذلك تخفى تصانيفه .

وأما [كتب التنجيم] فلان زيد الأسقف القرطبى فيه تصانيف ، وكان مختصاً بالمستنصر بن الناصر المروانى ، وله ألف كتاب « تفصيل الأزمان » ومصالح الأبدان» وفيه من ذكر منازل القمر ، وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريره ، وكان مطرف الإشبلى فى عصرنا قد اشتغل بالتصنيف فى هذا الشأن ، إلا أن أهل بلده كانوا ينسبونه إلى الزندقة^(٣) بسبب اعتكافه على هذا الشأن فكان لا يظهر شيئاً مما يصنف

ثم قال ابن سعيد : أخبرنى والدى قال : كنت يوماً فى مجلس

(١) فى ١ « فى الغرب والشرق » (٢) كلمة « صاحبه » ساقطة فى ١

(٣) فى ١ « ينسبونه للزندقة »

صاحب سِنْبَةِ أَبِي يَحْيَى بن أَبِي زَكَرِيَّا صَهْر نَاصِر بن عبد المؤمن ، فخرى بين أبي الوليد الشَّقْنَدِي وبين أبي يَحْيَى بن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين ، فقال الشَّقْنَدِي : لولا الأندلس لم يذكر بر العُدُوَّة ، ولا سارت عنه فضيلة ، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم ، فقال الأمير أبو يَحْيَى : أتريد أن تقول كون أهل برنا عرباً وأهل بركم بربر ، فقال : حاش لله ! فقال الأمير : والله ما أردت غير هذا ، فظهر في وجهه أنه أراد ذلك ، فقال ابن المعلم : أتقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العُدُوَّة ، فقال الأمير : الرأي عندي أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بره ، فالسلام هنا يطول ويمر ضياعاً ، وأرجو إذا أخلصنا له فكر كما يصدر عنكما ما يحسن تخليده ، ففعلا ذلك .

رسالة للشَّقْنَدِي
في فضل
الأندلس

فكانت رسالة الشَّقْنَدِي : الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بالأندلس ^(١) أن يتكلم ملء فيه ، ويطلب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يثنيه ، إذ لا يقال للنهار : يا مظالم ، ولا لوجه النعيم : يا قبيح .

وقد وَجَدْتَ مكان القول ذاسعة فإن وجدت لساناً قائلاً فَقُلْ
أحمد على أن جعلني من أنشأته ، وحباني بأن كنت ممن أظهرته ، فامتدَّ في
الفخر باعياً ، وأعانتني على الفضل كرم طباعى ، وأصلى على سيدنا محمد بن عبد الكريم ،
وعلى آله وصحبه الأكرمين ^(٢) ، وأسلم تسليماً .

أما بعد ؛ فإنه حرك منى ساكننا ، وملأ منى فارغا ، فخرجت عن سيجتي في
الإغضاء ، مكرها إلى الحمية والإباء ، منازع ^(٣) في فضل الأندلس أراد أن يخرق

(١) في ١ « يفخر بجزيرة الأندلس »

(٢) في ١ « وعلى آله وصحبه الطاهرين »

(٣) « منازع » بالرفع هو فاعل حرك في قوله « حرك منى ساكننا »

الإجماع ، ويأتى بمالم تقبله^(١) النواظر والأسماع ، إذ مَنْ رأى ومن سمع لا يجوز عنده ذلك ، ولا يضلّه من تاه في تلك المسالك ، رام أن يفضل بر العدوّة على بر الأندلس فرام أن يفضل على اليمين اليسار ، ويقول : الليل أضوأ من النهار ، فيا عجبا كيف قابل العوالى بالزجاج ، وصادم الصفاة بالزجاج ، فيا من نفخ في غير ضرّم ، ورام صيّد البزاة بالرحم ، وكيف تتكثّر بما جعله الله قليلا ، وتتعرّز بما حكم الله أن يكون ذليلا ؟ ما هذه المباهة التي لا تجوز ؟ وكيف تبدى أمام الفتاة العجوز ؟ سلّ العيون إلى وجه مَنْ تميل ؟ واستخبر الأسماع إلى حديث من تصغى ؟

لشتان ما بين اليزيدى في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم^(٢)
اقن حيائك أيها المغرد بالنجيب^(٣) ، المتزين بأخلق المتجيب إلى الغواني بالمشيب
الخصيب ، أين عزّب عقلك ؟ وكيف نكص على عقبه فهمك ولبك ؟ أبلغت
العصبية من قلبك ، أن تطمس على نوري بصرك ولُبّك ؟ أما قولك « الملوك منا »
فقد كان الملوك منا أيضاً ، وما نحن إلا كما قال الشاعر :

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويوم نساء ويوم نُسَرِّ

إن كان الآن كرسى جميع بلاد المغرب عندهم بخلافة بنى عبد المؤمن - أدامها
الله تعالى ! - فقد كان عندنا بخلافة القرشيين الذين يقول [فيهم] مشرقهم :

وإني من قوم كرام أعزة لأقدامهم صيغت رؤس المنابر
خلافت في الإسلام في الشرك قادة بهم وإليهم فخر كل مفاخر

ويقول مغربهم :

(٢) في ١ « لا تقبله »

(٣) البيت لربيعة بن ثابت الرقي

(٤) في ١ « المقرد بالنجيب المتزين بالخلق »

ألسنا بنى مروان كيف تبدلت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منّا تهلّكت له الأرض واهتزت إليه المنابر
وقد نشأ في مدتهم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر في الآفاق ، وصار أثبت
في صحائف^(١) الأيام ، من الأطواق في أعناق الحمام^(٢)

وسار مسير الشمس في كل بلدة وهبَّ هبوب الريح في البر والبحر
ولم تزل ملوكهم في الاتساق كما قيل :

إن الخلافة فيكم لم تزل نسقاً كالعقد منظومة فيه فرائده
إلى أن حكم الله بنثر سلكهم ، وذهب ملكهم ، فذهبوا وذهبت أخبارهم ،
ودرسوا ودرست آثارهم :

جال ذى الأرض كانوا في الحياة وهم بعد المات بجمال الكتب والسير
فكم مكرمة أنالوها ، وكم عثرة أقالوها :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وكان من حسنات ملكهم المنصور بن أبي عامر ، وما أدراك الذي بلغ في
بلاد النصارى غازيا إلى البحر الأخضر ، ولم يترك أسيراً في بلادهم من المسلمين ،
ولم يبرح في جيش الهرقل وعزمة الإسكندر ، ولما قضى نَجْبه كتب على قبره :

آثاره تنبيك عن أوصافه حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتى الزمان بمثله أبدا ولا يحصى الثغور سواه

وقد قيل فيه من الأمداح ، وألف له من الكتب ، ما سمعت وعلمت ، حتى قصد
من بغداد ، وعم خيريه وشره أقاصى البلاد ، ولما ثار بعد انتشار^(٣) هذا النظام ملوك
الطوائف وتفرقوا في البلاد ، وكان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد ،

(١) في ١ « أثبت على صحائف الأيام » (٢) في ب « في أعناق الحمام من الأطواق »

(٣) في ب « بعد انتشار »

إذ نَفَقُوا سوق العلوم ، وتباروا في المثوبة على المنشور والمنظوم ، فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني ، وليس منهم إلا مَنْ بذل وُسْعَه في المكارم ، ونهبت الأمداح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائهم ، وقد سمعت ما كان من القتبان العامرية مجاهد ومُنذر وخيران ، وسمعت عن الملوك العربية بنو عباد وبنو صُمادح وبنو الأفطس وبنو ذى النون وبنو هود ، كل منهم قد خُلد فيه من الأمداح ، ما لو مدح به الليل لصار أضوا من الصباح ، ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادى النواسم بين الرِّياض ، وفتكت في أموالهم فتكة البرّاض ، حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه أن حلف أن لا يمدح أحدا منهم بقصيدة إلا بمائة دينار ، وأن المعتضد بن عباد على ما اشتهر من سَطوته وإفراط هيئته كَلَّفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شَرَطَه في قَسَمه ، ومن أعظم ما يُحكى من المكارم التي لم نسمع لها أختا أن أبا غالب اللغوى ألف كتابا ، فبذل له مجاهد العامري ملك دانية ألفَ دينار وركوبا وكُسا على أن يجعل الكتاب باسمه ، فلم يقبل ذلك أبو غالب ، وقال : كتاب أَلقته لينتفع به الناس ، وأُخِلَّ فيه همتي ، أجعل في صدره اسمَ غيري ، وأصرف الفخر له ، لا أفعل ذلك ، فلما بلغ هذا مجاهدا استحسن أَلَفَتَه وهمته ، وأضعف له العطاء ، وقال : هو في حل من أن يذكرني فيه ، لا نصدّه عن غرضه ، وإن كان كل ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف قد تنازعوا في مِلْءَةِ الحُضُر^(١) ، فأني أخص منهم بنى عباد ، كما قال الله تعالى (فيهما فاكهة ونخل ورمان)^(٢) فإن الأيام لم تزل بهم كأعياد ، وكان لهم من الخنو على الأدب ، ما لم يقم به بنو حمدان في حلب ، وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم

(١) أخذ هذه الفقرة من قول الخنساء :

جارى أباه فأقبلا وها يتنازعان ملاءة الحضر

(٢) في الآية السكرية ذكر الاسم الأعم وهو الفاكهة ، ثم ذكر اسمين يدخلان

تحتها وهو النخل والرمان .

صدوراً في بلاغتي النظم والنثر ، مشاركين في فنون العلم ، وآثارهم مذكورة ، وأخبارهم مشهورة ، وقد خلدوا من المسكارم التامة ، ماهو متردد في ألسن الخاصة والعامة ، وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية ، أسقموت الحاجب ؟ أم بصالح البرغواطى ؟ أم بيوسف ابن تاشفين الذى لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه مأجروا له ذكرا ، ولارفعوا للمسكة قدرا ؟ وبعدهما ذكره بوساطة المعتمد بن عباد فإن المعتمد قال له ، وقد أنشدوه : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز^(١) ، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة مسكه كتب له المعتمد رسالة فيها :

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لقلقدكم أيامنا فعدت سوداً وكانت بكم بيضا ليلينا^(٢)

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : يطلب مناجوارى سوداً وبيضا ، قال : لا يامولانا ، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهراً لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلاً لأن ليالى الحزن ليال سود^(٣) ، فقال : والله جيد ، اكتب له في جوابه : إن دموعنا تجري عليه ، وروؤسنا توجعنا من بعده ، فليت العباس بن الأحنف قد عاش حتى يتعلم من هذا القاضل رقة الشوق :

ولا تُنكرن مهرايت مقدما على حمرٍ بَغلاً فتم تناسبُ
فاسكتوا فلولاً هذه الدولة ، لما كان لكم على الناس صولة :

وإن الورد يقطف من قتاد وإن النار تُقبَسُ من رمان
وإنك إن تعرضت للمفاضلة^(٤) بالعلماء فأخبرنى : هل لكم في الفقه مثل عبد الملك ابن حبيب الذى يعمل بأقواله إلى الآن ، ومثل أبى الوليد الباجى ، ومثل أبى بكر

(١) في ب « يطلبون الخير » (٢) المحفوظ « حالت لبعدمكم »

(٣) في ا « لأن أيام الحزن ليال سود » (٤) في ب « للمناضلة »

ابن العربي ، ومثل أبي الوليد بن رشد الأكبر ، ومثل أبي الوليد بن رشد الأصغر ؟ وهو ابن ابن الأ أكبر ، نجوم الإسلام ، ومصابيح شريعة محمد عليه السلام ، وهل لكم في الحفظ مثل أبي محمد بن حزم الذى زهد فى الوزارة والمال ومال إلى رتبة العلم ، وآها فوق كل رتبة ، وقال وقد احترقت^(١) كتبه :

دعوى من إحراق رَقٍّ وكَاغِدٍ وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذى تضمنه القرطاس ، إذ هو فى صدرى^(٢)
ومثل أبى عمر بن عبد البر صاحب «الاستيعاب»^(٣) و «التمهيد» ومثل أبى بكر بن
الجد حافظ الأندلس فى هذه الدولة ، وهل لكم فى حُمَاطُ اللغة كابن سيده صاحب
كتاب «الحكم» وكتاب «السماء»^(٤) العالم الذى إن أعمى الله بصره فما أعى بصيرته ،
وهل لكم فى النحو مثل أبى محمد بن السّيد وتصانيفه ؟ ومثل ابن الطراوة ، ومثل أبى على
الشلو بين الذى بين أظهرنا الآن ، وقد سار فى المغارب والمشارق ذكره ، وهل لكم
فى علوم اللّحون والفلسفة كابن باجة ، وهل لكم فى علم النجوم والهندسة والفلسفة ملك
كالمتقدر بن هود صاحب سرّ قسطة ، فإنه كان فى ذلك آية ، وهل لكم فى الطب
مثل ابن طفيل صاحب رسالة «حى بن يقظان» المقدم فى علم الفلسفة ، ومثل بنى
زُهر أبى العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه أبى بكر ثلاثة على نسق ؟ وهل لكم فى
علم التاريخ كابن حَيَّان صاحب «المتين» و «المقتبس» ؟ وهل عندكم فى رؤساء
علم الأدب مثل أبى عُمر بن عبد ربه صاحب «العقد» ؟ وهل لكم فى الاعتناء
بتخليد مآثر فضلاء إقليمه والاجتهاد فى حشد محاسنهم مثل ابن بَسَّام صاحب
«الذخيرة» ؟ وهَبْ أنه كان يكون لكم مثله فأتصنع الكيسة فى البيت الفارغ^(٥)
وهل لكم فى بلاغة النثر كالفتح بن عُبيد الله الذى إن مدح رفع ، وإن ذم وضع ،

(١) فى ١ « وقال وقد أحرقت كتبه » (٢) فى ١ « بل هو فى صدرى »

(٣) فى ١ « الاستذكار » مكان « الاستيعاب » وكلامه (٤) فى ب « السمار »

(٥) يريد أنه ليس فى إقليمهم من يفخر به فما عسى أن يقول المؤلف

وقد ظهر له من ذلك في كتاب « القلائد » ما هو أعدل شاهد ، ومثل ابن أبي الخصال في ترسله ^(١) ، ومثل أبي الحسن سهيل بن مالك الذي بين أظهرنا الآن في خطبه ، وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله :

وليل بسدّ النهر أنسا قطعته بذات سيوارٍ مثل منعطف النهر
نصّت بردها عن غصن بان منع فياحسن ما أنشق الكمام عن الزهر

وقوله في أبيه :

سميّدٌ يهب الآلاف مبتدئا وبعد ذلك يُباني وهو يعتذر ^(٢)
له يد كل جبار يقبأها لولا نداها لقلنا إنها الحجر

ومثل ابنه الراضي في قوله :

مرّوا بنا أصلاً من غير ميعاد فأوقدوا نار قلبي أي إيقاد
لاغرو أن زاد في وجدى مرورهم فروية الماء تذكى غلة الصادى

وهل لكم ملك ألف في فنون الأدب ^(٣) كتابا في نحو مائة مجلدة مثل المظفر بن الأفتس ملك بطليوس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب ؟ وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل ، وأحب إلى الأسماع من لقاء حبيب وصل ؟ التي منها :

أُتمرت رُمحك من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغصن يُعشق مُشمرًا
وصبغت درعك من دماء كُمااتهم لما رأيت الحسن يلبس أحمرا
ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يقل مع طولها في التشبيب ^(٤) أرق منها ، وهي التي يقول فيها :

كأننا لم نبت والوصلُ ثالثنا والسعد قد غض من أجفان واشينا

(١) في ١ « في ترسيّله » (٢) في ١ « يلقى وهو معتذر »

(٣) في ١ « في فنون الآداب » (٤) في ١ « في النسيب »

سران في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يُفْشِنَا^(١)
 وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبُون في يديته بين يدي المعتمد بن عباد
 وإصابته الغرض حين استحسن المعتمد قول المتنبي :

إذا ظفرت منك المطى بنظرة أثاب بها مُعْيِي المطى ورَازِمُهُ^(٢)

فارتجل

لئن جاد شعر ابن الحسين فأنما تُجيد العطايا واللهما تفتح اللهأ
 تنبأ عجباً بالقريض ولو دَرَى بأنك تروى شعره لتألهأ
 وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دَرَّاج الذي قال فيه الثعالبي « هو بالصقع الأندلسي
 كالمتنبي بصقع الشام » الذي إن مدح الملوك قال مثل^(٣) قوله :

ألم تعلمي أن الثواء هو التَوَى وأن بيوتَ العاجزين قبورُ
 وأن خطيرات المهالك مُضْمَنٌ لراكبها أن الجزاء خطير
 تخوفني طول السفار وإنه بتقيل كف العامري جدير
 مجير الهدى والدين من كل مُلْحِدٍ وليس عليه للضلال مجير
 تلاقى عليه من تميم ويعرب شمس تلاقى في العلا وبدور^(٤)
 هم يُسْتَقْلون الحياة لراغب ويستصغرون الخطب وهو كبير
 ولما توافوا للسلام ورُفِعَتْ عن الشمس في أفق الشروق ستور
 وقد قام من زُرُق الأسنة دونها صفوف ومن بيض السيوف سطور
 رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها وآيات صنع الله كيف تنير
 وكيف استوى بالبر والبحر مجلس وقام بعبء الراسيات سرير
 فجأوا بحالٍ والقلوب خوافق وولَّوْا بطاءً والنواظر صُورُ

(١) وقع في ب « سران في خاطر الظلماء » محرفاً

(٢) في ب « إذا ظفرت منك العيون بنظرة »

(٣) انظر ترجمته وأكثر الأبيات التي رواها المؤلف في ابن خلكان

(٤) في ١ « شمس تلاقى في العلا وبدور » (بتحقيقنا ١١٦/١)

يقولون والإجلال يخرس ألسنا وحازت عيون ملأها وصدور
لقد حاط أعلام الهدى بك حائط وقدّر فيك المكرماتِ قديرُ
وأنا أقسم بما حازته هذه الأبيات ، من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح سيد
بنی حمدان لسلّا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر ، ورأى أن هذه الطريقة
أولى بمدح الملوك من كل ماتنن فيه كل ناظم وناثر

وإن ذكر الغربة عن الأوطان ، ومكابدة نوائب الزمان ، قال :

قالت وقد مزج الفراق مدامعا بمدامع وتراثبا بتراثب
أتفرق حتى بمنزل غربة كم نحن للأيام نهبة ناهب
ولئن جنيت عليك ترحة راحل فأنا الزعيم لها بفرحة آيب^(١)
هل أبصرت عينك بدرأطالعا في الأفق إلا من هلال غارب

وإن شبّه قال :

كمعاقل من سوسن قد شيدت أيدي الربيع بناءها فوق القضب
شُرُفَاتِهَا مِنْ فُضْةٍ وَمُحَامَاتُهَا حَوْلَ الْأَمِيرِ لَهْمُ سَيُوفٍ مِنْ ذَهَبٍ
وهل من شعرائكم من تعرّض لذكر العفة فاستنبت ما يسحر به السحر ، ويطيّب
به الزهر ، وهو أبو عمر^(٢) بن فرج في قوله :

وطائعة الوصال عففت عنها وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فباتت دياجي الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها إلى فتن القلوب لها دواعي
فمَلَكْتُ النّهي جَمَحَاتِ شَوْقٍ لِأَجْرَى فِي الْغَفَافِ عَلَى طِبَاعِي^(٣)
وبت بها مبيت السَّقْبِ يظلم فيمنعه الكِعَامُ مِنَ الرِّضَاعِ

(١) في « ولئن جنيت عليك ترحة راحل » ولها وجه، لكن « ترحة راحل »

أوفق لمقابلتها « بفرحة آيب » (٢) في ب « أبو عمرو بن فرج »

(٣) في ب « فمَلَكْتُ النّهي حجاب شوقي »

كذلك الروض ما فيه لمثلئ سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات فأتخذ الرياض من المراعى
وهل بلغ أحد من مُشَبَّهَى شعرائكم أن يقول مثل قول أبى جعفر اللمامى :
عارضٌ أقبل فى جنح الدجا يتهدى كتهادى ذى الوجا
بددت ریح الصَّبَا لؤلؤهُ فانبرى يوقد عنها سرجا
ومثل قول أبى حَفْص بن بُرْد :

وكان الليل حين لوى ذاهبا والصبح قد لاحا
كَلَّةٌ سوداء أحرقتها عامدٌ أسرج مصباحا
وهل منكم مَنْ وصف ما تحدته الخمرة من الخُمرة على الوجنة بمثل قول
الشریف الطليق :

أصبحت شمسا وفوه مغربا ويدُ الساقى الحيّ مشرقا
وإذا ما غربت فى فوه تركت فى الخلد منه شفقاً
بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان ، ويفخر كل إنسان^(١)

وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إليها بعد ما نام أهلها سُمُوَ حَبَابِ الماء حالا على حال
فاختلسه اختلاسا نسيم لنفحة الأزهار ، وسلبه^(٢) بلطف استلاب الشمس لزُصَابِ
طَلِّ الأسحار ، فلطفه تلطيفا يمزج بالأرواح ، ويعنى فى الارتياح عن شرب الراح ،
وهو ابن شَهِيد فى قوله :

ولما تَمَلَّأ من سكره ونام ونامت عيونُ الحرس^(٣)
دنوت إليه على رِقَبَةٍ دنو رفيق درى ما التمس^(٤)

(١) فى ب « ويفخر على كل إنسان »

(٢) فى ا « واستلبه .. استلاب نعر الشمس »

(٣) فى ا « عيون العسس » (٤) فى ب « دنوت إليه على قرية »

أدب إليه ديب الكرى وأسمو إليه سمو النفس
أقبل منه بياض الطلى وأرشف منه سواد اللّسن
فبت به ليلتي ناعما إلى أن تبسم ثغر الغلس
وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه فعارض الصّهيل
بالنّهاق ، وقابل العذب بالزّعاق ، فقال وليته سكت :

ونفضت عني العين أقبلت مشية الحُباب ورُكني خيفة القوم أزور^(١)
وأنا أقسم لوزار جمل محبوبة له لكان أطف في الزيارة من هذا الأزور الركن
المنفض للعيون لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في قوله :

قالت لقد أعيتنا حجة فأت إذا ما هجع الساهر^(٢)
واسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر
ولله در محمد بن سقر أحد شعرائنا المتأخرين عصرأ ، المتقدمين قدراً ، حيث نقل
السعي إلى محبوبته فقال وليته لم يزل يقول مثل هذا ، فمثله ينبغي أن يتكلم ،
ومثله يليق أن يدون :

وواعدتها والشمس تنجح للنوى	بزورهما شمساً وبدر الدجى يسرى
فجاءت كما يمشى سنى الصبح في الدجى	وطوراً كما مر النسيم على النهر
فعطرت الآفاق حولي فأشعرت	بمقدمها والعرف يُشعرُ بالزهر
فتابعت بالتقييل آثار سعيها	كما يتقصّى قارى أحرف السطر
فبت بها والليل قد نام والهوى	تنبه بين الغصن والحقف والبدر
أعانقها طوراً وألسم تارة	إلى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففضت عقوداً للتعانق بيننا	فيا ليلة القدر اتركى ساعة النفر

(١) كذا ، والذي في الديوان « وخفض عني الصوت أقبلت مشية - إلخ »

(٢) كذا ، وحفظى « إذا ما هجع السامر »

وهل منكم من قيد بالإحسان فأطلق لسانه الشكر ، فقال وهو ابن اللَّبَّانة :
 بنفسى وأهلى جيرة ما استعنتهم على الدهر إلا واثنيت مُعَانَا
 أراشوا جناحي ثم بَلَّوهُ بالندى فلم أستطع من أرضهم طَيْرَانَا
 ومن يقول وقد قَطَعَ عنه ممدوحه ما كان يعتاده منه من الإحسان ، فقابل ذلك
 بقطع مدحه له ، فبلغه أنه عتبه على ذلك ، وهو ابن وَضَّاح :

هل كنت إلا طائرا بثنائكم في دَوَّج مجدم أقوم وأقعد
 إن تسلبوني ريشكم وتقلصوا عني ظلالكم فكيف أغرَّدُ
 وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضَجُّوا من سماع تشبيه الثغر بالأفاح ، وتشبيه
 الزهر بالنجوم ، وتشبيه الحدود بالشقائق ، فتَلَطَّفَ لذلك في أن يأتي به في منزع
 يصير خَلْقَه في الأسماع جديداً ، وكَلِيلَه في الأفكار حَدِيداً ، فأعرب أحسن
 إغراب ، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إغراب ، وهو ابن الزقاق :

وأغْيَدِ طاف بالكؤوس ضُحَاً وحَثَا والصباحُ قد وضحا
 والروض أهْدَى لنا شقائقه وآسَه العنبرى قد نفحا
 قلنا وأين الأفاح قال لنا أودعته ثغر من سقى القدحا
 فظل ساقى المدام يحسد ما قال فلماً تبسَّم افتضحا

وقال :

أدِيرَاهَا على الروض المندى وحكم الصبح في الظلماء ماضى
 وكأس الريح تنظر عن حَبَاب ينوب لنا عن الحدق المراض
 وما غربت نجوم الأفق لكن نقلن من السماء إلى الرياض

وقال :

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح
 زرتها والغمام يجلد منها زهرات تروق لون الراح

قلت ما ذنبها فقال مجيباً سرقت حمرة الحدود الملاح
فانظر كيف زاحم بهذا الاختيال المخترعين ؟ وكيف سابق بهذا المبتدعين ؟
وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه وما يتعلق بذلك فاتتهى
إلى غاية السباق ، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق ، وهو أبو إسحاق
ابن خفاجة القائل :

وعشى أنس أضجعتني نشوة فيها يُمهّد مضجعي ويُدْمِثُ^(١)
خلعت على بها الأراكة ظلها والغصن يصغى والحمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضة والرعد يرقى والغمامة تَنفُثُ

والقائل :

لله نهر سال في بطحاء أشهى وروداً من لَمَى الحناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتفه بجَرٍّ سماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء^(٢)
وغدت تحف به الغصون كأنها هُذْبٌ تحف بمقلة زرقاء
ولطالما عاطيت فيه مدامة صفراء تخضب أيدي الندماء
والريح تعبت بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء^(٣)

والقائل :

حث المدامة والنسيم عليل والظل خفاق الرواق ظليل
والروض مهتز المعاطف نعمة نشوان تعطفه الصبا فيميل

(١) ورد هذا البيت في اهكنا :

وعشى أنس أضجعتنا نشوة فيه تمهد مضجعي وتدمث

(٢) في « قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً »

(٣) هذا البيت لا يوجد في

رَيَّانَ فَضَّضَهُ النَّدَى ثُمَّ انْجَلَى عَنْهُ فَذَهَبَ صَفْحَتِيهِ أَصِيلُ

والقائل :

أَذِنَ الْعِمَامُ بِدِيمَةِ وَعُقَارٍ فَامْرَجَ بَلْجِيئًا مِنْهُمَا بَنْصَارَ
وَارْبَعٍ عَلَى حَكْمِ الرِّبْعِ بِأَجْرَعٍ هَزَجَ النَّدَامَى مَفْصَحَ الْأَطْيَارِ (١)
مَتَقَسَّمِ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مُحَاسِنِ مَنْ رَدَفَ رَايَةَ وَخَصَّرَ قَرَارَ
نَثَرَتْ بِمَجَرِّ الرُّوضِ فِيهِ يَدَ الصَّبَا دَرَّرَ النَّدَى وَدَرَاهِمَ الْأَنْوَارِ
وَهَفَّتْ بِتَغْرِيدِ هُنَالِكَ أَيْكَةٍ خَفَاقَةٍ بِمَهَبِّ رِيحِ عَرَارِ
هَزَتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلَرْبَمَا خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُلَآءَةَ النُّوَارِ

والقائل :

سَقِيَا لَهَا مِنْ بَطَاحِ خَزْ وَدَوَّحِ نَهْرٍ بِهَا مَطْلُ
إِذْ لَا تَرَى غَيْرَ وَجْهِ شَمْسٍ أَطْلُ فِيهِ عَذَارِ ظِلِّ

والقائل :

نَهْرٌ كَمَا سَالَ اللَّيْلُ سَلْسَالُ وَصَبَّاءٌ بَلِيلٌ ذَيْلُهَا مَكْسَالُ
وَمَهَبٌ نَفْحَةُ رَوْضَةٍ مَطْلُولَةٍ فِي جَانِبَيْهَا لِلنَّسِيمِ مَجَالُ
غَارِزَتِهَا وَالْأَفْحُ—وَانَةِ مَبْسِمِ وَالْأَسْ صَدَغَ وَالْبَنْفَسِجِ خَالُ

والقائل :

وَسَاقُ كَيْلِ اللَّحْظِ فِي شَأْوِ حُسْنِهِ جَمَاحٌ وَبِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ حِرَّانُ
تَرَى لِلصَّبَا نَارًا بِخُنْدِيهِ لَمْ يَثُرْ لَهَا مِنْ سَوَادِي عَارِضِيهِ دَخَانُ
سَقَاها وَقَدْ لَاحَ الْهَلَالُ عَشِيَّةً كَمَا اعْوَجَّ فِي دَرَعِ الْكَمِيِّ سَنَانُ
عَقَارًا نَمَاهَا الْكَرْمُ فَهِيَ كَرِيمَةٌ وَلَمْ تَزَنْ بِابْنِ الْمَزْنِ فَهِيَ حَصَانُ

(١) اربع : احبس نفسك ، والأجرع : أصله رملة لا تنبت ، وأراد روضة
ليصح المعنى ، وهزج الندامى : أراد أنهم يغنون على الشراب .

وقد جال من جَوْن الغمامة أدهم له البرق سوط والشمالُ عنان^(١)
 وضمح درع الشمس نحر حديقة عليه من الطل السقيط مُجَانُ
 ونمت بأسرار الرياض خميلة لها النور ثغر والنسيم لسان
 والقائل في وصف فرس ولم يخرج عن طريقته :

وأشقر تضرم منه الوغى بشعلة من شعل الباس
 من جلنار ناضر لونه وأذنه من ورق الآس
 يطلع للفسرة في شقرة حبابة تضحك في كأس
 وهل منكم من يقول مُنادما^(٢) لنديمه وقد باكر رَوْضاً بمحبوب وكأس ، فالتفاه قد
 غطى محاسنه ضباب ، خاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك ،
 وهو أبو الحسن بن بَسَّام :

إلا بادر فما ثان سوى ما عهدت الكأس والبدر التمام
 ولا تكسل برويته ضباباً تفصُّ به الحديقة والمدام^(٣)
 فإن الروض ملتئم إلى أن توافيه فينحط اللثام

وهل منكم من تَغَزَّل في غلام حائك بمثل قول الرصافي :

قالوا وقد أكرهوا في حبه عذلى لو لم تههم بمذال القدر مبتذل
 فقلت لو كان أمرى في الصباية لى لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك لى
 علقتة حبـيـي الثغـر عاطره حُلُو الـمـى ساحر الأجفان والمقل
 غَزِيلٌ لم تزل في الغزل جائلة بنانه جَوْلَان الفكر في الغزل
 جذلان تلعب بالحواك أنمله على السدى لعب الأيام بالأجل^(٤)
 ضما بكفيه أو فخصا بأخصه تحبط الظبي في أشراك مُحْتَبِل^(٥)

(١) الشمال : ريع الصبا ، ووقع في ب « والسنان عنان » محرفا

(٢) في ا « مناديا لنديمه » (٣) في ا « تعصُّ به الحديقة »

(٤) في ا « لعب الأيام بالأمل » (٥) محتبل : ناصب الحباله ، وفي ب « محتبل »

ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلوق الأصيل :

وعَشِيَّ رائق منظره قد قطعناه على صرف السَّمُولِ
وكأنَّ الشمس في أثنائه ألصقت بالأرض خدًّا للنزول
والصَّبَا ترفع أذيال الرِّبا ومُحِيًّا الجوّ كالنهر الصَّقيل
حبذا منزلنا مغتبة حيث لا يطرقنا غير الهديل
طائر شاذٍ وغصن منثنٍ والدجى تشرب صهباء الأصيل

وهل منكم من يقول في مَوْشَح فيما يجره هذا المعنى :

ورداء الأصيل تطويه كف الظلام

وهو أبو قاسم بن الفرس .

وهل منكم من وصف غلاما جميل الصورة راقصا بمثل قول ابن خروف :

ومُنَزَّع الحركات يلعب بالنهى لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأودا كالغصن وسط رياضه متلاعبا كالظبي عند كناسه
بالعقل يلعب مدبراً أو مقبلا كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضمُّ للقدمين منه رأسه كالسيف ضمَّ ذبابه لرياسه

وهل منكم من وصف خالا بأحسن من قول النشار :

ألوامى على كلفى بِيَحْيَى متى مِنْ حُبِّهِ ألقى سَرَّاحاً^(١)
وبين الخد والشفَتين خال كزنجى أتى روضاً صَبَّاحاً
تَحَيَّرَ فى جَنَاهُ فليس يدرى أيجنى الورد أم يجنى الأفاحا

وهل منكم الذى اهتدى إلى معنى فى ثم وردة الخدِّ وَرَشَفَ رُضَابَ الثَّغْرِ لم يهتد
إليه أحد غيره ، وهو أبو الحسن [سلام]^(٢) بن سلام الملقب فى قوله :

(١) وقع هذا البيت فى ب هكذا :

ألوامى على كلفى بجى متى من حبه أرجو سراحا

(٢) هذا الاسم لا يوجد فى ا

لما ظفرت بلبلة من وصله والصب غير الوصل لا يشفيه
أنضجت وردة خده بتنفسى وطفقت أرشف ماءها من فيه
وهل منكم من هجا من غير النطق بإفداع فبلغ ما لم يبلغه المقذع ، وهو الخزومي
في قوله :

يود عيسى نزول عيسى عساه من دانه يريح
وموضع الداء منه عضو لا يرتضى مسه المسيح
ولما أقذع أتى أيضاً بأبدع ، فقال :

يا فارس الخيل ولا فارس إلا على متن جواد الخصى
زدت على موسى وآياته نفجر الماء وتخفي العصا

وهل منكم من مدح بمعنى فبلغ به النهاية من المدح ، ثم نقله إلى الهجاء فبلغ به
النهاية من الذم ، وهو اليكبي (١) في قوله مادحا :

قوم لهم شرف العلا في حمير وإذا اتموا لمتونة فهم هم
لما حووا أحرار كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا
وفي قوله هاجيا :

إن المرباط باخل بنواله اكنه بعياله يتكرم
الوجه منه مخلق لقبيح ما يأتيه فهو من أجله يتلم (٢)
وهل منكم من هجا أشتر العين بمثل قول أبي العباس بن حنون (٣) الإشبيلي :
يا طاعة أبدت قبائح جمه فالكل منها إن نظرت قبيح
أبعينك الشتراء عين تررة منها تفرق دمعها المسفوح
شترت فقلنا زورق في جلة مالت بإحدى دفتيه الريح (٤)

(١) في ب « اليكبي » بموحدة (٢) في ا « الوجه منه مخلق بقبيح ما يأتيه »

(٣) في ب « جنون » (٤) في ا « شترت فقلت زورق »

(١٣ — فتح ٤)

وكأنما إنسانها ملاحها قد خاف من غرق فضل يمسح
 وهل منكم من حضر مع عدو له جاحد لما فعله معه من الخير ، وأمامهما زجاجة
 سوداء فيها خمر ، فقال له الحسود المذكور : إن كنت شاعرا قتل في هذه ، فقال
 ارتجالا ، وهو ابن مجير^(١) :

سأشكو إلى الندمان أمر زجاجة ترَدَّتْ بثوب حالك اللون أسحِم
 نصبُ بها شمس المدامة بيننا فتغرب في جنب من الليل مظلم
 وتجدد أنوار الحياء بلونها كقلب حسود جاحد يد منعم
 وهل منكم من قال لفاضل جمع بينه وبين فاضل ، وهو أبو جعفر الذهبي :

أيها الفاضل الذي قد هداني نحو من قد حمدته باختبار^(٢)
 شكر الله ما أتيت وجازا لك ولا زلت نجم هدى لسارى
 أى برق أفاد أى غمام وصباح أدى لضوء نهـار
 وإذا ما غدا النسيم دليلى لم يحلنى إلا على الأزهار
 وهل منكم أعمى قال فى ذهاب بصره وسواد شعره ، وهو التُّطِيلُ^(٣) :

أما اشتقت منى الأيام فى وطنى حتى تضايق فيما عن من وطرى
 ولا قصت من سواد العين حاجتها حتى تسكر على ما طل فى الشعر
 وهل منكم الذى طار فى مشارق الأرض ومغار بها قوله ، وهو أبو القاسم محمد بن
 هانىء الإلبيرى :

فتقت لكم ريح الجلال بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر
 وجنيتم ثمر الوقائع يانعا بالنصر من ورق الحديد الأخضر

(١) فى « ابن مجير » وضبطه بالحركات بوزن مكرم ، وأثبتنا ما فى ب

(٢) فى ب « نحو من قد حمدته باختبار »

(٣) فى ب « وهو الطليطى » محرفا

وقد سمعت فائتته في النجوم ، ولولا طولها لأنشدتها هنا ، فإنها أحسن ما قيل في معناها .

وهل منكم من قال في الزهد مثل قول أبي وهب العباسي القرطبي :
أنا في حالي التي قد تراني إن تأملت أحسنُ الناس حالا
منزلي حيث شئت من مستقر الأرض أسقى من المياه زلالا
ليس لي كسوة أخاف عليها من مغير ولن ترى لي مالا (١)
أجعل الساعد اليمين وسادي ثم أثني إذا انقلبت الشمالا
ليس لي والد ولا مولود لا ولا حزت مذ عقلت عيالا (٢)
قد تاذت حقبة بأمور فتأملتُها فكانت خيالا
ومثل قول أبي محمد عبد الله بن العسال الطليطلي :

انظر الدنيا فإن أبصرتها شيئا يدوم
فاغدُ منها في أمان إن يساعدك النعيم
وإذا أبصرتها منك على كره تهيم
فاسلُ عنها واطرحها وارتحل حيث تقيم
وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولادة المزوانية التي تقول مداعبة للوزير ابن
زيدون ، وكان له غلام اسمه « علي » :

مالا بن زيدون على فضله يغتابني ظلما ولا ذنب لي (٣)
ينظرني شزرا إذا جئته كأنما جئت لأخصي على

ومثل زينب بنت زياد المؤدب الوادي آشية التي تقول :

ولما أبي الواشون إلا فراقنا ومالهمُ عندي وعندك من نار

(١) في « ولا ترى لي مالا »

(٢) في « ليس لي والد ولا لي مولود * د ولا حزت »

(٣) حفظي في صدره * إن ابن زيدون على فضله *

وَسَنُّوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ وَقَلَّ مُحَاتَى عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
 غَزَوْهُمْ مِنْ مَقْلَتِيكَ وَأَدْمَعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَيْفِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ
 وَأَنَا أَخْتَمُ هَذِهِ الْقِطْعَ الْمَتَخِيرَةَ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ بَنِي لِيَكُونَ الْخِتَامُ مَسْكَ :
 عَاطِيَتِهِ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ صَهْبَاءُ كَالْمَسْكَ الْفَتِيْقُ لِنَاشِقِ
 وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لَسِيفِهِ وَذَوَابِتَاهُ حَمَائِلُ فِي عَاتِقِي
 حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَّةُ الْكُرَى زَحْزَحْتُهُ شَيْئًا وَكَانَ مُعَانِقِي
 بَاعِدْتُهُ عَنْ أَضْلَعِ تَشْتَاقِهِ كَيْلَا يَنَامَ عَلَى وِسَادٍ خَافِقِ
 وَبِقَوْلِ الْقَاضِي أَبِي حَفْصِ بْنِ عَمْرِو الْقُرْطُبِيِّ :

هُمْ نَظَرُوا لِوَاحِظِهَا فَهَامُوا وَتَشْرَبُ لُبَّ شَارِبِهَا الْمَدَامِ
 يَخَافُ النَّاسُ مَقْلَتَهَا سِوَاهَا أَيْذَعِرُ قَلْبَ حَامِلِهِ الْحَسَامِ
 سَمَا طَرَفِي إِلَيْهَا وَهُوَ بِالْكِ تَحْتَ الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ الْغَمَامِ
 وَأَذْكَرَ قَدَّهَا فَأَنُوحُ وَجِدًا عَلَى الْأَغْصَانِ تَنْتَدِبُ الْحَمَامِ
 وَأَعْقَبَ بَيْنَهَا فِي الصَّدْرِ غَمًا إِذَا غَرِبَتْ ذِكَاؤُ أَتَى الظَّلَامِ
 وَبِقَوْلِهِ أَيْضًا :

لَهَا رِدْفٌ تَعْلَقُ فِي لَطِيفِ وَذَاكَ الرِّدْفُ لِي وَلَهَا ظَلُومٌ (١)
 يُعَذِّبُنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ وَيُتَعَبُّهَا إِذَا رَامَتْ تَقُومَ

وَقَدْ أَطْلَتِ عِنَانَ النِّظَمِ ، عَلَى أَنِّي اكْتَفَيْتُ عَنِ الاسْتِدْلَالِ عَلَى النَّهَارِ بِالصَّبَاحِ ،
 «بِاللَّهِ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي : مَنْ شَاعَرَكُمْ الَّذِي تَقَابِلُونَ بِهِ شَاعِرًا مِنْ ذِكْرْتِ ؟ لَا أَعْرِفُ
 لَكُمْ أَشْهَرَ ذِكْرًا ، وَأَضْخَمَ شَعْرًا ، مِنْ أَبِي الْعَبَّاسِ الْجَرَاوِي ، وَأَوَّلَى لَكُمْ أَنْ
 تَجْحَدُوا فِخْرَهُ ، وَتَنْسُوا ذِكْرَهُ ، فَقَدْ كَفَاكُمْ مَا جَرَى مِنَ الْفَضِيحَةِ عَلَيْكُمْ فِي قَوْلِهِ
 مِنْ قَصِيدَةِ يَمْدَحُ بِهَا خَلِيفَةَ :

(١) فِي « لَهَا رِدْفٌ تَعْلَقُ فِي لَطِيفِ »

إذا كان أملاكُ الزمان أراقماً فإنك فيهم دائم الدهر ثعبان^(١)
فما أقبح ما وقع « ثعبان » وما أضعف ما جاء « دائم الدهر » ولقد أنشدت أحد
ظرفاء الأندلس هذا البيت ، فقال : لا ينكر هذا على مثل الجراوى ، فسبحان
من جعل روحه ونسبه وشعره متناسب في الثقالة :

فرسان
الأندلس

وإن أردت الافتخار بالفرسان ، والتفاضل بالشجعان ، فمن كان قبلنا منهم
في مدة المنصور بن أبى عامر ومدة ملوك الطوائف أخبارهم مشهورة ، وآثارهم
مذكورة ، وكفأك من أبطال عصرنا ما سمعت عن الأمير أبى عبد الله بن مردنيش
وأنه كان يدفع في مواكب النصارى^(٢) ويشقها يمينا ويسارا منشداً :

أكر على الكتبية لأبلى أحتفى كان فيها أم سواها

حتى إنه دفع يوماً في مواكب من النصارى فصرع وقتل ، وظهر منه ما أعجبت^(٣) به
نفسه ، فقال لشيخ من خواصه ، عالم بأمور الحرب مشهور بها : كيف رأيت ؟
فقال له : لوراك السلطان زاد فيما لك في بيت المال ، وأعلى مرتبتك ، أمن يكون
رأس جيش يقدم هذا الإقدام ، ويتعرض بهلاك نفسه إلى هلاكهم ، فقال له :
دعنى فإنى لا أموت مرتين ، وإذا مت أنا فلا عاش من بعدى

والقائد أبو عبد الله بن قادوس^(٤) الذى اشتهر من شجاعته ومواقفه في النصارى
وحسن بلائه ما صير النصارى من رعبه والإقرار بفضله في هذا الشأن أن يقول
أحدهم لفرسه إذا سقاه فلم يقبل على الماء : مالك ؟ أرايت ابن قادوس^(٤) في الماء ،
وهذه مرتبة عظيمة .

* والفضلُ ما شهدت به الأعداء *

ولقد أخبرنى مَنْ أثق به أنه خرج من عسكر في كتبية مجردة برسم الغاوة

(١) الأملاك : جميع ملك ، بزنة كتف وأكتاف ، والأراقم : جمع أرقم ، وهو
أخبت الحيات .

(٢) في ١ « وأنه كان يدفع في المواكب ويشقها »

(٣) في ١ « ما أعجبت به نفسه » (٤) في ١ « بن قادوس » في كل المواضع

على بلاد النصارى ، فوقع في جمع كبير منهم ، فجهد جهده في الخلاص منهم والرجوع إلى العسكر ، فجعل يقاتل مع أصحابه في حالة الفرار إلى أن كبا بأحد جنده فرسه ، وفر عنه ، فناداه مستغيثاً ، فقال : أصبر ، ثم نظر إلى فارس من النصارى قد طرق (١) فقال : اجر إلى هذا النصراني ، فخذ فرسه ، وركض نحوه ، فأسقطه ، وقال لصاحبه : اركب ، فركب ونجا معه سالماً .

وأمثال هذا كثير ، وإنما جئت بمحصاة من ثبير (٢) .

شمائل

أهل الأندلس

وأما كرم النفس وشمائل الرياسة فأنا أحكي لك حكاية تتعجب منها ، وهي ابن الجدة عداوة مفرطة للاشتراك في العلم والرياسة وكثرة المال والبلدية ، فأجري ابن زهر يوماً ذكره في جماعة من أصحابه ، وقال : لقد آذانا هذا الرجل أشد أذية ، ولم يقصر في القول عند أمير المؤمنين وعند خواص الناس وعوامهم ، فقال له أحد عوامهم : إني أذكر لك عليه عقداً فيه محاسبة في موضع مما يعز عليه من مواضعه ، ومتى خاصمته في ذلك بلغت منه في النكاية أشد مبالغ ، فخرج ابن زهر ، وأظهر الغضب الشديد ، والإنكار لذلك ، وقال لوكيله : أمثلي يجازي على العداوة بما يجازي به السفلى والأوباش ؟ وإني أجعل ابن الجدة في حل من موضع الخصام وأمر بأن يحمل له العقد ، ثم قال : وإني والله ما أروم بذلك أن أصلحه (٣) ، فإن عداوته من حسد (٤) ، وأنا أسأل الله تعالى أن يديهما ، لأنها مقتربة بدوام نعم الله على وإن تعرضت إلى ذكر البلاد ، وتفسير محاسنها ، وما خصها الله تعالى به مما حرمه على غيرها ، فاسمع ما يمتيت الحسود كدأ .

فضائل البلاد

إشبيلية

أما إشبيلية فمن محاسنها اعتدال الهواء ، وحسن المباني ، وتزيين الخارج

(١) في ب « قد طرف »

(٢) ثبير - بفتح الثاء - اسم جبل ، يريد أنه أتى بقليل من كثير

(٣) في ا « ما أروم بذلك أصلحه » (٤) في ب « فإن عداوته شديدة من حسد »

والداخل ، وتمكن التمسر ، حتى إن العامة تقول : لو طاب لبنُ الطير في إشبيلية
وُجِدَ ، ونهرها الأعظم الذي يصعد المدفيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر ، وفيه يقول
ابن سفر :

شق النسيم عليه جَبَبَ قيصه فانساب من شَطَّيه يطالب ثاره
فتضاحكت وُرُقُ الحمام بدَّوَحها هزأ فضم من الحياء إزارَه
وزيادته على الأنهار كون ضفتيه مطرزين^(١) بالمنازه والبساتين والكروم
والأنسام^(٢) متصل ذلك اتصالا لا يوجد على غيره .

وأخبرني شخص من الأكياس دخل مصر وقد سأله عن نيلها أنه لا تتصل
بشطيه البساتين والمنازه اتصالها بنهر إشبيلية ، وكذلك أخبرني شخص آخر دخل
بغداد ، وقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مَسَرَّة ، وأن جميع أدوات الطرب
وشرب الخمر فيه غير منكر لانه عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤدَّ السكرُ إلى شر
وعزَّ بدة ، وقد رام مَنْ وليها من الولاة المظهرين للدين قَطَعَ ذلك ، فلم يستطيعوا
إزالته ، وأهله أخف الناس أرواحا ، وأطبعهم نوادر ، وأحلمهم لمزاح بأقبح ما يكون
من السب ، قد مرَّنا على ذلك ، فصار لهم دَيْدَنَا حتى صار عندهم مَنْ لا يبتذل
فيه ولا يتلاعن ممقوتا ثقيلا ، وقد سمعت عن شَرَفِ إشبيلية الذي ذكره أحد
الوشاحين في مَوْشحة مدح بها المعتضد بن عباد

إشبيليا عروس وبعالها عباد متاجها الشرف وسلوكها الواد
أى شرف قد حاز ما شاء من الشرف إذ عم أقطار الأرض خيره ، وسفر
ما يعصر من زيتونه من الزيت حتى بلغ الإسكندرية ، وتزيد قُراه على غيرها
من القرى باتخاب مبانيها ، وتهتم سكانها فيها داخلا وخارجا ، إذ هي من
تبيضهم لها نجوم في سماء الزيتون .

(١) في ١ « مطرزة بالمنازه »

(٢) الأنسام : جمع نسيم على غير قياس ، وفي ١ « الأنسام »

وقيل لأحد من رأى مصر والشام : أيها رأيت أحسن هذان أم إشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل إشبيلية : وشرفها غابة بلا أسد ، ونهرها نيل بلا تمساح ، وقد سمعت عن جبال الرحمة بخارجها ، وكثرة ما فيها من التين القوطى والشعري ، وهذان الصنفان أجمع المتجولون فى أقطار الأرض أن ليس فى غير إشبيلية مثل لهما ، وقد سمعت ما فى هذا البلد من أصناف أدوات الطرب كالتخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة^(١) والفنار والزلامى والشقرة والنورة ، وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه ، والبوق ، وإن كان جميع هذا موجودا فى غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد ، وليس فى بر العدو من هذا شئ إلا ما جلب إليه من الأندلس ، وحسبهم الدف وأقوال واليرا وأبو قرون ودببة السودان وحماق البرابر ، وأما جوارىها ومراكبها براً وبحراً ومطابخها وفواكهها الخضراء واليابسة فأصناف أخذت من التفضيل بأوفر نصيب ، وأما مبانىها فقد سمعت عن إتقانها واهتمام أصحابها بها وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجارى والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك ، وأما علماؤها فى كل صنف رفيع أو وضع جداً أو هزلاً فأكثر من أن يعدوا ، وأشهر من أن يذكرها ، وأما ما فيها من الشعراء والشاحين والزجالين فالو قسموا على بر العدو ضاق بهم ، والكل ينالون خير رؤسائها ورفدهم ، وما من جميع ما ذكرت فى هذه البلدة الشريفة إلا وقصدى به العبارة عن فضائل جميع الأندلس ، فما تخلو بلادها من ذلك ، ولكن جعلت إشبيلية ، بل الله جعلها أم قرأها ، ومركز فخرها وعلاها ، إذ هى أكبر مدنها ، وأعظم أمصارها .

قرطبة وأما قرطبة فكرسى المملكة فى القديم ، ومركز العلم ومنار التقى ومحل التعظيم

(١) فى « والكثيرة والفنار »

والتقديم ، بها استقرت ملوك الفتح وعظماؤه ، ثم الملوك المرؤانية ، وبها كان يحيى ابن يحيى راوية مالك ، وعبد الملك بن حبيب ، وقد سمعت من تعظيم أهلها للشريعة ، ومنافستهم في السؤدد بعلمها ، وأن ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها ، ويرفعون أقدارهم ، ويصدرون عن آرائهم ، وأنهم كانوا لا يقدمون وزيراً ولا مشاوراً ما لم يكن عالماً ، حتى إن الحكم المستنصر لما كره له العلماء شرب^(١) الخمر همّ بقطع شجرة العنب من الأندلس ، فقبل له : فإنها تعصر من^(٢) سواها ، فأمسك عن ذلك ، وأنهم كانوا لا يقدمون أحداً للفتوى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختباره ، وتعتدله مجالس المذاكرة ، ويكون ذا مال في غالب الحال خوفاً من أن يميل به الفقر إلى الطمع فيما في أيدي الناس فيبيع به حقوق الدين ، ولقد أخبرت أن الحكم الرضى أراد تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة ، فأخذ في ذلك مع يحيى بن يحيى وعبد الملك وغيرهما من أعلام العلماء ، فقالوا له : هو أهل ، ولكنه شديد الفقر ، ومن يكون في هذه الحالة لا تأمنه على حقوق المسلمين ، لا سيما وأنت تريد انتفاعه وظهوره في الدخول في الموارث والوصايا وأشباه ذلك ، فسكت ولم ير^(٣) منازعتهم ، وبقي مهموماً من كونهم لم يقبلوا قوله ، فنظر إليه ولده عبد الرحمن الذي ولي الملك بعده ، وعلى وجهه أثر ذلك ، فقال : ما بالاك يا مولاي ؟ فقال : ألا ترى هؤلاء الذين تقدمهم ونؤوه عند الناس بمكانهم ، حتى إذا كفناهم ما ليس عليهم فيه شطط ، بل [ما] لا يعينهم^(٤) ، ولا مما هو يرزؤهم ، صدّونا عنه ، وغلقوا أبواب الشفاعة ، وذكر له ما كان منهم ، فقال : يا مولاي ، أنت أولى الناس بالإنصاف ، إن هؤلاء ما قدمتهم أنت ولا نؤهت بهم ، وإنما قدمهم ونوه بهم علمهم ، أو كُنت تأخذ قوماً جهالاً فتضعهم في مواضعهم ؟ قال :

(١) في « بغض الخمر » وليس بشيء مع « كره »

(٢) في ب « تعصر في سواها » (٣) في ب « ولم يرد منازعتهم »

(٤) في ا « بل ما لا يعينهم »

لا ، قال : فأنصفهم فيما تعبوا فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة ، قال : صدقت ، ثم قال : وأما كونهم لم يقبلوا هذا الرجل لشدة فقره فإلغاه في ذلك . تنحسم بما يبقى لك في الصالحات ذكراً ، قال : وما هو ؟ قال : تعطيه من مالك . قَدَّرَ ما يلحق به من الغنى ما يؤهله لتلك المنزلة ، ويزيل عنك خجل ردهم لك ، وتكون هذه مكرمة ما سبقك إليها أحد ، قَتَهَلَّ وجهه الحكم وقال : إلى إلى إنها والله شِنْشِنَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ وإن الذي قال فينا لصادق :

وأبناء أملاك خضارم سادة صغيرهم عند الأنام كبير

ثم استدعى عبد الملك بن حبيب وسأله عن قدر ما يؤهله لتلك المرتبة من الغنى ، فذكر له عدداً ، فأمر له به في الحين ، ونَبَّهَ قدره بأن أعطاه من إصطبله مراكباً ، وكانت هذه أكرومة لا خفاء بعظمها .

* يفنى الزمان وما بَلَّتَهُ مُخَلَّدٌ *

ثم إنه إذا كان له من الغنى ما يكفه^(١) عن أموال الناس ، ومن الدين ما يصدّه عن محارم الله تعالى ، ومن العلم ما لا يجهل به التصرف في الشريعة ، أباحوا له الفتوى والشهادة ، وجعلوا علامة لذلك بين الناس القلائس^(٢) والرداء .

وأهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية ، حتى إنهم كانوا لا يؤلّون حاكماً إلا بشرط أن لا يعدل في الحكم عن مذهب ابن القاسم .

وقال ابن سارة لما دخل قرطبة : الحمد لله قد وافيت قرطبة دار العلوم ، وكرسى السلاطين ، وهي كانت مجمع جيوش الإسلام ، ومنها نصر الله على عبدة الصليب .

(١) في ب « ما يكفيه عن أموال الناس » ويكفه : يمنعه ويحجبه .

(٢) في ا « القالس والرداء »

يقال : إن المنصور بن أبي عامر - حين تم له ملك البرين ، وتوفرت الجيوش والأموال - عَرَضَ بظاهر قرطبة خيله ورجله ، وقد جمع من أقطار البلاد ما ينهض به إلى قتال العدو وتدويخ بلاده ، فنيف الفرسان على مائتي ألف ، والرجالة على ستمائة ألف ، وبها حتى الآن من صناديد المسلمين وقوادهم مَنْ لَا يَفْتَرُّ عن محاربة^(١) ، ولا يمل من مضاربة ، [مَنْ] أسماؤهم بأقاصي بلاد النصرى مشهورة ، وآثارهم فيها ماثورة ، وقلوبهم على البعد بخوفهم معمورة .

ويحكى أن العمارة في مباني قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت إلى أن كان يمشى فيها بضوء^(٢) السُّرُج المتصلة عشرة أميال ، وأما جامعها الأعظم فقد سمعت أن مُرَيَّاتَه من نواقيس النصرى ، وأن الزيادة التي زاد في بنائه ابنُ أبي عامر من ترابٍ نَقَلَه النصرى على رؤوسهم مما هُدِمَ من كنائس بلادهم ، وقد سمعت أيضاً عن قنطرة العظمى وكثرة أُرْحَى واديها ، يقال : إنها تنيف على خمسة آلاف حجر ، وقد سمعت عن كنبانيتها وما فضل الله تعالى به تربها من بركة وما ينبت فيها من القمح وطيبه ، وفيها جبال الورد الذي بلغ الربع منه مرات إلى ربع درهم ، وصار أصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه ، ونهرها إن صغر عندها عن عظمه عند إشبيلية فإن لتقارب بَرِّيَّه هنالك وتقطعُ غُدْرَه ومُرُوجَه معنى آخر وحلاوة أخرى ، وزيادة أنس ، وكثرة أمان من الغرق ، وفي جوانبه من البساتين والمروج ما زاده نضارة وبهجة .

وأما جَيَّان فإنها لبلاد الأندلس قلعة ، إذ هي أ كثرها زرعاً ، وأصرمها أبطالا ، وأعظمها منعة ، وكَم رامتها عساكر النصرى عند فترات الفتن فرأوها أبعدَ من العَيَوق ، وأعزَ منالاً من بيض الأنوق ، ولا خلت من علماء ولا من

(١) في ب « ممن لا يفتَرُّ عن محاربة »

(٢) في ا « لضوء السرج »

شعراء ، ويقال لها « جيان الحرير » لكثرة اعتناء باديتها وحاضرتها بدود الحرير .

ومما يعد في مفاخرها ما يبيّأسه إحدى بلاد أعمالها من الزعفران الذى يسفر براً وبحراً ، وما فى أبدة من الكروم التى كاد العنب لا يباع فيها ولا يشتري كثرة ، وما كان بأبدة من أصناف الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فإنهم أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدك ، وإخراج القروى^(١) والمرباط والمتوجه .

غرناطة

وأما غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ، ومطمح الأنفس ، لها القصبة المنيعه ذات الأسوار الشاخنة ، والمباني الرفيعة ، وقد اختصت بكون النهر يتوزع على ديارها وأسوافها وحماماتها وأرجائها^(٢) الداخلة والخارجة وبساتينها ، وزانها الله تعالى بأن جعلها مرتبة على بساطها الممتد الذى تفرعت^(٣) فيه سبائك الأنهار بين زبرجد الأشجار ، ولنسيم تجدها وبهجة منظر حورها فى القلوب والأبصار ، استلطاف يروق الطباع^(٤) ، ويحدث فيها ما شاء الإحسان من الاختراع والابتداع ، ولم تخل من أشرف أمثال ، وعلماء أكابر وشعراء أفاضل ، ولو لم يكن لها إلا ما حصّها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها من الشواعر مثل نزهون القلاعية وزينب بنت زياد ، وقد تقدم شعرهما ، وحفصة بنت الحجاج^(٥) ، ونأهيك فى الظرف والأدب ، وهل ترى أظرف منها فى جوابها للحسب الوزير الناظم النائر أبى جعفر ابن القائد الأجل أبى مروان بن سعيد ، وذلك أنهما باتا بحور مؤمل على ما يبيت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم ، فلما حان الانفصال قال أبو جعفر :

(١) كذا فى ا ونسخة عند ب ، وفى أصل ب « القرى »

(٢) فى أصل ب « وأرجائها » (٣) فى ب « تفرعت »

(٤) فى ا « يرق الطباع » (٥) فى ب « بنت الحجاج »

رعى الله ليلا لم يرُع بمذم
عشية وارانا بجور مؤمل^(١)
وقد خفقت من نحو نجد أريجة
إذا نفحت هبت بريا القرنفل
وغرد قمرى على الدوح وأنثنى
قضيب من الرياح من فوق جدول
ترى الروض مسرورا بما قد بداله
عناق وضم وارتشاف مقبل
وكتبه إليها بعد الافتراق ، لتجاوبه على عادتها في ذلك ، فكتبت له مالا يخفى
فيه قيمتها :

لعمرك ما سرّ الرياض بوصلنا
ولكنه أبدى لنا الغل والحسد
ولا صقّ النهر ارتياحا لقربنا
ولا صدح القمرى إلا بما وجد
فلا تحسن الظن الذى أنت أهله
فما هو فى كل المواطن بالرشد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه
لأمر سوى كما تكون لنا رصد

وأما مألقة فإنها قد جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة التى لانكاد
ترى فيها فرجة لموضع غامر ، والبروج التى شابهت نجوم السماء ، كثرة عدد و بهجة
ضياء ، وتحلل الوادى الزائر لها فى فصلى الشتاء والربيع فى سرر بطحائها ، وتوشيعه
لحضور أرجائها^(٢) ، ومما اختصت به من بين سائر البلاد التين الربى المنسوب إليها ،
لأن اسمها فى القديم ربة ، ولقد أخبرت أنه يُباع فى بغداد على جهة الاستطراف ،
وأما ما يسفر منه المسلمون والنصارى فى المراكب البحرية فأكثر من أن يعبر عنه
بما يحصره ، ولقد اجتزت بها مرة ، وأخذت على طريق الساحل من سهيل إلى
أن بلغت إلى بليس قدر ثلاثة أيام متعبجا فيما حوته هذه المسافة من شجر التين ،
وإن بعضها ليحتجى جميعها الطفل الصغير من لزوقها بالأرض ، وقد حوت ما يتعب
الجماعة كثرة ، وتين بليس هو الذى قيل فيه لبربرى : كيف رأيت ؟ قال : لا تسألنى

(١) فى ب « لم يرح بمذم » ووقع عجزه فى ا « راعانا ووارانا بجور مؤمل »

(٢) كذا فى ا ، ب ، وأحسبه محرفا عن « وتوشيعه لحضور أرجائها »

عنه ، وصُبَّ في حلقى بالقفة ، وهو لعمر الله معذور ، لأنه نعمة حرمت بلاده منها ، وقد خُصَّت بطيب الشراب الحلال والحرام ، حتى سار المثل بالشراب المالح ، وقيل لأحد الخلفاء^(١) ، وقد أشرف على الموت : أسأل ربك المغفرة ، فرفع يديه وقال : يارب ، أسألك من جميع ما في الجنة خمر مائقة وزينى إشبيلية ، وفيها تنسج الحُلل الموشية التي تجاوز أثمانها الآلاف ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم ، وساحلها محط تجارة لمراكب المسلمين والنصارى

المرية

وأما المَريّة فإنها البلد المشهور الذكر ، العظيم القدر ، الذي خص أهله باعتدال المزاج ، ورونق الديباج ، ورقة البشرة ، وحسن الوجوه والأخلاق ، وكرم المعاشرة والصحبة ، وساحلها أنظف السواحل وأشرحها وأملحها منظرًا ، وفيها الحَصَا المألون العجيب الذي يجعله رؤساء مراكش في البراريد والرخام الصقيل الملوكي ، وواديها المعروف بوادي بجانة من أفرج الأودية ، ضفَّتاه بالرياض كالغدران حول النحر ، فحق أن ينشد فيها :

أرض وطئت الدرر ضراضا بها والترب مسكا والرياض جنانا
وفيها كان ابن ميمون القائد الذي قَهَرَ النصارى في البحر ، وقطع سفرهم فيه ، وضرب على بلاد الرمانية ، فقتل وسبي ، وملأ صدور أهلها رعبا ، حتى كان منه كما قال أشجع :

فإذا تنبه رُعْتَهُ وإذا غفا سَلَّتْ عليه سيوفك الأحلامُ

وبها كان محط مراكب النصارى ، ومجتمع ديوانهم ، ومنها كانت تسفر لسائر البلاد بضائعهم ، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التي تصلح لهم ، وقصد بضبط ذلك بها حضر ما يجتمع في أعشارهم ، ولم يوجد لهذا الشأن مثلاً ، لسكونها^(٢) متوسطة

(١) في ب « لأحد الخلفاء » محرفا

(٢) في ا « لسكونها متوسطة »

ومتسعة قائمة بالوارد والصادر ، وهى أيضا مصنع للحلّل المؤشّية النفيسة .

مرسية وأما مَرْسِيَّةُ فإنها حاضرة شرق الأندلس ، ولأهلها من الصّرامة والإباء ما هو معروف مشهور ، وواديها قسم وادى إشبيلية ، كلاهما يتّبع من شقورة ، وعابيه من البساتين المتهديّة الأغصان ، والنواعير المطربة الألحان ، والأطيّار المغردة ، والأزهار المتضدّة ، ماقد سمعت ، وهى من أكثر البلاد فواكه وريحانا ، وأهلها أكثر الناس راحات وفرجا لكون خارجها معينا على ذلك بحسن منظره ، وهى بلدة تجهز منها العروس التى تنتخب شورتها لا تفتقر فى شئ من ذلك إلى سواها ، وهى للبرية ومالقة فى صنعة الوشى ثالثة ، وقد اختصت بالبسط التنتلية التى تسفر لبلاد المشرق ، وبالحصر التى تغلف^(١) بها الحيطان المبهجة للبصر ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ، ولم تخل من علماء وشعراء وأبطال .

بلنسية وأما بَلَنْسِيَّةُ فإنها لكثرة بساتينها تعرف بمطيب الأندلس ، ورُصافتها من أحسن متفرجات الأرض ، وفيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء والرونق ، ويقال إنه لمواجهة الشمس لتلك البحيرة يكثر ضوء بَلَنْسِيَّةِ إذهى موصوفة بذلك ، ومما خصت به النسيج البلنسى الذى يسفر لأقطار المغرب ، ولم تخل من علماء ولا شعراء ، ولا فرسان يكابدون مضايقة الأعداء^(٢) ، ويتجرعون فيها النعماء ممزوجة بالضراء ، وأهلها أصلح الناس مذهبا وأمتهم ديناً ، وأحسنهم صحبة ، وأرفقهم بالغريب .

جزيرة ميورقة وأما جزيرة مَيُورْقَة فمن أخصب بلاد الله تعالى أرجاء ، وأكثرها زرعاً ورزقاً وماشية ، وهى على انقطاعها من البلاد مستغنية عنها ، يصل فاضل خيرها إلى غيرها ، إذ فيها من الحضارة والتمكن والتمصر وعظم البادية ما يغنيها ، وفيها من الفوائد ما فيها ، ولها فضلاء وأبطال اقتصروا على حمايتها من الأعداء المحدقة بها ،

(١) فى ١ « التى تغلف »

(٢) فى ١ « مصابقة الأعداء »

من كل مَنْ جعل الحسام خليله لا ينتفى أبداً سواء معينا
هذا - زان الله تعالى فضلك بالإنصاف ، وشرف كرمك بالاعتراف ! - ما حضرنى
الآن فى فضل جزيرة الأندلس ، ولم أذكر من بلادها إلا ما كلُّ بلد منها مملكة
مستقلة يليها ملوك بنى عبد المؤمن على انفراد ، وغيرها فى حكم التبعية .

وأما علماءها وشعراؤها فإنى لم أعرض منهم إلا لمن هو فى الشهرة كالصباح ،
وفى مسير الذكر كسبير الرياح ، وأنا أحكى لك حكاية جرت لى فى مجلس الرئيس
القصيه أبى بكر بن زُهر ، وذلك أنى كنت يوماً بين يديه ، فدخل علينا رجل
عجيب من فضلاء خراسان ، وكان ابن زُهر يكرمه ، فقلت له : ما تقول فى علماء
الأندلس وكتابهم وشعراهم ؟ فقال : كَبُرَتْ ، فلم أفهم مقصده ، واستتردت ما أنى
به ، وفهم منى أبو بكر بن زُهر أنى نظرتة نظر المستبهر المنكر ، فقال لى : أقرأت
شعر المتنبي ؟ قلت : نعم ، وحفظت جميعه ، قال : فعلى نفسك إذن فلتنكر ،
وخطرك بقلة الفهم فلتهمهم ، فذكرنى بقول المتنبي :

كَبُرَتْ حول ديارهم لما بَدَتْ منها الشموُس وليس فيها المشرق

فاعتذرت للخراسانى ، وقلت له : قد والله كبرت فى عينى بقدر ما صغرَتْ نفسى
عندى ، حين لم أفهم نُبْلَ مقصدك ، فالحمد لله الذى أطلع من المغرب هذه
الشموُس ، وجعلها بين جميع أهله بمنزلة الرأس ، وصلى الله على سيدنا محمد بنبيه
الختار من صفوة العرب ، وعلى آله وصحبه ، صلاة متصلة إلى غابر الحقب ^(١) .

كملت رسالة الشَّقْنَدَى ، وهو أبو الوليد إسماعيل بن محمد ، وشَقْنَدَةُ المنسوب
إليها : قرية مطلة على نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب .

قال ابن سعيد : وهو ممن كان بينه وبين والدى صحبة أكيدة ، ومجالسات

(١) فى ١ « على غابر الحقب »

أنس عديدة ، ومزاويرات تتصل ، ومحاورات لا تكاد تنفصل ، وانتفعت بمجالسته ، وله رساله في تفضيل الأندلس يعارض بها أبا يحيى في تفضيل بر العدو أو رد فيها من المحاسن ما يشهد له باطافه المنزع ، وعذوبة المشرع ، وكان جامعاً لقنون من العلوم الحديثة والقديمة ، وعنى بمجلس المنصور ، فكانت له فيه مشاهد غير ذميمة وولى قضاء بياسة^(١) وقضاء لوزقة ، ولم يزل محفوظ الجانب ، محمود المذهب ، سمعته ينشد والدى قصيدة في المنصور وقد نهض للقاء العدو ، منها :

إذا نهضت فإن السيف منتبهض ترمى السعود سهاما والعدا غرض
لك البسيطة تطويها وتنشرها فليس في كل ما تنويه معترض

قال : وسمعته يقول له : أنشدت الوزير أبا سعيد بن جامع قصيدة أولها :

استوقف الركب قد لاحت لك الدار وأسأل بربع تناءت عنه أعمار
لا خفف الله عني بعد بينهم فإنتى سرت والأحباب ما ساروا

ومنها :

ألا رعى الله ظلياً في قبابهم منه لهم في ظلام الليل أنوار

وله :

عللاني بذكر من همت فيه وعداني عنه بما أرتجيه
وإذا ما طربتما لارتياحي فاجعلا خمرتي مداماً فيه
ليت شعري كم أطيل الأمانى أى يوم في خلوة التقيه
وإذا ما ظفرت يوماً بشكوى قال لى أين كل ما تدعيه
لا دموع ولا سقام فماذا شاهد عنك بالذى تدعيه^(٢)
قلت دعنى أمت بدائى فإنى لو برانى الغرام لا أبدية

(١) في نسخة عند ب « قضاء بلنسية » وما أثبتناه يوافق ما فى ١ وأصل ب

(٢) تكررت في القافية كلمة « تدعيه » وهو من عيوب القافية ، وكونه في بيتين متجاورين أشد عيباً

وقال في عُوداه لما مرض :

إني مرضت مرضة أُسْقِطَ منها في يدي^(١)
فكان في الإخوان مَنْ لم أره في العود
فقلت في كلامهم قولَ امرئ مقتصد
إير الذي قد عادني في أَسْت الذي لم يَعُدِ^(٢)

مات بإشبيلية سنة ٦٢٩ انتهى .

وقال ابن سعيد : أنشدني والدي للحافظ أبي الطاهر^(٣) السَّلَفي ، قال : وكفى به شاهداً ، وبقوله مفتخراً :

بلاد أَدْرَبِيحَانَ في الشرق عندنا كأندلس بالغرب في العلم والأدب
فما إن تَكَاد الدهر تلقى مميّزاً مِنْ أَهْلِيهِمَا إلا وقد جَدَّ في الطلب
وحَكَّى غيرُ واحد كابن الأَبار أن عباس بن ناصح الشاعر لما توجه من قرطبة إلى
بغداد ، ولقى أَباً نُوَّاس ، قال له : أنشدني لأبي الأَجر ، قال : فأنشدته ، ثم قال :
أنشدني لبكر الكِناني ، فأنشدته ، وهذان شاعران من الأندلس .
واعلم أننا^(٤) إن تتبعنا كلام الأندلسيين وحكاياتهم الدالَّة على سَبَقهم طال بنا
الكتاب ، ولم نستوف المراد ، فرأينا أن نذكر بعضاً من ذلك بحسب ما اقتضاه
الحال وأبداه ، ليكون عنواننا دالاً على ما عده .

* يَكْفِي من الحَلْي ما قد حَفَّ بالعنق *

بعض حكايات
الأندلسيين
ولنبداً مانسوقه من أخبار الأندلسيين وأشعارهم وحكاياتهم في الجدِّ والهزل ،
والتولية والعزل ، بقول الفقيه الزاهد أبي عمران موسى بن عمران المارتنلي ، وكان
سكن إشبيلية :

- (١) كذا في ١ ، وفي ب « أسقطت منها في يدي »
(٢) في ١ « في است من لم يعد » ويلزم عليه قطع همزة الوصل ، وأثبتنا ما في ب
(٣) في ١ « أبي الظاهر » (٤) في ١ « واعلم أنا إن تتبعنا »

لا تبتك ثوبك إن أبلت جدته وابلك الذي أبلت الأيام من بدنك
ولا تكونن مختالا بجدته فر بما كان هذا الثوب من كفنك ^(١)
ولا تعفه إذا أبصرته دنسا فإنما اكتسب الأوساخ من درنك ^(٢)
وقال أبو عمرو اليحصبي اللوشى :

شرد النوم عن جنونك وانظر حكمة توقظ النفوس النياما
حرام على امرئ لم يشاهد حكمة الله أن يذوق المناما
وقال أيضا :

ليس للمرء اختيار في الذي يتمنى من حراك ومكون
إنما الأمر لرب واحد إن يشأ قال له كن فيكون
وقال أبو وهب القرطبي ^(٣) :

تنام وقد أعد لك السهاد وتوقن بالرحيل وليس زاد
وتصبح مثل ما تمسى مضيعا كأنك لست تدري ما المراد
أتطمع أن تقوز غدا هنيئا ولم يك منك في الدنيا اجتهاد
إذا فرطت في تقديم زرع فكيف يكون من عدم حصاد

وقيل : إن الأبيات السابقة التي أولها * أنا في حالي التي - إلى آخره * وجدت في
تركته بخطه في شقف ، وبعضهم ينسبها لغيره ، واسم أبي وهب المذكور عبد الرحمن ،
وذكره ابن بشكوال في الصلة ، وأثنى عليه بالزهد والانقطاع ، وكان في أول أمره
قد حسب عامة الناس أنه مختل العقل ، فجعلوا يؤذونه ويرمون به بالحجارة ،
ويصيحون عليه : يا مجنون ، يا أحمق ، فيقول :

يا عاذلى أنت به جاهل دعنى به لست بمغبون

(١) في ١ « فر بما كان ذلك الثوب عن كفنك »

(٢) في ١ « فإنما اكتسب الأوساخ من بدنك » والدرن : الوسخ

(٣) في نسخة عند « أبو وهب القرطبي »

أما ترى أبدا والها فيه كمسحور ومفتون
أحسن ما أسمع في حبه وصفي بمختل ومجنون
وقال الخطيب أبو محمد بن برطلة :

بأربعة أرجو نجاتي وإنها لأكرم مذخور لدى وأعظم
شهادة إخلاصي وحي محمد وحسن ظنوني ثم أنى مسلم

وقال ابن حبيش :

قالوا تصبر عن الدنيا الدنية أو كن عبدها واصطبر للذل واحتمل^(١)
لا بد من أحد الصبرين ، قلت نعم الصبر عنها بعون الله أوفق لي

وقال ابن الشيخ :

اطلب لنفسك فوزها واصبر لها نظر الشفيق وخف عليها واتق
من ليس يرحم نفسه ويصدها عما سيهلكها فليس بمشفق

وقال أبو محمد القرطبي :

لعمرك ما الدنيا وسرعة سيرها بسكانها إلا طريق مجاز^(٢)
حقيقتها أن المقام بغيرها ولكنهم قد أولعوا بمجاز^(٣)

وقال الشميس :

لله في الدنيا وفي أهلها معميات قد فكناها
من بشر ، نحن فمن طبعنا نحب فيها المال والجاه
دعنى من الناس ومن قولهم فإنما الناس أخلاها^(٤)
لم تقبل الدنيا على ناسك إلا وبالرحب تلماها

(١) في ١ « قالوا تصبر على الدنيا - إلخ » (٢) في ب « وسرعة سيرها * لسكانها »

(٣) للمجاز في هذا البيت اسم مكان من « جاز السكان » إذا تجاوزته وتعداه

(٤) في ١ « فإنما الناسك خلاها » وأخلاها : جمع خليل ، وأصله « أخلاء »

وإنما يعرض عن وصلها مَنْ صَرَفَتْ عَنْهُ مُحْيَاهَا

وقال أبو القاسم بن بقي :

ألا إنما الدنيا كَرَّاحٍ عَتِيقَةٍ أَرَادَ مُدِيرُوهَا بِهَا جَلَبَ الْأَنْسِ

فلما أداروها أَثَارَتْ حَقُودَهُمْ فَعَادَ الَّذِي رَامُوا مِنَ الْأَنْسِ بِالْعَكْسِ

وقال أبو محمد عبد الله بن العسال الطليطلي :

انظر الدنيا فإن أَبْصَرْتَهَا شَيْئًا يَدُومُ

فَاغْدُ مِنْهَا فِي أَمَانٍ إِنْ يَسَاعِدُكَ النَّعِيمُ

وَإِذَا أَبْصَرْتَهَا مِنْكَ عَلَى كَرِهٍ تَهِيمُ

فاسْلُ عَنْهَا وَاطَّرَحْهَا وَارْتَحِلْ حَيْثُ تَقِيمُ

وقال ابن هشام القرطبي :

وَأَبَى الْمَدَامَةُ لَا أُرِيدُ بَشْرَهَا صَلَفَ الرَّقِيعِ وَلَا انْهَمَاكَ الْإِلَهِ (١)

لَمْ يَبْقَ مِنْ عَهْدِ الشَّبَابِ وَطِيبِهِ شَيْءٌ كَعَهْدِي لَمْ يَحُلْ إِلَّا هِي

إِنْ كُنْتُ أَشْرَبُهَا لَغَيْرِ وَفَاءُهَا فَتَرَكْتُهَا لِلنَّاسِ لَا لِلَّهِ

وقال أبو محمد بن السَّيِّدِ الْبَطْلَيْوْسِيُّ مِمَّا نَسَبَهُ إِلَيْهِ فِي « الْمَغْرِبِ » :

أَخُو الْعِلْمِ حَتَّى خَالَدَ بَعْدَ مَوْتِهِ وَأَوْصَالَهُ تَحْتَ التَّرَابِ رَمِيمُ

وَذُو الْجَهْلِ مَيِّتٌ وَهُوَ مَا شِئْتَ عَلَى الثَّرَى يُظَنُّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيمُ

وقال أبو الفضل بن شرف :

لَعَمْرُكَ مَا حَصَلْتُ عَلَى خَطِيرٍ مِنْ الدُّنْيَا وَلَا أَدْرَكَتُ شَيْئًا

وَهَا أَنَا خَارِجٌ مِنْهَا سَلِيلًا أَقْلَبُ نَادِمًا كَلَّتَا يَدَيَّ

وَأَبْكِي ثُمَّ أَعْلَمُ أَنَّ مَبْكَاءِي لَا يُجْدِي فَأَمْسَحُ مَقْلَتِي

وَلَمْ أَجْزَعْ لَهْوِ الْمَوْتِ لَكِنْ بَكَيْتُ لِقَلَّةِ الْبَاكِ عَلَيَّ

وَأَنَّ الدَّهْرَ لَمْ يَعْلَمْ مَكَانِي وَلَا عَرَفَتْ بَنُوهُ مَا لَدَيَا
زَمَانٌ سَوْفَ أَنْشُرُ فِيهِ نَشْرَا إِذَا أَنَا بِالْحِمَامِ طُوِيْتُ طَيًّا
أَسْرًا بِأَنْتِي سَاعَشْ مَيَّتَا بِهِ وَيَسْوءُنِي أَنَّ مُتَّ حَيَا

وَقَالَ الزَّاهِدُ الْعَارِفُ بِاللَّهِ سَيِّدِي أَبُو الْعَبَّاسِ بْنِ الْعَرِيفِ نَفَعَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ :

سَلُوا عَنِ الشُّوقِ مَنْ أَهْوَى فَإِنَّهُمْ أَذْنَى إِلَى النَّفْسِ مِنْ وَهْمِي وَمَنْ نَفْسِي
فَمَنْ رَسُولِي إِلَى قَلْبِي لَيْسَ لَهُمْ عَنْ مُشْكِ مَنْ سَوَّالِ الصَّبِّ مَلْتَبَسِ
حُلُوفُ أَدَى فَمَا يَنْدَى ، وَلَوْ وَطِئُوا صَخْرًا لَجَادَ بِمَاءٍ مِنْهُ مِنْبَجَسِ
وَفِي الْحِشَا نَزَلُوا وَالْوَهْمُ يَجْرَحُهُمْ فَكَيْفَ قَرَّوْا عَلَيَّ أَذْكَى مِنَ الْقَبَسِ ^(١)
لَأَنْهَضَنَّ إِلَى حَشْرَى بِجَبْهِهِمْ لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيمَنْ خَانَهُمْ وَنَسَى

قلت : وقد زرت قبره المعظم بمراكش سنة عشر وألف ، وهو ممن يتبرك به في تلك الديار ، ويستسقى به الغيث ، وهو من أهل المَرِيَّة ، وأحضره السلطان إلى مراكش فمات بها ، وله كرامات شهيرة ومقامات كبيرة ، نفعنا الله تعالى به ! .

واعلم أن أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي ، وأهل الشام منذ أول الفتح ، ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل - وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين - انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعاً ، بل والمغرب ، وذلك برأى الحكم واختياره ، واختلفوا في السبب المقتضى لذلك ، فذهب الجمهور إلى أن سببه رحلة علماء الأندلس إلى المدينة ، فلما رجعوا إلى الأندلس وصفوا فضل مالك وسعة علمه ، وجلالة قدره ، فأعظموه كإقدامنا ذلك ، وقيل : إن الإمام مالكاً سأل بعض الأندلسيين عن سيرة مالك الأندلس ، فوصف له سيرته ،

كَانَ أَهْلُ
الْأَنْدَلُسِ عَلَى
مَذْهَبِ
الْأَوْزَاعِيِّ ثُمَّ
صَارَ الْمَذْهَبُ
مَالِكاً

(١) في ب « والوهم يخرجهم » ، وأذكى : أي أشد التهاباً واشتعالاً .

فأعجبت مالكا لكون سيرة بني العباس في ذلك الوقت لم تكن بمرضية ، وكابد لما صنع أبو جعفر المنصور بالعلوية بالمدينة من الحبس والإهانة وغيرهما على ما هو مشهور في كتب التاريخ ، فقال الإمام مالك رضى الله تعالى عنه لذلك الخبر : نسأل الله تعالى أن يزين حَرَمَنَا بملككم ، أو لئلا هذا معناه ، فَنُمِيتَ المسألة إلى ملك الأندلس ، مع ما علم من جلالة مالك ودينه ، فحمل الناس على مذهبه ، وترك مذهب الأوزاعي ، والله تعالى أعلم .

وحكى أن القاضي الزاهد أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن أبي يغمور لما ندبه أهل الأمر لولاية القضاء بمدينة فاس استعفى ، فلم يُقبل منه ، وخرج إلى تلك الناحية ، وخرج الناس لوداعه ، فأنشد :

عليكم سلام الله إني راحلٌ وعيناي من خوف التفرق تدمع
فإن نحن عشنا فهو يجمع بيننا وإن نحن متنا فالقيامة تجمع

وأنشد أصحابه رحمه الله تعالى ، ولا أدري هل هي له أو لغيره :

كنا نعظم بالآمال قدركم حتى انقضت فتساوى عندنا الناس
لم تفضلونا بشيء غير واحدة هي الرجاء فسوى بيننا الياس

وأنشد أيضا :

بَلَوْتُهُمْ مَذْكَ كُنْتُ طِفْلا فَلَمْ أَجِدْ كَمَا أَشْتَهَى مِنْهُمْ صَدِيقًا وَصَاحِبًا
فَصَوَّبْتُ رَأْيِي فِي فِرَارِي مِنْهُمْ وَشَمَرْتُ أَذْيَالِي وَأَمَعَنْتُ هَارِبًا

وأنشد لغيره في الكتان :

أَخْفَى الْغَرَامَ فَلَا جَوَارِحَ شَعَرْتُ بِذَاكَ وَلَا مَفَاصِلَ
كَالسَيْفِ يَصْحَبُهُ الْحِمَامُ وَلَمْ يَعْلَمْ بِمَا حَمَلَتْ حَمَائِلَهُ

وأنشد :

قَدْ كُنْتُ أَمْرَضَ فِي الشَّبِيبةِ دَائِمًا وَالْمَوْتَ لَيْسَ يَمُرُّ لِي فِي الْبَالِ

من شعر
ابن يغمور

فإن نحن عشنا فهو يجمع بيننا
وإن نحن متنا فالقيامة تجمع

والآن شئتُ وصحتي موجودة ، وأرى كأن الموت في أذيالي
ولما أنشده تاج الدين بن حمويه السرخسي الوافد على المغرب من المشرق
قول بعضهم :

فلا تَحْقِرَنَّ عَدُوًّا رَمَاكَ وإن كان في ساعديه قِصْرُ

فإن السيوف تحزُّ الرقابَ وتعجز عما تنال الإبر

قال : حسن جيد ، ولكن اسمع ما قال شاعرنا القَسْطَلِيُّ ، وأنشد :

أُتْرِنِي لِكَشْفِ الْخُطْبِ وَالْخُطْبِ مَشْكَلٍ وَكَلْنِي لِلْيَثِ الْغَابِ وَهُوَ هَضُورُ

فقد تخفض الأسماء وهي سوا كن ويعمل في الفعل الصريح ضمير

وتنبو الردينيات والطول وافر ويبعد وَقْعُ السهم وهو قصير

وكان الوزير الكريّم أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري أحد وزراء الأندلس

الوزير أبو محمد

عبد الرحمن

ابن مالك

المعافري

كثير الصنائع جزل المواهب عظيم المكارم ، على سنن عطاء الملوك وأخلاق السادة ،

لم ير بعده مثله في رجال الأندلس ، ذا كرا للفقه والحديث ، بارعا في الآداب ،

شاعرا مجيدا ، وكاتبا بليغا ، كثير الخدم والأهل ، ومن آثاره الحمام بحوف الجامع ^(١)

الأعظم من غَرْ نَاطَة ، وزاد في سقف الجامع من صحنه وعوض أرجل قِسيه أعمدة

الرخام ، وجلب الرؤس والموائد من قرطبة ، وفرش صحنه بكدان الصخر ^(٢) ، ووجهه

أميره على بن يوسف بن تاشفين إلى طُرْطُوشَة برسم بنائها ، فلما حَلَمَا سأل قاضيا

فكتب له جملة من أهلها ممن ضعفت حاله وقل تصرفه من ذوى البيوتات ،

فاستعملهم أمناء ، ووسّع أرزاقهم ، حتى كمل له ما أراد من عمله ، ومن عجز أن

يستعمله وصله من ماله ، فصدر عنها وقد أنعش خلقا ، رضى الله تعالى عنه ورحمه ! .

ومن شعره في مجلس أطربه سماعه ، وبسطه احتشاد الأنس فيه واجتماعه ،

(١) في ب « بحوف الجامع الأعظم »

(٢) في ب « بكدان الصخر »

فقال : -

لا تلعني إذا طربت لشـجو يبعث الأنس فالكريم طرُوب^(١)
ليس شقُّ الجيوب حقاً علينا إنما الحق أن تُشقَّ القلوبُ
وقطف غلام^(٢) من غلامه نؤارة ومدَّ بها يده إلى أبي نصر الفتح بن عبيد الله ،
فقال أبو نصر :

وبدرٍ بدا والطرف مطلع حسنه وفي كفه من رائق النورِ كوكبُ
يروح لتعذيب النفوس ويغتدى ويطلع في أفق الجمال ويغرب
فقال أبو محمد بن مالك :

ويحسد منه الغصن أى مهفهف يحىء على مثل الكتيب ويذهب
وقد سبق هذا .

وكتب إلى الفتح من غير تروى : يا سيدى ، جرت الأيام بفراقك ، وكان الله
جارك في انطلاقك ، فغيرك [من] ^(٣) روع بالظعن ، وأوقد للوداع جاحم الشجن ،
فإنك من أبناء هذا الزمن ، خليفة الخضر لا يستقر على وطن ، كأنك والله يختارلك
ما تأتية وما تدعه ، موكل بغضاء الأرض تذرعه ^(٤) ، فحسب من نوى بعشرتك
الاستمتاع ، أن يعدك من العواري السريعة الارتجاع ، فلا يأسف على قلبه
الثوى ^(٥) وينشد :

* وفارقت حتى ما أبالى من النوى ^(٦) *

ومات رحمه الله تعالى بغرناطة سنة ٥١٨ ، وحضر جنازته الخاصة والعامة ،

(١) في ب « لا تلعني بأن طربت لشجو » (٢) في ب « وخطف غلام »
(٣) ليست في ب (٤) هذا عجز بيت من عينية ابن ذريق ، صدره :
* كأنما هو في حل ومرتحل *

(٥) الثوى : الإقامة ، وأصله ممدود ، ووقع في ب « النوى » بالنون - وهو تحريف
(٦) في ب « وفارقت حتى لا أبالى من أهوى » محرفاً

وهو من محاسن الأندلس ، رحمه الله تعالى ! .

ومن نوادر الاتفاق أن جارية مَسَتْ بين يدي المعتمد ، وعليها قميص لا تكاد تفرق بينه وبين جسمها ، وذوائبها تخفى آثار مشيها ، فسكب عليها ماء ورد كان بين يديه ، وقال :

بين المعتمد
والبطليوسى
النحلى

عُلِّقَتْ جَانَّةُ الْوِشَاحِ غَرِيرَةً تَخْتَالُ بَيْنَ أُسْنَةِ وَبَوَاقِرِ^(١)

وقال لبعض الخدم : سر إلى أبي الوليد البَطْلَيْوْسَى المشهور بالنحلى ، وخذه بإجازة هذا البيت ، ولا تفارقه حتى يفرغ منه ، فأجاب النحلى لأول وقوع الرقعة بين يديه :

راقت محاسنها ورقاً أديمها	فتكاد تبصر باطنا من ظاهر
وتمايلت كالغصن في دِعْصِ النَّقَا	تَلْتَفُّ في ورق الشباب الناضر ^(٢)
يَنْدَى بماء الورد مسبل شعرها	كالطلل يسقط من جناح الطائر
تَرْهَى برونقها وعز جمالها	زهو المؤيد بالثناء العاطر
ملك تضاءلت الملوك لقدرة	وعنأله صرف الزمان الجائر
وإذا لحت جبينه ويمينه	أبصرت بدمراً فوق بحر زاخر

فلما قرأها المعتمد استحضره ، وقال له : أحسنت ، أو معنا كنت ؟ فقال له : يا قاتل المَلْح ، أما تلوت (وأوحى ربك إلى النحل) ؟ .

وأصبح المعتمد يوماً مَمْلَأً فدخل الحمام ، وأمر أن يدخل النحلى معه ، فجاء وقعد في مسلخ الحمام حتى يستأذن عليه ، فجعل المعتمد يحبى في الحمام وهو خال وقد بقيت في رأسه بقية من السكر ، وجعل كلما سمع دوى ذلك الصوت يقول : الجوز ، اللوز ، القسطل ، ومر على هذا ساعة ، إلى أن تذكر النحلى ، فصادفه^(٣) ،

(١) في « عُلِّقَتْ جَانَّةُ الْوِشَاحِ عَزِيْزَةً » وهى أنسب بعجز البيت ، ولكن ما أثبتناه موافقاً لما فى ب صحيح مستقيم

(٢) فى ب « والتف فى ورق الشباب » (٣) فى ا « فصادمه »

فلما دخل قال له : من أى وقت أنت هنا ؟ قال : من أول ما رتب مولانا القواكه في النصبه ، فغشى عليه من الضحك ، وأمر له بإحسان ، والنصبه : مائدة يصبون فيها هذه الأصناف .

ولما استحسن المعتمد قول المتنبي :

إذا ظفرت منك المطي بنظرة أناب بها معي المطي ورأى^(١)

قال ابن وهبون بديهية :

لئن جاد شعروا بن الحسن وإنما تحيد العطايا ، والله تفتح الله

تنبا عجباً بالقريص ، ولو درى بأنك ترى شعرة لتألها

وقد تقدم ذكرهما^(٢) ، فأمر له بمائتي دينار .

ولما قال ابن وهبون المذكور :

غاض الوفاء فما تلقاه في رجل ولا يمر لخلق على بال^(٣)

قد صار عندهم عنقاء مغربة أو مثل ماحدثوا عن ألف مثقال

فقال له المعتمد : عنقاء مغربة وألف مثقال يا عبد الجليل عندك سواء ؟ فقال : نعم ، قال : قد أمرنا لك بألف دينار وبألف دينار أخرى تنفقها .

وذكر القرطبي صاحب « التذكرة » في كتابه قمع الحرص بالزهد والقناعة ، ابن عبد البر ماصورته : روي أن الإمام أبا عمر بن عبد البر رضى الله تعالى عنه بلغه وهو بشاطبة أن أقواما عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزهم ، فقال :

قل لمن ينكر أكل طعام الأمراء

أنت من جهلك هذا في محل السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين ، من الصحابة والتابعين ، وأئمة الفتوى من المسلمين ، من السلف الماضين ، هو ملاك الدين ، فقد كان زيد بن ثابت - وكان من الراسخين

(١) في ب « إذا ظفرت منك العيون »

(٢) انظر ص ١٨٤ من هذا الجزء (٣) في ١ « ولا يمر بخلق على بال »

ابن عبد البر
يفق بجواز
أكل طعام
الأمراء
ويحتج له

في العلم - يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد ، وكان ابن عمر رضى الله تعالى عنهما - مع ورعه وفضله - يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبيد ، ويأكل طعامه ، ويقبل جوائزه ، وقال عبد الله بن مسعود - وكان قد ملئ علما - لرجل سأله ، فقال : إن لى جاراً يعمل بالربا ، ولا يجتنب فى مكسبه الحرام ، يدعونى إلى طعامه ، أفأجيبه ؟ قال : نعم ، لك المهنأ وعليه المأثم ، ما لم تعلم الشئ بعينه حراما ، وقال عثمان ابن عفان رضى الله تعالى عنه - حين سئل عن جوائز السلاطين - : لى حظى ذكى ، وكان الشعبى - وهو من كبار التابعين وعلمائهم - يؤدب بنى عبد الملك بن مروان ، ويقبل جوائزه ويأكل طعامه ، وكان إبراهيم النخعى وسائر علماء الكوفة والحسن البصرى - مع زهده وورعه - وسائر علماء البصرة وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان والفقهاء السبعة بالمدينة - حاشى سعيد بن المسيب - يقبلون جوائز السلطان ، وكان ابن شهاب يقبلها ، ويتقلب فى جوائزهم ، وكانت أكثر كسبه ، وكذلك أبو الزناد ، وكان مالك وأبو يوسف والشافعى وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء ، وكان سفيان الثورى - مع ورعه وفضله - يقول : جوائز السلطان أحب إلى من صلة الإخوان ، لأن الإخوان يَمُنُّون والسلطان لا يَمِنُ ، ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير ، وقد جمع الناس فيه أبوابا ، ولأحمد بن خالد فقيه الأندلس وعالمها فى ذلك كتاب حماله على وضعه وجمعه طعن أهل بلده عليه فى قبوله جوائز عبد الرحمن الناصر ، إذنقله إلى المدينة بقرطبة ، وأسكنه داراً من دور الجامع قربها ، وأجرى عليه الرزق من الطعام والإدام والناض^(١) ، وله ومثله فى بيت المال حظ ، والمسئول عن التخليط فيه هو السلطان ، كما قال عبد الله بن مسعود « لك المهنأ وعليه المأثم ، ما لم تعلم الشئ

(١) الإدام - بكسر الهمزة ، بزة الكتاب - كل ما تنعمس فيه العيش ليسهل بلعه ،

والناض : أراد به الدراهم والدنانير

بعينه حراما » ومعنى قول ابن مسعود هذا قد أجمع العلماء عليه ، فمن علم الشيء بعينه حراما مأخوذا من غير حله كالجرمة^(١) وغيرها وشبهها من الطعام أو الدابة وما كان مثل ذلك كله من الأشياء المتعينة غصبا أو سرقة أو مأخوذة بظلم بين لاشبهة فيه فهذا الذى لم يختلف أحد فى تحريمه ، وسقوط عدالة آكله ، وأخذه وتملكه ، وما أعلم من علماء التابعين أحدا تورّع عن جواز السلطان ، إلا سعيد ابن المسيب بالمدينة ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، وهما قد ذهبوا مثلا فى التورع ، وسلك سبيلهما فى ذلك أحمد بن حنبل وأهل الزهد والورع والتقشف ، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين ! والزهد فى الدنيا من أفضل الفضائل ، ولا يحل لمن وفقه الله تعالى وزهد فيها أن يحرم ما أباح الله تعالى منها ، والعجب من أهل زماننا يعيبون الشبهات ، وهم يستحلون المحرمات ، ومثاله عندى كالذين سألو عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما عن المحرم يقتل القُرَاد والحلمة ، فقال للسائلين له : من أنتم ؟ فقالوا : من أهل الكوفة ، فقال : تسألوننى عن هذا وأنتم قتلتهم الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما ! وروى ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أتاك من غير مسألة فكله وتموّله » وروى هذا الحديث أيضا عن عبد الله ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « ما أتاك من غير مسألة فكله وتموّله » وروى أبو سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم معناه ، وفى حديث أحدهما « إنما هو رزق رزقك الله تعالى » وفى لفظ بعض الرواة « ولا تردّ على الله رزقه » وهذا كله [مركب]^(٢) مبنى على ما أجمعوا عليه ، وهو الحق ، فمن عرف الشيء المحرم بعينه فإنه لا يحل له ، المسألة من كلام ابن عبد البر ، انتهى .

(١) فى « كالحريمة » بالحاء المهملة

(٢) لا توجد هذه الكلمة فى ب

وحضر ابن مجير^(٢) مع عدو له جاحد لعروفه ، وأمامها زجاجة سوداء فيها خمر ، فقال له الحسود : إن كنت شاعرا قتل في هذه ، فقال ارتجالا :
* شأشكو إلى الندمان - إلى آخر الحكاية *

وقد تقدمت في رساله الشقندي^(١) رحمه الله تعالى .

وابن مجير هو أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجير الفهرى ، كان في وقته شاعر المغرب ، ويشهد له بقوة عارضته وسلامة طبعه قصائده التي صارت مثالا ، وبعدت على قربها منكالا ، وشعره كثير يشتمل على أكثر من تسعة آلاف وأربعمائة بيت ، واتصل بالأمير أبي عبد الله بن سعد بن مردنيش ، وله فيه أمداح ، وأنشد يوسف بن عبد المؤمن يهنيه بفتح :

إن خير الفتوح ما جاء عفوًا مثل ما يخطب الخطيب ارتجالا

وكان أبو العباس الجراوى حاضرا ، فقطع عليه حسادة وجدها ، وقال : يا سيدنا اهتدم بيت وضاح :

خير شراب ما كان عفوًا كأنه خطبة ارتجالا

فبدر المنصور ، وهو حينئذ وزير أبيه وسنه قريب العشرين ، وقال : إن كان اهتدمه فقد استحقته لنقله إياه من معنى خسيس إلى معنى شريف ، فسر أبوه بجوابه ، وعجب الحاضرون .

ومر المنصور أيام إمرته باوقبة من أرض شلب ، فوقف على قبر الحافظ أبي محمد بن حزم ، وقال : عجبا لهذا الموضع ، يخرج منه مثل هذا العالم ، ثم قال : كل العلماء عيال على ابن حزم ، ثم رفع رأسه وقال : كما أن الشعراء عيال عليك يا أبا بكر ، يخاطب ابن مجير .

(١) في « ابن مجير » بالباء الموحدة ، وضبطه بالحركات كزنة مكرم اسم مفعول

(٢) انظر ص ١٩٤ من هذا الجزء

أبو بكر
يحيى بن مجير
الفهرى

ومن شعر ابن مجير يصف خيل المنصور من قصيدة في مدحه :
 له حَلْبَةٌ الخيل العِتَاقِي كأنها نَشَاوِي تَهَاوَتْ تَطَلُّبُ العِزِّ والقَصْفَا^(١)
 عرائس أغنتها الحبول عن الحلي فلم تبغ خلخالاً ولا التمت وقفا
 فمن يقق كالطرس تحسب أنه وإن جردوه في ملاءته النفا
 وأبلى أعطى الليل نصف إهابه وغار عليه الصبح فاحتبس النصفَا
 ووَرَدَ تَغَشَّى جلده شفق الدجى فإذا حازه دَلَى له الذيل والعرفَا
 وأشقر مَجَّ الراح صرفاً أديمه وأصفر لم يمسح بها جلده صرفَا
 وأشهب فِضِي الأديم مُدَرَّ عليه خطوط غير مفهمة حرفَا
 كما خطر الزاهى بمهرق كاتب فخر عليه ذيله وهو ما جَفَا^(٢)
 تهبُّ على الأعداء منها عواصف ستنسف أرض المشركين بها نسفا
 ترى كل طرف كالغزال فتمترى أظبياً ترى تحت العجاجة أم طِرْفَا
 وقد كان في البیداء يالف سِرْبَه فربته مهراً وهي تحسبه خَشْفَا
 تناوله لفظ الجواد لأنه على ما أردت الجرى أعطاه ضعفَا
 ولما اتخذ المنصور مقصورة الجامع بمراكش بدار ملكها، وكانت مدبرة على انتصابها
 إذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاها، واختفائها إذا انفصلوا عنها، أنشد في ذلك
 الشعراء فقال ابن مجير من قصيدة أولها :

أعلمتني ألقى عصا التسيار في بلدة ليست بدار قرار
 إلى أن قال :

طَوْرًا تكون بمن حَوْتِه مَحِيطَةً فكانها سور من الأسوار
 وتسكون حيناً عنهم مَحْبُوتَةً فكانها سر من الأسرار

(١) في ب « نشاوى تهاوت »

(٢) في ب « كما خط خط الزاهى بمهرق كاتب » وما أثبتناه موافق لما في ا

وكانها علمت مقادير الوري فتصرفت لهم على مقدار
 فإذا أحست بالإمام يزورها في قومه قامت إلى الزوار
 يبدو فتبدو ثم تخفى بعده كتكون الهالات للأقمار

ومن روى عنه أبو على الشلوين وطبقته ، وتوفي بمراكش سنة ٥٧٨ هـ ، وعمره
 ٥٣ سنة ، رحمه الله تعالى !

وقد حكى الشريف الغرناطي شارحُ المقصورة هذه الحكاية بأتم مما
 ذكرناه ، فقال عن الكاتب ابن عياش [كاتب المنصور الموحدى] ^(١) قال : كانت
 لأبي بكر بن مجير وفادةٌ على المنصور في كل سنة ، فصادف في إحدى وفاداته
 فراغه من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره في حضرة
 مراكش ، وكانت قد وُضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتحقق
 لدخوله ، وكان جميع من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والأدباء قد نظموا
 أشعاراً أنشدوه إياها في ذلك ، فلم يزيدوا على شكره ، وتجزئته الخير فيما جدد
 من معالم الدين وآثاره ، ولم يكن فيهم من تصدَّى لوصف الحال ، حتى قام أبو بكر
 ابن مجير فأنشد قصيدته التي أولها * أعلمتني ألقى عصا التسيار * واستمر فيها حتى
 ألم بذكر المقصورة فقال يصفها * طورا تكون - إلخ * فطرب المنصور لسماعها ،
 وارتاح لاختراعها ، انتهى .

وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن ، وبقيت آثارها حسبما شاهده سنة
 عشر وألف ، والله تعالى وارث الأرض ومن عليها .

ومن نظم ابن مجير أيضا ما كتب به إلى السلطان ملك المغرب - رحمه الله
 تعالى ! - وقد ولد له ولد ^(٢) ، أعنى لابن مجير :

(١) لا توجد هذه الزيادة في أصل ١ ، وهي موجودة في ب على ما أثبتناه ، وفي
 نسخة عند « كاتب يعقوب المنصور الموحدى »
 (٢) في ١ « وقد ولد له ابن »

وُلِدَ الْعَبْدُ الَّذِي إِنْ عَامُكُمْ طِينَةً أَنْشَأَ مِنْهَا جَسَدُهُ
وَهُوَ دُونَ اسْمِهِ لَعَلَّمِي أَنَّهُ لَا يُسَمَّى الْعَبْدَ إِلَّا سَيِّدُهُ

وقوله :

من شعر
الأندلسيين

مَلِكٌ تَرْوِيكَ مِنْهُ شَيْمَةٌ أَنْسَتِ الظُّلْمَانَ زُرْقَ النَّطْفِ
جَمَعْتَ مِنْ كُلِّ مَجْدٍ فُحْكَتْ لَفْظَةً قَدْ جَمَعْتَ مِنْ أَحْرَفٍ
يَعْجِبُ السَّامِعُ مِنْ وَصْفِي لَهَا وَوَرَاءَ الْعِجْزِ مَا لَمْ أَصِفِ
لَوْ أَعَارَ السَّهْمَ مَا فِي رَأْيِهِ مِنْ سَدَادٍ وَهْدَى لَمْ يَصِفِ
حَالَهُ الرَّاجِحِ مِيزَانُ الْهَدَى يَزِنُ الْأَشْيَاءَ وَزَنَ الْمُنْصَفِ

وقال ابن خفاجة :

صَحَّ الْهَوَى مِنْكَ وَلَكِنِّي أَعْجَبُ مِنْ بَيْنٍ لَنَا يُقَدَّرُ
كَأَنَّا فِي فَلَكَ دَائِرٍ فَأَنْتَ تَخْفَى وَأَنَا أَظْهَرُ
وَهَا الْغَايَةُ فِي مَعْنَاهَا ، كَمَا قَالَ ابْنُ ظَافِرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ! -

وقال الأعمى التَّطِيلِي :

أَمَا اسْتَنْتَ مِنِّي الْأَيَّامُ فِي وَطْنِي حَتَّى تُضَاقِقَ فِيمَا عَزَّ مِنْ وَطْرِي (١)
فَلَا قِصَّةَ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتَهَا حَتَّى تَسْكُرَ عَلَى مَا طَلَّ فِي الشَّعْرِ (٢)

وقال القاضي أَبُو حَفْصِ بْنِ عَمْرِو الْقُرْطُبِي :

هُمْ نَظَرُوا لَوَاحِظَهَا فَهَامُوا وَتَشْرَبُ لُبَّ شَارِبِهَا الْمَدَامُ
يَخَافُ النَّاسُ مَقْلَتَهَا سِوَاهَا أَيْدَعُرُ قَلْبَ حَامِلِهِ الْحَسَامُ
سَمَا طَرَفِي إِلَيْهَا وَهُوَ بَالِكُ وَتَحْتَ الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ الْغَمَامُ
وَأَذْكَرُ قَدَّهَا فَأَنُوحُ وَجَدًا عَلَى الْأَغْصَانِ تَنْتَدِبُ الْحَمَامُ

(١) في ب « إِذَا اسْتَنْتَ مِنِّي الْأَيَّامُ - إلخ »

(٢) في نسخة « ظَلَّ فِي الشَّعْرِ »

فَأَعْقَبَ بَيْنُهَا فِي الصَّدْرِ غَمَا إِذَا غَرَبَتْ ذُكَا أُنَى الظَّلَامِ (١)
وَقَالَ الْحَاجِبُ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ مَغِيثَ :

طَارَتْ بَنَا الْخَيْلُ وَمِنْ فَوْقِهَا شُهْبُ بَزَاةٍ لِحَامِ الْحَمَامِ
كَأَنَّمَا الْأَيْدَى قَسَى لَهَا وَالطَّيْرُ أَهْدَافَ وَهْنِ السَّهَامِ

وَقَالَ أَخُوهُ أَحْمَدُ :

اشْرَبَ عَلَى الْبِسْتَانِ مِنْ كَفِّ مَنْ يَسْقِيكَ مِنْ فِيهِ وَأَحْدَاقِهِ
وَانْظُرْ إِلَى الْأَيْكَةِ فِي بَرْدِهِ وَلَا حِظَّ الْبَدْرِ بِأَطْوَاقِهِ
وَقَدْ بَدَأَ السَّرُّوْ عَلَى نَهْرِهِ كَخَائِضِ شَمْرِ عَنْ سَاقِهِ
وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمَيَّةَ الْبَلَدَسِيِّ :

إِذَا كَانَ وَدَى وَهُوَ أَنْفَسُ قَرْبَةٍ يُجَاوِزِي بِيغْضَ فَالْقَطِيعَةِ أَحْزَمِ
وَمِنْ أَضْيَعِ الْأَشْيَاءِ وَدَ صَرْفَتِهِ إِلَى غَيْرِ مَنْ تَحْطَى لَدَيْهِ وَتَكْرَمِ

سرعة ارتجال
الأندلسيين
ومن حكايات أهل الأندلس في خلع العذار والطرب والظرف وغير ذلك كسرعة
الارتجال ما حكاها صاحب « بدائع البدائنه » قال : أخبرني مَنْ أُنِيقَ بِهِ بِمَا هَذَا
معناه ، قال : خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليد بن زَيْدُون ومعهما
الوزير ابن خلدون من إشبيلية إلى منظرَة لبني عباد بموضع يقال له لَقْنَتْ (٢) تحف
بها مُرُوجُ مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متنسمة عن ثغور
النُّوَّارِ ، فِي زَمَانٍ ربيع سقت الأرض السحبُ فِيهِ بوسمِهَا ووليَّهَا ،
وجَلَّتْهَا فِي زَاهِرٍ ملبسها وباهر حُلِيِّهَا ، وأردافُ الرِّبَا قد تَأَزَّرَتْ بِالْأُزْرِ الْخَضِرِ مِنْ
نَبَاتِهَا ، وأجْيَادُ الجداول قد نظم النوار قلائدَهُ حَوْلَ لِبَاتِهَا ، ومجامر الزهر تعطر
أردية النسائم عند هَبَاتِهَا ، وهناك من البَهَارِ مَا يُزْرَى عَلَى مَدَاهِنِ النَّضَارِ ، ومن

(١) ذَكَاءُ - بضم الذال ، بزنة الغراب - اسم للشمس

(٢) فِي ١ « القنت » وفي نسخة عندا « القنت » والتصويب عن الروض

الترجس الريان ما يهزأ بنواعس الأجفان ، وقد نَوَّوا الانفرادَ للهو والطرب ،
 والتزده في روضي النبات والأدب ، وبعثوا صاحباً لهم يسمى خليفة هو قوام لذتهم ،
 ونظامُ مسرتهم ، ليأتيهم بنبيذ يُذهيُون الهم بذهبه في كُجَيْن زجاجة ، ويرمونه منه
 بما يقضى بتحريكه للهَرَب عن القلوب وإزعاجه ، وجلسوا لانتظاره ، وترب
 عَوْدَه على آثاره ، فلما بصروا به مقبلاً من أوّل الفَجِّ بادروا إلى لقائه ، وسارعوا
 إلى نحوه وتلقائه ، واتفق أن فارساً من الجند ركض فرسه فصدمه ووطىء عليه
 فهشم أعظمه وأجرى دمه ، وكسر قُمْعُل^(١) النبيذ الذي كان معه ، وفرق من شملهم
 ما كان الدهر [قد] جَمَعَهُ ، ومضى على غُلُوَانِه راكضاً حتى خفي عن العين ، خائفاً
 من متعلق به يحين بتعلقه الحين ، وحين وصل الوُزَرَاء إليه ، تأسفوا عليه ،
 وأفاضوا في ذكر الزمان وعدوانه ، والخطب وإلوانه^(٢) ، ودخوله بطَوَام المضرات ،
 على تمام المسرات ، وتكديره لأوقات المنعمات ، بالآفات المؤلمات ، فقال
 ابن زيدون :

أُلهو والخوف ينسا مطيفه ونأمنُ والمنونُ لنا مُحيفه

فقال ابن خلدون :

وفي يوم وما أدراك يوم مضى قعالنا ومضى خليفه

فقال ابن عمار :

ها فَخَّارَتَا رَاحٍ وَرَوَّح تكسرتا فأشَقاف وجيفه

وذكر ابن بسام ما معناه أن أبا عامر بن شهيد حضر ليلة عند [الحاجب أبي عامر بين ابن شهيد
 ابن^(٣)] المظفر بن المنصور بن أبي عامر بقرطبة ، فقامت تسقيهم وصيفة عجبية صغيرة وابن أبي عامر
 الخلق ، ولم تزل تسهر في خدمتهم إلى أن هم جند الليل بالانهزام ، وأخذ في تقويض

(١) القمعول - بزنة قنفذ - القدح الضخم ، ومثله القمعول كعصفور ، ووقع في

ب « قمعال النبيذ » كما جاء في بيت ابن خلدون ، وفي ١ « قمعال النبيذ »

(٢) في ١ « ذكر الزمان وعدوانه ، والخطب وألوانه »

(٣) زيادة في ب وحدها

خيام الظلام ، وكانت تسمى أسياء ، فعجب الحاضرون من مكابذتها السهر طول ليلتها على صغر سنها ، فسأله المظفر وصفها ، فصنع ارتجالاً :

أفدى أسياء من نديم ملازم للكؤس راتب
قد عجبوا في السهاد منها وهي لعمرى من العجائب
قالوا تتجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب

ابن شهيد عند القاضي ابن ذكوان
وحكى ابن بسام ما معناه أن ابن شهيد المذكور كان يوماً مع جماعة من الأدباء عند القاضي ابن ذكوان ، فحىء بيا كورة باقلاً ، فقال ابن ذكوان : لا ينفرد بها إلا من وصفها ، فقال ابن شهيد : أنا لها ، وارتجل :

إن لآليك أحدثت صلفاً فاتخذت من زمرّد صدفاً
تسكن ضراتها البحور وذى تسكن للحسن روضة أنفاً^(١)
هامت بلحف الجبال فاتخذت من سندس في جنبها خففاً
شبهتها بالثغور من لطف حسبك هذا من رمز من لطفاً^(٢)
جازاين ذكوان في مكارمه حدود كعب وما به وصفاً^(٣)
قدم دُرّ الرياض منتخبا منه لأفراس مدحه علفا
أكل ظريف وطعم ذى أدب والقول يهواه كل من ظرفاً^(٤)
رخص فيه شيخ له قدر فكان حسبي من المني وكفى

بين ابن شهيد وجماعة من أصحابه
وقال ابن بسام : إن جماعة من أصحاب ابن شهيد المذكور قالوا له : يا أبا عامر ، إنك لآتٍ بالعجائب ، وجاذب بذوائب الغرائب ، ولسكنك شديد الإعجاب بما يأتي منك ، هاز لعطفك عند النادر يتاح لك^(٥) ، ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا ، وكان الذي طلبوه منه زبدة التعنيت ، لأن المعنى إذا كان جلفاً ثقيلًا

(١) في ب « يسكن ضراتها النحور » (٢) في ا « حسبك هذا من رفد من لطفاً »

(٣) يريد كعب بن مامة الإيادي ، وله قصة في السكرم مشهورة متعلّمة .

(٤) في ب « والنول يهواه كل من ظرفاً » (٥) يتاح لك : يتهياً لك

على النفس ، قبيح الصورة عند الحس ، كَلَّتْ الفكرة عنه وإن كانت ماضية ،
وأساءت القريحة في وصفه وإن كانت محسنة ، وكان في المجلس (١) بابٌ مخلوع
معترض على الأرض ، ولبد أحمر مبسوط قد صفت (٢) خفافهم عند حاشيته ،
فقال مسرعا :

وفتية كالنجوم حسنا	كلهم شاعر نبيل
متقد الجانبين ماض	كأنه الصارم الصَّقيْل (٣)
راموا انصرافي عن المعالي	والحدّ من دونها قليل (٤)
فالشّد في أمرها فسبح	كلُّ كثيرٍ له قليل
في مجلس زانه التصابي	وطاردت وصفه العقول (٥)
كأنما بابه أسير	قد عرضت دونه نُصُول
يراد منه المقال قسرا	وهو على ذاك لا يقول
ننظر من لبدِه لدينا	بحر دم تحتنا يسيل
كأن أخافنا عليه	مراكب ما لها دليل
ضلت فلم تدر أين تجرى	فهل على شطه تقيْل

فمعجب القوم من أمره ، ثم خرج من عندهم ، فرعلى بعض معارفه من الطرائقين
وبين يديه زنبيل ملآن خرشفا (٦) ، فجعل يده في لجام بغلته ، وقال : لا أترك
أو تصف الخرشف (٦) ، فقد وصفه صاعد فلم يقل شيئا ، فقال له ابن شهيد : ويحك !
أعلى مثل هذه الحال ؟ قال : نعم ، فارتجل :

هل أبصرت عيناك يا خليلي قنافاذا تباع في زنبيل
من خرشف معتمد جليل ذى إبر تنفذ ببلد القيل

(١) في ١ « وكان ما في المجلس - إلخ » (٢) في ١ « قدرست خفافهم »

(٣) في ١ « منفذ الجانبين » (٤) في ١ « والغرب من دونها قليل »

(٥) في ١ « راده التصابي » (٦) كذا في ب ، وفي ١ « خرشفا » بالمهمله

كأنها أنياب بنت الغول لو نَحَسْتُ في أَسْتِ امرئٍ ثَقِيلِ (١)
لَقَفَزْتَهُ نَحْوَ أَرْضِ النِيلِ ليس يرى طي حشا منديل (٢)
نقل السخيف المائن الجهول وأكل قوم نازحِي العقول
أَقْسَمْتُ لَا أَطْعِمُهَا أَكْبَلِي وَلَا طَعَمْتُهَا عَلَى شَمُولِ

يقين
ابن العلاء زهر
وابن رزين
وقال في « بدائع البداهة » : دخل الوزير أبو العلاء زهر ابن الوزير أبي مروان عبد الملك بن زهر على الأمير عبد الملك بن رزين في مجلس أنس ، وبين يديه ساق يسقى خمرين من كاسه ولحظه ، ويبدى درين من حبابه ولقطه ، وقد بدا خَطَّ عِذاره في صحيفة خده (٣) ، وكل حسنه باجتماع الضد منه مع ضده ، فكأنه بسحر لحظه أبدى ليلا في شمس ، وجعل يومه في الحسن أحسن من أمس ، فسأله ابن رزين أن يصنع فيه ، فقال بديها :

تضاعف وجدى أن تبدى عذاره ونم فخان القلب منى اصطباره (٤)
وقد كان ظني أن سيمحق ليله بدائع حسن هام فيها نهاره
فأظهر ضد ضده فيه إذ وَشَتَّ بعنبره في صفحة الخلد ناره
واستزاده ، فقال بديها :

محيت آية النهار فأضحى بدرتم وكان شمس نهار
كان يُعشى العيون نورا إلى أن شغل الله خدّه بالعذار
وصنع أيضاً :

عذار أَلَمَّ فأبدى لنا بدائع كنا لها في عَمَى
ولولم يحنَّ النهار الظلا لم يستين كوكب في السما
وصنع أيضاً :

(١) في ١ « كأنها أنياب بنت الغول »

(٢) في نسخة عند ب « لَقَفَزْتَهُ نَحْوَ أَرْضِ النِيلِ »

(٣) في ١ « في صفحة خده » (٤) في ١ « تضاعف وجدى إذ تبدى »

تمت محاسن وجهه وتكاملت لما استدار به عذار موقن
وكذلك البدر المنير جماله في أن يكتفه سماء أزرق انتهى
وحكى الحميدى وغيره أن عبد الله بن عاصم صاحب الشرطة بقرطبة كان أديباً
شاعراً سريع البديهة ، كثير النوادر ، وهو من جلساء الأمير محمد بن عبد الرحمن
الأموى ملك الأندلس ، وحكوا أنه دخل عليه في يوم ذى غيم ، وبين يديه غلام
حسن المحاسن ، جميل الزى ، كريم الأخلاق^(١) ، فقال الأمير : يا ابن عاصم ، ما يصلح
في يومنا هذا ؟ فقال : عقار ينفذ الدنان^(٢) ، ويؤنس الغزلان ، وحديث كقطع
الروض قد سقطت فيه مؤنة التحفظ ، وأرخى له عنان التبسط ، يُديرها هذا
الأغيد المليح ، فاستضحك الأمير ، ثم أمر بمراتب الغناء ، وآلات الصهباء ، فلما
دارت الكأس ، واستمطر الأمير نوادره ، أشار إلى الغلام أن يلح في سقيه ،
ويؤكد عليه ، فلما أكثر رفع رأسه إليه وقال على البديهة :

يا حسنَ الوجه لا تكنْ صليفاً ما لحسان الوجوه والصَّاف

تُحسِنُ أن تحسِّنَ القبيحَ ولا ترى لصبٍّ متمِّمَ دَنِفٍ

فاستبدع الأمير بديهته ، وأمر له ببدره ، ويقال : إنه خيره بينها وبين الوصيف ،
فاختارها نفياً للظننة عنه ، انتهى .

قلت : أذكرتني هذه الحكاية ما حكاها على بن ظافر عن نفسه إذ قال :
كنت عند المولى الملك الأشرف بن العادل بن أيوب سنة ٦٠٣ بالرها ، وقد وردتُ
إليه في رسالة ، فجعلنى بين سمعه وبصره ، وأنزلنى في بعض دوره بالقلعة بحيث
يقرب عليه حضورى في وقت طلبتى أو إرادة الحديث معى ، فلم أشعر فى بعض
الليالى وأنا نائم فى فراشى إلا به ، وهو قائم على رأسى ، والسكر قد غلب عليه ،

(١) فى ١ « لين الأخلاق »

(٢) فى ١ « عقار تنفر الذبان »

عبد الله بن
عاصم صاحب
الشرطة فى
قرطبة

بين ابن ظافر
والملك
الأشرف
الأيوبى

والشمع ترثر حَوَالِيهِ ، وقد حَفَّ مَمَالِيكِهِ بِهِ ، وَكَأَنَّهُمْ الْأَقْمَارُ الزَّوَاهِرُ ، فِي مَلَابِسِ
كَالْإِيَّاسِ ذَاتِ الْأَزَاهِرِ ، فَقَمْتُ مَرَّوَعًا ، فَأَمْسَكْنِي وَبَادِرَ بِالْجُلُوسِ إِلَى جَانِبِي بِحَيْثُ
مَنْعَنِي عَنِ الْقِيَامِ عَنِ الْوَسَادِ ، وَأَبْدَى مِنَ الْجَمِيلِ مَا أَبَدَلَنِي بِالْإِنْفَاقِ بَعْدَ الْكَسَادِ ،
ثُمَّ قَالَ : غَلَبَنِي الشُّوقُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ أَرَدْ^(١) إِزْعَاجَكَ وَالثَّقِيلَ عَلَيْكَ ، ثُمَّ اسْتَدْعَى مَنْ
كَانَ فِي مَجْلِسِهِ مِنْ خَوَاصِّ الْقَوَالِينِ ، فَحَضَرُوا وَأَخَذُوا مِنَ الْغَنَاءِ فِيمَا يَمْلَأُ الْمَسَامِعَ
التَّذَاذُّا ، وَيَجْعَلُ الْقُلُوبَ مِنَ الْوَجْدِ جُذَاذًا ، وَكَانَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ مَمْلُوكَانِ هُمَا
نَيْرًا سَمَاءٌ مَلَكُهُ ، وَوَاسِطَتَانِ دَرَسَلَكُهُ ، وَقُطْبَانِ فَلَكَ طَرَبُهُ وَوَجْدُهُ ، وَرَكْنَانِ بَيْتِ
سُرُورِهِ وَهُوَاهُ ، وَكَانَا يَتَنَاوَبَانِ فِي خِدْمَتِهِ ، فَحَضَرَ أَحَدُهُمَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَغَابَ
الْآخَرُ ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُدَاعِبُنِي فِي أَمْرِهِمَا ، وَيَسْتَجْلِبُ مِنِّي الْقَوْلَ فِيهِمَا وَالْكَلَامَ
فِي التَّفْضِيلِ بَيْنَهُمَا ، فَقُلْتُ لِلْوَقْتِ :

يَا مَالِكَا لَمْ يَحْك سِيرَتَهُ مَا ضَ وَلَا آتٍ مِنَ الْبَشَرِ
أَجْمَعُ لَنَا تَقْدِيرَكَ أَنْفُسُنَا فِي اللَّيْلِ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

فَطَرِبَ ، وَأَمَرَ فِي الْحَالِ بِإِحْضَارِ الْغَائِبِ مِنْهُمَا^(٢) ، فَحَضَرُوا النَّوْمُ قَدْ زَادَ أَحْجَانَهُ تَفْتِيرًا ،
وَمَعَاظِفَهُ تَكْسِيرًا ، فَقُلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِدِيهَةٍ^(٣) فِي وَصْفِ الْمَجْلِسِ :

سَقَى الرَّحْمَنُ عَصْرًا قَدْ مَضَى إِلَى
وَلَيْلَا بَاتَتِ الْأَنْوَارُ فِيهِ
فَنُورٌ مِنْ شَمْعٍ أَوْ نَدَامَى
وَنُورٌ مِنْ سَقَاةٍ أَوْ مَدَامِ^(٤)
يَطُوفُ بِأَنْجَمِ الْكَاسَاتِ فِيهِ
سَقَاةٌ مِثْلُ أَقْمَارِ التَّمَامِ
تَرِيكَ بِهِ الْكُؤُسُ جَمُودَ مَاءٍ
فَتَحْسِبُ رَاحِمَهَا ذَوْبَ الصَّرَامِ
يُمِيلُ بِهِ غَضُونَا مِنْ قَدُودِ
غَنَاءٍ مِثْلُ أَصْوَاتِ الْحَمَامِ

(١) فِي ١ « وَلَمْ أَرِ إِزْعَاجَكَ » (٣) فِي ١ « بِاسْتِدْعَاءِ الْغَائِبِ مِنْهُمَا »

(٣) فِي ١ « بِدِيهَةٍ » (٤) فِي ١ « فَنُورٌ مِنْ شَعَاعٍ »

فكم من مَوْصِلٍ فيه يَشْدُو فينسى النفس عادية الحام^(١)
 وكم من زُلْزَلٍ للضرب فيه وكم للزمر فيه من زُنَامٍ
 لدى موسى بن أيوب المرجي إذا ماضن غيث بانسجام
 ومن كمظفر الدين المليك الأجل الأشرف الندب الهام
 فما شمس تقاس إلى نجوم تحاكي قدره بين السكرام
 فدام مُخْلِداً في الملك يبقى إذا ماضن دهر بالدوام
 فلما أشدتها قام فوضع فرجية من خاص ملابسه كانت عليه على كتفي ، ووضع
 شربوشه بيده على رأس مملوك صغير كان لي ، انتهى .

ولابن ظافر هذا بدائع : منها ما حكاه عن نفسه إذ قال : ومن أعجب ما دهيت
 به ورميت ، إلا أن الله بفضل نصر ، وأعطى الظفر ، وأعان خاطري السكيل ،
 حتى مضى مَضَاءُ السيف الصقيل ، أننى كنت في خدمة مولانا السلطان الملك
 العادل بالإسكندرية سنة إحدى وستائة مع من ضمته حاشية العسكر^(٢) المنصور من
 الكتّاب والخواشي والخدام ، ودخلت سنة اثنتين وستائة ونحن بالثغر مقيمون في
 الخدمة ، مرتضعون لأفويق النعمة ، فحضرت في جملة مَنْ حضر الهناء ، من الفقهاء
 بالثغر والعلماء ، والمشايخ والكبراء ، وجماعة الديوان والأمراء ، واتفق أن كان
 اليوم من أيام الجلوس لإمضاء الأحكام والعرض لطوائف الأجناد ، فلم يبق أحد
 من أهل البلد ولا من أهل المعسكر إلا حضر مهنيا ، ومثل شاكراً وداعيا ، فحين
 غصّ المجلس بأهله ، وشرق بجمع السلطان وحفله ، وخرج مولانا السلطان إلى
 مجلسه ، واستقرّ في دَسْتِهِ ، أخرج من بركة قبائنه كتابا ناوله للصاحب الأجل
 صفي الدين أبي محمد عبدالله بن علي وزير دولته ، وكبير جملته ، وهو مفضوض الاختتام ،

(١) الموصلي : أراد به إسحاق الوصلي وأباه إبراهيم نديما الرشيد

(٢) في ١ « حاشيتا المعسكر »

مفكوك الفِدام ، ففتحه فإذا فيه قطعة وردت من المولى الملك المعظم كتبها إليه
يتشوقه ويستعطفه لزيارته ، ويرققه ويستحبه على عود ركابه إلى بلاد الشام ،
للمشاغرة بها^(١) ، وقمّع عدوها ، ويعرض بذكر مصر وشدة حرها ، ووقد جهرها ،
وذلك بعد أن كان وصل إلى خدمته بالثغر ثم رجع إليها ، والأبيات :

أروى رماحك من نخور عداكا	وانهب بخيلك من أطاع سواكا
واركب خيولا كالثعالى شُرْبًا	واضرب بسيفك من يشق عصاكا
واجلب من الأبطال كل سَمِدَعٍ	يَقْرِى بعزمك كلَّ من يشناكا ^(٢)
واستعرف السمر الطوال وروها	واسقى المنية سيفك السفاكا
وسير الغداة إلى العداة مبادرا	بالضرب فى هام العدو درّاكا
وانكح رماحك للثغور فإنها	مشتاقة أن تبتنى بعلاكا
فالعرز فى نصب الخيام على العدا	تردى الطغاة وتدفع الملاك
والنصر مقرون بهمتك التى	قد أصبحت فوق السماك سماكا
فإذا عزمت وجدت من هو طائع	وإذا نهضت وجدت من يخشاك ^(٣)
والنصر فى الأعداء يوم كريمة	أحلى من الكأس الذى رَوّاكا
والعجز أن تضحى بمصر راها	وتحلّ فى تلك العراض عراقا
فأرح حشاشتك الكريمة من لظى	مصر لى نخطفى الغداة بذاك
فلقد غدا قلبى عليك بحرقه	شغفا ولا حر البلاد هناكا
وانهض إلى راجى لقاءك مسارعا	فمنّا من كل الأمور لقاكا ^(٤)
وابرد فؤاد المستهام بنظرة	وأعد عليه العيش من رؤياكا
واشف الغداة غليل صبّ هائم	أضحى مناه من الحياة مناكا ^(٥)

(١) فى ب « للمشاغرة بها »

(٢) فى ا « يغرى بعزمك » محرفا

(٣) فى ا « وجدت من هو ضائع »

(٤) فى ا « فمناى من كل الأمور »

(٥) فى ب « غليل صب هائم » بالعين المهملة

فسعادنى بالعدل الملك الذى ملك الملوك وقارن الأفلاك
فبقيت لى يا مالكى فى غبطة وجُعِلْتُ من كل الأمور فِدَاكَ

فلما تلا الصاحبُ على الحاضرين محكم آياتها ، وجَلَّأَ منها العروس التى حازت
من المحاسن أبعد غاياتها ، أخذ الناسُ فى الاستحسان لغريب نظامها ، وتَنَاسَقَ
التثامها ، والثناء على الخاطر الذى نظم [بديع] أبياتها ، وأطلع من مشرق فكره
آياتها ، فقال السلطان : نريد مَنْ يَجِيبُه عنا بأبيات على قافيتها ، فالتفت مسرعاً إلى
وأنا عن يمينه ، وقال : يامولانا مملوكك فلان هو فارس هذا الميدان ، والمعتاد للتخلص
من مضايق^(١) هذا الشأن ، ثم قطع وصلا^(٢) من درج كان بين يديه ، وألقاه إلى ، وعمد
إلى دواته فأدارها بين يدي ، فقال له السلطان : أهكذا على مثل هذا الحال ؟ وفى
مثل هذا الوقت ؟ فقال : نعم ، أنا [قد] جربتته فوجدته مُتَّقِد الخاطر ، حاضر الذهن ،
سريع إجابة الفكر ، فقال السلطان : وعلى كل حال قُمْ إلى هنا لتكشف عنك
أبصار الناظرين ، وتنقطع عنك ضوضاء الحاضرين ، وأشار إلى مكان عن
يمين البيت الخشب الذى هو بالجلوس فيه منفرد ، فقامتُ وقد فقدت رجلى
التخاذلا ، وذهنى اختلالا ، لهيبة المجلس فى صَدْرى ، وكثرة من حضره من
المتقربين لى ، المنتظرين حلول فاقرة الشامة بى^(٣) ، فهاهو إلا أن جلست حتى ثاب
إلى خاطرى ، وانشال الكلام على سرائرى ، فكنت أتوهم أن فكرى كاللبازى
الصيود لا يرى كلمة إلا أنشب فيها منسره ، ولا معنى إلا شك فيه ظُفْرُهُ ، فقلت
فى أسرع وقت :

وَصَلَّتْ من الملك المعظم تحفة ملأت بفاخر درها الأسلاك
أبيات شعر كالنجوم جلالة فلذا حكى أوراقها الأفلاك

(١) فى ب « للتخلص فى مضايق » (٢) فى ا « قطع وصلين »

(٣) الفاقرة : الداهية التى تكسر فقار الظهر ، ووقع فى ب « فاقرة » محرفا

عجباً وقد جاءت كمثل الروض إذ لم تَدُوها بالحرّ نارُ ذَكَكَ
 جلت الهموم عن الفؤاد كمثل ما تجلو بغرّة وجهك الأحلاكا
 كقميص يوسف إذ شفت يعقوب رِيَّاهُ شفتني مثله رياكا
 قد أعجزت شعراء هذا العصر كلهم فلم لا تعجز الأملاكا
 ما كان هذا الفضل يمكن مثله أن يحتويه من الأنام سواكا
 لم لا أغيب عن الشّام وهل له من حاجة عندي وأنت هناكا
 أم كيف أخشى والبلاد جميعها تحمية في جاه طعن قنّاكا
 يكفى الأعادى حر بأسك فيهم أضعاف ما يكفى الوليّ نداكا
 ما زرت مصر لغير ضبط ثغورها فلذا صبرت فديت عن رؤياكا
 أم البلاد علّا عليها قدرها لاسيما مذ شرفت بخطاكا
 طابت وحق لها ولم لا وهى قد حوت المعلى في القداح أخواكا
 أنا كالسحاب أزور أرضا ساقيا حيناً وأمنح غيرها سقياكا
 مكثى جهاد للعدوّ لأننى أغزوه بالرأى السديد درّاكا
 لولا الرباط وغيره لقصدت بالسير الخيث إليك نيل رضاكا
 ولئن أتيت إلى الشّام فإنما يحتشني شوق إلى لقياكا
 إني لأمنحك المحبة جاهداً وهوأى فيما تشتهيه هواكا
 فالخرف قد أصبحت بى وبأسك السحامى وكل مملكٍ يخشاكا
 لازلت تقهر من يعادى ملكنا أبداً، ومن عاداك كان فداكا
 وأعيش أبصر ابنك الباقي أباً وتعيش تخدم فى السعود أبأكا

ثم عدت إلى مكاني وقد بيضتها ، وحليت بزهرها ساحة القرطاس وروّضتها ،
 فلما رآنى السلطانُ قد عدت قال لى : هل عملت شيئاً^(١) ؟ ظنّامنه أن العمل فى تلك

اللحمة القرية معجز متعذر ، و بلوغ الغرض فيها غير متصور ، فقلت : قد أجبت ، فقال : أنشدنا^(١) ، فصمت الناس ، وحدقت الأبصار ، وأصاحت الأسماع ، وظنّ الناسُ بنى الظنون ، وترقبوا منى ما يكون ، فما هو إلا أن توالى الإنشاد لأبياتها حتى صفقت الأيدي إعجابا ، وتعامزت الأعين استغرابا ، وحين انتهيت إلى ذكر مولانا الملك الكامل ، بأنه المعلى في البنين إذا ضربت قداحهم^(٢) ، وسردت أمداحهم ، اغرورقت عيناه دما لذكره ، وأبان صمته مخفى الحبة حتى أعلن بسرّه ، وحين انتهيت إلى آخرها فاض دمعهُ ، ولم يمكنه دفعه ، فمدّ يده مستدعيا للورقة ، فناولتها إلى يد صاحب ، فناولها له ، وعند حصولها في يده قام من غير إشعار لأحد بما دار من إرادة القيام في خَلده ، سترًا لما ظهر عليه من الرقة على الموالى الأولاد ، وكما لما عليه من الوجد بهم والمحبة لهم ، وانفض المجلس .

وإنما حمل صاحب على هذا الفعل الذي غرر بي [فيه] وخاطر بي بالتعريض له أشياء كان يقترحها [على] فأنفذ فيها من بين يديه ، ويخف الأمر منها على لدائي عليه ، منها أنني كنت في خدمته سنة ٥٩٩ بدمشق ، فورد عليه كتاب من الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حمّة ، وقد بعث صحبته نسخة [من ديوان شعره]^(٣) فتشاغل بتسويد جواب كتابه ، فلما كتب بعضه التفت إلى وقال : اصنع أبياتا أكتبها إليه في صدرّ الجواب ، وأذكر فيها شعره ، فقلت له : على مثل هذه الحال ؟ فقال : نعم ، فقلت بقدر ما أنجز بقية النسخة :

أياملكا قد أوسع الناس نائلا وأغرقهم بذلا وعمهم عدلا
فدينك هب للناس فضلا يزيهم فقد حزت دون الناس كلهم فضلا

(١) في ١ « فقال أنشد »

(٢) في ١ « إذا ضربت أقداحهم »

(٣) زيادة في ب وحدها

ودونك فامنحهم من العلم والحجا كما مَنَحْتَهُمْ كَفَّكَ الجود والبذلا
 إِذَا حُزَّتْ أَوْ فِي الْفَضْلِ عَفَوا فَمَا الَّذِي تركت لمن كان القريض له شغلا
 وماذا عسى مَنْ ظَلَّ بالشعر قاصدا لِبَابِكَ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ جَلًّا أَوْ قَلَّا
 فلا زلت في عز يدوم ورفعة تحوز ثناء يملأ الوعر والسهلا
 ووقع لابن ظافر أيضا من هذا النمط أنه دخل في أصحاب له يَعُودُونَ صاحباً لهم ،
 وبين يديه بركة [قد] راق مأوها ، وصَحَّتْ سَمَاوُهَا ، وقد رُصَّ تحت دساتيرها نارنج
 فتن قلوب الحُضَار ، وملاً بالحاسن عيون النظار ، فكأنما رفعت صوالج فضة على
 كرات من النضار ، فأشار الحاضرون إلى وصفها ، فقال بديها :

أبدعت يا ابن هلال في فسقية جاءت محاسنها بما لم يعهد
 عجبا لأمواء الدساتير التي فاضت على نارنجها المتوقد
 فكأنهنَّ صوالج من فضة رفعت لضرب كرات خالص عسجد

ومن بديع الارتجال ما حكاه المذكور عن ابن قلاقس الإسكندري رحمه الله تعالى
 إذ قال : دخل الأعز أبو الفتوح بن قلاقس على بلال بن مدافع بن بلال الفزاري ،
 فعرض عليه سيفاً قد نظم الفِرْنْدُ في صفحته جوهره ، وأذكى الدهر ناره وجمد
 نهره ، وألبسه من سِلْخِ الأفاعي رِداءً وجسمه رَدَى ، لا يمنع من برقه بدر مجن
 ولا ثرياً مغفر ، ولا يسلم من حدّه من ثبت ولا ينجو لطوله من فر ، فهو يبكي للنفق
 ويضحك ، ويرْعِدُ للغیظ ويفتك ، وأمره بصفة شانه ، فقال على لسانه :
 أروق كما أروع فإن تصفني فإني رائق الصفحات رائع^(١)
 تدافع بي خطوط الدهر حتى نقلت إلى بلال عن مدافع
 وقال أيضا فيه :

(١) في « أروق كما أروع وإن تصفني » وأروع : أخيف

رب يوم له من النَّعَمِ سحب
مالها غير سائل الدم وَدَقُ^(١)
قد جَلَّتْهُ يَمْنَى بِلالَ بِحَدَى
فكأنى في راحة الشمس بَرَقُ

وقال أيضا فيه :

أنافى الكريهة كالشَّهاب الساطع
من صفحة تبدو وحدَّ قاطع
فكأنما استملت تلك وهذه
من وصف كف بلال بن مدافع^(٢)

وقال أيضا فيه :

انظر لِمُطَرِّدِ المياه بصفحتي
ولنار حَدَى كم بها من صالى
قد عاد شدَى في المضائق شيمتى
كبلال بن مدافع بن بلال
وسأله صاحب له وَصَفَ مشط عاج قد أشبهه الثريا شكلا ولونا ، وشق ليلا من
الشعر حَوْنَا ، فقال :

ومتيم بالآبنوس وجسمه
عاج ومن أدهانه شرفاته
كتمت دِيَا جِى الشعر منه بدرها
فوشت به للعين عِيُوقَاتَه

وقال فيه :

وأبيض ليل الآبنوس إذا سرى
تمزق عن صُبْحٍ من العاج باهر
وإن غاص في بحر الشعور رأيتَه
تُبَشِّرُنَا أطرافه بالجواهر

وقال فيه :

ومشرق يشبه ضوء الضحى
حسنا ويسرى في الدجى الفاحم^(٣)
وكما قلب في لَمعة
أضحكها عن ثغره الباسم
وجلس بمصر في دار الأتماط يوما مع جماعة ، فمرت بهم امرأة تعرف بابنة أمين
الملك ، وهى شمس تحت سَحَابِ النَّقَاب ، وغصن في أوراق الشباب ، فخذقوا

(١) في ١ « ماله غير فائر الدم ودق »

(٢) في ١ « فكأنما استمكت ذاك وهذه » محرفا

(٣) في ١ « ومشرق يشبه لون الضحى »

إليها تحديق الرقيب إلى الحبيب ، والمريض إلى الطيب ، فجعلت تتلفت تَلَفَّتَ
الظبي المذعور ، أفرقه القانصُ فهرب^(١) ، وتثنى تَثْنَى الغصن الممطور عانقه النسيم
فاضطرب ، فسألوه العمل في وصفها ، فقال : هذا يصلح أن يعكس فيه قول العطار
الأزدي القيرواني :

أعرض لما أن عرض ، فإن يكن حذرا فأين تلتفت الغزلان
ثم صنع :

لها ناظر في ذرا ناضر كما ركب السن فوق القناة
لوت حين ولت لنا جيدها فأى حياة بدت من وفاة
كما دُعِرَ الظبي من قانص فمر وكرر في الالتفات

ثم صنع أيضا :

ولطيفة الألفاظ لكن قلبها لم أشك منه لَوْعَةً إِلَّا عَتَا
كملت محاسنها فودَّ البدر أن يحظى ببعض صفاتها أُوَيْعَتَا
قد قلت لما أعرضت وتعرضت يا مؤيسا يا مطمعا قل لى متى
قالت أنا الظبي الغرير وإنما ولى وأوجس نبوة فتلفتا

قال علي بن ظافر : وحضر يوما عند بنى خليف بظاهر الإسكندرية في قصر رسا
بناؤه وسما ، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما ، قد ارتدى جلايب السحاب ،
ولاث عمام الغمام ، وابتسمت ثنايا شرقاته ، واتسمت بالحسن حنايا غرفاته ،
وأشرف على سائر نواحي الدنيا وأقطارها ، وحبته الرياض بما ائتمنتها عليه
السحب من ودائع أمطارها^(٢) ، والرمل بغنائه قد نثر تبره في زبرجد كرومه^(٣) ، والجو
قد بعث بذخائر الطيب لطيمة نسيمه ، والنخل قد أظهرت جواهرها ، ونشرت

(١) أفرقه : أخافه ، والقانص : الصياد

(٢) في ١ « وجبته السحب بما ائتمنت الرياض عليه من ودائع أمطارها »

(٣) في ١ « نثر تبره وزبرجد كرومه »

غداثرها ، والطلّ ينثر لؤلؤه في مسارب النسيم ومساحبه ، والبحر يردد غيظا من عبث الرياح به ، فسأله بعضُ الحضور أن يصف ذلك الموضع الذي تمت محاسنه ، وغبط به ساكنه ، فجاشت لذلك لججُ بحره ، وألقت إليه جواهره لترصيع لَبّة ذلك القصر ونَحْرِهِ ، فقال :

قصر بمَدْرَجَةِ النسيم تحدثت	فيه الرياض بسرّها المستور
خَفَضَ الخورُ نَقْ والسَّديرُ سَمَوَهُ	وثني قصور الروم ذات قُصُورٍ ^(١)
لا ث الغمام عمامة مِسْكِيَّة	وأقام في أرض من الكافور
غنى الربيع به محاسن وصفه	فافتَرَّ عن نَوْرِ يروق ونُورٍ
فالدَّوْحُ يسحب حلة من سندس	تَرْهَى بلؤلؤ طلها المنشور
والنخل كالغيدِ الحسان تقرطت	بسبائك المنظوم والمنشور
والرمل في حُبكِ النسيم كأنما	أبدى غصون سواف المذعور
والبحر يردد متنه فكأنه	دِرْعٌ تشنُّ بمعطى مقررور
وكأننا والقصر يجمع شملنا	في الأفق بين كواكب وبدور
وكذاك دهر بنى خليف لم يزل	يثنى المعاطف في حَبِيرِ حُبُورٍ

ثم قال ابن ظافر : وأخبرني الفقيه أبو الحسن علي بن الطوسي المعروف بابن السيوري الإسكندري النحوي بما هذا معناه ، قال : كنت مع الأعز بن قلاّيس في جماعة ، فر بنا أبو الفضائل بن فتوح المعروف بالمصرى ، وهوراجع من المكتب ، ومعه دواته ، وهو في تلك الأيام قرّة العين ظرفا وجمالا ، وزاحة القلب قرّباً ووصالا ، كل عين إلى وجهه مُحَدِّقَةٌ ، ولمشهد خديه بَحَلُوقُ الخجل مُحَلِّقَةٌ ، فاقترحنا عليه أن يتغزل فيه ، فصنع بديها :

(١) قصور الروم : جمع قصر ، وذات قصور : أى تقصير عنه

علقتـه متعلقا بانخط معتكفا عليه
 حمل الدواة ولا دوا لعاشق يُرَجَى لديه
 فدماء حبات القلوب تلوح صَبْغاً في يديه
 لم أدر ما أشكو إليه أهجره أم مُقْلَتِيه
 والحب يخرسني على أنى السَّكْعِ سيبويه
 مالى إذا أبصرته شُغْلُ سَوَى نظرى إليه

عود إلى كلام وقد آن وقت الرجعة إلى كلام الأندلسيين الذى حلا ، وأبعدنا عنه بما مر النجعة
 أهل الأندلس فنقول :

ذكر الفتح في قلائد العقيان ، كما قال ابن ظافر ، ما معناه : أخبرنى الوزير
 أبو عامر بن يشتغير^(١) أنه حضر مجلس القائد أبى عيسى بن لبُّون في يوم سَفَرَتْ فيه
 أوجهُ المسرات ، ونامت عنه أعين المضرات ، وأظهرت سقائه غصونا تحمل بدورا ،
 وتطوف من المدام بنار ما زَجَتْ من الماء نورا ، وشموس الكاسات تطلع
 فى أ كنفها كالورد فى السوسان ، وتغرُبُ بين أقاحى نجوم الثغور^(٢) فتذبل نرجس
 الأجفان ، وعنده الوزير أبو الحسن بن الحاج اللورق ، وهو يومئذ قد بذل الجهد ،
 فى التحلى بالزهد ، فأمر القائد بعض السقاة أن يعرض عليه ذهب كاسه ، ويحييه
 بزبرجد آسره ، ويغازله بطرفه ، ويميل عليه بعطفه ، ففعل ذلك عَجِلاً ، فأنشد
 أبو الحسن مرتجلاً :

ومنهف مَزَجَ القُتُورَ بشدة وأقام بين تبذُّل وتمنع
 يَثْنِيهِ من فعل المدامة والضبا سكرانٍ سكرُ طبيعة وتطبع

(١) فى ب ونسخة عندا « يشتغير »

(٢) فى ا « نجوم الثغر فتذبل نرجس الأجفان » وفيه تحريف شنيع

أوماً إلى بكأسه فكففتها وَرَنَّا فشفَّعها بلحظ مُطْمَعٍ^(١)
والله لولا أن يقال هوى الهوى منه بفضل عزيمة وتورع
لأخذت في تلك السبيل بما أخذى فيما مضى ونزعت فيها منزعى
وحكى الحميدى أن عبد الملك بن إدريس الجزيرى كان ليلة بين يدى الحاجب
ابن أبى عامر والقمرُ يبدو تارة ، ويخفيه السحاب تارة ، فقال بديها :
أرى بدر السماء يلوح حيناً فيبدو ثم يلتحف السحابا
وذاك لأنه لما تَبَدَّى وأبصر وَجْهَكَ استحيا فغابا
مقالٌ لو نمنى غنى إليه لراجعنى بتصديق جوابا
وكان صاعد اللغوى صاحب كتاب « القصوص » - وقد تكرر ذكره في هذا
الكتاب - كثيراً ما يمدح بلاد العراق بمجلس المنصور بن أبى عامر ، ويصفها ،
ويقْرَظُها فكتب الوزير أبو مروان عبدُ الملك بن شهيدُ والدُ الوزير أبى عامر
أحمد بن شهيدُ صاحب الغرائب ، وقد تقدم بعض كلامه قريباً ، إلى المنصور في
يوم بَرَد - وكان أخصَّ وزرائه به - بهذه الأبيات :

أما ترى برد يومنا هذا صيرنا للكمونِ أفذاذا
قد فُطِرَتْ صحة الكبود به حتى لكادت تعود أفلاذا
فادع بنا للشَّمول مضطلياً تغد سيراً إليك إغذاذا
وادعُ المسمى بها وصاحبه تدع نبيلاً وتدعُ أستاذَا
ولا تبالي أبا العلاء زها بخمر قُطْرُبٍ وكلواذا
مادام من أرملاط مشربنا دع دير عى وطير ناباذا
وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالحرم ، فأمر بإحضار مَنْ جرى
رِسْمُهُ من الوزراء والندماء ، وأحضر ابن شهيد في محفة لنقرس كان يعتاده ،

(١) أوما : أشار ، وأصله أوماً بالهمز فقلها ألفاً

وأخذوا في شأنهم ، فرلهم يوم لم يشهدوا مثله ، ووقت لم يعهدوا نظيره ، وطما الطربُ وسما بهم ، حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا يرقصون بالنوبة ، حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد ، فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عباس ، فجعل يرقص وهو متوكئ عليه ، ويرتجل ويومئ إلى المنصور ، وقد غلب عليه السكر^(١) :

هاك شيخاً قاده عُذْرُ لكا قام في رقصته مستهلكا
لم يُطِيقْ يرقصها مستشبتاً فأنشئ يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفرداً نقرسٌ أخنى عليه فاتكا
من وزير فيهم رقاصة قام للسكر يناغى ملكا
أنا لو كنتُ كما تعرفنى قت إجلالاً على رأسى لكا
قهقهة الإبريق منى ضاحكا ورأى رِغْشَةَ رجلٍ قَبَكى

قال ابن ظافر : وهذه قطعة مطبوعة ، وطرفها الأخير واسطتها ، وكان حاضرهم ذلك اليوم رجلٌ بغدادى يعرف بالفكيك^(٢) ، حسن النادرة سريعها ، وكان ابن شهيد استحضره إلى المنصور فاستطبعه ، فلما رأى ابن شهيد يرقص قائماً مع ألم المرض الذى كان يمنعه من الحركة قال : لله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة ، وتصلى بالقاعدة ، فضحك المنصور ، وأمر لابن شهيد بمال جزيل ، ولسائر الجماعة ، وللبغدادى .

وقال ابن بسام : حدث أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر بن عثمان المصنفى قال : دخلت يوماً على أبى عامر بن شهيد ، وقد ابتدأت علته التى مات بها ، فأنسب بى ، وجرى الحديث إلى أن شكوت له تبجى بعض أصحابى على ، ونفاره عنى ، فقال لى : سأسعى فى إصلاح ذات البين ، فخرجت عنه ، واتفق لقائى لذلك المتبجى على مع بعض أصحابى^(٣) وأعزهم على ، فلما رآنى ذلك الصديق مؤلياً

(١) فى ١ « وقد غلبه السكر » (٢) انظر (ص ١١٤ من هذا الجزء)

(٣) فى ١ « مع بعض إخوانى »

عنه أنكر عليه ، وسأله عن السبب الموجب ، فأخبره ، وزادا في مشيهما حتى لحقنا بي ، وعزم على في مكاملة صاحبي ، وتعاتبنا عتابا أرق من الهوى^(١) ، وأشهى من الماء على الظماء ، حتى جئنا دار أبي عامر ، فلما رأنا جميعاً ضحك وقال : مَنْ كان الذي تولى إصلاح ما كنا سُررنا بفساده ؟ قلنا : قد كان ما كان ، فأطرق قليلاً ثم أنشد :

مَنْ لَا أَسْمَى وَلَا أَبُوحَ بِهِ أَصْلَحَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَهْوَى
أُرْسَلْتُ مَنْ كَابَدَ الْهَوَى فَدَرَى كَيْفَ يَدَاوِي مَوَاقِعَ الْبَلْوَى
وَلِي حَقُوقٌ فِي الْحُبِّ ثَابِتَةٌ لَكِنَّ الْإِنِّي يَعِدُّهَا دَعْوَى

وقد ذكرنا في هذا الكتاب من غرائب أبي عامر بن شهيد في مواضع متفرقة الغرائب ، وقدمنا في الباب الرابع حكايته مع المرأة الداخلة في رمضان لجامع قرطبة وحكيها [ها] هناك بلفظ « المطمح » فلترجع .

وعبر ابن ظافر عن معناها بقوله : إن أبا عامر كان مع جماعة من أصحابه بجامع قرطبة في ليلة السابع والعشرين [من رمضان] ، فمرت امرأة به من بنات أجلاء قرطبة ، قد كملت حسناً وظرفاً ، ومعها طفل يتبعها كالظبية تستتبع خشفاً ، وقد حفت بها الجوارى ، كالبدرد حُف بالدرارى ، فحين رأت تلك الجماعة ، المعروفة بالخلاعة ، وقد رمقوا ذلك الظبي بعيون أسود رأت فريسة^(٢) ، ارتاعت وتخوفت أن تخطف [منها] تلك الدرة النفيسة ، فاستدنت إليها خشفها ، وألزمته عطفها ، فارتجل ابن شهيد قائلاً :

* وناظرة تحت طي القناع إلخ *

ومرت في الباب الرابع هذه الآيات .

(١) كذا في ١ ، وفي ب « أرق من الهوى ... الظما »

(٢) في ١ « بعيون الأسود رأت الفريسة »

وقال الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي : لما نعت أبا عامر بن شهيد إل أبي عبد الله [بن] الخياط الشاعر ، وكان قد عرف ما بينهما من المنافسة ، فبكي وأنشدني لنفسه بديهة :

لما نعى الناعى أبا عامرٍ أيقننتُ أنى لست بالصابر
أودى فتى الظرف وتربُّ الندى وسيد الأول والآخر

وقال ابن بسام : اصطبح المعتصم بن صُمّاح يوماً مع ندمائه ، فأبرز لهم وصيفة مهدوية متصرفة فى أنواع اللعب المطرب من الدك ، وحضر أيضاً هناك لاعب مصرى ساحر فكان لعبه حسناً ، فارتجل أبو عبد الله بن الحداد :

كذا فلتلحُ قرأ زاهرا وتجنّى الهوى ناظراً ناضرا
وسيبك سيب ندى مُغْدِق أقام لنا هاميا هاما
وإن ليومك ذا رُونَقاً منيرا كنور الضحى باهراً^(١)
صباح اصطباح بإسْفاره لحظنا مُحِيّاً العلا سافرا
وأطلعت فيه نجوم الكؤوس فما زال كوكبها زاهرا
وأسمعنا لاحقاً فاتنا وأحضرتنا لاعبا ساحرا^(٢)
يرفرف فوق رؤس القيان فننظر ما يُذهِلُ الناظرا
ويحفظها ذيلُ سِرْباله فننظر طالعيها غائرا
فظاهرها ينثنى باطنا وباطنها ينثنى ظاهرا
وثَنَاهُ ثابراً لألعا به دقائق ثنى الحجا حائرا
وفى سَوْرَةِ الراح من سحره خواطر دَلَّمت الخاطرا
إذا وَرَدَ اللحظ أنشاءها فما الوهم عن وردها صادرا

(١) فى « منيرا لنور الضحى باهراً » وليس بشيء ، بل هو غث

(٢) فى « وأسمعنا لاعبا فاتنا » وما أثبتناه موافقا لما فى ب أدق

ومن حسن دهرك إبداعه فما أنفك عارضها ماطرا
وسعدك يحتلب المغربات فيجعل غائبها حاضرا
قال : وحضر الأديب أحمد بن الشقاق عند القائد ابن دري^(١) بجيان ، هو
وأبوزيد ابن مقاناً الأشبوني ، فأحضر لهما^(٢) عنبا أسود مغطى بورق أخضر ،
فارتجل ابن الشقاق :

عنب تطلع من حشى ورق لنا صيغت غلائل جلد به بالإمد^(٣)
فكأنه من بينهن كواكب كسفت فلاحته في سماء زبرجد

قال : وحضر ابن مرزقان ليلة عند ذى النون بن خلدون ، وبحضرته وصيفة
تحمل شمعة ، فاستحسنها ابن مرزقان ، فقال بديها :

يا شمعة تحملها أخرى كأنها شمس علت بدرا
امتحننت إحداكم مهنجتي بمثل ما تمتحن الأخرى

قال : دخل الأديب غانم يوماً على باديس صاحب غرناطة ، فوسع له على
ضيق كان في المجلس ، فقال بديها :

صير فؤادك للمحبوب منزلة سم الخياط مجال المحبين
ولا تسامح بغيصاً في معاشرة فقلما تسع الدنيا بغيصين

وأخذه من قول الخليل « ما تضايق سم الخياط بمتحابين ، ولا اتسعت الدنيا
لمتباغضين »^(٤) .

وكان الخليل على «نمرقة صغيرة» ، والمجلس متضايق ، فدخل عليه بعض
أصحابه ، فرحب به وأجلسه معه على النمرقة ، فقال له الرجل : إنها لا تسعنا ،
فقال ما ذكر .

(١) في ب « القائد ابن دريد » (٢) في ا « فأحضرها »

(٣) في ا « عنب تطلع من حشى ورق له » (٤) في ا « بمتباغضين »

وقال ابن بسام أيضا : أمر الحاجب المنذر بن يحيى التَّجِيبِي صاحبُ سَرْقُطَةَ
بعرض بعض الجند في بعض الأيام ، ورئيسُهم مملوك له روى يقال له خيار في
نهاية الجمال ، فجعل ينفخ في القرن ليجتمع أصحابه على عادة لهم في ذلك ، فقال ابن
هند الداني فيه ارتجالا :

أَعْنُ بَابِلَ أَجْفَانُ عَيْنِكَ تَنْفُثُ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أَنْتَ لِلْعَهْدِ تَنْكُثُ

أَفَى الْحَقِّ أَنْ تَحْكِي سَرَافِيلَ نَاخِثَا وَأَمْكُثُ فِي رَمْسِ الصَّدُودِ وَأَلْبَثُ

عَسَاكَ ، نَبِيَّ الْحَسَنِ ، تَأْتِي بَايَةَ فَتَنْفُخُ فِي مِيتِ الصَّدُودِ فَيَبْغُثُ

قال : وكان بقرطبة غلام وسيم ، فر عليه ابن فرج الجياني ، ومعه صاحب له ،
فقال صاحبه : إنه لصبيح لولا صفرة فيه ، فقال ابن فرج ارتجالا :

قَالُوا : بِهِ صُفْرَةٌ عَابَتْ مُحَاسِنَهُ فَقُلْتُ : مَا ذَاكَ مِنْ عَيْبٍ بِهِ نَزَلَا

عَيْنَاهُ تَطْلُبُ فِي أَوْتَارٍ مِنْ قَتَلَتْ فَلَسْتُ تَلْقَاهُ إِلَّا خَائِفًا وَجَلَا

قال : وكان يوما مع مُلَّةٍ من أهل الأدب في مجلس أنس ، فاحتاج رب المنزل إلى
دينار ، فوجَّه إلى السوق ، فدخل به عليهم غلام من الصيارف في نهاية الجمال ،
فرمى بالدينار إليهم من فيه تماجنًا ، فقال ابن فرج :

أَبْصَرْتُ دِينَارًا بِكَفِّ مَهْفَفٍ يُزْهَى بِهِ مِنْ كَثْرَةِ الْإِعْجَابِ

أَوَّمَا بِهِ مِنْ فِيهِ ثُمَّ رَمَى بِهِ فَكَأَنَّهُ بَدْرٌ رَمَى بِشَهَابٍ^(١)

قال : وخرج الأديب أبو الحسن بن حصن الإشبيلي إلى وادي قُرْطُبة في
نزهة ، فتذكر إشبيلية ، فقال بديها :

ذَكَرْتُكَ يَا حُصْنُ ذَكَرْتِي هَوَى أَمَاتَ الْحَسُودَ وَتَعْنَيْتَهُ^(٢)

كَأَنَّكَ وَالشَّمْسُ عِنْدَ الْغُرُوبِ عُرُوسٌ مِنَ الْحَسَنِ مَنْحُوتَةٌ

(١) أوما : أشار ، وأصله أوما - بالهمز -

(٢) حصص : اسم لإشبيلية ، سماها به الذين دخلوها أيام الفتح ، لأنهم كانوا
من أهل حصص .

غدا النهر عقدك والطود تاجك والشمس أعلاه ياقوته انتهى
وعبر بعضهم، وهو صاحب «بدائع البداهة»^(١) عن بعض حكايات صاحب القلائد
بما يقار بها في المعنى ، فقال : إن المستعين بن هود ملك سرقسطة والثغور ركب
نهر سرقسطة يوما لتفقد بعض معاقله ، المنتظمة بجيد ساحله ، وهو نهر رق ماؤه
وراق ، وأزرى^(٢) على نيل مصر ودجلة العراق ، قد اكتنفته البساتين من جانبيه ،
وألقت ظلها عليه ، فما تكاد عين الشمس أن تنظر إليه ، هذا على اتساع
عرضه ، و بعد سطح مائه من أرضه ، وقد توسط زووقه زوارق حاشيته توسط البدر
للهمالة ، وأحاطت به إحاطة الطفاوة بالغزالة^(٣) ، وقد أعدوا من مكاييد الصيد
ما استخرج ذخائر الماء ، وأخاف حتى حوت السماء ، وأهالة الهالات^(٤) طالعة من
الموج في سحاب ، وقانصة من بنات الماء^(٥) كل طائفة كاشهاب ، فلا ترى إلا
صيوذاً كقصد الصوارم^(٦) ، وقدود اللهازم ، ومعاصم الأبقار النواعم ، فقال الوزير
أبو الفضل بن حسداى والطرب استهواه ، وبديع ذلك المراءى قد استرق هواه :

لله يوم أنيق واضح العرر مفضض مذهب الأصال والبكر
كانما الدهر لما ساء أعتبنا فيه بعنبي فأبدى صفح معتذر
نسير في زورق حف السرور به من جانبيه بمنظوم ومنقثر
مد الشراع به قدأ على ملك بد الأوائل في أيامه الآخر
هو الإمام الهام المستعين حوى علياء مؤتمن في هذى مقتدر
تحوى السفينة منه آية عجبا بحر تجمع حتى صار في نهر
تثار من قعره النينان مضعدة صيدا كما ظفر الغواص بالدرر

(١) في « بدائع البداية » محرفا (٢) في « وزرى على نيل مصر »

(٣) الغزالة : الشمس ، والطفاوة - بضم الطاء - دارتها

(٤) في « وأهالة الأهلات » (٥) في « نبات الماء » محرفا

(٦) في ب « صيودا كصيد الصوارم »

وللندامى به عَبٌّ ومرشَفٌ كالريق يعذب في وِرْدٍ وفي صَدَرٍ
والشَّرْبُ في وُدْمولى خُلِقَه زَهَرٌ يذكو وبهيجته أبهى من القمر
ثم قال ما معناه : وقوله « نينان » غير معروف ، فإن نونا لم ينجى ^(١) جمعها على نينان .
وقد كان سيبويه لحن بشار بن برد في قوله في صفة السفينة :

تلاعبُ نينانُ البحور وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجري
فغيره بشار بـ « تيار البحور » وقد قال أبو الطيب يصف خيلاً :

فهنَّ مع السَّيِّدان في البر غُسْلٌ وهنَّ مع النينان في البحر غُومٌ
والمستعين بن هود هو أحمد بن المؤتمن على أمر الله يوسف بن المقتدر بالله أحمد
ابن المستضى بالله سليمان بن هود ، الجُدَامى ، رحم الله تعالى الجميع ! .

وعبر المذكور عن قضية ابن وهبُون في هلال شوال بما نصه : خرج ابن وهبُون
يوماً لنظر هلال شوال ، وأبو بكر بن القَبْطُرُنة الوزير يسايره ، وهو يومئذ غلام
يُحْجَلُ البدر ، ويدوى الغُصْنُ النَّضْرُ ، وصفحته لم يسطرها العِدَارُ بأنقاسه ، ووردة
خذه لم يسترها الشَّعر بآسه ، فارتجل عبد الجليل :

يا هلالُ اسْتَتِرْ بوجهك عني إن مولاك قابضٌ بشمالى

هَبْكَ تحكى سنانه خدّاً بخدّ قم فحُثْنى لَقْدَه بمثال ^(٢)

وقد ذكرنا هذه الحكاية في غير هذا الموضع بلفظ الفتح في « القلائد » ولسكنّا
أعدناها هنا لتعبير صاحب « البدائع » عنها محاكياً لطريقته .

وذكر ابن بَسَّام أن الوزير أبا عبد الله بن أبى الخصال وقف بباب بعض
القضاة ، واستأذن عليه ، فحجب عنه ، فكيف إليه بديهاً :

جئناك للحاجة الممطول صاحبها وأنت تَنعُمُ والإخوانُ في بُوسِ

وقد وقفنا طويلاً عند بابكم ثم انصرفنا على رأى ابن عبدوسِ

(١) في ١ « فإن نونا لم يجمع عليه »

(٢) في ب « قم فحُثْنى لحدّه بمثال » ولا معنى له بعد ما ذكر في صدره

أشار به إلى قول الوزير أبي عامر بن عبدوس :

لنا قاضٍ له خُلُقٌ أَقْلٌ ذَمِيمُهُ النَّزَقُ

إذا جئناه يُحِبُّنا فنلْعنه ونفترق

وهو تمليح مليح ، سامح الله تعالى الجميع ! .

وقال أبو جعفر الكاتب القرطبي الرضي :

وأبى المدامة ما أريد بشر بها صَلَفَ الرقيع ولا انهماكُ اللاهى

لم يبق من عصر الشباب وطيبه شىء كمهدي لم يَحُلْ إلا هى

إن كنتُ أشربها لغير وفائها فتركتها للناس لا لله

وبعضهم ينسبها لأبى القاسم عامر بن هشام ، والصواب كما قال ابن الأبار الأول

وقال أبو جعفر المذكور في فؤارة رخام كَلَفَهُ وَضَفَّها وَالِى قرطبة :

ما شَغَلَ الطَّرْفَ مثل فائِرة تَمِجَ صِرْفَ الحِياةِ مِنْ فيها

اشرب بها والحبَّابُ في جَدَلٍ يَظْهَرُ حَسَنُها وَيُخْفِىها^(١)

تَكَادُ مِنْ رَقَةٍ تَضُمُّها تَخْطُبُها العَيْنُ إِذْ تَوافِىها

كَأَنَّها دُرَّةٌ مُنْعَمَةٌ زَهْرَاءُ قَدْ ذَابَ نَصْفُها فِيها

ومن شعره أيضا :

ضَحَكُ المَشِيبِ برأسه فَبكى بِأَعْيُنِ كاسِهِ

رَجُلٌ تَخَوَّنَهُ الزَّما نَ بِيؤُسِهِ وَبِياسِهِ

خَجَرى عَلَى غُلُوَّائِهِ طَلَّقَ الجَمُوحَ بِناسِهِ

أَخْذا بِأَوْفَرِ حَظِّهِ لَرَجائِهِ مِنْ ياسِهِ

وقال أحد بني القبطرنة الوزراء :

(١) في ١ « يَظْهَرُ حَسَنُها وَيُخْفِىها »

ذ كرتُ سليمى ونارُ الوغى بقلبى كساعة فارقتها
وأبصرت قدَّ القنا شبهها وقد ملنَّ نحوى فعانقتها
وهذا معنى بدیع ماأراه سبق به

وقال أبو الحسن بن الغليظ الملقى : قلت يوما للأديب أبي عبد الله بن السراج
الملقى ، ونحن على خرير^(١) ماء : أجز :
* شربنا على ماء كأن خريره *

فقال مبادرا :

* بُكَّاهُ محبَّ بان عنه حبيبُ *

فمن كان مشغوبا كئيبا يالقه فإني مشغوف به وكئيب
وكتب أبو بكر البَلَدَسي إلى الأديب أبي بحر صفوان بن إدريس هذين البيتين
يستجيزه القسم الأخير منهما :

خليلي أبا بحر وما قرَّفتُ اللّٰمى بأعذبَ من قولى خليلي أبا بحر
أجز غير مأمورٍ قسيما نظمتُه تأمل على مجرى المياه حلى الزهر^(٢)
فأجازه :

تأمل على مجرى المياه حلى الزهرِ كعهدك بالخضراء والأنجم الزهرِ
وقد ضحكت للياسمين مباسمٌ سرورا بأداب الوزير أبى بكر
وأصغت من الأس النضير مسامعٌ لتسمع ما يتلوه من سور الشعر
وقال ابن خفاجة :

وما الأنس إلا فى مُجَاج زجاجة ولا العيش إلا فى صرير صرير
وإنى وإن جئت المشيب لمولعٌ بطرة ظل فوق وجه غدير

(١) فى ١ « ونحن على جرية ماء »

(٢) فى ١ « تأمل على نحر المياه حلى الزهر » وهو بدیع

وقال ابن خفاجة أيضا^(١) :

وَأَسْوَدُ يَسْبَحُ فِي لَجَّةٍ لَا تَكْتُمُ الْحَصْبَاءُ غُدْرَانَهَا
كَأَنَّهَا فِي شَكْلِهَا مَقْلَةٌ وَذَلِكَ الْأَسْوَدُ إِنْسَانُهَا

وكتب الوزير الشهير أبو الوليد بن زيدون إلى الوزير أبي عبد الله بن عبد العزيز
أثر صدوره عن بَلَنْسِيَّةِ :

رَاحَتْ فَصَحَّ بِهَا السَّقِيمُ رِيحَ مُعْطَرَةِ النَّسِيمِ
مَقْبُولَةٌ هَبَّتْ قَبْوٌ لَا فَهَى تَعْبِقُ فِي الشَّمِيمِ
أَفْضِيضُ مَسْكٍ أَمْ بَلَنْسِيَّةٍ لِرِيَّاهَا نَمِيمِ
بَلَدٌ حَبِيبٌ أَقْبَسُهُ نَفْسِي يَحِلُّ بِهِ كَرِيمِ
إِيَّاهُ أَبَا عِبْدِ الْإِلَهِ نَدَاءُ مَغْلُوبِ الْعَزِيمِ
إِنْ عِيلَ صَبْرِي مِنْ فِرَا قَكَ فَالْعَذَابُ بِهِ أَلِيمِ
أَوْ أَتَبَعْتُكَ حَنِينَهَا نَفْسِي فَأَنْتَ لَهَا قَسِيمِ
ذَكَرِي لِعَهْدِكَ كَالْعَرَا رِ سَرَى فَبِرَّحٍ بِالسَّلِيمِ
مَهْمَا ذَمَّمْتَ فَمَا زِمَا نِي فِي ذِمَامِكَ بِالذَّمِيمِ^(٢)
زَمَنْ كَمَا لَوْ الرِّضَا عَ يَشُوقُ ذَكَرَاهُ الْفَطِيمِ
أَيَّامٍ أَعْقَدَ نَظْرِي فِي ذَلِكَ الْمُرَايِ الْوَسِيمِ^(٣)
وَأَرَى الْفَتَوَةَ غَضَةً فِي ثَوْبِ أَوَاهِ الْحَلِيمِ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ حَبْلَكَ مِنْ فَوَادِي فِي الصَّمِيمِ
وَلَنْ تَحْمِلَ عَنْكَ لِي جِسْمٌ فَعَنْ قَلْبٍ مَقِيمِ
قُلْ لِي بِأَيِّ خِلَالٍ سِرِّكَ فَيَكُ أَفْتَنُ أَوْ أَهْمِ^(٤)

(١) في ١ « وله » مكان « وقال ابن خفاجة أيضا »

(٢) في ب « فما زماني في زمانك بالذميم » وليس بشيء

(٣) في ١ « أعقد نظري بذلك المرأى » (٤) في ب « أقبل أو أهي » وليس بذلك

أَجْدَكَ الْعَمَمَ الَّذِي نَسَقَ الْحَدِيثَ مَعَ الْقَدِيمِ
 أَمْ ظَرَفَكَ الْغَضُّ الْجَنَى أَمْ عَرْضَكَ الصَّافَى الْأَدِيمِ
 أَمْ بَرَكَ الْعَذَبُ الْجَمَا م وَبِشْرِكَ الْغَضَّ الْجَمِيمِ (١)
 إِنْ أَثْمَسْتَ تِلْكَ الطَّلَاقَةَ قَةً فَالْنَدَى مِنْهَا مَغِيمٌ
 أَمْ بِالْبَدَائِعِ كَاللَّاحِلِ مِنْ تَثِيرٍ أَوْ نَظِيمٍ
 لِبَلَاغَةٍ إِنْ عَدَّ أَهْلُهَا فَأَنْتَ بِهَا زَعِيمٌ
 فَقَرَّ تَسْوِغُ بِهَا الْمَدَامَ إِذَا يَكْرَرُهَا النَّدِيمُ
 إِنْ الَّذِي قَسَمَ الْحُظُوظَ ظَحْبَاكَ بِالْخَلْقِ الْعَظِيمِ
 لَا أَسْتَزِيدُ اللَّهَ نَعْمِي فَيْكَ لَا بَلَّ أَسْتَدِيمُ
 فَلَقَدْ أَقْرَعَ الْعَمِينَ أَنْكَ غُرَّةُ الزَّمَنِ الْبَهِيمِ
 حَسْبِيَ الثَّنَاءُ بِحَسَنِ بَرِّكَ مَا بَدَأَ بَرَقَ وَشِيمُ
 ثُمَّ الدُّعَاءُ بَأَنْ تَهْنَأَ طَوْلَ عَيْشِكَ فِي نَعِيمِ
 ثُمَّ السَّلَامُ تَبْلُغْنَاهُ فَغَيْبَ مُهْدِيهِ سَلِيمِ

ولما ورد إشبيلية نزل بدار الوزير الكاتب ذى الوزارتين أبى عامر بن مسلمة (٢) ،
 وهو يبنى مجلسا ، فصنع أبياتا كتبت فيه :

عُمِّرَ مَنْ يَعْمُرُ ذَا الْمَجْلَسَا أَطْوَلَ عَمْرٍ يُبْهِجُ الْأَنْفُسَا
 وَبَعْدَ ذَا عَوَّضَ مِنْ دَارِهِ عَدْنَا وَمَنْ دِيْبَاجِهِ السِّنْدَسَا
 وَلَقِيَ النُّورَ بِهَا وَالرَّضَا وَوَقَى الْأَسْوَءَ وَالْأَبْؤَسَا
 وَدَامَ عَبَادَ لِعُضْدِ الْهُدَى يَحْرُسُ حَتَّى يَفْنَى الْأَحْرَسَا
 مَعْتَصِدٌ بِاللَّهِ إِحْسَانَهُ جَمَّ إِذَا مَا الدَّهْرُ يَوْمَا أَسَا

(١) فى « ١ » وَتَشْرِكُ الْغَضَّ الْجَمِيمَ »

(٢) فى ب « أبى عامر بن سلمة »

الملك الغمر الندى المقتنى من كل حمدٍ علقه الأنفَسَا
إن رام يوماً وصفَ عليائه مَفوّهٌ مقتدرٌ أخْرِسَا
لا زال بدرًا طالِعًا نَيَّرًا يكشف عن آمالنا الحِنْدِسَا

وقال فيه أيضا :

أدرها فقد حَسَنَ المجلس وقد آن أن تُتَرَعَ الأَكُوسُ
ولا تنسَ أنَّ أوانَ الربيع إذا لم تجد فَعَدَهُ الأَنْفُسُ
فإنَّ خلالَ أبي عامر بها يُحَقَّرُ الورد والترجِسُ

وكتب إلى الوزير أبي المعالي المهلب بن عامر يستدعيه :

طابت لنا ليلتنا الخالية فلنُتَبِعْهَا هَذِهِ الثَّانِيَه
أبا المعالي نحن في راحة فانقل إلينا القَدَمَ العَالِيَه
لأنها عاطلة إن تَغَيَّبُ عنا فزنا كي تُرَى حَالِيَه
أنت الذي لو شَتَرْتِ سَاعَةً منه بدهر لم تكن غَالِيَه

وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتبًا :

تباعَدْنَا على قرب الجِوَار كأنَّا صدنا شَطَطُ المَزَارِ^(١)
تطلع لي هلال الهجر بدرا وصار هلال واصلك في سرار
وشاع شنيع قطعك لي بوصلى فبِلاَّ كان ذلك في استتار
أيحمل أن تُرَى عني صَبُورًا فأصبح مولعا دون اصطبار
وكنت أزيد سمعك من عتابي ولكن عاقبي فَرَطُ الخَمَارِ
فَرَّاع مودتي واحفظ جِوَارِي فإن الله أوصى بالجِوَارِ
وزرني مُنْعَمًا من غير أمر وأنس موحشا من عقر دَارِي^(٢)

(١) في ١ « كأننا صدنا شحط المزار »

(٢) في ١ « وزدني منعا من غير أمر »

فكتب إليه ابن زيدون :

هواى وإن تناءت عنك دارى كمثل هواى فى حال الجوار
مقيم لا تغيره عَوَادِ تباعد بين أحيان المزار (١)
رأيتك قلت إن الهجر بدر متى حلت البدور من السرار
ورابك أننى جلد صبور وكم صبر يكون عن اصطبار
ولم أهجر لعب ، غير أنى أضرت بى معاقرة العقار
وإن الخمر ليس لها خمار يبرح بى فكيف مع الخمار
وهل أنسى لديك نعيم عيش كوشى الخد طرز بالعدار
وساعات يحول اللهو فيها مجال الظل فى حدق النهار
وإن يك فرّ عنك اليوم جسمى فديت فما لقلبي من فرار
وكنت على البعاد أجلّ شئ لدى فكيف إذا أصبحت جارى
وكان أبو العطف إذ ورد إشبيلية رسولا قد سأل أن يرّيه شيئاً من شعره ،
فطلبه به ، حتى كتب إليه شعرا يستبطنه ، فأجابه ابن زيدون فى العروض والقافية :
أفدّتنى من نفائس الدرر ما أبرزته غوائص الفكر
من لفظة قارّنت نظائرها قران سقيم الجفون للحوار
وهى أكثر مما ذكر .

وكتب رحمه الله تعالى - أعنى ذا الوزارتين ابن زيدون - إلى ولّاده :
أضحى التناى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب دُنْيَانَا نجافينا (٢)
ألا وقد حان صُبْحُ الليل صبحنا حين فقام بنا للحين ناعينا (٣)
من مُبلغ المُلبسِينَا بانتزاجهم حزناً مع الدهر لا يئلى ويُبلينا

(١) الأحيان : جمع حين ، وهو الوقت ، وهو يريد تباعد ما بين أوقات الزيارة فتبعد بين كل زيارتين أمداً بعيداً (٢) هكذا فى ب ، وفى «وأن عن طيب دنيا نأجافينا» والذى أحفظه وناب عن طيب لقينا نأجافينا» وهو كذلك فى القلائد وفيما مضى من هذا الكتاب (٣) فى ١ ، ب «وَأَلَا وَقَدْ قَامَ» و «صبحنا حيناً فقام لنا» محرفاً فى عدة مواضع

إن الزمان الذي ما زال يضحكننا أنسا بقر بهم قد عاد يُبْكِينَا
 غِيظَ الْعِدَّاءِ مَنْ تَسَاقَيْنَا الْهُوَى فَدَعَوْا بَأَنْ نَغْصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
 فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا وَأُنْبِتَ مَا كَانَ مُوصُولًا بِأَيْدِينَا
 بِالْأَمْسِ كُنَّا وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا وَالْيَوْمِ نَحْنُ وَمَا يَرْجَى تَلَاقِنَا ^(١)
 يَا لَيْتَ شَعْرَى وَلَمْ نُعْتَبِ أَعَادِيكُمْ هَلْ نَالَ حِظًا مِنَ الْعُتْبَى أَعَادِينَا
 لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ رَأْيَا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَنَا
 كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّينَا عَوَارِضَهُ وَقَدْ يَسْنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يَغْرِينَا
 بَنِمَ وَبَنَّا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَتْ مَآقِينَا
 نَكَادُ حِينَ تَنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضَى عَلَيْنَا الْأُسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
 حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَتْ سَوْدًا وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لِيَالِينَا
 إِذْ جَانِبَ الْعَيْشِ طَلَقُ مَنْ تَأَلَّفْنَا وَمُورِدَ الْهُوَصَافِ مِنْ تَصَافِينَا
 وَإِذْ هَضَبْنَا فَنُونَ الْوَصْلِ دَانِيَةً قَطُوفُهَا فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا
 لَيْسَتْ عَهْدَكُمْ عَهْدَ السَّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا
 لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَا يَغْيِرُنَا إِنْ طَالَ مَا غَيْرَ النَّأْيِ الْمُحْبِينَا
 وَاللَّهُ مَا طَلَبْتَ أَهْوَاؤُنَا بَدَلَا مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا
 يَا سَارَى الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ فَاسْقُبِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهُوَى وَالْوَدِ يَسْقِينَا
 وَاسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا إِلْفًا تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعْنِينَا
 وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتِنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْبَعْدِ حَيًّا كَانَ يَحْيِينَا
 مَنْ لَا يَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مَسَاعِفَهُ فِيهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَنَا يَقَاضِينَا
 مَنْ بَيْتَ مَلِكٍ كَأَنْ اللَّهَ أَنْشَأَهُ مَسْكَا وَقَدْ أَنْشَأَ اللَّهُ الْوَرَى طِينَا ^(٢)

(١) في ١ « وقد نكون وما يخشى تفرقنا ... فالיום نحن »

(٢) الولادة المكتوب إليها بنت المستكفي بالله

أوصاغه ورقًا مَحْضًا وتَوَجَّه من ناصع التبر إبداعًا وتحسبنا
 إذا تَأَوَّدَ آدَتَهُ رِفَاهِيَّةً تَوْمُ الْعُقُودِ وَأَدَمَتَهُ الْبَرَى لَيْنًا^(١)
 كانت له الشمس ظنًّا في تكلله بل ما تجلى لها إلا أحاييننا
 كأنما أُثْبِتَتْ في صحن وجنته زُهرُ الكواكب تعويذا وتزِينًا^(٢)
 ما ضرَّ أن لم تكن أكَفَاءَ شَرَفًا وفي المودة كافٍ من تكافينا
 ياروضة طالما أجنّت لواحِظُنَّا وردًا جَلَّاهُ الصِّبَا غُضًا ونَسْرِينًا^(٣)
 ويا حياة تَمَكِّنُنَا بِزَهْرَتِهَا مُنَى ضُرُوبًا وَلِذَاتِ أَفَانِينَا
 ويا نعيمًا خَطَرُنَا مِنْ غَضَارَتِهِ فِي وَشَى نَعْمَى سَحَبِنَا ذِيلَهُ حِينَا
 لَسْنَا نَسْمِيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً وَقَدْرُكَ الْمَعْتَلَى عَنْ ذَاكَ يَغْنِينَا
 إذا انْقَرَدَتْ وما شورك في صفة فَحَسَبْنَا الْوَصْفَ إِيْضًا وَتَبَيَّنَا
 يا جنَّة الخلد أَبَدِلْنَا بِسَلْسَلِهَا وَالْكُوْثِرَ الْعَذْبَ رَقُومًا وَغَسَلِينَا
 كأننا لم نبت والوصل ثالثنا والسعد قد غُضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
 سران في خَاطِرِ الظَّالِمَاءِ تَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصَّبْحِ يَفْشِينَا
 لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت عنه النهى وتركنا الصبر ناسِينَا
 إنا قرأنا الأُسَى يَوْمَ النُّوَى سُورًا مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينًا
 أما هَوَاكَ فلم نعدل بمشربه شَرِبًا وَإِنْ كَانَ يَرْوِينَا فَيُظْمِئُنَا
 لم نجفُ أَفَقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبِهِ سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
 ولا اختيارًا تَجَنَّبْنَاكَ عَنْ كَسْبٍ لَكِنْ عَدَّتْنَا عَلَى كَرِهِ عَوَادِينَا
 نَأْسَى عَلَيْكَ إِذَا حُمَّتْ مَشْعَعَةٌ فِينَا الشَّمُولُ وَغَنَّا نَا مَغْنِينَا
 لا أكوُسُ الرِّاحِ تُبَدِّدِي مِنْ شَمَائِلُنَا سِيمَا ارْتِيَا حِ وَلَا الْأَوْتَارَ تَلْهِينَا

(١) تَأَوَّدَ : ثَنَى ، وآدَتَهُ : أَثْقَلَتْهُ وَأَعْجَزَتْهُ ، وَتَوْمُ الْعُقُودِ : فاعل آدَ ، وَأَدَمَتَهُ : أَسَالَتْ دَمَهُ ، وَالْبَرَى : الْخَلَاخِيلَ ، وَاحِدُهَا بَرَّةٌ ، وَرِفَاهِيَّةٌ وَلَيْنَا : مَنْصُوبَانِ لِأَنَّ كِلَا مَنِهْمَا مَفْعُولٌ لِاجْلِهِ ، وَوَقَعَ فِي ب « إِذَا تَأَوَّدَ آدَتَهُ . . . تَدْمَى الْعُقُولُ » مَعْرِفًا أَشْنَعَ تَحْرِيفٍ

(٢) فِي ب « كَأَنَّمَا نُبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ » (٣) فِي ب « جَنَاهُ الصَّبَا »

دومى على العهد ما دمنّا محافِظَةً فالحر من دان إنصافا كما دينّا
فما استعضنا خليلاً عنك يحبسنا ولا استفدنا حبيباً عنك يغنينّا^(١)
ولَوْ صَبَا نَحُونَا مِنْ أَفْقٍ مَطْلَعُهُ بدرُ الدجى لم يكن حاشاك يُصْبِينَا
أبلى وفاء وإن لم تبدلى صِلَةً فالطيفُ يقنعنا والذكر يكفينَا
وفى الجواب مَتَاعٌ لَوْ شَفَعْتَ بِهِ بيضَ الأيادى التى ما زلت تولينا^(٢)
عليك منى سلام الله ما بقيت صباية بك نخفيها وتحفيْنَا

وإنما ذكرت هذه القصيدة - مع طولها - لبراعتها ، ولأن كثيراً من الناس لا يذكروا جملتها ، ويظن أن ما فى القلائد وغيرها منها هو جميعها ، وليس كذلك ، فهى وإن اشتهرت بالشرق والمغرب لم يذكروا جملتها إلا القليل ، وقد كنت وقفت بالمغرب على تسديس لها لبعض علماء المغرب ، ولم يحضرنى منه الآن إلا قوله فى المطلع :

ما للعيون بسهم الغنَجِ تصمينا وعن قِطَافِ جَنَى الأعطافِ تحمينا
تألف كان يحمينَا ويضمينَا تفرق عاث فى شمل الحمينَا
أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب دنيانا تحافينا
وما أحسن قوله فى هذا التسديس :

ما للأحبة دانوا بالنوى ورأوا تعريض عهد اللقا بالبعد حين نأوا
رَعَاهُمُ اللهُ كانوا للعهود رَعَوَا فغيرتهم وشاة بالفساد سَعَوَا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدَعَوَا بأن نَقَصَ فقال الدهر آمينَا
وقد ذكرنا فى الباب الرابع موشحة ابن الوكيل التى وطأ فيها لنونية ابن زيدون هذه فلتراجع .

(١) فى ب « حبيباً منك يغنينَا » وفى الديوان « حبيباً عنك يشينَا »

(٢) فى ب « وفى الجواب امتناع قد شغفت به »

رجع - وقال ذو الوزارتين ابن زيدون يتغزل :

وضع الصبح المبين وجلا الشكَّ اليقينُ
ورأى الأعداء ما غرَّتْهمُ منك الظنون
أملُوا ما ليس يميني ورَجَوْا ما لا يكون
وتمنوا أن يخون العبدَ مولى لا يخون
فإذا الغيب سليم وإذا العهد مَصُون
قل لمن دان بهجرى وهوانى إذ يدين
أرخصَ الحبِّ فوادی لك والعَلقُ ثمين
يا هلالا تتراءا هُ نفوسٌ لا عيون
عجبا للقلب يقسو منك والعطف يلين
ما الذى ضرك لو سُرَّ بمرآك الحزينُ
وتلطفت بصبِّ حَيْنه فيك يحين
فوجوه اللطف شَتَّى والمعاذير فنون

وقال أيضا :

إليك من الأنام غدا ارتياحى وأنت من الزمان مدى اقتراحى
وما اعتزَّضتْ همومُ النفس إلا ومن ذكراك ريحاني وراحى
فديتك إنَّ صبرى عنك صبرى لدى عطشى عن الماء القراح
ولى أمل لو الواشون كفوا لأطلع غرسه ثمرَ النجاح
وأعجب كيف يغلبنى عدوِّ رضاك عليه من أمضى سلاحى
ولما أن جَلَّتْكَ لى اختلاسا أكفُّ الدهر للحين المُتَّاح (١)

(١) الحين - بفتح الحاء وسكون الياء - الموت والهلاك ، والمتاح : المقدر

رأيت الشمس تطلع في نقاب وغصن البان يرفل في وشاح
فلو أستطيع طرْتُ إليك شوقا وكيف يطير مقصوصُ الجناح
على حالي وصال واجتناب وفي يومى دُنُوٌّ وانتزاح
وحسبى أن تطالعك الأمانى بأفئك في مساء أو صباح
فؤادى من أسمى بك غير خالٍ وقلبي من هوى لك غير صاح
وأن تهدي السلام إلى شوقا ولو في بعض أنفاس الرياح

وقال :

كم ذا أريد ولا أريد لله ما لقي الفؤاد
أضفى الوداد إلى الذى لم يصف لي منه الوداد
كيف السلوعن الذى مشواه من قلبي السواد
يقضى على دلالة في كل حين أويكاد
ملك القلوب بحسنه فلها إذا أمر انقياد
يا هاجرى كم أستفيد الصبر عنك فلا أفاد
أفلا رثيت لمن يبيت وحشواً مقلته السهاد
إن أجن ذنباً في الهوى خطأ فقد يكبو الجواد
كان الرضا وأعيذه أن يعقب البكون الفساد^(١)

وقال :

متى أنبيك ما بى ياراحتى وعذابى
متى ينوب لسانى فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنى أصبحت فيك ليلى^(٢)

(١) الكون والفساد : من اصطلاح الفلاسفة ، يساوى الوجود والعدم ونحوهما

(٢) فى ب « كاني » وما أثبتناه موافقاً لما فى ا هو ما فى الديوان

فما يلد منامى ولا يسوغ شرابى
يا فتنة المتعزّى وحجة المتصابى^(١)
الشمس أنت توارت عن ناظرى بالحجاب
ما النور شَفَّ سنه على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما أضاء تحت النقاب

وقال :

هل لداعيك مجيب أم لساكيك طيب
يا قريبا حين ينأى حاضرا حين يغيب
كيف يسلك محبّ زانه منك حبيب
إنما أنت نسيم تتلقاه القلوب
قد علمنا علم ظن هو لاشك مُصِيبُ
إنَّ سر الحسن مما أضمرت تلك القلوب

وقال :

أنى تُضَيِّع عهدك أم كيف تخلف وعدك
وقد رأتك الأمانى رضا فعمل تتعدك
يالىت شعرى وعندى ما ليس فى الحب عندك
هل طال ليلك بعدى كطول ليلى بعدك^(٢)
سلنى حياتى أهبتها فلست أملك ردك
الدهر عبدى لما أصبحت فى الحب عبدك

وقال رحمه الله تعالى ، وقد أمره السلطان أن يعارض قطعاً كان يغنى بها
واستحسن ألحانها :

(١) فى ب « يافتنة المتعزى » (٢) فى ب « بطول ليلى بعدك » وأثبتنا ما فى ١

يُقَصِّرُ قُرْبُكَ لَيْلِي الطَوِيلَا وَيَشْفِي وَصَالِكَ قَلْبِي الْعَلِيلَا
وإن عَصَفْتَ مِنْكَ رِيحُ الصَّدُودِ فَقَدْتُ نَسِيمَ الْحَيَاةِ الْبَلِيلَا (١)
كَمَا أَنْتِي إِنِّ أَطَلْتَ الْعَثَارَ وَلَمْ يَبْدِ عَذْرَى وَجْهًا جَمِيلَا
وَجَدْتُ أَبَا الْقَاسِمِ الظَّافِرَ الْمُوَيْدَ بِاللَّهِ مَوْلَى مَقِيلَا
لَأَقْلَامِهِ فَعَلَّ أَسْيَافَهُ يَظُلُّ الصَّرِيرُ بِيَارِي الصَّلِيلَا

وقال يهنيه بالقدوم من السفر :

أَيُّهَا الظَّافِرُ أَبْشِرْ بِالظَّفَرِ وَاجْتَلِ التَّأْيِيدَ فِي أَبْهَى الصُّورِ
وَتَقِيًّا ظِلَّ سَعْدٍ يُجْتَنَى فِيهِ مِنْ غَرَسِ الْمَنَى أَحْلَى الثَّمَرِ
وَرِدِ النَّجْحَ فَمَنْ مَسْتَوْحَشَ شَائِقَ مِنْكَ إِلَى أَنْسِ الصَّدَرِ
كَانَ مِنْ قُرْبِكَ فِي عَيْشٍ نَدٍ عَاطِرِ الْأَصَالِ وَضَّاحِ الْبُكْرِ
فَتَوَى دُونَكَ مَتَوَى قَلْقَ يَشْتَكِي مِنْ لَيْلِهِ مَطْلَ السَّحَرِ
قُلْ لِسَاقِنَا يَجْدُ أَكْوَسَهُ وَلِشَادِينَا يُطْلِقُ قَطْعَ الْوَتَرِ

ومنها :

لِي فِيهِ الْمَثَلُ السَّائِرُ فِي جَالِبِ الثَّمَرِ إِلَى أَرْضِ هَجَرِ
ثُمَّ قَدْ وَفَّقَ عَبْدَ عَظَمَتِ نِعْمَةِ الْمَوْلَى عَلَيْهِ فَشَكَرَ
لَا عَدَا حَظَّكَ إِقْبَالَ يَرَى قَاضِيًا أَبْنَاءَهُ كُلَّ وَطَرِ
وَاصْطَبَحَ كَأْسَ الرِّضَا مِنْ مَلِكٍ سَرَتْ فِي إِرْضَائِهِ أَرْكَى السَّيْرِ
حِينَ صَمَمَتْ إِلَى أَعْدَائِهِ فَانْتَحَتَهُمْ مِنْكَ صَمَاءُ الْغَيْرِ (٢)
فَاضْ غَمْرُ الْبُكَارِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَانَ يَرَوِي شَرِبَهُمْ مِنْهُ الْغَمْرُ
سَبَقَ النَّاسَ فَصَلَّى سَابِقَ إِذْ رَأَى آثَارَهُ مِثْلَ الزَّهْرِ

وهي طويلة .

(١) في ب « تقد نسيم الحياة البليلا » ولا معنى له

(٢) في ا « صماء العبر »

وقال رحمه الله تعالى :

لم يكن هجر حبيبي عن قِلاَ
سره دعوى ادعائى ثم لم
أنا راضٍ بالذى يرضى به
مَثَلٌ فى كلِّ حسنٍ مثل ما
يا فتيت المسكِ ياشمس الضحى
إن يكن لى أملٌ غير الرضا
لا ولا ذاك التجنى مَلَا
يَدِرُ ما غاية صبرى فابتلى
لى من لو قال مُتْ ما قلت لا
صار حالى فى هواه مثلاً
يا قضيب البان - يا ظبى القَلَا
منك لا بُلُغْتُ ذاك الأَمَلَا

وقال رحمه الله تعالى :

أذكرُكَ تَنَى سالف العيش الذى طابا
إذ نحن فى روضة للوصل أنعمها
إنى لأعجب من شوق يطالبنى
كم نظرة لك عندى قد علمت بها
قلب يطيل مُعاصاتى لطاعتكم
يا ليت غائب ذاك الوقت قد آبا
من السرور غمامٌ فوقها صابا
فكلما قيل فيه قد قضى ثابا
يوم الزيارة أن القلب قد ذابا
فإن أكلفهُ يوماً سلوة يابى^(١)

وقال رحمه الله تعالى :

عاودت ذكر الهوى من بعد نسيانى
من حب جارية يبدو بها صَمَ
غريرة لم تُفارقها تماثما
لأستجدن فى عشقى لها زَمَنًا
حَتَّى يَكُونَ لِمَنْ أَحْبَبْتُ خاتمة
واستحدثت القلب بعد العشق سلوانى
من اللّجَيْن عليها تاجُ عِقيان^(٢)
تسبى القلوب بساجى الطرف وِسنان^(٣)
يُحْيى سَوالفَ أيامى وأزمانى^(٤)
نَسِخْتُ فى حُبِّها كُفْرًا بإيمانٍ

وقال رحمه الله تعالى :

(١) يابى : يتمتع ، وأصله يابى فقلب الهمزة الساكنة ألفا لانفتاح ما قبلها
(٢) اللجَيْن : الفضة ، والعقبان : الذهب (٣) وِسنان : وصف من الوسن ، وهو النوم
(٤) فى ب « لأستجدن من عشقى لها بدلا »

أنت معنى الهوى وسر الدموع وسبيل الهوى وقصد الولوع
أنت والشمس ضرَّتانِ ولكن لك عند الغروب فضل الطلوع
ليس يا مؤنسي نكافئك العتب دلالا من الرضا الممنوع
إنما أنت والحسود مُعني كوكب يستقيم بعد الرجوع

وقال رحمه الله تعالى :

ياليلُ طُلْ لا أشتهى إلا كعهدي قصرُك^(١)
لوبات عندي قمرى مايتُ أرعى قمرُك
ياليل خبر أننى ألتذ عنه خبرُك^(٢)
بالله قل لى هل وفى فقال لا بل غدركُ

وقال رحمه الله تعالى :

لئن فاتنى منك حظ النظر لأكتفين بسماع الخبر
وإن عرضت غفلة للرقيب فحسبى بتسليمة تختصر^(٣)
أحاذر أن يتجنى الوشاة وقد يُستدام الهوى بالخذر
فأصبر مستيقنا أنه سيحظى بنيل المنى من صبر

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

أيها البدر الذى يمسأ عيني من تأمل
حمل القلب تباريح التجنى فتحمل
ثم لا تياس فكم قد نيل أمر لم يؤمل

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

أجدُّ ومن أهواه فى الحب عابث وأوفى له بالعهد إذ هو ناكث

(١) فى ب « إلا لعهدى نصرُك »

(٢) فى ب « ألتذ عندي خبرُك »

(٣) فى ب « فحسبى تسليمة »

حييب نأى عنى مع القرب والأسى مقيم له فى مُضْمَر القلب ما كَث
جفانى بألطف العِدَا وأزاله عن الوصل رأى فى القطيعة حادث
تَغَيَّرت عن عهدى ومازلت واثقا بعهدك لكن غيرتك الحوادث
وما كُنْتُ إِذْ مَلَكَتْكَ الْقَلْبَ عالما بأنى عن حتفى بكفى باحث
ستبلى الليالى والوداد بحاله مقيم وغَضُّ وهو للأرض وارث
فلو أننى أقسمت أنك قاتلى وأنى مقتول لما قيل حانث (١)
وقال رحمه الله تعالى :

يا غزالا أصرانى موثقا فى يدِ المَحَنِ
إننى منذ هجرتنى لم أذق لذة الوَسَنِ
ليت حظى إشارة منك أو لحظة تعن
شافعى يا معذبنى فى الهوى وَجْهَكَ الحَسَنِ
كنتُ خلوا من الهوى وأنا اليوم مُرْتَهَنُ
كان سرى مكثما وهو الآن قد عَلَنُ
ليس لى عنك مذهب فكما شئت لى فكن

وقال رحمه الله تعالى :

أيوحش لى الزمان وأنت أنسى ويظلم لى النهار وأنت شمسى ؟
وأغرس فى محبتك الأمانى وأجنى الموت من ثمرات غرسى
لقد جازيت غَدْرًا عن وفائى وبعث مودتى ظلما ببخس (٢)
ولو أن الزمان أطاع حكمى فديتك من مكارهه بنفسى
ومحاسن ابن زيدون كثيرة ، وقد ذكرنا منها فى غير هذا الحل جملة .

(١) فى ١ « وإنى لمقتول لما قيل حانث » وليس بشىء .

(٢) فى ١ « لقد جازيت غدرا عن وفاء »

وسألت جارية من جواري الأندلس ذا الوزارتين أبا الوليد ابن زيدون أن
يزيد على بيت أنشدته إياه ، وهو :

يا مُعْطِشِي من وصال كنت وارده هل منك لي غُلة إن صحت واعطشي^(١)

قال : وكانت الجارية المذكورة تتعشق فتى قرشياً ، والوزير يعلم ذلك ، وهي لاتعلم
أنه يعلم ، فقال :

كسوتني من ثياب السقم أسبغها ظلمها وصيرت من لحف الضنى فرشي
أنى بصرف الهوى عن مقلة كحلت بالسحر منك وخذ بالجمال ووشي^(٢)
لما بدا الصدغ مسودا بأحمره أرى التشاكل بين الروم والحش
أوفى إلى الخد ثم انصاع منعظا كالعقر بأن أنبئني من خوف محترش^(٣)
لوشئت زرت وسلك الليل منتظم والأفق يحتال في ثوب من الغبش^(٤)
جفا إذا التذت الأجفان طيب كرى جفنى المنام وصاح الليل يا قرشي^(٥)
هذا وإن تلقت نفسي فلا عجب قد كان قتلى في تلك الجفون حشى

وكان لابن الحاج صاحب قرطبة ثلاثة أولاد من أجهل الناس صورة : رحون ،
وعزون ، وحسون ، فأولع بهم الحافظ الشهير أبو محمد بن السيد البطليوسي
صاحب « شرح أدب السكاكيب » وغيره وقال فيهم :

أخفيت سقمي حتى كاد يخبني وهمت في حب عزون فعزوني
ثم ارحمني برحون وان ظمئت نفسي إلى ريق حسون فحسوني
قال : ثم خاف على نفسه ، فخرج عن قرطبة ، وهو القائل :

نفسى الفداء لجؤذر حلو المي مستحسن بصدوده أفنانى

(١) في ١ « يامعطشي عن وصال »

(٢) أنى : بمعنى كيف ، وصرف الهوى : تحويله ، ووقع في الديوان « إنى بصرت الهوى »

(٣) في ١ « أرقى إلى الخد » وأثبتنا ما في ب والديوان

(٤) في الديوان « وسلك النجم » (٥) في الديوان « طعم كرى » وفي ١

« طيف كرى »

البطليوسي
وأولاد ابن
الحاج

في فيه سَمَطًا جوهر يروى الظما لو عَالَمِي بِرُودِهِ أَحْيَانِي
وهذان البيتان تخرج منهما عدة مقطعات كما لا يخفى
وقال أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الإشبيلي المعروف بالأبيض ، في تهنية
بمولود ، قال ابن دحية : وهذا أبدع ما قيل في هذا المعنى :

من ملح أشعار
أهل الأندلس

أصاحت الخليل آذانا لصرخته واهتز كل هزْبُرٍ عندما عطسا^(١)
تعشَّقَ الدرْعَ مذ شَدَّتْ لِقائِقه وأبغضَ المهد لما أبصر الفرسَا
تعلم الركضَ أيام الخُحاض به فما امتطى الخليل إلا وهو قد فرَسَا^(٢)
وقال الوزير الكاتب أبو عامر السالمى فى غلام يرش الماء على خديه فتزداد حمرتهما :

لقد نعمت بحمام تطلع فى أرجائه قمر والحسن يكمله
أبصرته كلما راق محاسنه ونعمة الجسم والأرداف تُخْجِلُه
يرش بالماء خديه فقلت له صفلى لما أحمر الياقوت تصقله
فقال طرفى سَفَاكُ بصارمه دماء قوم على خَدَيَّ فأغسله

وقال أيضا :

أوقد النار بقلبي ثم هَبَّتْ رِيحُ صده
فشرار النار طارت فانطلقت فى ماء خده

وهو تخيل عجيب :

وقال ابن الخياط المكفوف الأندلسى فى المعنى المشهور :

لم يخل من نوب الزمان أديب كلا فشأن النائبات عجيب^(٣)
وغضارة الأيام تأبى أن يرى فيها لأبناء الذكاء نصيب
وكذلك من صَحِبَ الليالى طالبا جدا وفهما فاتهُ المطلوبُ

وكان ابن الزقاق الأندلسى الشاعر المشهور - وقد تكرر ذكره فى هذا الكتاب^(٤)

(١) الهزير : الأسد (٢) فرسا ، هنا : فعل ماض بمعنى افترس أقرانه

(٣) فى ١ « فشأن النائبات تنوب » (٤) فى ١ « فى هذا التأليف »

من ملح
ابن الزقاق

مرات كثيرة - يسهر في الليل ، ويشتغل بالأدب ، وكان أبوه فقيراً جداً ، فلامه ، وقال له : نحن فقراء ، ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه ، فاتفق أن برع في الأدب والعلم ونظّم الشعر ، فقال في أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بَلَنَسِيَّة قصيدة أولها :

يا شمسَ خدرٍ ما لكَا مغربُ أرامه حَزْوكَ أم يثرب^(١)
ذهبت فاستعْبِرَ طَرْفِي دما مفضض الدمع به مُذهَّبُ

ومنها :

ناشدتك الله نسيمَ الصبا أني استقرتُ بعدنا زينب
لم نَسِرْ إلا بشدَا عَرَفْها أولا فماذا النفسُ الطيبُ
إيه وإن عذبنى حبها فمن عذاب النفس ما يعذَّبُ

فأطلق له ثلثمائة دينار ، فجاء بها إلى أبيه وهو جالس في حانوته مُكَبِّ على صنعته ، فوضعها في حجره ، وقال : خذها فاشتر بها زيتا .

وقال رحمه الله تعالى في غلام رَامَ يرمى حجرا فشدَّخ وجهه :

وأحوى رمى عن قسيِّ الحورِ سهاما يُفَوِّقُون النظر
يقولون وجنته قُسِّمَتْ ورسم محاسنه قد دَثَرُ
وما شقَّ وجنته عابثا ولكنهما آية للبشر
جلاها لنا الله كيما نرى بها كيف كان انشقاق القمر

وقال أيضا :

بأبي وغير أبي أغنَّ مهفِيفُ مَهْضُوم ما خَلَفَ ألوشاح خيصُهُ
لبس السواد ومزقته جفونه فأني كيوسفَ حين قدَّ قَمِيصُهُ

(١) في ب « أرامه خذك أم يثرب » محرفا

وقال أيضا :

سقتني يمينها وفيها فلم أزل
ترشفت فهاها إذ ترشفت كأسمها
يجاذبني من ذا ومن هذه سُكْرُ
فلا والهوى لم أدر أيهما الخمر

وقال :

رَقَّ النسيمُ وراق الروضُ بالزهر
ما العيش إلا اضطباح الراح أو شَبَّ
قل للكواكب غُضَى للكرى مُقْلًا
وللصباح ألا فانشرداء سَنَى
يقاد معطفه ينقذُ بالنظر
تخالها اختلست من ثغره الخصر^(١)
كهاالة أهدقت في الأفق بالقمر
والكأس من كفه بالراح محدقة

وقال :

تضو عن أنفاسها وأشرقن أوجها
لئن كن زهراً فالجوانح أبرج
فهن منيرات الصباح بواسم
وإن كن زهراً فالقلوب كائم^(٢)

وهو من بدیع التقسيم

وقال السميسر :

من ملح
السميسر

تحفظ من ثيابك ثم صنها
وميز في زمانك كل خبر
وإلا سوف تلبسها حدادا
وناطر أهله تسد العبادا
وظن بسائر الأجناس خيرا
وأما جنس آدم فالبعادا

(١) شجها : أراد مزجها بالماء ، وأراد بالدرر الحبيب الذي يطفو فوق الخمر ،
وثغره الخصر : البارء

(٢) زهراً في الصدر جمع أزهر أو زهراء ويراد بها النجوم ، والأبرج : جمع
برج وهو منزلة الكواكب ، والكائم : جمع كامة ، وهي غلاف الزهر

أرادوني بجمعهم فرُدُّوا على الأعقاب قد نكصوا فرَادَى
وعادوا بعد ذا إخوان صدق كبعض عقارب رجعت جرادا

وقال ابن رَزِين ، وهو من رجال الذخيرة : لابن رزِين

لأَسْرَحَنَّ نواظري في ذلك الروض النضير
ولَا كلنك بالمنى ولأشربنك بالضمير

وقال سلطان بَلَنْسِيَّةَ عبد الملك بن مروان بن عبد الله بن عبد العزيز : لسلطان بلنسية

ولاغرو بعدى أن يسود معشر فيضحي لهم يوم وليس لهم أَمْسٌ^(١)
كذلك نجومُ الجوِّ تبدو زواهرا إذا ما توارت في مغاربها الشمسُ

وتحالك إلى أبي أيوب سليمان بن محمد بن بطل البَطْلِيُّوسَى المعروف بالتملس غلامان للبطلبيوسى
جھيلان لأحدهما وَفَرَّة شقراء ، وللآخر سوداء : أيهما أحسن ؟ والتملس المذكور هو المتلمس
صاحب كتاب « الأحكام » ، فيما لا يستغنى عنه الحكماء فقال :

وشادِنَيْنِ الْمَأْ بى على مِقَّةٍ تنازعا الحسنَ في غايات مستبق
كَأَنَّ لَمَةً ذَا مِنْ نَرْجِسٍ خُلِقَتْ على بهارٍ وذامسك على وَرَقٍ
وحَكَمَا الصَّبِّ في التفضيل بينهما ولم يخافا عليه رشوة الحدق
فقام يُدْلِي إليه الرِّيم حِجَّتَهُ مِينًا بلسان منه منطلق^(٢)
فقال : وجهي بدر يُستضاء به ولون شعري مصبوغ من الغسقِ
وكل عيني سحرٌ للنهي وكذا والسحر أحسن ما يُعزَى إلى الحدق
فقال صاحبه : أحسنت وصفك لكن فاستمع لمقال في مُتَّفَقٍ
أنا على أفق شمس النهار ، ولم تغرب وشُقْرة شعري حمرة الشفق
وفَضَّل ماعيب في عينيَّ من زَرْقٍ أن الأسنه قد تُعزَى إلى الزَّرَقِ
قضيت لِمَمَّة الشقراء حيث حكمت نُورًا كذا حجبها يقضى على رَمَقِي^(٣)

(١) في ١ « وليس بهم أَمْس » وليس بشيء

(٢) في ب « فقام يبدى إليه الرِّيم حِجَّتَهُ » (٣) في ب « حيث حكمت لوني »

فقام ذو اللمة السوداء يرشقني
وقال جُرْتُ فَقُلْتُ الجور منك على
فقلت عفوك إذا أصبحت متها
فقال دونك هذا الحب فاختنق

لابن غالب

وقال أبو محمد عبد الله بن غالب .

ومُهَقِّفٍ حَنْثِ الجفون كأنما
فتخاله ليلا إذا استقبلته
من أرجلِ النمل استفاد عذارا
وتخال ما يجري عليه نهارا

لابن فرج

السميسر

وقال أبو القاسم خلف بن فرج السميسر المتقدم :

الناس مثل حباب والدهر لجة ماء
فعالم في طفوِّ وعالم في انطفاء

وقال أحمد بن بُرْد الأندلسي في الترجمس ، وهو البهَّار عند الأندلسيين ، ويسمى
العَبَّهَر (١) :

لابن برد

تنبه فقد شق البهار مُغَلَّسًا
مدَاهِنُ تَبَرٍ في أنامل فضة
كأئمه عن نوره انخُضِل الندي
على أذرع مخروطة من زبرجد

وقال الوزير عبد الحميد بن عبدون في دار أنزله بها المتوكل بن الأفطس وسقَّها
قديم ، فهطل عليه المطر منه :

لابن عبدون

أيا ساميا من جانبيه إلى العلا
لعبدك دار حل فيها كأنها
يقول لها لما رأى من دثورها
فقلت ولم تعبا برد جوابه
(سموَّ حَبَاب الماء حالا إلى حال)
(ديار لسمى عافيات بذى الخال)
(ألا عم صباحا أيها الطلل البالى)
(وهل يَعِمَّن من كان في العصر الحالى) (٢)
(فإن القتي يَهْدِي وليس بِفِعَالٍ)
فمرُّ صاحب الإنزال فيها بفاصل

(١) في ب « ويسمى العنبر »

(٢) في ا « ولم تعبا برد جوابه »

قيل: وهو أبو عذرة^(١) تضمنين لامية امرئ القيس ، وقد أولع الناس بعده بتضمينتها لأبي الفضل وقال أبو الفضل بن حسداى ، وكان يهوديا فأسلم ، ويقال : إنه من ولد موسى ابن حسداى على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام :

توريد خدك للأحداق لذات عليه من عنبر الأصداغ لامات
نيران هجر للعشاق نار لظى لكن وصالك إن واصلت جنات
كأنما الراح والراحات تحملها بدور تم وأيدى الشرب هالات
حشاشة ما تركنا الماء يقتلها إلا لتحيا بها منا حشاشات
قد كان من قبلها في كأسها ثقل خف إذ ملئت منها الزجاجات

وقد تبارى المشاركة والمغاربة من المتقدمين والمتأخرين في هذا الوزن والقافية ، ولولا خوف السامة لذكرت من ذلك الجملة الشافية السكافية .

ومن سرعة جواب أهل الأندلس أن ابن عبدربه كان صديقاً لأبي محمد يحيى القلقاط الشاعر ، ففسد ما بينهما بسبب أن ابن عبدربه [صاحب العقد] مر به يوماً وكان في مشيه اضطراب ، فقال : أبا عمر ما علمت أنك آدر^(٢) إلا اليوم لما رأيت مشيك ، فقال له ابن عبدربه : كذبتك عرسك أبا محمد ، فعز على القلقاط كلامه ، وقال له : أنتعرض للحرم ؟ والله لأرى نك كيف الهجاء ، ثم صنع فيه قصيدة أولها :
يا عرس أحمداًنى مزيع سفاً فودعني سراً من أبى عمرا
ثم تهاجيا بعد ذلك ، وكان القلقاط يلقبه^(٣) بطلاس لأنه كان أطلس اللحية ، ويسمى كتاب العقد حبس الثوم ، فاتفق اجتماعهما يوماً عند بعض الوزراء ، فقال الوزير للقلقاط : كيف حالك اليوم مع أبى عمر ؟ فقال مرتجلاً :
حَالِ طِلَاسٍ لى عن رائه وكننت فى قُعدِدِ أبنائه^(٤)

(١) يقال « فلان أبو عذرة كذا » إذا كان أول من فعله

(٢) في ب « ما علمت أنك آدر » محرفاً (٣) في ب « يلقب بالقلقاط » وأثبتنا

ما فى ا وما يؤيده ما يذكر فى الآيات الآتية (٤) فى ا « عن رأيه » وكلاهما مستقيم

(١٨ — نفع ٤)

فبدر ابن عبد ربه وقال :

إن كنت في قعد أبنائه فقد سقى أمك من مائه

فانقطع القلغاز خجلا ، وعاش ابن عبد ربه ٨٢ سنة ، رحمه الله تعالى !

ومن الحكايات في مروءة أهل الأندلس ما ذكره صاحب « الملتمس » في ترجمة الكاتب الأديب الشهير أبي الحسين بن جبير صاحب الرحلة ، وقد قدمنا ترجمته في الباب الخامس من هذا الكتاب ، وذكرنا هنالك أنه كان من أهل المروآت عاشقاً في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الإخوان ، وأنشدنا هنالك قوله :

* يحسب الناس بأنى متعب * إلى آخره

وقد ذكر ذلك كله صاحب « الملتمس » ثم قال - أعني صاحب الملتمس - :

ومن أغرب ما يحكى أنى كنت أحرص الناس على أن أصاهر قاضي غرناطة أبا محمد

عبد المنعم بن الغرس^(١) ، فجعلته - يعني ابن جبير - الواسطة حتى تيسر ذلك ، فلم

يوفق الله [ما] بيني وبين الزوجة ، فجنثته وشكوت له ذلك ، فقال : أنا ما كان

القصد لى في اجتماعكما ، ولكن سعت جهدي في غرضك ، وها أنا أسعى

أيضاً في افتراقكما ، إذ هو من غرضك ، وخرج في الحين ففصل القضية ،

ولم أرفي وجهه أولاً ولا آخرأ عنواناً لامتنان ولا تصعيب ، ثم إنه طرق بابي ،

ففتحت له ، ودخل وفي يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية ، ثم قال : يا ابن أخي ،

اعلم أنى كنت السبب في هذه القضية ، ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا

القدر الذى وجدته الآن عند عمك ، فبالله إلا ما سررتنى بقبوله ، فقلت له : أنا

ما أستحي منك في هذا الأمر ، والله إن أخذت هذا المال لأنقلنه فيما أتلفت فيه

مال والذى من أمور الشباب ، ولا يحل لك أن تمكثني منه^(٢) بعد أن شرحت لك

أمرى ، فتبسم وقال : لقد احتلت في الخروج عن المنة بحيلة ، وانصرف بماله ، انتهى

من مروءة
ابن جبير
الرحلة

(١) في « بن الغرس »

(٢) في « أن تمكثني به »

ثم قال صاحب « للتمس » وتذاكرنا يوماً معه [حالة الزاهد أبي عمران ^(١)]
المارتي ، فقال : صحبتته مدة فما رأيت مثله ، وأنشدني شعري من مانسيتهما ، ولا أنساها
ما استطعت ، فالأول قوله :

إلى كم أقول فلا أفعل وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر عيني فلا ترعوى وأنصح نفسي فلا تقبل
وكم ذا تعلل لي ويحبها بعلاً وسوف وكم تطل
وكم ذا أومل طول البقا وأغفل والموت لا يغفل
وفي كل يوم ينادي بنا منادى الرحيل ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقا وسبع أت بعدها تعجل
كأن بي وشيكا إلى مصرعي يساق بنعشي ولا أمهل
فيا ليت شعري بعد السؤال وطول المقام لما أنقل

والثاني قوله :

اسمع أخى نصيحتي والنصح من محض الديانة
لا تقربن إلى الشها دة والوساطة والأمانة
تسلم من أن تعزى لزو ر أو فضول أو خيانة

قال : فقلت له : أراك لم تعمل بوصيته في الوساطة ، فقال : ما ساعدتني رقة وجهي
على ذلك ، انتهى

رجع إلى نظم الأندلسيين

وقال أبو الصلت ^(٢) أمية بن عبد العزيز :

أفضل ما استصحب النبيل فلا تعدل به في المقام والسفر

من شعر
أبي الصلت أمية
ابن عبد العزيز

(١) في نسخة عند ب « أبي عثمان »

(٢) في ب « وقال ابن أبي الصلت أمية - إلخ » وليس بشيء أصلا

جرم إذا ما التمت قيمته
جَلَّ عن التبر وهو من صفر^(١)
مختصر وهو إذ تفقَّشه
عن مُلَح العلم غير مختصر
ذو مقلة تستبين ما رمقت
عن صائب اللحظ صادق الخبر^(٢)
تحمله وهو حامل فلكا
لوم يَدُر بالبنان لم يَدُر
مسكنه الأرض وهو ينبثنا
عن كل مافي السماء من خبر
أبدعه ربُّ فكرة بعدت
في اللطف عن أن تقاس بالفكر
فاستوجب الشكر والثناء به
من كل ذى فطنة من البشر
فهو لذى اللب شاهد عجب
على اختلاف العقول والصور^(٣)

قلت : وهى من أحسن ما سمعت فى الاصطراب
وأمر رحمه الله تعالى أن يكتب على قبره :

سَكَتُكَ يَا دَارَ الْفَنَاءِ مُصَدِّقًا
بَأْنِي إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ أَصِيرُ
وَأَعْظَمُ مَا فِى الْأَمْرِ أَنِّ صَائِرُ
إِلَى عَادِلٍ فِى الْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ
فِيَالَيْتَ شَعَرْتُ كَيْفَ الْقَامِ عِنْدَهَا
وَزَادَى قَلِيلَ وَالذُّنُوبُ كَثِيرُ
فَإِنْ أَكْ تَجَزَّيَا بِذَنْبِي فَإِنِّى
بِشَرِّ عِقَابِ الْمَذْنِبِينَ جَدِيرُ
وَإِنْ يَكْ عَفْوٌ مِنْ غَيْرِي وَمُفْضَلُ
قَمِ نَعْمِ دَائِمٌ وَسُرُورُ

وقال ابن خفاجة ، وهو ما أورده له صاحب الذخيرة :

من شعر
ابن خفاجة

لقد زار من أهوى على غير موعد
فعاينت بَدَرَ السَّمِّ ذَاكَ التَّلَاقِيَا
وعاتبته والعتب يحلو حديثه
وقد بلغت روحى لديه التراقيا
فلما اجتمعنا قلت من فرحى به
من الشعر بيتا والدموع سواقيا
وقد يجمع الله الشيتين بعدما
يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

(١) فى « جرم إذا ما التمت قيمته » (٢) فى « عن صائب اللحظ صادق النظر »

(٣) فى « على اختلاف العقول والفطر »

ومن مُجُون الأندلسيين هذه القصيدة المنسوبة لسيدى أبى عبد الله ^(١) بن الأزرق ، وهى : من مجون
أهل الأندلس

عم باتصال الزمن ولا تبالى بمن
وهو يواسى بالرضا من سمج أو حسن
أو من عجوز تحتطى والظهر منها منحى ^(٢)
أو من مليح مسعد موافق فى الزمن
مها تبدى خده يبدو لك الورد الجنى
والعصن فى أثوابه إذا تمشى ينثنى
لا أم لى لا أم لى إن لم أبرد شجنى
وأخلعن فى الجوى ن والتصابى رَسَنِى
وأجعل الصبر على هجر الملاح دَيْدَنِى
يا عاذلى فى مذهبي أراك شربُ اللبن
أعطيت فى البطن سِنًا نأ إن تخالف سَدَنِى ^(٣)
أى فتى خالفنى يوما ولمّا يلقنى
فإننى لناصح وإننى وإننى
فلا تكن لى لاجيًّا وفى الأمور استفتنى
فلم أزل أعرب عن نصيحى لمن لم يلحنى
وإن تُسَفِّه نظرى ومذهبي وتهنى
فالصفع تستوجبه نعم ونتف الذقن
والزبل فى وجهك يعالو باتصال الزمن
وبعد هذا أشرفنى منك ويبرا شجنى

(١) فى نسخة عند ب « سيدى عبد الله بن الأزرق »

(٢) فى ١ « عجوز تحتطى » (٣) فى ١ « أعطيت فى البطن نتانا »

وأضرب الكف أما م ذلك الوجه الدنى
 طقطق طقي طقطق طقي أصخ بسمع الأذن
 قح قح قح قح الضحك يغلبني^(١)
 قد كان أولى بك عن هذى الخازى تثنى
 النقي تستوجبه لواسط أو عدن
 عرضت بالنفس كذا إلى ارتكاب الحن
 أفدى صديقا كان لى بنفسه يسعدنى
 فتارة أنصحه وتارة ينصحنى
 وتارة ألغنه وتارة يلعننى
 وربما أصفعه وربما يصفعنى
 أستغفر الله فهذا القول لا يعجبني
 ياليت هذا كله فيما مضى لم يكن
 أضحكت والله بهذا الحديث من يسمعى
 دهر تولى وانقضى عنى كطيف الوسن
 ياليتنى لم أره وليته لم يرني
 دنت فيه جانبي وملبسى بالدرف
 وبعث فيه عشتى لكن بيخس الثمن
 كأتى ولست أد رى الآن ما كأتى
 والله ما التشبيه عند شاعر بهين
 لكنه أنطقنى بالقول ضيق العطن

(١) فى ب « الضحك يغلبنى » ولا يتم به الوزن ، وفى ا « الضحك يغلبنى »

وهو هذيان ، وزيادة نون التوكيد على ما فى ب يتم الوزن .

وا حسرتى وا أسفى زلت وضاعت فطنى
 لو أنصف الدهر لما أخرجنى من وطنى
 وليس لى من جنة وليس لى من مسكن
 أسرح الطرف وما لى دمنة فى الدمن^(١)
 وليس لى من فرس وليس لى من سكن
 ياليت شعرى وعسى ياليت أن تنفعنى
 هل أمتطى يوما إلى الشرق ظهور السفن
 وأجتلى ما شئتته فى المنزل المؤمن^(٢)
 حينئذ أخلع فى هذى القوافى رَسَنِى
 وتحسن الفكرة بالمُعدوس والسمنسى^(٣)
 واللحم مع شحم وَمَعْ طوابق الكبش الثنى^(٤)
 والبيض فى المقلاة بالزيت اللذيذ الدهن
 وجلدة الفروج مشوياً كثيراً السمن
 مَنْ منقذى أفديه من ذا الجوع والتمسكن
 وعلة قد استوى فيها الفقير والغنى^(٥)
 هل للثريد عودة إلىَّ قد شوقنى
 تغوص فيه أنملى غوص الأكل الحسنى
 ولى إلى الأسفنج شو ق دائم يطربنى
 وللأرزَّ الفضلُ إذ تطبخه باللبن
 وللشواء والرقا ق من هيام أنثنى

(١) هذا البيت فى ١ بعد الذى يليه هنا موافقا لما فى ب

(٢) فى ١ « فى المنزل المؤمن » (٣) فى ب « الفكرة بالمعدوس » محرفا

(٤) فى ب « واللحم مع شحم كذا - إلخ » (٥) فى ١ « وقلة قد استوى »

وأُسكت عن الجبن فإنَّ نَفْسَه يذهاني
 ظاهرها كالورد أو باطنها كالسوسن
 أى امرئ أبصرها يوما ولم يفتن
 تهيم فيها فكَّر الأسـتاذ والمؤذـن
 لو كان عندى معدن لبعث فيها معدنى
 لكننى عزمت أن أبيع كم البدن
 والسـم قد أكسبه بعد ولا يكسبنى
 لا تنسبوا لى سفها فالجوع قد أرشدنى
 وهات ذكر الكسكسو فهو شريف وسـنى
 لاسيا إن كان مصنوعا بِفَتْلٍ حسن^(١)
 أرفع منه كورا بهن تدوى أذنى
 وإن ذكرت غير ذا أطعمة فى الوطن
 فابدأ من المـثوما ت بالجبن المـمكن
 من فوقها القروج قد أنهى فى التـسمـن
 وثنَّ بالعصيدة التى بها تطربنى
 لاسيا إن صنعت على يدى ممركن
 كذلك البلياط بالزيت الذى يقنعنى
 تطبخه حتى يرى يحمر فى التلوتن
 والزبزن فى الصحا ف حسب أهل البطان
 فاسمع قضايا ناصح يأتى بنصح بين^(٢)

(١) فى ب « إن كان مصنوعا بفعل حسن »

(٢) فى ا « فاسمع قضاء ناصح »

من أقتنى النقي منى فهو نعم المقتنى^(١)
 وإن في شاشية الفقير أنسا للغنى
 تبعدنى عن وصلها عن وصلها تبعدنى
 تؤنسنى عن اللقا عن اللقا تؤنسنى^(٢)
 فأضلى إن ذكرت تهفو كمثل الغصن
 كم رمت تقريبا لها لكنه لم يهن
 وصدنى عن ذلك قلة الوفا بالثمن
 إيه خيلى هذه مطاعم لكنى
 أعجب من ريقك إذ يسيل فوق الذقن
 هل نلت منها شيعا فذكرها أشبعنى
 وإن تكن جوعان يا صاح فكل بالأذن
 فليس عند شاعر غير كلام الألسن^(٣)
 يصور الأشياء وهى أبدا لم تكن
 فقله يريك ما ليس يرى بالممكن
 فاسمح وسامح واقنع واطوحشاك واسكن
 ولننصرف فقصدا إطراف هذا الوطن

وقال ابن خفاجة رحمه الله تعالى :

درسوا العلوم ليلكوا بحداهم
 وتزهّدوا حتى أصابوا فرصة
 وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيرا .

من شعر
 ابن خفاجة

فيها صدور مراتب ومجالس
 في أخذ مال مساجد وكنائس

(١) ورد هذا البيت في اهكذا :

من اقتنى التفين فهو ————— و الآن نعم المقتنى

(٢) في ا « تؤنسنى » في الموضوعين (٣) في ا « سوى كلام الألسن »

وقال - فيما أظن - الفقيه الكاتب المحدث الأديب الشهير أبو عبد الله محمد لابن الأبار ابن الأبار القضاي ، وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب في مواضع :

لقد غضبت حتى على السمط نخوة فلم تتقلد غير مبسمها سمطا
وأنكرت الشيب الملم بلقي ومن عرف الأيام لم ينكر الوخا
وقال ابن سعيد في القدح المعلى في حقه : كاتب مشهور ، وشاعر مذكور ،
كتب عن ولاية بكنسية ، وورد رسولا حين أخذ النصارى بمخنق تلك الجهات ،
وأشد قصيدته السنية : ترجمة ابن الأبار

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وعارضه جمع من الشعراء ما بين محطىء ومحروم ، وأغرى الناس بحفظها إغراء
بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم^(١) ، إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء بأسباب
الخدمة ، فقلصت عنه تلك النعمة ، وأخر عن تلك العناية ، وارتحل إلى بجاية ،
وهو الآن بها عاطل من الرتب ، خال من حلى الأدب ، مشتغل بالتصنيف
في فنونه ، متنفل [منه] بواجبه ومسئونه ، ولى معه مجالسات آنق من الشباب ،
وأبهج من الروض عند نزول السحاب ، وما أنشدني من شعره :

يا حبذا بحديقة دولاب سكنت إلى حركاته الأبواب^(٢)
غنى ولم يطرب وسقى وهولم يشرب ومنه العود والأكواب
لو يدعى لطف الهواء أو الهوى ما كنت في تصديقه أرتاب
وكانه مما شدا مستهزى وكانه مما بكى نذاب
وكانه بنشاره ومداره فلك كواكبه لها أذئاب

وقال أبو المعالي القيجاطي :

(١) أخذ هذا من قول الشاعر :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

(٢) في ١ « سكنت إلى حركاتها الأبواب »

الجماعة
من شعراء
الأندلس

فقلت يا ربهم أين مَنْ أحببته فيك وأين النديم
فقال عهد قد غدا شمله كمثل ما ينثر در نظم
وقال أبو عمرو بن الحكم القبطي ، وقبلة : من أعمال وادي إشبيلية :
كم أقطع الدهر بالمطال ؟ ساءت وحق الإله حالي
رحلت أبنى بكم نجاحا فلم تفيدوا سوى ارتحالي
وعَدْتُ ألف ألف وعد لكنني عدت بالحال
وقال أبو عمران القلي :
طلعت على والأحوال سود كما طلع الصباح على الظلام
فقل لي كيف لأوليك شعري وإخلاص التحية والسلام

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن أيوب المرسى :

أنا سكران ولكن من هوى ذاك الفلاني
كلما رمت سُلُومًا لم يزل بين عياني

وقال :

حيبي ما لصبك من مراد سوى أن لا تدوم على البعاد
وإن كان ابتعادك بعد هذا مقيا فالسلام على فؤادي^(١)

قال ابن سعيد : وكان المذكور إذا غنى هذه الأشعار اللطيفة على الأوتار ، لم يبق
لسامعه عند الهموم من نار ، مع أخلاق كريمة ، وآداب كانسكاب الدِّيمة^(٢) ، انتهى .
وقال ابن سعيد : في أبي بكر محمد بن عمار البرجي كاتب ابن هود القائل لمن
يشهد حربا تحت رايات ابن هود إلخ :

(١) في ١ « فإن يدم ابتعادك بعدهذا »
(٢) الدِّيمة : المطر الدائم الذي لا يتقطع

يا ابن عمار لقد أحسيت لى ذاك السماء
فى حلى نظم ونثر علقاً فى مسمعي^(١)
ولقد حزت مكانا من ذرى الملك عليا
مثل ما قد حاز لكن عش بنعماك هنيا

وقال أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز الإشبيلي المعروف بابن صاحب الرد :

يا أبدع الخلق بلا مربية وجْهك فيه فتنة الناظرين
لا سيما إذ نلتقى خطرة فيغلب الورد على الياسمين
طوبى لمن قد زرتة خاليا فتمتع النفس ولو بعد حين
من ذلك الشعر الذى وردُهُ مازال فيه لذة الشاربين
وما حوى ذاك الإزار الذى لم يعدْ عنه أمل الزارين

وهذه الأبيات يقولها فى غلام كان أدباء إشبيلية قد فتنوا به ، وكان مروره على داره .

وحكى عنه أنه أعطاه فى زيارة خمسين دينارا ، ومرت أيام ثم صادفه عند داره ، فقال له : أتريد أن أزورك ثانية ؟ فقال [له] : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وهذا الجواب - على ما فيه من قلة الأدب ، وهتك حجاب الشريعة - من أشد الأجوية إصابة للغرض ، والله تعالى يسمح له ، فقد قال ابن سعيد فى حقه : إن بيته بإشبيلية من أجل البيوت ، ولم يزل له مع تقلب الزمان ظهور وخفوت ، وكان أدبيا شاعرا ذوقا لأطراف العلوم ، انتهى .

ومن المشهورين بالجون والخلاعة بالأندلس - مع البلاغة والبراعة - أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير

عمل بِلَنْسِيَّةَ ، وكتب عن ولاية من بنى عبد المؤمن ، ثم استكتبه السلطان ابن هود حين تغلب على الأندلس ، وربما استوزره في بعض الأحيان ، وقال ابن سعيد : وهو من كان والدي يكثر مجالسته ، ولم أستفد منه إلا ما كنت أحفظه في مجالسته ^(١) ، وكان شديد التهور ، كثير الطيش ، ذاهبا بنفسه كل مذهب ، سمعته مرة وهو في محفل يقول : تقيمون القيامة لحبيب ^(٢) والبحترى والمتنبى ، وفي عصرهم من يهتدى إلى ما لم يهتدوا إليه ؟ فأهوى له شخص له قِحَّةٌ وإقدام ، فقال : يا أبا جعفر ، فأرنا برهان ذلك ، ما أظنك تعنى إلا نفسك ، فقال : نعم ، ولم لا ؟ وأنا الذي أقول ما لم يتنبه ^(٣) إليه متقدم ، ولا يهتدى لمثله متأخر :

يا هل ترى أطرفَ من يومنا قَلَدَ جِيدَ الأفق طوقَ العقيق
وأنطق الورقَ بعيدانها مرقصة كل قضيب وريق
والشمس لا تشرب خمر الندى في الأرض إلا بكئوس الشقيق
فلم ينصفوه في الاستحسان ، وردوه في الغيظ إلى أضيق مكان ، فقلت له : ياسيدي ، هذا هو السحر الحلال ، فبالله إلا ما زدتنى ^(٤) من هذا النمط ، فقال :

أدرها فالسما بدت عروساً مُضْمَخَةً الملابس بالغوالى
وخد الروض حمرة أصيلٌ وجفن النهر كحل بالظلال
وجيدُ الغصن يشرق من لآل تضيء بهن أكفاف الليالى
فقلت : زد وعُدْ ، فعاد والارتياح قد ملك عطفه ، والنيه قد رفع أنفه ، فقال :
لله نهر عند ما زرته عاين طرفي منه سحرًا حلال
إذ أصبح الظل به ليلة وجال فيه الغصن شبه الخيال ^(٥)
فقلت : زد ، فأشد :

(١) في ١ « أحفظ في مجالسته » (٢) حبيب : هو أبو تمام حبيب بن أوس

(٣) في ١ « ما لم ينته إليه متقدم » (٤) في ١ « إلا ما زدتنا »

(٥) في ١ « إذ أصبح الظل به ليلة »

ولما ماج بحر الليل بيني وبينكم وقد جددت ذكرا
أراد لقاءكم إنسان عيني فمد له المنام عليه جسراً
فقلت : إيه ، فقال :

ولما أن رأى إنسان عيني بصحن الخد منه غريق ماء
أقام له العذار عليه جسراً كما مد الظلام على الضياء
فقلت : أعد ، فأعاد ، وقال : حَسْبُكَ لثلا تكثر عليك المعاني ، فلا تقوم بحق
قيمتها ، وأنشد :

هات المدام إذا رأيت شبيهاً في الأفق يا فرداً بغير شبيهه
فالصبح قد ذبح الظلام بنصّله فعدت تخصمه الحائم فيه
ثم قال : وكان قد تهتك في غلام لابن هود ، ولكثرة انهزام ابن هود ربما انهزم
مع العليج ، وفيه يقول :

ألفت الحرب حتى علمتني مقارعة الحوادث والخطوب
ولم أك عالماً وأينك حرباً بغير لواحق الرشأ الرّيب
فها أنا بين تلك وبين هذى مصاب من عدو أو حبيب

ولما هرب العليج ^(١) إلى سبتة أحسن إليه القائم بها أبو العباس البنتي ^(٢) ، فلم يقنع بذلك
الإحسان ، وكان يأتي بما يوغر صدره ، فقال يوماً في مجلسه : رميت مرة بقوس ،
فبلغ السهم إلى كذا ، فقال ابن طلحة لشخص بجانبه : لو كان قوس قزح ما بلغ
إلى كذا ، فشعر بقوله ، فأسرّها في نفسه ، ثم بلغه أنه هجاه بقوله :

سمعنا بالموفق فارتحلنا وشافِعْنَا له حسب وعلم
ورُمْتُ يداً أقبلها وأخرى أعيش بفضلها أبداً وأسمو

(١) في « ولما هرب بالعلج »

(٢) كذا في ب ، وفي « أبو العباس السبتي »

فأنشدنا لسان الحال فيه يد شالاً وأمر لا يتم
فزاد في حنقه ، وبقى مترصداً له الغوائل ، فحفظت عنه أبيات [قالها] وهو في حالة
استهتار في شهر رمضان ، وهي :

يقول أخو الفضول وقد رآنا على الإيمان يغلبنا المجون
أنتهكون شهر الصوم ههنا حماء منكم عقل ودين
فقلت اصحب سوانا ، نحن قوم زنادقة مذهبنا فنون
ندين بكل دين غير دين الرعاع فما به أبداً ندين
بحي على الصبح الدهر ندعو وإبليس يقول لنا أمين^(١)
فيا شهر الصيام إليك عنا إليك ففبك أ كفر مانكون^(٢)

فأرسل إليه من هجم عليه وهو على هذه الحال ، وأظهر أنه يرضى العامة بقتله ،
فقتله ، وذلك سنة ٦٣١ ، انتهى . وحاكى الكفر ليس بكافر ، والله سبحانه
وتعالى للزلزلات غير الكفر غافر .

وقال محمد بن أحمد الإشبيلي بن البناء :

كانك من جنس الكواكب كنت لم يفتك طلوعاً حالها وتواريا
تجلت من شرق تروق تالوا فلما انتحيت الغرب أصبحت هاويا
ولما أمر المستنصر الموحدى بضرب ابن غالب الداني ألف سوط وصلبه وضرب
باشبيلية خمسمائة ، مات ، وضرب بقية الألف حتى تناثر لحمه ، ثم صلب قال ابنه
أبو الربيع^(٣) يرثيه :

جهلا لمثلك أن يبكي لما قدرا وأن يقول أسي ياليتيه قبرا^(٤)
فاضت دموعك أن قاموا بأعظمه وقد تطاير عنه اللحم وانتشرا

(١) في ب « بحى على الصبح الزهر ندعو » محرفاً

(٢) في أ « ففبك أ كفر ما يكون » (٣) في أ « قال ابنه الربيع يرثيه »

(٤) في أ « هلا لمثلك ان تبكي لما قدرا » وليس بشيء

ومنها :

ضاقَتْ به الأرض مما كان حَمَلَهَا من الأيادي فملت شِلْوُهُ ضَجَرَا
وعز جسمك أن يحظى به كفن فما تسربل إلا الشمس والقمرَا
وقال أبو العلاء عبد الحق المرسى رحمه الله تعالى :

يا أبا عمران دعني والذي لم يمل بي خاطري إلا إليه
مانديمي غير من يخدمني لا الذي يُجَلِّسني بين يديه
يرفع السُّكُفَةَ عني ويرى أنها واجبة مني عليه
وقال ابن غالب السكاتب بمالقة :

لا تحش قولاً قد عَقَدْتَ الألسنا وابعث خيالك قد سَحَرْتَ الأعينا
واعطف علىَّ فإن روحي زاهق وانظر إلى بنظرة إن أمكنا
لا يَخْدَعَنَّكَ أن تراني لا بسا ثوبى فقد أصبحت فيه مكفنا
ما زال سحرك يستميل خواطري بأرقٍّ من ماء الصفاء وألينا
حتى غدوت ببحر حُبٍّ زاهر فرمت بي الأمواج في شط الضنا

وقال :

ما للنسيم لدى الأصيل عليلا أتراه يشكوز فَرَّةً وغليلا
جَرَّ الذبول على ديار أحبتي فأتى يجر من السَّقام ذيولا
وقال أبو عبد الله بن عساكر^(١) الغساني قاضي مالقة :

أهواك يا بَدْرُ وأهوى الذي يَعْذِلُنِي فيك وأهوى الرقيب
والجار والدار وَمَنْ حَلَمَهَا وكل من مر بها من قريب
ما إن تَنْصَرْتُ ولكني أقول بالثليث قولاً غريب

(١) في « أبو عبد الله بن عساكر »

يطابق الألحان والكاس إذ تبسم عجباً والغزال الريب
 وكان أبو أمية بن عفير^(١) قاضى إشبيلية — مع براعته ، وتقدمه في العلوم الشرعية —
 أقوى الناس بالعلوم الأدبية المرعية ، وقد اشتهر بسرعة الخاطر في الارتجال ، وعدم
 المناظر له في ذلك المَجَال ، قال ابن سعيد : رأيت^(٢) كثيراً ما يصنع القصائد
 والمقطعات ، وهو يتحدث أو يفصل بين الغرماء في أكثر الأوقات ، ومن شعره :
 ديارهم صاح نُصْبُ عيني وليس لي وصلة إليها^(٣)
 إلا سلامي لدى ابتعاد من بعد سُكَّانها عليها
 وقوله رحمه الله تعالى :

ووجه تفرق الأبصار فيه ولكن يترك الأرواح هيماً
 أنا في ثم حيَّاني حبيب به وأباحني الخلد الرقيماً
 فر لنا مجنون في فنون سلكت به الصراط المستقيماً

قلت : أما مجرد الارتجال فأمر عن الكثير صادر ، وأما كونه مع التحدث
 أوفصل الخصومات فهو نادر ، وقد حكينا منها في هذا الكتاب من القسم^(٤) الأول
 موارد ومصادر .

ويعجبني من الواقع لأهل المشرق من ذلك قضية علي بن ظافر ، إذ قال :
 بيت ليلة والشهاب يعقوب بن أخت نجم الدين في منزل اعترفت له مُشِيدَات
 القصور ، بالانخفاض والقصور ، وشهدت له ساميات البروج ، بالاعتلاء والعروج ،
 قد ابيضت حيطانه ، وطاب استيطانه ، وابتهج به سُكَّانه وقُطَّانه ، والبدر قد
 محا حِضَابَ الظلماء ، مُحْيَاهُ في زرقه قناع السماء ، وكسا الجدران ثياباً من فضة ،
 وَنَرَّ كافوره على مسك الثرى بعد أن سحقه ورَّضه ، والروض قد ابتسم مُحْيَاهُ ،

علي ابن ظافر
 ويعقوب

(١) في ب « بن عفير » بمعجمة أوله (٢) في أ « رأيت كثيراً »

(٣) في أ « ديارهم هي نصب عيني »

(٤) في ب « في القسم الأول » والمراد أنه حكى من النوع الأول الذي هو الارتجال المجرد

وَوَشَّتْ بِأَسْرَارِ مُحَاسِنِهِ رِيَّاهُ ، وَالنَّسِيمُ قَدْ عَانَقَ قَامَاتِ الْأَغْصَانِ فَمَيَّلَهَا ، وَغَصَبَهَا
مُبَاسِمَ نَوْرِهَا فَقَبَّلَهَا ، وَعِنْدُنَا مُعْنٌ قَدْ وَقَعَ عَلَى تَفْضِيلِهِ الْإِجْمَاعُ ، وَتَغَايَرَتْ عَلَى
مُحَاسِنِهِ الْأَبْصَارُ وَالْأَسْمَاعُ ، إِنْ بَدَأَ فَالْشَّمْسُ طَالَعَةُ ، وَإِنْ شَدَا فَالْوُرْقُ ^(١) سَاجِدَةٌ ،
تُغَازِلُهُ مُقَلَّةُ سِرَاجٍ قَدْ قَصَرَ عَلَى وَجْهِهِ تَحْدِيقُهُ ، وَقَابَلَهُ فَقَلْنَا الْبَدْرَ قَابِلَ عَيْوَقِهِ ، وَهُوَ
يَغَارُ عَلَيْهِ مِنَ النَّسِيمِ كُلِّمَا خَفِقَ وَهَبَّ ، وَيَسْتَجِيشُ عَلَيْهِ بِتَلْوِيحِ بَارِقَةِ الْمَوْشَى بِالذَّهَبِ ،
وَيُدِيمُ حَرَقَتَهُ وَسُوءَهُ ، وَيَبْذُلُ فِي الْإِطَافَةِ طَاقَتَهُ وَجَهْدَهُ ، فَتَارَةً يَضْمُخُهُ بِخَلْوَقِهِ ،
وَتَارَةً يُخْلِيهِ بِعَقْمِيَّتِهِ ، وَأَوْنَةً يَكْسُوهُ أَثْوَابُ شَقِيْقِهِ ، فَلَمْ نَزَلْ ^(٢) كَذَلِكَ حَتَّى نَعِسَ
طَرْفُ الْمَصْبَاحِ ، وَاسْتَيْقِظَ نَأْثُمُ الصَّبَاحِ ، فَصَنَعَتْ بَدِيْهَا فِي الْمَجْلِسِ ، وَكَتَبَتْ بِهَا
إِلَى الْأَعْزَبِ بْنِ الْمُؤَيَّدِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَصْفَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي ارْتَفَعَتْ عَلَى أَيَّامِ الْأَعْيَادِ ،
كَارْتِفَاعِ الرُّؤْسِ عَلَى الْأَجْيَادِ ^(٣) ، بَلْ فَضَّلَتْ لَيْلَاتِ الدَّهْرِ ، كَفَضْلِ الْبَدْرِ عَلَى
النَّجُومِ الزُّهْرِ :

غَبَّتْ عَنِّي يَا ابْنَ الْمُؤَيَّدِ فِي وَقْتِ شَهْمِي يَلْهَى الْحُبَّ الْمَشُوقَا
لَيْلَةَ ظَلَّ بِدْرِهَا يُلْبِسُ الْجَدَّ رَانَ ثَوْبًا مَفْضَضًا مَرْمُوقَا
وَعْدَا الطَّلِّ فِيهِ يَنْثُرُ كَافُو رَافِعِلُومَسْكَ التَّرَابِ السَّحْقِيَا
وَتَبَدَّى النَّسِيمُ يَعْتَنِقُ الْأَغْصَانَ لَمَّا سَرَى عِنَاقًا رَفِيقَا
بَتَ فِيهَا مَنَادِمًا لَصْدِيقِ ظَلَّ بَيْنَ الْأَنَامِ خِلَا صَدُوقَا
هُوَ مِثْلُ الْهَلَالِ وَجْهًا صَبِيحًا وَمِثَالُ النَّسِيمِ ذَهْنًا رَفِيقَا
وَعُزَالُ كَالْبَدْرِ وَجْهًا وَغَصْنُ الْبَانِ قَدًّا وَالْحَمْرَةُ الصَّرْفِ رَفِيقَا
مَظْهَرُ لِلْعَيُونِ رَدْفًا مَهِيلاً وَحَشَا نَاحِلًا وَقَدًّا رَشِيقَا
إِنْ تَعَنَّى سَمِعْتَ ، دَاوُدَ أَوَّلَا حَ تَأْمَلْتَ يُوسُفَ الصَّدِيقَا

(١) الورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة ، وفى ا « وَإِنْ شَدَا فَالْوُرْقَاءُ سَاجِدَةٌ »

(٢) فى ب « فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ » (٣) الأجياد : الأعناق ، واحدها جريد

وإذا قابل السراج رأينا منه بدرا يقابل العيوقا
وأظن الصباح هام بمرا ه فأبدى قلبا حريقا خفوقا
هو نجم ملاح في الجذر كافو رُ بياض إلا كساه خلوقا
مابدانرجس الكواكب إلا قام من نومه يرينا الشقيقا^(١)
وإذا ما بدت جواهرها في الجـ وأبدى في الأرض منهم عقيقا
فقدونا تحت الدجى تتعاطى من رقيق الآداب خمر ارحيقا^(٢)
وجعلنا رِيحًا نطايب ذكرًا ك فخلناه عنبراً مفتوقا
ذاك وقت لولا مَغِيْبُكَ عنه كان بالمدح والثناء خَلِيْقًا

قال : فأجاب عنها من الوزن دون الروي :

قد أتتني من الجمال قصيدٌ يالها من قصيدة غراء
جمعت رقة الهواء وطيب السمك في سبكها وصفو الماء
فأرتنا طباعه وشذاه والذي حاز ذهنه من ذكاء
سیدی هل جمعت فيها اللآلى يا أخا المجد أم نجوم السماء^(٣)
أفحمتني حسناً وحقاً أياديك التي لا تعدُّ بالإحصاء
فتركت الجواب والله عجزا فابسطِ العذر فيه يا مولائي
هل يسامى الثرى الثريا وأننى يدعى النجمُ قرطاً نور ذكاء

رجع إلى أهل الأندلس

وقال ابن السمان^(٤) :

إياك أن تكثر الإخوان مغتما في كل يوم إلى أن يكثر العدد
في واحدٍ منهم تصفى الودادله من التكاليف ما يفنى به الجلد

(١) في ب « قام في قومه يرينا الشقيقا »

(٢) في ب « خمرأ رقيقا » (٣) في ا « سیدی هل جمعت فيه اللآلى »

(٤) في أصل ا « ابن السمان » وفي نسخة عندها كما في ب

وله :

تمن ركابى نحو أرض ومالها ومالى من ذاك الحنين سوى لهم
 وكم راغب فى موضع لا يناله وأمست منه مثل يونس فى اليم
 بهذا قضى الرحمن فى كل ساخطٍ يموت على كره ويحيا على رغم
 ولما قام الباجى بإشبيلية وخلع طاعة ابن هودٍ ، وأبدل شعاره الأسود العباسى فى
 الينود ، قال أبو محمد عبد الحق الزهرى القرطبى فى ذلك :

كانما الراية السوداء قد نعبتُ لهم غرابا يبين الأهل والولد^(١)
 مات الهوى تحتها من فرط روعته فأظهر الدهر منها لبسة الكمد

وأشدهما القائم الباجى فى جملة قصيدة

وقال الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حجاج الأعمى الإشبلى :

أمسى القراش يطوف حول كؤسنا إذ خالها تحت الدجى قنديلا
 ما زال يحقق حولها بجناحه حتى رمته على القراش قتيلا

وله :

لاموا على حب الصبا والكاس لما بدا وضح المشيب براسى
 والغصن أحوج ما يكون لسقيته أيام يبدو بالأزاهر كاسى

وله ، وقد رأى على نهر قرطبة ثلاثين نفسا مصلوبين من قطاع الطريق :

ثلاثون قد صنفوا كلهم وقد فتحوا أذرعاً للوداع
 وما ودّعوا غير أرواحهم فكان وداعا لغير اجتماع

وله فى قتيّ وسيم عَضَّ كلبٌ وجنته :

وأغيد وضاح المحاسنِ باسم إذا قامَ الأرواحَ باظره قَمَرٌ^(٢)

(١) فى ب « كانما الراية السوداء قد نصبت - إلخ »

(٢) فى ب « وأغيد وضاح المباسم باسم »

من محاسن
أبي الحجاج
البياسي

تعمد كلب عَصَّ وجنته التي هي الورد إيناعا وأبقى بها أثر
فقلت لشهب الأفق كيف صماتكم وقد أثر العواء في صفحة القمر
وقال الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي المؤرخ الأديب ، المصنف الشهير ،
وكان حافظا لنسكت الأندلسيين حديثا وقديما ، ذا كرا لفكاهاتهم التي صيرته للملوك
خليلاننديما^(١) ، في صبي من أعيان الجزيرة الخضراء ، تهافت في حبه جماعة من
الأدباء والشعراء ، وكان من القوم الذين هاموا بالذكور ، وقاموا فيه المقام المشهور ،
أديب^٢ يقال له الفار ، فتسلط على البياسي حتى سافر من الجزيرة وكان يلقب بالقط :
عذرت أبا الحجاج من رب شيبة غدا لا بسا في الحب ثوبا من القار
والجاء الفار المشارك للنوى ولم أر قطا قبله فر من فار
وله :

قد سلونا عن الذي تدريه وجفونا إذ جفا بالتية
وتركناه صاغرا لأناس خدعوه بالزور والتمويه
لمصل يسوقه لمصل وسفيه يقوده لسفيه^(٢)

وله ، وقد كتب إلى بعض أصحابه يذكره بالأيام السوالف :

أباحسن لعمرك إن ذكرى لأيام النعيم من الصواب
أمثلي ليس يذكر عهد حص وقد جحت بنا خيل التصابي
ونحن نجر أثواب الأمانى مُطرزة هنالك بالشباب
وعهد بالجزيرة ليس ينسى وإن أغفلته عند الخطاب
هو الأحلى لدى وإن هانى عن العسل اجتماع للذباب

وسار إلى المحبوب ، وكان كثير الاجتماع به في جنة لوالده على وادي العسل ، فقال :

(١) في ١ « خديما ونديما »

(٢) في ١ « فصل يسوقه لمصل »

جنة وادى العسل كم لى بها من أمل
لو لم يكن ذُبابُها يمنع ذوق العسل

قال ابن سعيد : ولما التقينا بتونس بعد إيابى من المشرق ، وقد ولج ظلام الشعر^(١)
على وجهه المشرق ، قات لأبى الحجاج مشيراً إلى محبوبه ، وقد غطى هواه عنده
على عيوبه :

خَلَّ أبا الحجاج هذا الذى قد كنت فيه دائماً الوجد
وانظر إلى لحيمته واعتبر مما جنى الشَّعرُ على الخدَّ

والله سبحانه يسمح للجميع ، فى هذا الهزل الشنيع ، ويصفح عناً فى ذكره ، إنه
محجب سميع

وقال صاحب « البدائع » ركب الأستاذ أبو محمد بن صارة مع أصحاب له فى
نهر إشبيلية فى عشية سال أصيلها على لجين الماء عقيانا ، وطارت زواريقها فى سماء
النهر عقبانا ، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سُرراً وأعكانا ، فى زورق
يجول جولان الطرف ، ويسود أسوداد الطرف ، فقال بديها :

تأمل حالنا والجو طَلَقَ بحياه وقد طفل المساء
وقد جالت بنا عذراء حُبلى تجاذب مرطها ريح رخاء
بنهر كالسَّجَنجل كوثرى تعبس وجهها فيه السماء

وانفق أن وقف أبو إسحاق بن خفاجة على القطعة واستظرفها واستلطفها^(٢) ، فقال
يعارضها على وزنها ورويتها وطريقتها :

ألا يا حبذا ضحكُ الحميا بحانتها وقد عبس المساء
وأدهم من جياذ الماء مهر تنازح جلله ريح رخاء^(٣)

(١) فى ١ « ورد كلام الشعر » (٢) فى ١ « فاستظرفها واستلطفها »

(٣) فى ١ « وأدهم من جياذ الماء نهى »

ابن صارة
وأخوان له

إذا بدت السكواكب فيه غرقي رأيت الأرض تحسدها السماء

بين ابن خفاجة
وابن وهبون

وقال الأديب ابن خفاجة في ديوانه : صاحبتُ في صدري من المغرب سنة ثلاث
وثمانين وأربعمائة أبا محمد عبد الجليل بن وهبون شاعر المعتمد ، وكان أبو جعفر
ابن رشيق يومئذ قد تمتع ببعض حصون مرسية ، وشرع في النفاق ، فقطع السبيل ،
وأخاف الطريق ، ولما حاذينا قلعتيه وقد احتدمت جمره الهجير ، وملَّ الركبُ
رسيمه وذميله ، وأخذ كل منا يرتاد مقيله ، اتفقنا على أن لا نطعم طعاما ، ولا ندنوق
مناما ، حتى نقول في صورة تلك الحال ، وذلك الترحال ، ما حضر ، وشاء الله أن
أجبل ابن وهبون واعتذر^(١) ، وأخذت عفوَ خاطري ، فقلت أترى به ، وأعرض
بعضم لحيته :

ألا قل للمريض القلب مهلا فإن السيف قد ضمن الشقاء
ولم أر كالنفاق شكاه حرَّ ولا كدم الوريد له دواء^(٢)
وقد دحى النجيع هناك أرضا وقد سمك العجاجُ به سماء^(٣)
وديس به انحطاطا بطن واد مُدَّ أعشب شعر لحيته ضراء

ابن خفاجة
وأصحاب له

وقال ابن خفاجة أيضا : حضرت يوما مع أصحاب لي ، ومعهم صبي متهم في نفسه ،
واتفق أنهم تجاوزوا في تفضيل الرمان على العنب ، فأنبرى ذلك الصبي فأفرط في
تفضيل العنب ، فقلت بديها أعبث به :

صاني لك الخير برمانة لم تنتقل عن كرم العهد
لا عنبا أمتص عنقوده ثديا كأني بعد في المهدي
وهل يرى بينهما نسبة من عدل الخصية بالنهد

فجبل خجلا شديدا وانصرف

(١) في « وشاء الله إقبال ابن وهبون فاعتذر »

(٢) في ب « ولم أر كالنفاق شكاه حر »

(٣) في ب « وقد شمل العجاج به سماء »

قال : وخرجت يوماً بشاطبة إلى باب السَّجَّارين ، ابتغاء الفرجة على خير ذلك الماء بتلك الساقية ، وذلك سنة ٤٨٠ هـ ، وإذا بالفقيه أبي عمران بن أبي تليد^(١) رحمه الله تعالى قد سبقني إلى ذلك ، فالفيتة جالسا على دكان كانت هناك مبنية لهذا الشأن ، فسلمت عليه ، وجلست إليه ، مستأنسا به ، فجرى أثناء ما تناشدها ذكر قول ابن رشيقي :

يامن يمر ولا تمر به القلوب من الفَرْقِ
بعمامة من خدّه أو خدّه منها استرق
فكانه وكأنها قمر تعمّم بالشفق
فإذا بدا وإذا انثنى وإذا شدا وإذا نطق
شغل الخواطر والجوا نح والمسامع والحدق

فقلت ، وقد أعجب بها جدا ، وأثنى عليها كثيرا : أحسن ما في القطعة سياقة الأعداد ، وإلا فأنت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألقاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها ، وهل ينزل بإزاء قوله « وإذا نطق » قوله « شغل الحدق » وكأنه نازعني القول في هذا غاية الجهد ، فقلت بديها :

ومُهَفِّف طَاوِي الحشا خَنِثِ المعاطف والنظر
ملا العيون بصورة تليت محاسنها سور
فإذا رنا وإذا مشى وإذا شدا وإذا سفر
فضح الغزالة والغما مة والحمامة والقمر

فجئت بها استحسنانا ، انتهى

(١) هكذا في ١ ، وفي ب « بن أبي تليد »

قال ابن ظافر : والقطعة القافية ليست لابن رشيق ، بل هي لأبي الحسين^(١)
على بن بشر الكاتب أحد شعراء اليتيمة

وكان بين السميسر الشاعر وبين بعض رؤساء الأُمَرِيَّةِ واقع لمدح مدحه فلم
يجزه عليه ، فصنع ذلك الرجل دعوة للمعتصم بن صمادح صاحب المرية ، واحتفل
فيها بما يحتفل مثله في دعوة سلطان مثل المعتصم ، فصبر السميسر إلى أن ركب
السلطان متوجها إلى الدعوة ، فوقف له في الطريق ، فلما حاذاه رفع صوته بقوله :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ وَمَنْ لَدَى مَا تَمُّ فِي وَجْهِهِ عُرْسُ

لَا تَقْرَسَنَّ طَعَامًا عِنْدَ غَيْرِكُمْ إِنْ الْأَسْوَدُ عَلَى الْمَاءِ كَوَلٌ تَفْتَرَسُ

فقال المعتصم : صدق والله ، ورجع من الطريق ، وفسد على الرجل ما كان عمله .

ونظير هذه الحكاية أن عَبَّادَ بْنَ الْحَرِيشِ كَانَ قَدْ مَدَحَ رَجُلًا مِنْ كِبَارِ
أَصْبَهَانَ أَرَبَابَ الضَّيْعِ وَالْأَمْلَاقِ وَالتَّبَعِ الْكَثِيرِ ، فَمُطِّلُهُ بِالْجَائِزَةِ ، ثُمَّ أَجَازَهُ بِمَا
لَمْ يَرْضَهُ ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ بَحِينَ عَمَلَ الرَّجُلُ دَعْوَةً غَرِمَ عَلَيْهَا أُلُوفٌ دَنَانِيرَ
كَثِيرَةٍ لِأَبِي دُلْفٍ الْقَاسِمِ بْنِ عِيْسَى الْعِجْلِيِّ عَلَى أَنْ يَجِيءَ إِلَيْهِ مِنَ الْكَرَجِ ،
وَوَصَلَ أَبُو دُلْفٍ ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُ عَبَّادَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ بَعْضُ خَوَاصِهِ أَوْمًا إِلَى ذَلِكَ
السَّائِرِ وَأَنشَدَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

قُلْ لَهُ يَا فَدَيْتُهِ قَوْلَ عَبَّادَ ذَا سَمِجِ

جَثَّتْ فِي أَلْفِ فَارَسٍ لَقَدَاءَ مِنَ الْكَرَجِ

مَا عَلَى النَّفْسِ بَعْدَ ذَا فِي الدَّنَائَاتِ مِنْ حَرَجِ

فقال أبو دلف ، وكان أخوف الناس من شاعر : صدق والله ، أجيء من
الكرج إلى أصبهان حتى أتعدى بها ؟ والله ما بعد هذا في دناءة النفس من شيء !

ثم رجع من طريقه ، وفسد عل الرجل كل ماغرمه ، وعرف من أين أتى ،
وتخوف أن يعود عباد عليه بشر منها ، فسير إليه جائزة سنية مع جماعة من أصحابه ،
فاجتمعوا به ، وسألوه فيه ، وفي قبول الجائزة ، فلم يقبل الجائزة ، ثم أنشد بديها :

* وهبتُ يا قوم لكم عرضه *

فقالوا : جزاك الله تعالى خيراً ! فقال :

◦ كرامةٌ للشعر لا للفتى *

لأنه أبخل من ذرة على الذي تجمععه في الشتاء انتهى
وذكر أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي مامعناه : أنه عزم بمصر هو ورفقة
له على الاصطباح ، فقصدوا بركة الحبش ، في وقت ولاية الغبش ، وحلوا منها
روضا بسم زهره ، ونسم عطره ، فأداروا كؤسا ، تطلع من المدام شموسا^(١) ،
وعاينوها نجوما ، تكون لشياطين الهموم رجوما ، فطرب حتى أظهر الطرب
نشاطه ، وأبرز ابتهاجه وانبساطه ، فقال :

أبو الصلت
وإخوان له

والجؤ بين الضياء والغبش	لله يومى ببركة الحبش
كصارم فى يمين مرتعش	النيل تحت الرياح مضطرب
دُبج بالنور عطفها ووئشى	ونحن فى روضة مفوّقة
فنحن من نورها على فرش	قد نسجتها يد الغمام لنا
من سورة الهم غير منتعش	فعاطى الراح إن تاركها
فهنّ أروى لشدة العطش	وأسقى بالكبار مترعة
دعاه داعى الصبا فلم يطش	فأثقل الناس كلهم رجل

(١) فى ا « وأسقى بالكبار مترعة » ومترعة : اسم المفعول من قولهم « أترع فلان كأسه » إذا مלאها ، وأروى : أشد ربا

وهذا أبو الصَّلْت أمية من كبراء أدباء الأندلس العلماء الحكماء ، وقد ترجمناه في
الباب الخامس في المرتحلين من الأندلس إلى المشرق

وقال رحمه الله تعالى : كنت مع الحسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس
بالمهدية في الميدان ، وقد وقف يَرْمِي بالنشاب ، فصنعت فيه بديهاً :

يا ملكاً مذ خُلِقَتْ كفه لم تدر إلا الجود والباسا
إن النجوم الزهر مع بعدها قد حسدت في قربك الناسا
وودَّتِ الأملاك لو أنها تحوَّلت تحتك أفراسا
كما تمنى البدر لو أنه عاد لنشابك برجاسا

وصنع الوزير أبو جعفر أحمد الوقشي وزير الرئيس أبي إسحاق بن همشك^(١) صهر
للووزير الوقشي في غلام أسود الأمير أبي عبد الله محمد بن مرْدَنِش في يده قضيب نور بديها :

وزنجي أنى بقضيب نورٍ وقد زَفَّتْ لنا بنتُ الكروم
فقال فتى من الفتيان صفهاً فقلت الليل أقبل بالنجوم^(٢)

ولما أفرط أبو يحيى البكي^(٣) في هجاء أهل فاس تَعَسَّوْا عليه^(٤) ، وساعدهم واليهم أبو يحيى البكي
مظفر الخصى من قبل أمير المسلمين علي بن يوسف ، والقائدُ عبد الله بن خيار الجياني ،
وكان يتولى أموراً سلطانية بها ، فقدموا رجلاً ادعى عليه بدين ، وشهد عليه به
رجل فقيه يعرف بالزنا ، ورجل آخر يكنى بأبي الحسين من مشايخ البلد ،
فأثبت الحق عليه ، وأمر به إلى السجن ، فرفع إليه ، وسيقَ سَوْقاً عنيفاً ، فلما
وصل إلى بابه طلب ورقة من كاتبه ، وكتب فيها ، وأنفذها إلى مظفر مع العون
الذي أوصله إلى السجن ، فكان ما كتب :

أرشدوا الزناتي الفقيه يَبِيضَةَ يشهد بأن مظفراً ذو بيضتين

(١) في نسخة عند « بن همشك » (٢) في ١ « فقال فتى من الفتيان صفه »

(٣) في ب « البكي » وانظر ص ٣١٩ الآتية (٤) في ١ « تعسبوا عليه »

واهدوا إليه دجاجة يَحْلِفُ لَكُمْ ماناك عبد الله عرس أبي الحسين
 وقال أبو الحسن ^(١) على بن عتيق بن مؤمن القرطبي الأنصاري : عمل والدي
 محملاً للكتب من قضبان تشبه ساما ، فدخل عليه أبو محمد عبد الله بن مفيد ، فرآه ،
 فقال ارتجالاً :

من شعر
 ابن مفيد

أيها السيد الذكي الجنان لا تقسني بسلم البنيان
 فضل شكلي على السلام أني محمل للعلوم والقرآن
 حُرْتُ من حلية المحبين ضعفي واصفراري ورقة الأبدان
 فادعُ للصانع المجيد بفوزي ثم والِ الدعاء للإخوان
 ثم عمل أيضاً :

أيها السيد الكريمُ المساعي التفت صنعتي وحسن ابتداعي
 أنا للنسخ محمل خف حملي أنا في الشكل سُلم الإطلاع
 وقال أحمد بن رضي المالقي :

لجماعة من
 أهل الأندلس

ليس المدامة مما أستريح له ولا مجاوبة الأوتار والنغم
 وإنما لذتي كُتُبُ أطلعها وخادمي أبدا في نصرتي قلبي

وقال أبو القاسم البلوي الإشبيلي .

لمن أشكو مُصَابِي في البرايا ولا ألقى سوى رجل مصاب
 أمور لو تدبَّرها حكيم لعاش مدى الزمان أخوا اكتئاب
 أما في الدهر من أفشى إليه بأسراري فيؤنس بالجواب
 يُست من الأنام فما جليس يعز علي نهائ سوى كتابي

وقال أبو زكريا يحيى بن صفوان بن إدريس صاحبُ كتاب « العجالة » و « زاد
 المسافر » وغيرها :

ليت شعري كيف أنتم وأنا الصب المعنى
كل شيء لم تكونوا فيه لفظاً دون معنى
وله في نصراني وسيم لقيه يوم عيد :

تَوَحَّدَ في الحسن من لم يزل يثلث والقلب في صده (١)
يشف لك الماء من كفه ويقتدح النار من خده
وهذان البيتان نسبهما له بعضُ معاصريه ، وأبوهُ صفوان سابق الميدان .

وقال ابن بسام : سائر ابن عمار في بعض أسفاره غلامان من بني جهور ابن عمار
أحدهما أشقر العذار والآخر أخضره ، فجعل يميل بحديثه (٢) الأخضر العذار ، وغلامان من
ثم قال ارتجالاً :

تعلقته جهوري النجار حليّ اللَّمَى جوهرى النفايا (٣)
من النَّقَرِ البيض أسد الزمان رقاق الحواشي كرام السجايا
ولا غرو أن تغرب الشارقات وتبقى محاسنها بالعشَايا
ولا وصل إلا جمان الحديث نساقطه من ظهور المطايا
شَنِئْتُ المثلث للزعفران وملت إلى خضرة في التفايا (٤)

ومعناه أن ابن عمار أبغض المثلث لدخول الزعفران فيه لشبهه بعذار الأشقر منهما ،
وأحبَّ خضرة التفايا (٤) ، وهو لون طعام يعمل بالكزبرة ، لشبهها بعذار
الأخضر منهما .

وقال أبو العرب ابن معيشة الكفاني السبتي : أخبرني شيخ من أهل إشبيلية
كان قد أدرك دولة آل عباد ، وكان عليه من أثر كبر السن ودلائل التعمير
ما يشهد له بالصدق ، وينطق بأن قوله الحق ، قال : كنت في صَبَايَ حسن

(١) في ١ « يوحد في الحسن » وضبطه مضارعاً من التوحيد

(٢) في ١ « يميل في حديثه »

(٣) النجار - بكسر النون ، بزنة الكتاب - هو الأصل ، ووقع في ١ « جهوري

النجار حلو اللَّمَى » محرفاً (٤) في ١ « وملت إلى خضرة في التفايا »

ابن عمار
وابن معيشة
الكفاني

الصورة ، بديع الخلقة ، لا تلمحنى عينُ أحدٍ إلا ملكت قلبه ، وخلبت قلبه ، وسلبت له ، وأطلتُ كربه ، ، فيينا أنا واقف على باب دارنا إذا بالوزير أبى بكر ابن عمار قد أقبل في موكب زَجَل ، على فرس كالصخرة الصماء قدت من قنّة (١) الجبل ، فحين حاذاني ورآنى اشترأب إلى ينظرنى وبهت يتأملنى ، ثم دفع بمنخصرة كانت بيده فى صدرى ، وأنشد :

كفّ هذا الهد عني فبقلي منه جُرحُ
هو فى صدرك نهد وهو فى صدرى رُمحُ

ابن عمار
وغلام لابن
هود

وعبر فى « البدائع » على طريقة القلائد بما صورته : ذكر الفتح بن خاقان ما هذا معناه : أخبرنى ذو الوزارتين أبو المطرف بن عبد العزيز أنه حضر عند المؤمن بن هود فى يوم أجربى الجو فيه أشقر برقه ، ورمى بنبل ودقه ، وحملت الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها ، وتمايلت قامات الأغصان فى الحلل الخضر من أوراقها ، والأزهار قد تفتحت عيونها ، والكأتم قد ظهر مكنونها ، والأشجار قد انصقلت بالقطر ، ونشرت ما يفوق ألوان البرز وبثت ما يعلو العطر ، والراح قد أشرقت نجومها فى بروج الراح (٢) ، وحاكت شمسها شمس الأفق فتلفعت بغيوم الأفداح ، ومديرها قد ذاب ظرفاً فكاد يسيل من إهابه (٣) ، وأخجل خدّها حسناً فتكلل بعرق حبّابه ، إذا بفئى رومى من أصبح فتیان المؤمن قد أقبل متدرعاً كالبدر اجتاب سحابا ، والخمر اكتست حبّابا ، والطاوس انقلب حبابا ، فهو ملك حسناً إلا أنه جسد ، وغزال ليناً إلا أنه فى هيئة الأسد ، وقد جاء يريد استشارة المؤمن فى الخروج إلى موضع كان عول فيه عليه ، وأمره أن يتوجه إليه ، فحين وصل إلى حضرته لمحّه ابنُ عمار والسكر قد استحوذ على لبّه ، وانبثت سراياه

(١) قنّة الجبل - بضم القاف وتشديد النون مفتوحة - أعلى مكان فيه

(٢) الراح الأول : اسم من أسماء الحجر ، والراح الثانية : اليد

(٣) الإهاب - بكسر الهمزة - الجلد

في ضواحي قلبه^(١)، فأشار إليه وقربه ، واستبدع ذلك اللباس واستغربه ، وجدَّ في أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدِّلَّاص ، وأن يجلي عنه كما يجلي الخبث عن الخلاص ، وأن يوفر على ذلك الوفر نعمة جسمه ، ويكون هو الساقى على عادته القديمة ورسمه ، فأمره المؤمن بقبول أمره وامثاله ، واحتذاء أمثاله ، فحين ظهرت تلك الشمس من حجبها ، ورمت شياطين النفوس من كمِّ المدام بشُّبها ، ارتجل ابن عمار :

وهويته يسقى المدام كأنه	قر يدور بكوكب في مجلس
متناوح الحركات ينسدى عطفه	كالغصن هزته الصبا بتنفس
يسقى بكأس في أنامل سوسن	ويدير أخرى من محاجر نرجس
يا حامل السيف الطويل نجاده	ومصرف الفرس القصير المحبس
إياك بادرة الوغى من فارس	خشن القناع على عذار أمس
جهم وإن حسر القناع فإنما	كشف الظلام عن النهار المشمس
يطغى ويلعب في دلال عذاره	كالمرح يلعب في اللجام الجرس
سلم فقد قصف القنا غصن النقا	وسطا بليث الغاب ظبي المكنس
عنا بكأسك قد كفتنا مقله	حوراء قائمة بسكر المجلس

وضنع فيه أيضاً :

وأخور من ظباء الروم عاط	بسالفتيه من دمعى فريد
قسا قلباً وشنَّ عليه درعاً	فباطنه وظاهره حديد
بكيت وقد دنا ونأى رضا	وقد يبكي من الطرب الجليلد
وإن فتى تملكه برق	وأحرز حسنه لفتى سعيد ^(٢)

(١) كذا في ب ، وفي بدائع البدائ « نواحي قلبه » وهو أظهر

(٢) في ا « وإن فتى تملكه بنقد » وأحرز رقه «

المعتصم
ابن صمادح

وقال في « البدائع » مؤلفه ما نصه : خرج المعتصم بن صمادح صاحب المرية يوما إلى بعض متنزحاته ، فخل بروضة قد سَفَرَتْ عن وجهها البيج ، وتنفست عن مسكها الأريج ، وماست معاطِفُ أغصانها ، وتكلمت بلؤلؤِ الطلِّ أجيادُ قضاَئِها ، فتشَوَّفُ^(١) إلى الوزير أبي طالب بن غانم أحدِ كبراء دولته ، وسيوف صَوْلته ، فكتب إليه بديها بورقة كرنب يعود من شجرة :

أقبل أبا طالب إلينا واسقُطْ سُقُوطَ النَّدى عَلينا

وجلس المعتصم بن صمادح للذكر يوما وبين يديه ساقية قد أخذت ببردها حر الأوار^(٢) ، والتوى ماؤها فيها التواء فضة السوار ، فقال ارتجالا :

انظر إلى الماء كيف انحط من صَبَبِهِ كأنه أرَقَمٌ قد جد في هَرَبِهِ^(٣)

وقال السميسر :

بعوضٌ شربن دمي قهوة وَغَيَّنَنِي بضروب الأغاني^(٤)

كأن عروقي أوتارهن وجسمي الباب وهن القناني^(٥)

بعض ما قيل
في البعوض

[وقيل :^(٦)

بعوض وبرغوث وبق لزماني حسين دمي خمرًا فلذها الخمر

فيرقص برغوث لزمِر بعوضة وبَقَّهم سكت ليستمع الزمر

ومنه :

بق وبرغوث أتوا نحوى وقد شدوا عذابي

وأتى البعوض بزمره يا قوم أخرج من ثيابي^(٦)

وأحسن منه قول ابن شرف القيرواني :

لك مجلس كملت بشارة لهونا فيه ، ولكن تحت ذاك الحديث^(٧)

(١) في ١ « فتشوق » من الشوق (٢) الأوار - بضم الهمزة - شدة العطش

(٣) في ١ « انحط في صبيه » (٤) في ب « يعود شربن دمي » محرفا

(٥) في ب « وهن القيان » محرفا (٦) ما بين المعقوفين ثابت في ب وحدها

(٧) في ١ « لك مجلس كملت ستارة لهونا »

غَنَى الذَّبَابُ فَظَالَ يَرْمُرُ حَوْلَهُ فِيهِ الْبَعُوضُ وَيَرْقُصُ الْبَرْغُوثُ
والسابق إلى هذا المعنى أبو أحمد بن أيوب من شعراء اليتيمية إذ قال :

لَا أَعْذِلُ اللَّيْلَ فِي تَطَاوُلِهِ لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا نَحْنُ فِيهِ نَقْصُ
لِي وَالْبَرَاغِيثُ وَالْبَعُوضُ إِذَا أَجَنَّا حِنْدِسُ الظَّلَامِ قِصَصُ
إِذَا تَغَنَّى بَعُوضُهُ طَرَبًا أَطْرَبَ بَرْغُوثُهُ الْغِنَا فَرْقُصُ

ونحو هذا قول الحصري فيما نسب إليه ^(١) ابن دحية :

ضَاقَتْ بِلَنْسِيَةِ بِي وَذَاذَ عَنَى غَمُوضِي
رَقْصُ الْبَرَاغِيثِ فِيهَا عَلَى غِنَاءِ الْبَعُوضِ

رجع إلى أهل الأندلس ، فنقول :

عود إلى أهل
الأندلس

كان ابن سعد الخليلي البَلَنْسِيُّ الشاعر كثير الذهول ، مفرط النسيان ، ظاهر التغفل ، على جودة نظمه ، ورطوبة طبعه ، وكان كثيرًا ما يسلك سكة الإسكافيين الذين يعملون الخِيفَافَ على بغلة له ، فاتخذت البغلة النفور من أطراف الأدم وفضلات الجلود الملقاة في السكة عادة لها ، واتفق أن عبر في السكة راجلا ، ومعه جماعة من أصحابه ، فلما رأى الجلود الملقاة قفز ووثب راجعا على عقبه ، فقال له أصحابه : ما هذا أيها الأستاذ ؟ فقال : البغلة نفرت ، فمحبوا من تغفله ^(٢) كيف ظن مع ما يقاسيه من ألم المشي ونصب التعب أنه راكب ؟ وأن حركته الاختيارية منه حركة الدابة الضرورية له ، فكان تغفله ربما أوقعه في تهمة عند من لم يعرفه ، فاقترح عليه بعض الأمراء أن يصنع بيتين أول أحدهما كتاب وآخره ذئب ، وأول الآخر ^(٣) جوارح وآخره أنابيب ، فصنع بديها :

كِتَابُ نَجِيعٍ لَاحٍ فِي حَوْمَةِ الْوُغَى وَقَارَنَهُ نَسْرٌ هَنَالِكُ أَوْ ذِيبُ

(١) في ١ « فيما نسب إليه » (٢) في ١ « فمحبوا من تخلفه وتغفله »

(٣) في ١ « والأول الآخر » وليس بشيء

جوارح أهليه حروفٌ وربما تَوَلَّتْهُ من نقط الطعان أنابيب
وقال الحميدى : ذكر لى أبو بكر المروانى أنه شاهد محبوبا الشاعر النحوى
قال بديهة فى صفة ناعورة :

وذاث حنين ما تغيضُ جفونها من اللجج الخضر الصوافى على شَطٍّ
وتبكي فتحي من دموع جفونها رياضاً تبسدت بالأزاهر فى بسط^(١)
فمن أحمر قات وأصفر فاقع وأزهر مبيض وأدكن مُسَمِّطٌ
كان ظروف الماء من فوق متنها لآلى جُحان قد نُظِمْنَ على قُرْطٍ
وقال أبو الخطاب بن دَحِيَّة : دخلت على الوزير الفقيه الأجل أبى بكر عبد الرحمن
ابن محمد بن مغاور السامى ، فوقع الكلام فى علوم لم تكن من جنس فنونه ،
فقال بديها :

أيها العالم أَدْرَكْنى سماحا فلمثلنى يحقُّ منك السماح
إن تخانى إذا نطقت عينا فبنانى إذا كتبت وقاح
أحرز الشاؤ فى نظام ونثر ثم أثنى وفى العنان جِجَاحُ
فبهزل كما تأود غُصْنٌ ويجد كما تهز الصفاح
وقال : دخلت عليه منزله^(٢) بشاطبة فى اليوم الذى توفى فيه وهو يجود بنفسه ،
فأنشد بديها :

أيها الواقف اعتبارا بقبرى استمع فيه قول عظمى الرميم
أودعوني بطن الضريح وخافوا من ذنوب كلومها بأدينى
ودعوني بما اكتسبت رهينا غلق الرهن عند مولى كريم

(١) وقع هذا البيت فى اهكذا :

تبكى فنجنى من دموع جفونها رياضاً تبدى من أزاهر فى بسط
ووقع فى البدائع هكذا :

وتبكى فنجنى من دموع عيونها لآلى رياض بالأزاهر فى بسط
(٢) فى ١ « دخلت عليه بمنزله »

وقال ابن طوفان : دعا أبي أبا الوليد النَّحْلَى ، فلما قضاوا وطهرهم من الطعام سقيتهم ، وجعلت أترعُ الكاسات ^(١) ، فلما مشت في النَّحْلَى سورة الحميا ارتجل :

لابن طوفان أيادٍ قلَّ فيها مُشبهوه

ملا الكاسات حتى قيل في البيت أبوه

ونظيره قول المتفئ ^(٢) من شعراء الذخيرة في الشاعر ابن الفراء :

فاذا ما قال شعرا نفقت سوق أبيه

وذكر في «بدائع البدائع» أن جماعة من الشعراء في أيام الأفضل خرجوا متنزهين

في وصف
الأهرام

إلى الأهرام ليروا عجائب مبانيها ، ويتأملوا ما سطره الدهر من العبر فيها ، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها ، فصنع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي :

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا على مارأت عيناك من هَرَمَى مصر

أنافا بأعنان السماء فأشرفا على الجوا إشراف السماك أو النسـ ^(٣)

وقد وافيا نَشْرًا من الأرض عاليا كأنهما نهْدَانِ قاما على صدر

وصنع أبو منصور ظافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وانظر وبينهما أبو الهول العجيب

كهمار يبتن على رحيل بمحبوبين بينهما رقيب ^(٤)

وقيض البحر عندهما دموع وصوت الريح بينهما نجيب

وظاهر سجن يوسف مثل صب تخلف فهو محزون كئيب

وقال ابن بسام : كان للمتوكل ابن الأفطس فرس أدهم أغر محجل على كفله ست في وصف فرس

نقط بيض ، فندب المتوكل الشعراء لصفته ، فصنع النَّحْلَى أبو الوليد فيه بديها :

ركبَ البدرُ جوادا سابجا تقف الريح لأدنى مهله

لبس الليل قيصا سابغا والثريا نقط في كفله

(١) أترع الكاسات : أملؤها (٢) في ب «المتقبل» وفي البدائع «المعقل»

(٣) في البدائع «أنافا بأكناف السماء» وفي «السماك على النسـ»

(٤) في «كهماريتين على رحيل»

وغدير الصبح قد خيض به فبدا تحجيلة من بله
كلُّ مطلوب وإن طالت به رجله من أجله في أجَلِه
ثم انتدب الشعراء بعد ذلك للعمل فيه ، فصنع ابن اللبانة :

لله طِرْفٌ جال يا ابن محمد فحبت به حوباؤه التأميلا
لما رأى أن الظلام أديمه أهدي لأربعه الهدى تحجيلا
وكأنما في الردف منه مباسم تبغى هناك لرجله تقبيلا
وقال فيه أبو عبد الله بن عبد البر الشنتريني من قطعة :

وكأنما عُمرٌ على صَهَوَاتِه قر تسير به الرياح الأربع
ويعنى بعمر المتوكل المذكور لأن اسمه عمر .

وقال أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي قاضي إشبيلية :

لله إخوان تناءت دارهم حفظوا الوداد على النوى أو خانوا
يهدي لنا طيب الثناء ودادهم كالدُّ يهدي الطيب وهو دخان

وحكى أن أيوب بن سليمان السهيلي المرواني حضر يوما عند ابن باجة^(١) الشاعر ،
وأبو الحسن بن جودي هناك ، فتكلم المرواني بكلام ظهر فيه نُبلٌ وأدب ، فتشوف^(٢)
أبو الحسن بن جودي لمعرفة ، وكان إذ ذاك فتى السن ، فقال له : من أنت
أكرمك الله تعالى ؟ فقال : هلا سألت غيري عنى فيكون ذلك أحسن لك
أديبا ولى توقيرا ، فقال ابن جودي : قد سألت من المعروف عنك فلم يعرفك ، فقال :
يا هذا ، طالما مر علينا^(٣) زمان يعرفنا من يجهل ، ولا يحتاج من يرانا فيه إلى أن
يسأل ، وأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه وأنشد :

أنا ابن الألى قد عَوَّضَ الدهر عزمي بذلِّ وقلوا واستحبوا التنكرا

(١) في « عند ابن باجة ، والشاعر أبو الحسن بن جودي هناك »

(٢) في « فتشوف » (٣) في « لطالما مر علينا زمان »

ملوك على مر الزمان بمشرق وغرب دهاهم دهرهم وتغيرا
فلا تُذكرهم بالسؤال مصابهم فإن حياة الرزء أن يتذكرا
فقطن ابن جودى أنه من بنى مروان ، فقام وقبل رأسه ، واعتذر إليه ، ثم انصرف
المروانى ، فقال ابن باجة لابن جودى : أساء أدبك ^(١) بعدما عهدت منك ؟ كيف تعتمد
إلى رجل فى مجلسى تجدى ^(٢) قد قربته وأكرمته وخَصَصْتَه بالإصغاء إلى كلامه فتقدم
عليه بالسؤال عن نفسه ؟ فاحذر أن تكون لك عادة ، فإنها من أسوأ الأدب ،
فقال ابن جودى : لم نزل ^(٣) من الشيخ على ما قاله أبو تمام
* نأخذ من ماله ومن أدبه *

وحكى أن بكار المروانى لما ترك وطنه وخرج فى الجهاد وقتل ، قال صاحب بكار المروانى
السقط : إنه اجتمع به فى أشبونة فقال : قصدت منزله بها ، ونقرت الباب ، فنادى :
من هذا ؟ فقلت : رجل ممن يتوسل لرؤياك بقرابة ، فقال : لافراة إلا بالتقى ، فإن
كنت من أهله فادخل ، وإلا فتنح عني ، فقلت : أرجو فى الاجتماع بك
والاقتباس منك أن أكون من أهل التقى ، فقال : ادخل ، فدخلت عليه فإذا به فى
مُصَلَّاه وسبحة أمامه ، وهو يعدّ حبوبها ويسبح فيها ، فقال لى : ارفق على حتى أتم
وظيفتى من هذا التسبيح ، وأقضى حقك ، فمعدت إلى أن فرغ ، فلما قضى شغله
عطف على وقال : ما القرابة التى بينى وبينك ؟ فانتسبت له ، فعرف أبى ،
وترحم عليه ، وقال لى : لقد كان نعم الرجل ، وكان لديه أدب ومعرفة ، فهل لديك
أنت مما كان لديه شئ ؟ فقلت له : إنه كان يأخذنى بالقراءة وتعلم الأدب ، وقد
تعلقت من ذلك بما أتميز به ، فقال لى : هل تنظم شيئا ؟ قلت : نعم ، وقد ألجأتى
الدهر إلى أن أرتزق به ، فقال : يا ولدى إنه بئسما يرتزق به ، ونعم ما يتحلى به

(١) فى ١ « ساءنى أدبك »

(٢) فى ١ « ترانى قد قربته »

(٣) فى ١ « لم أزل »

إذا كان على غير هذا الوجه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة » ولكل تحمل الميتة عند الضرورة ، فأنشدني أصالحك الله تعالى مما على ذكرك من شعرك ، قال : فطلبت بخاطري شيئاً أقابله به مما يوافق حاله فما وقع لى إلا فيما لا يوافق من مجنون ووصف خمر وما أشبه ذلك ، فأطرقت قليلاً ، فقال : لعلك تنظم ، فقلت : لا ولكن أفكر فيما أقابلك به ، فقولى أكثره فيما حملنى عليه الصُّبا والسُخف ، وهو غير لائق بمجلسك^(١) ، فقال : يا بنى ، ولا هذا كله . إنا لا نبليغ من تقوى الله إلى حدٍّ نخرج به عن السلف الصالح ، وإذا صح عندنا أن عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومفسر كتاب الله تعالى ينشد مثل قول القائل :

* إِنْ يَصْدُقُ الطَّيْرُ نَفْكَ لَمَيْسَا *

فمن نحن حتى نأبى أن نسمع مثل هذا ؟ والله لا أنشد^(٢) عن السلف الصالح ، أنشدنى ما وقع لك غير متكلف ، فلم يمدنى خاطرى إلى غير قولى من شعر أئجُن فيه :

أبطأت عنى ، وإنى لنى اشتياق شديد
وفى يدي لك شئ قد قام مثل العمود
لو ذقته مرة لم تعد لهذا الصدود

فتبسّم الشيخ وقال : أما كان فى نظمك أطهر من هذا ؟ فقلت له : ما وفقت لغيره ، فقال : لا بأس عليك ، فأنشدنى غيره ، ففكرت إلى أن أنشدته قولى :

ولما وفقت على ربّهم تجرّعتُ وجدى بالأجرع
وأرسل دمعى شرار الدموع لنار تأجّج فى الأضلع^(٣)

(١) فى ١ « وهو لائق بغير مجلسك »

(٢) فى ١ « ألا والله لأنشد عن السلف الصالح » محرفاً

(٣) فى ١ « وأرسل دمعى شدة الدموع » محرفاً

فقال عذولي ، لمأ رأى بكائي : رفقاً على الأذمّع^(١)

فقلت له : هذه سنة لمن حفظ العهد في الأربع

قال : فرأيت الشيخ قد اختلط ، وجعل يجيء ويذهب ، ثم أفاق وقال :
أعد بحق آبائك الكرام ، فأعدت ، فأعاد ما كان فيه وجعل يردد [هـ] ، فقلت له :
لو علمت أن هذا يحركك ما أنشدتك إياه ، فقال : وهل حرك مني إلا خيراً وعظماً ؟
يا بني إن هذه القلوب الحلافة لله كالورق التي جفت ، وهي مستعدة لهبوب الرياح ،
فإن هب عليها أقل ريح لعب بها كيف شاء ، وصادف منها طَوْعه ، فأعجبني
منزعه ، وتأنست به ، ولم أر عنده ما يعتاد من هؤلاء المتدينين من الانجماع
والانكماش ، بل مازال يبسطني ويحدثني بأخبار فيها هزل ، ويذكر لي من تاريخ
بنى أمية وملوكها ما أرتاح له ، ولا أعلم أكثره ، فلما كثر تأنسي به أهويت إلى يده
كي أقبلها ، فضمها بسرعة ، وقال : ما شأنك ؟ فقلت : راغبك في أن تشدني
شيئاً من نظمك ، فقال : أما نظمي في زمان الصبا فكان له وقت ذهب ، ويجب
لنظم أن يذهب معه ، وأما نظمي في هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله ، وهو يثقل
عليك ، فقلت له : إن أنصف سيدي الشيخ نفعا الله تعالى به أنشدني من نظم
صباه ، ومن نظم شيخوخته^(٢) ، فيأخذ كلانا بحظه ، فضحك وقال : ما أعصيك
وأنت ضيف [وقريب] ولك حرمة أدب^(٣) ووسيلة قصد ، ثم أنشدني وقد بدا عليه
الخشوعُ وخَنَقَتُهُ العَبْرَةُ :

ثق بالذي سَوَّالَكَ من عدم فإنك من عدم
وانظر لنفسك قبل قرَّع السن من فرط الندم
واحذر وُقَيْتَ من الوري واصحَّهِمْ أعمى أصم

(١) في ب « فقام عذولي » وفيها « وقفاً على الأذمّع »

(٢) في ا « ومن نظم شيخه » ونيس بشيء (٣) في ا « ولك حرمة وأدب »

قد كنت في تيه إلى أن لاح لي أهدى علم
فاقتدت نحو ضيائه حتى خرجت من الظلم^(١)
لكن قناديل الهوى في نور رشدى كالحم

قال : فوالله لقد أدركني فوق ما أدركه ، وغلبَ على خاطري بما سمعت من هذه الأبيات ، وفعلت بي من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلا بعد حين ، فقال لي الشيخ : إن هذه يقظة يرجى معها خيرك ، والله مرشدك ومنقذك ، ثم قال لي : يا بني هذا ما نحن بسبيله الآن ، فاسمع فيما مضى والله وليُّ المغفرة ، وإنا لنرجو منه غفران الفعل ، فكيف القول ، وأنشد :

أطلَّ عذارٌ على خدِّه فظنُّوا سُلوًى عن مذهبي
وقالوا غرابٌ لوشك النوى فقلت أكنسى البدرُ بالغيب
وناديتُ قلبي أينَ المسيرُ وبدرُ الدجى حلَّ بالعقرب^(٢)
فقال ولو رُميتَ عن حُبِّه رحيلًا عصيتُ ولم أذهب

قال : فسمعت [منه] ما يقصر عنه صدور الشعراء ، وشهدت له بالتقدم ، وقلت له : لم أر أحسن من نظمك في جدِّ ولا هزل ، ثم قلت له : أأرويه عنك ؟ فقال : نعم ، ما أرى به بأسا بعد اطلاع مَنْ يعلم السرائر ، على ما في الضمائر ، فما قدر هذه الفكاهة في إغضاء^(٣) من يغفر الكبائر ؟ ويغضى عن العظام ، قال : فقلت له : فإن أسبغت على النعمة بزيادة شيء من هذا الفن فعلت ما تملك به قلبي آخرَ الدهر ، فقال : يا بني لا مَلَكَ قلبك غير حب الله تعالى ! ثم قال : ولا أجمع عليك رد قول ومنعاً^(٤) ، وأنشد :

أيها الشادن الذي حسنه في الورى غريب

(١) في « فاقتدت لحوضيائه » (٢) في « وبدر الدجى حل في العقرب »

(٣) في « في إحصاء من يغفر » (٤) في « رد قول ومعنى » محرفا

لَحَظْتُ ذَاكَ الْجَمَالَ يَطْفِئُ مَا بِي مِنَ الْهَيْبِ
وَعَلَيْهِ أَحْسَمُ دَهْرِي وَلَكِنِّي أَخِيبُ
كَلِمَا رَمَتْ زُورَةَ قَيْضِ اللَّهِ لِي رَقِيبُ

قال : فما زج قلبي من الرقة واللطفة لهذا الشعر ما أعجز عن التعبير عنه ، فقلت له :
زدني زادك الله تعالى خيرا ، فأنشدني :

مَا كَانَ قَلْبِي يَدْرِي قَدَرِ حَبْكُمَا حَتَّى بَعْدْتُمْ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْجَلْدِ
وَكُنْتُ أَحْسَبُ أَنِّي لَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا فَمَا حَانَ حَتَّى فَتَقَى عَضْدِي
ثُمَّ اسْتَمَرْتُ عَلَى كَرِهِ مَرِيرَتِهِ فَكَادَ يَفْرُقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
عَسَاكُمْ أَنْ تَلَاَفُوا بِاللِّقَا رَمَقِي فَلَيْسَ لِي مَهْجَةٌ تَقْوِي عَلَى السَّكْمِ

ثم قال : حسبك ، وإن كلفتني زيادة فالله حسبك ، فقلت له : قد وكلتني إلى
كريم غفور رحيم ، فبالله إلا ما زدتنى ، وأكبتت لأقبل رجليه ،
فضمهما وأنشد :

لَهُ مِنْ قَالَ لَمَّا شَكُوتُ فِيهِ نُحُولِي
أَمَّا السَّبِيلُ لَوْصَلُ فَمَالَهُ مِنْ وَصُولِ
فَقُلْتُ حَسْبِيَ التَّمَّاحُ بِحَسَنِ وَجْهِ جَمِيلِ
وَجْهِهِ تَلَوُّحُ عَلَيْهِ عَلَامَةُ الْقَبُولِ
فَقَالَ دَعْنِي فَهَذَا تَعَرُّضٌ لِلْفُضُولِ
فَقُلْتُ عَاتِبَ وَخَاطَبَ بِالْأَمْنِ أَهْلَ الْعُقُولِ

فلأسمي عجائب ، وبسط أنسى ، وكتبت كل ما أنشدني ، ثم قلت له : لولا
خوفي من التثقيب عليك لم أزل أستدعي منك الإنشاد حتى لا تجد ما تنشده ،
فقال : إن عدت إن شاء الله تعالى إلى هنا تذكري ، وأنشدتك ، فما عندي مما

أضيفك غير ماسمعت^(١) ، وماتراه ، ثم قام وجاء من بيت آخر في داره بصخرة فيها حساً من دقيق وكسور باردة ، فجعل يفتّ فيها ، ثم أشار إلى أن أشرب ، فشربت ، ثم شرب إلى أن أتينا على آخرها ، ثم قال لى : هذا غداء عمك نهارة ، وإنه لنعمة من الله تعالى أستديم بشكرها اتصاها ، قال : فقلت له : يا عم ، ومن أين عيشك ؟ فقال : يا بنى ، عيشتى بتلك الشبكة أصداد بها فى سواحل البحر ماأقتات به ، ولى زوجة و بنت يعود من غزلهما مع ذلك ما نجد به^(٢) معونة ، وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خيرٌ كثير ، جعلنا الله تعالى ممن يلقاه على حالة يرضاها ، وختم لنا بخاتمة لا يخاف معها فضيحة ! قال : فتركته وقت وفى نيتى أن أعود إلى زيارته ، ونويت أن يكون ذلك بعد أيام خوف التثقل ، فعدت إليه بعد ثلاثة أيام ، فنقرت الباب ، فكلمتنى المرأة بلسان عليه أثر الحزن ، وقالت : إن الشيخ خرج إلى الغزو ، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم ناله كالجنون ، فقلت له : ما شأنك ؟ فقال : إنى أريد أن أموت شهيداً فى الغزو ، وهؤلاء جيران لى قد عزموا على الغزو ، وأنا إن شاء الله تعالى ماضٍ معهم ، ثم احتال فى سيفٍ ورمح وتوجّه معهم ، وقال : نفسى هى التى قتلتنى بهوها ، أفلا أقتصّ منها فأقتلها ، قال : فقلت لها : مَنْ خَافَ للنظر فى شأنكم ؟ فقالت : ليس ذلك لك ، فالذى خلقنا له لا نحتاج معه^(٣) إلى غيره ، فأدركنى من جوابها روعة ، وعلمت أنها مثله زهداً وصلاحاً ، فقلت : إنى قريبه ، ويجب على أن أنظر فى حالكم بعده ، فقالت : يا هذا إنك لست بذى حرم ، ولنا من العجائز من ينظر منا ويبيع غزلاًنا ويتفقد أحوالنا ، فجزاك الله تعالى عنا خيراً ! انصرف عنا مشكوراً ، فقلت لها : هذه

(١) فى ا « غير ماسمعت »

(٢) فى ا « ما نجد فيه معونة »

(٣) فى ا « لا نحتاج معه إلى غيره »

دراهم خذوها لتستعينوا بها^(١)، فقالت : ما اعتدنا أن نأخذ شيئاً من غير الله تعالى ، وما كان لنا أن نُخِلَّ بالعادة ، فانصرفت نادماً على ما فاتني من الاستكثار من شعر الشيخ والتبرك بزيادة دعائه ، ثم عدت بعد ذلك لداره سائلاً عنه ، فقالت لى المرأة : إنه قد قبله الله تعالى ، فعلمت أنه قد قُتِلَ ، فقلت لها : أقتل ؟ فقرأت (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله - الآية) فانصرفت معتبراً من حاله ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ونفعنا به ! .

وكانت المروانيين بالأندلس يدُعُلياً ، في الدين والدنيا .

وقال محمد بن أيوب المرواني ، لما كلف قوما حاجة له سلطانية فما نهضوا بها فكأنها رأس بنى مروان القائد سعيد بن المنذر ، فنهض بها :

نهضت بما سألتك غير وَاٍنٍ وقد صعبت لسالكها الطريق
وليس يبين فضل المرء إلا إذا كلفته مالا يطيق

وعتبه يوماً سعيد بن المنذر في كونه يتعرض لمذح خدام بنى مروان ، فقال له : أعز الله تعالى القائد الوزير ! إنكم جعلتموني ذنباً وجعلوني رأساً ، والنفوس تتوق إلى مَنْ يكرمها وإن كان دونها أكثر من يهينها^(٢) وإن كان فوقها ، وإني من هذا وهذا في أمر لا يعلمه إلا الله الذي^(٣) بلاني به ، ويأويح الشجي من الخلى ، وأنا الذي أقول فيما يتخلل هذا المنزع :

نسبت لقوم ليقتى نجُلٌ غيرهم فلي نَسَبٌ يعلو وحظى يسفل
أقطع عمري بالتعلل والمنى وكم يخدع المرء الليب التعللُ
فألى مكان أرتضيه لهمة ولا مال منه أستعف وأفضل

(١) في « خذوها تستعينوا بها »

(٢) في « أكثر منها إلى من يهينها » وهى أظهر وأحسن

(٣) في « لا يعلم إلا الذى أبلانى به »

ولكننى أقضى الحياة تجملاً وهل يهلك الإنسان إلا التجمل
فقال له سعيد : قصدنا لومك فعطفت اللائمة علينا ، ونحن أحق بها ، وسننظر
إن شاء الله تعالى فيما يرفع اللوم عن الجانبين ، ثم تكلم مع الناصر فى شأنه ، فأجرى
له رزقا أغناه عن التكفف ، فكانت هذه من حسنات سعيد وأياديه .

المطرف بن
عمر المرواني

وقال المطرف بن عمر المرواني يمدح المظفر بن المنصور بن أبى عامر :
إن المظفر لا يزال مظفراً حكماً من الرحمن غير مُبدّلٍ
وهو الأحق بكل ما قد حازه من رفعة ورياسة وتفضل
تلقاه صدراً كلما قلبته مثل السنان بمخفل وبمحفل
وحضر يوماً مع شاعر الأندلس فى زمانه ابن دراج القسطلّى ، فقال له القسطلّى :
أنشدنى أبياتك التى تقول فيها :

* على قدر ما يصفو الخليل يكدر *

فأنشده :

تخبرت من بين الأنام مهذا ولم أدر أنى خائب حين أخبر
فما زجنى كالراح للماء ، واغتدى على كل ما جَسَمته يتصبر
إلى أن دهانى إذ أمنت غروره سفاهاً ، وأدانى لما ليس يذكر
وكدّر عيشى بعد صفو ، وإنما على قدر ما يصفو الخليل يكدر
فاهتز القسطلّى وقال : والله إنك فى هذه الأبيات لشاعر ، وأنا أنشدك فيما يقابلها
لبلال بن جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدى يومَ الفراق فعلت ما لم أفعل
ولكن جعل نفسه فاعلاً وعرضت نفسك لأن يقال : إنك مفعول ، فقال : ومن
أين يلوح ذلك ؟ فقال القسطلّى : من قولك « وأدانى لما ليس يذكر » فما يُظن فى
ذلك إلا أنه ^(١) أذاك إلى موضع فعل بك فيه ، فاغتاط الأموى وقال : يا أبا عمر ،

(١) فى ١ « إلا أنك أذاك »

ومن أين جرت العادة بأن تمزح معي في هذا الشأن؟ فقال له : حلم بنى مروان يحملنا على أن نخرق العادة في الحمل على مكارمهم ، فسكن غيظه .

وكتب المرواني المذكور إلى صاحب له يستعير منه دابة يخرج عليها للفرجة والخلعة : أَنهَضَ اللهُ تعالى سيدي بأعباء المكارم ، إن هذا اليوم قد تبسم أفقه ، بعد ما بكى ودقه ، وصقلت أصداء أوراقه ، وفتحت حداثق أحداقه ^(١) ، وقام نوره خطيبا على ساقه ، وفضضت غدرانه ، وتوجت أغصانه ، وبرزت شمس من حجابها ، بعد ما تلفعت بسحابها ، وتنبه في أرجاء الروض أرج النسيم ، وعرف في وجهه ^(٢) نضرة النعيم ، وقد دعا كل هذا ناظر أخيك إن أن يُجيله في هذه المحاسن ، ويجدد نظره في المنظر الذي هو غير مبتذل والماء الذي هو غير آسن ^(٣) ، والفحص اليوم أحسن ما ملح ، وأبدع ما حرن فيه وجه ، فجدلى بإعارة ما أنهض عليه لمشاهدته ويرفع عنى خجل الابتذال ، بمناكب الأبدال ، لازلته نهاضا بالآمال ، مُسِعِنَا بمراد كل خليل غير مقصر ولا آل ^(٤) .

وكتب الأمير هشام بن عبد الرحمن إلى أخيه عبد الله المعروف بالبلنسي حين فر كتابا يقول في بعض فصوله : والعجب من فرارك دون أن ترى شيئا . فخطابه بجواب يقول فيه : ولا تتعجب من فرارى دون أن أرى شيئا ؛ لأننى خفت أن أرى مالا أقدر على الفرار بعده ، ولكن تعجب منى أن حصلت في يدك بعد ما أفلت منك .

وقال له وزيره أحمد بن شعيب البلنسي : أليس من العار أن يبلغ بك انخوار من هذا الصبي أن تجعل بينك وبينه البحر ، وتترك بلاد ملكك وملك

(١) في ١ « وفتحت أحداق حدثقه » ولا يتم عليه السجع .

(٢) في ١ « وعرف في وجهه »

(٣) ماء آسن : متغير ، من ركوده أو مما خالطه

(٤) آل : اسم فاعل من « ألا فلان يآلو » مثل دعا يدعو - ومعناه قصر

بين الأمير
هشام بن
عبد الرحمن
وأخيه

أبيك ؟ فقال : ما أعرف ما تقول ، وكل ما وُقِيَ به إتلاف النفس ليس بعار ، بل هو محض العقل ، وأوّل ما ينظر الأديب في حفظ رأسه ، فإذا نظر في ذلك نظر فيما بعده .

وقال عبد الله بن عبد العزيز الأموي ويعرف بالحجر :

اجعل لنا منك حظاً أيها القمرُ فإنما حفظنا من وجهك النظر
رأاك ناس فقالوا إن ذا قمر فقلت كفوا فعندى منهما الخبر
البدْرُ ليس بغير النصف بهجته حتى الصباح وهذا كله قمر

وقال أبو عبد الله محمد بن محمد بن الناصر يرثى أبا مروان بن سراج :

وكم من حديث للنبي أبانه وألبسه من حسن منطقهِ وشيأ
وكم مصعب للنحو قد راض صعبه فعاد ذلولاً بعدما كان قد أعيا

بين

وحكى أنه دخل بعض شعراء الأندلس على الفقيه سعيد بن أضحى ، وكان من بعض الشعراء أعيان عَزْناطة ، فمدحه بقصيدة ، ثم بموشحة ، ثم بزجل ، فلم يعطه شيئاً ، بل شكاه إليه فقرا ، حتى إنه بكى ، فأخذ الدواة والقرطاس وكتب ووضع بين يديه :

شكاً مثال الذى أشكوه من عدم وساء مثل ما قد ساءنى فبكى
إن المقلّ الذى أعطاك دمعتة نعم الجواد فتى أعطاك ما ملكا

لابن خفاجة وقال ابن خفاجة :

نهر كما سال اللمى سلسال وصَباً بلبيلٍ ذيلها مكسال^(١)
ومهبُّ نفحة روضة مطلولة فيها لأفراس النسيم بحالٍ
غازلته والأفحوانة مبسّم والآسُ صُدغٌ والبنفسج خالٍ^(٢)

(١) الصبا - بفتح الصاد - الريح التى تهب من ناحية الشمال ، ولبيل - بفتح الباء ، بزنة رطيب - وصف من البلب ، يريد أنها ربيع ندية رطبة لأن ذلك أشد إناعاشاً للبدن

(٢) شبه ثغره بالأفحوان ، وصدغه - وهو الشعر المتدلى على الصدغ - بالآس ، وبالخال - وهو النكتة السوداء تكون فى خده - بالبنفسج .

وقال :

وساقٍ كحيل الطَّرف في شأ وحسنه جماحٌ ، وبالصبر الجميل حِرَانُ^(١)
تَرَى للصَّبَا ناراً بخديهِ لم يَثُرْ لها من سَوَادِي عارضيه دُخَانُ
سقاها وقد لاح الهلالُ عشيَّة كما اعوجَّ في درع الكمي سِنَانُ
عقاراً نَمَآها الكَرْمُ فهي كريمة ولم تزن بَابن المزن فهي حَصَانُ
وقد حان من جَوْنِ الغمامة أدهم له البرق سَوَوطٌ والعنان عَنَانُ
وضمَّ درع الشمس نحر حديقة عليك وفي الطلَّ السقيط جُفَانُ
ونَمَتْ بأسرار الرياض خميلة لها النَوْرُ ثغر والنسيم لسان

وقال في وصف فرس أصفر ، ولم يخرج عن طريقته :

وأشقر تضرم منه الوغى بشعلة من شعل الباس
من جُلَنَارٍ ناضر لونه وأذنه من ورق الآس
يطلع للغرة في شقرة حَبَابَة تضحك في الكاس

وقال أبو بكر محمد بن سهل البكي يهجو^(٢) :

أَعِدِ الوضوء إذا نطقت به مستعجلاً من قبل أن تَنْسَى
واحفظ ثيابك إن مررت به فالظل منه يُنَجِّسُ الشَّيْءَا

وقال ابن اللبَّانة :

أبصرته قَصَّرَ في المِشْيَةِ لما بدت في خده لحيه
قد كَتَبَ الشَّعْرُ على خَدِّه (أو كالذي مر على قريه)

وقال الوزير الكاتب أبو محمد^(٣) عبد الغفور الإشبيلي في الأمير [الكبير] أبي بكر سير

(١) في ١ « وساق كحيل اللحظ » (٢) في ١ « اليكي » وانظر ص ٢٩٩ من هذا الجزء

(٣) كذا في ب ، وفي ١ « أبو محمد بن عبد الغفور »

لأبي بكر محمد
ابن سهل

لابن اللبَّانة

من أمراء المرابطين ، وكتب بها إليه في غَزَاة غَزَاها :

سرحيت سرت يَحْلُهُ النَوَّار وأراك فيه مرادك المقدار^(١)
وإذا ارتحلت فشيعةً سلامةً وغمامة لا ديمة مِدرَارُ
تنفى الهجير بظلمها وتنيم بالشرش القتام وكيف شئت تُدَارُ
وقضى الإله بأن تعود مظفراً وقضت بسيفك نحرها الكفار^(٢)

هذا غير ما تمانه الجعفي حيث قال : حيث ارتحلت وديمة ، وما تكاد تنفذ معها
عزيمة ، وإذا سَفَحَتْ على ذى سفر ، فما أحرأها بأن تعوق عن الظفر ، ونعتهـا
بمدرار ، فكان ذلك أبلغ في الإضرار ، وما أحسن قول القائل :

فَسِرْ ذَا رَايَةَ خَفَقَتْ بنصر وعُدْ في جَحَقْلٍ بهِجِ الجِمال
إلى حِصْنٍ فأنت بها حلى تغاير فيه ربات الحِجال^(٣)

وقال الحجارى فى « المسهب » : كتبت إلى القاضى أبى عبد الله محمد اللوشى
أستدعى منه شعره لأكتبه فى كتابى ، فتوقفَ عن ذلك وانقبض عني ،
فكتبت إليه :

يا مانعا شعره عن سَمْعِ ذى أدب نأى الحِلُّ بعيد الشخص مغترب
يسير عنك به فى كل مَتَجِه كما يمر نسيمُ الريح بالعذب
إني وحقك أهلٌ أن أفوز به وأسأل فديتك عن ذاتي وعن أدبي
فكان جوابه :

يا طالبا شعر مَنْ لم يَسْمُ فى الأدب ماذا تريد بنظم غير مُنتَخَبِ
إني وحقك لم أبخلُ به صِلَفًا ومن يضمن على جيد بمخشَلِ^(٤)
لكننى صُنْتُ هَذِرِي عن روايته فمُله قل عن سَامٍ إلى الرتب^(٥)

(١) فى ا « سرحل حيث تحله النوار * وأراد فيك »

(٢) فى ا « وقضت بسيفك نحرها الكفار » (٣) تغاير : تغالبا فى الغيرة

(٤) فى ب « بمختلَب » محرفا (٥) فى ا « لكننى صنت قدرى عن روايته »

خذه إليك كما أكرهت مضطرباً محلاً ذمّ موله مدّى الحقب
قال : ثم كتب لي مما أنحفني به من نظمه محاسن أبهى من الأثمار ، وأرقّ من
نسيم الأسحار .

وقال صالح بن شريف في البحر وهو [من] ^(١) أحسن ما قيل فيه :
البحر أعظم مما أنت تحسبه من لم ير البحر يوماً ما رأى العجا
طام له حبّ طاف على زرق مثل السماء إذا ما ملئت شهباً
وقال أيضاً :

ما أحسن العقل وآثاره لولازم الإنسان إشاره
يصون بالعقل الفتى نفسه كما يصون الحر أسراره
لا سيما إن كان في غربة يحتاج أن يعرف مقداره
وقال ابن برطلة :

خطوب زمانى ناسبتني غرابه لذلك يرميني بهن مصيب
غريب أصابته خطوب غريبة (وكل غريب للغريب نسيب) ^(٢)
وهذا من أحسن التضمين ، الذي يُرَى بالدُر الثمين .

ودخل ابن بقي الحمام وفيه الأعمى التطيلي فقال له : أجز :

حَمَامنا كزمانِ القَيْظِ مُحْتَدِمٍ وفيه للبرد صر غيرُ ذِي ضَرَرٍ ^(٣)
فقال الأعمى :

ضدّانِ يَنعَمُ جسمُ المرءِ بينهما كالغُصْنِ ينعَمُ بينَ الشَّمْسِ والمطرِ
ولا يخفى حُسْنُ ما قال الأعمى :

بين ابن بقي
والتطيلي
الأعمى

(١) لا توجد هذه الكلمة في ب

(٢) هذا عجز بيت ينسب لامرئ القيس ، صدره * أجازتنا إنا غريبان ههنا *

(٣) في ب « وفيه للبرد برد غير ذي ضرر »

وقد ذكر في « بدائع البدائيه » البيتين معاً منسويين إلى ابن بقي ، ولنذكر كلامه برمته لما اشتمل [عليه] من القوائد ، ونصه : ذكر ابن بسام قال : دخل الأديبان أبو جعفر بن هريرة التُّطيلي المعروف بالأعمى وأبو بكر بن بقي الحمام ، فتعاطيا العمل فيه ، فقال الأعمى :

يا حسنَ حَمَامِنَا وبَهْجَتِهِ مرأى من السحر كله حسن
ماء ونار حواهما كنف كالقلب فيه السرور والحزن^(١)
ثم أعجبه المعنى فقال :

ليس على لهونا مزيد ولا لِحَمَامِنَا ضريب
ماء وفيه لهيب نار كالشمس في ديمة تَصُوبُ
وأبيض من تحته رخام كالثلج حين ابتدا يذوب^(٢)

وقال ابن بقي :

* حمامنا فيه فصل القيظ - البيتين *

فقال الأعمى ، وقد نظر فيه إلى فتى صبيح :

هل استالك جسمُ ابن الأمير وقد سالتُ عليه من الحمام أنداء^(٣)
كالغصن بأشْر حرّ النار من كَشَب فظل يَقْطُرُ من أعطافه الماء

وصف حمام قلت : تذكرت هنا عند ذكر الحمام ما حكاه بدر الدين الحسن بن زفير الإربلي المتطبب إذ قال : رأيت ببغداد في دار الملك شرف الدين هرون ابن الوزير صاحب شمس الدين محمد الجويني حماما متقن الصنعة ، حسن البناء ، كثير الأضواء ، قد احتفت به الأزهار والأشجار ، فأدخلني إليه سائسه ، وذلك بشفاعة صاحب بهاء الدين بن الفخر عيسى المنشئ الإربلي وكان سائس هذا

(١) في ب « ماء ونار حواهما كنف » (٢) في ب « وأبيض تحته رخام »

(٣) في ا « جسم ابن الأمير »

الحمام خادما حبشيا كبير السن والقدر ، فطاف بي عليه ، وأبصرت مياهه وشبايبكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية وبعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوت بأصوات طيبة ، ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة والمياه تخرج من سائر الأنابيب إلى الأحواض ومن الأحواض إلى بركة حسنة الإتيان ، ثم منها إلى البستان ، ثم أراني نحو عشر خلوات ، كلُّ خلوة [منها] صنعتها أحسن من صنعة أختها ، ثم انتهى بي إلى خلوة عليها باب مُقفل بقفل حديد ، ففتحه ، ودخل بي إلى دهليز طويل كله مرخم ^(١) بالرخام الأبيض الساذج ، وفي صدر الدهليز خلوة مربعة تَسَع بالتقريب [نحو] أربعة أنفس إذا كانوا قعودا وتَسَع اثنين إذا كانوا نياما ، ورأيت من العجائب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقلا لافرق بينه وبين صقال المرأة ، يرى الإنسان سائر بشرته في أي حائط شاء منها ، ورأيت أرضها مُصَوَّرة بفصوص حمر وصفر وخضر ومذهبة وكلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر ، فأما الأخضر فيقال : إنه حجارة تأتي من الروم ، وأما المذهب فزجاج ملبس بالذهب ، وتلك الصورة في غاية الحسن والجمال ، على هيئات مختلفة في اللون وغيره ، وهي ما بين فاعل ومفعول به ، إذا نظر المرء إليها تحركت شهوته ، وقال لي الخادم السائس : هذا صُنِعَ على هذه الصفة لخدومي ، حتى إنه إذا نظر ما يفعل ^(٢) هؤلاء بعضهم مع بعض من المُجَامَعَةِ والتقبيل ووضع أيدي بعضهم على أعجاز بعض تتحرك شهوته سريعا ، فيبادر إلى مجامعة مَنْ يحبّه .

قال الخاكي : وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التي دخلت إليها [هي] مخصوصة بهذا الفعل ، إذا أراد الملك شرف الدين هرون الاجتماع في الحمام بمن يهواه من

(١) في ١ « كله رخم » فعلا ماضيا مبنيًا للمجهول

(٢) في ١ « إذا نظر إلى ما يفعله هؤلاء »

الجوارى الحسن والصور الجميلة والنساء الفاتكات الحسن لم يجتمع به إلا فى هذه الخلوة ، من أجل أنه يرى كل محاسن الصور الجميلة مصورة فى الحائط ومجسمة بين يديه ، ويرى كل منهما صاحبه على هذه الصفة ، ورأيت فى صدر الخلوة حوض رخام مضع وعليه أنبوب مركب فى صدره ، وأنبوب آخر برسم الماء البارد ، والأنبوب الأول برسم الماء الفاتر ، وعن يمين الحوض ^(١) ويساره عمدان صغار منحوتة من البلور يوضع عليها مباخر الند والعود ، وأبصرت منها خلوة شديدة الضياء مفرحة بديعة قد أنفق عليها أموال كثيرة ، وسألت الخادم عن تلك الحيطان المشرقة المضيئة : من أى شىء صنعت ؟ فقال لى : ما أعلم .

قال الحاكم : فما رأيت فى عمرى ولا سمعت بمثل تلك الخلوة ، ولا بأحسن من ذلك الحمام ، مع أنى ما أحسن أن أصفهما كما رأيتهما ، فإنه لم تتكرر رؤيتي لهما ، ولا تنقلى الظفر بصناعتهم ومباشرتهما ، وفى الذى ذكرت كفاية ، انتهى . ولما اتصل أبو القاسم على بن أفلح البغدادي الكاتب بأمر المؤمنين المسترشد بالله العباسي ، ولقبه جمال الملك ، وأعطاه أربع ديار فى درب الشاكرية اشترى دوراً أخرى إلى جانبها ، وهدم الكل ، وأنشأ داره الكبيرة ، وأعان الخليفة فى بنائها ، وأطلق له أموالاً وآلات البناء ، وكان فى جملة ما أطلق له مائتا ألف آجرة وأجريت الدار بالذهب ، وصنع فيها الحمام العجيب الذى فيه بيت مستراح فيه أنبوب إن فركه الإنسان يمينا خرج ماء حار وإن فركه شمالا خرج ماء بارد ، وكان على إيوان الدار مكتوباً ^(٢) :

وصف دار
جمال الملك
البغدادي

إن عجب الراؤن من ظاهرى فباطنى لو علموا أعجب

شيدنى من كفه مزنه يهمل منها العارض الصيب

(١) فى ١ « وعن يمينه الحوض ويساره عمدان - إلخ » وليس بشىء

(٢) فى نسخة « وكان على باب الدار » وفى ١ « مكتوب »

ودبجت روضة أخلاقه في رياض نورها مُذهبُ
صدر كسا صدرى من نوره شمساً على الأيام لا تغرب

وكتب على الطرز :

ومن المروءة للفتى ما عاش دار فاخره
فاقنع من الدنيا بها واعمل لدار الآخرة
هاتيك وافية بما وعدت، وهذى ساخره

وكتب على النادى :

وناد كأن جنان الخلود أعارته من حسننها رونقا
وأعطته من حادثات الزما ن أن لا تُلِمَ به موثقاً
فأضحى يتيه على كل ما بنى مغرباً كان أو مشرقاً
تظل الوفود به عُكفاً وتُسمى الضيُوفُ به طُرُقاً
بقيت له يا جمال الملو لك والفضل مهما أردت البقا
وسالمة فيك ريبُ الزمان ووقيت فيه الذى يُتَمَى

بعض ما قيل
في الحمام

وعلى ذكر الحمام فما أحكم قول ابن الوردى فيما أظن :

وما أشبه الحمام بالموت لأمرىء تذكر ! لكن أين من يتذكر
يُجرّدُ عن أهل ومال وملبس ويصحبه من كل ذلك منزّر

وقال الشهاب بن فضل الله :

وحمامكم كعبة للوفود تخرج إليه حفاة عراه
يكرر صوت أنابيبه كتاب الطهارة باب المياه

وقد تمثل بهذين البيتين البرهان القيراطى فى جواب كتاب استدعاه فيه بعض أهل

عصره إلى الحمام ، وافتتح الجواب بقوله :
 قد أجبتنا وأنت أيضاً فصيحاً بصيحى سواف وسلاف
 وبساق يسبي العقول بساقٍ وقوام وفق العناق خـلافى
 ووصله بنثر تمثّل فيه بالبيتين كما مر .
 ول بعضهم :

إن حمامنا الذى نحن فيه أى ماء به وأية نار
 قد نزلنا به على ابن معينٍ وروينا عنه صحيح البخارى
 وألغز بعضهم فى الحمام بقوله :

ومنزل أقوام إذا ما تقابلوا تشابه فيه وغده ورئيسه
 ينفّس كربى إذ ينفّس كربه ويعظم أنسى إذ يقل أنيسه
 إذا ما عرت الجوّ طرّاً تكاثرت على من به أقماره وشموسه

رجع إلى ما كنا فيه من كلام أهل الأندلس ، فنقول :
 وكان محمد بن خلف بن موسى البيرى متكلماً متحققاً رأى الأشعرية ،
 وذا كرا لكتب الأصول فى الاعتقاد^(١) ، مشاركاً فى الأدب ، مقدماً فى الطب ، ومن
 نظمه يمدح إمام الحرمين رحمه الله تعالى :

حُبٌّ حَبْرٍ يَكْنَى أبا للمعالى هو دينى فقيه لا تعذلونى
 أنا والله مغرم بهواه عللونى بذكره عللونى

وكتب أبو الوليد بن الجنان الشاطبى يستدعى بعض إخوانه إلى مجلس أنس بما
 صورته : نحن فى مجلس أغصانه الندامى ، وغمامه الصهباء ، فبالله إلاما كنت لروض
 مجلسنا نسيماً ، ولزهر حديثنا شميماً ، وللجسم روحاً ، وللطيب ريحاً ، وبيننا عذراء^(٢)

(١) كذا فى ب ، وفى « وذا كرا لكتب الأصول والاعتقادات »

(٢) أراد بالعذراء الحُر ، ومن أسماء الحُر البكر

عود إلى ملح
 أهل الأندلس

زُجَّاجَتِهَا خَدْرَهَا ، وَحَبَابُهَا ثَعْرَهَا ، بِلْ شَقِيقَةِ حَوْتِهَا كَلِمَةً ، أَوْ شَمْسِ حَجَبَتِهَا غَمَامَةً ، إِذَا طَافَ بِهَا مَعْصَمُ السَّاقِ فَوْرَدَةً عَلَى غَضَنِهَا ، أَوْ شَرِبَهَا مَقَهْقَهَةً فُجَامَةً عَلَى عَلَى فَنَنَهَا ، طَافَتْ عَلَيْنَا طَوَفَانِ الْقَمَرِ عَلَى مَنَازِلِ الْحُلُولِ ، فَأَنْتَ وَحَيَاتُكَ إِكْلِيلُنَا وَقَدْ آنَ حُلُولُهَا فِي الْإِكْلِيلِ ، انْتَهَى .

وقال أبو الوليد المذكور :

فوق خد الورد دمع من عيون الشَّخْبِ يذرف
برداء الشمس أضْحَى بعدما سال يخفف

وتذكرت هنا بذكر الورد ما حكاه الشيخ أبو البركات هبة الله بن محمد النصيبي المعروف بالوكيل ، وكان شيخاً ظريفاً فيه آداب كثيرة ، إذ قال : كنت في زمن الربيع والورد في داري بنصيبين ، وقد أحضر من بستان من الورد والياسمين شيء كثير ، وعملت على سبيل الودع دائرة من الورد تقابلها دائرة من الياسمين ، فاتفق أن دخل على شاعران كانا بنصيبين أحدهما يعرف بالمهذب والآخر يعرف بالحسن ابن البرقعدي ، فقلت لهما : اعملوا في هاتين الدائرتين ، ففكرا ساعة ثم قال المهذب :

يا حسنُها دائرة من ياسمين مشرق
والورد قد قابلها في حُلَّةٍ مِنْ شَفَقِ
كعاشقٍ وَحِبِّهِ تغامزا بالحدق
فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من فَرَقِ^(١)

قال : فقلت للحسن : هات ، فقال : سبقني المهذب إلى ما لمحت في هذا المعنى ، وهو قولي :

يا حسنُها دائرة من ياسمين كالخلي

والورد قد قابلها في حلة من خجل

كعاشق وحببه تغامزا بالقل

فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وجل

قال : فعجبت من اتفاقهما في سرعة الاتحاد ، والمبادرة إلى حكاية الحال ، انتهى

وما ألفت قول بعضهم :

أرى الورد عند الصبح قد مدلى فمًا يشير إلى التقبيل في حالة اللمس^(١)

وبعد زوال الشمس ألقاه وجنة وقد أثرت في وسطها قبلة الشمس

وقال ابن ظافر في « بدائع البدائنه » : اجتمع الوزير أبو بكر بن القبطرنة

والأديب أبو العباس بن صارة الأندلسيان في يوم جلا ذهب برقه ، وأذاب ورق

ودقه ، والأرض قد ضحكت لتعيس السماء ، واهتزت وربت عند نزول الماء ،

فقال ابن القبطرنة :

هذي البسيطة كاعب أبرادها خلل الربيع وحليها النوار

فقال ابن صارة :

وكان هذا الجو فيها عاشق قد شفه التعذيب والإضرار

ثم قال ابن صارة أيضا :

وإذا شكا فالبرق قلب خافق وإذا بكى فدموعه الأمطار

فقال ابن القبطرنة :

من أجل ذلة ذا وعزة هذه يبكي الغمام وتضحك الأزهار

وتذكرت هنا ما حكاه ابن ظافر في الكتاب المذكور أنه اجتمع مع القاضي الأعز

يوما فقال له ابن ظافر : أجز :

* طار نسيمُ الروض من وكر الزَّهر *
 * وجاء مبلول الجناح بالمطر * انتهى

فقال الأعز :

ويعجبني قول ابن قرناص :

أظنَّ نسيمَ الروض والزهر قد رَوَى حديثاً ففاحت من شدَّاه المسالك
 وقال دنا فصلُ الربيع فكله ثغور لما قال النسيم ضواحك

رجع إلى الأندلسيين - ومأرق قول ابن الزقاق :

لابن الزقاق

ورياض من الشقائق أضحت يتهاذى بها نسيم الرياح
 زرتها والغمام يجلد منها زهرات تفوق لون الراح
 قلت ما ذنبها فقال مجيباً سرقت حمرة الخدود الملاح

وقال أبو إسحاق بن خفاجة :

لابن خفاجة

تعلقته نشوان من خمر ريقه له رشفها دوني ولي دونه السكر
 ترقرق ماء مقلتاى ووجهه ويذكى على قلبي ووَجنته الجمر
 أرق نسيبي فيه رقة حسنه فلم أدري قبليها منهما السحر^(١)
 وطبنا معاً شعراً وثغراً كأنما له منطقي ثغر ولي ثغره شعر

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز :

لأبي الصلت

وقائلة : ما بال مثلك خاملاً أنت ضعيف الرأي أم أنت عاجز؟
 فقلت لها : ذنبي إلى القوم أننى لما لم يحوزوه من المجد حائز
 ومافاتنى شيء سوى الحظ وحده وأما المعالي فهي عندى غرائز^(٢)

وقال :

جدَّ بقلبي وعبث ثم مضى وما اكثرث

(١) في ١ « أرق نسيبي فيه رقة نفسه »

(٢) في ١ « وأما المعالي فهي عندى غرائز »

وَاحْرَبَا مِنْ شَادِنٍ فِي عُقْدِ الصَّبْرِ نَفَثُ

يَقْتُلُ مِنْ شَاءَ بَعِيْنِيهِ وَمِنْ شَاءَ بَعَثُ

وقال الفاضل البليغ^(١) يحيى بن هذيل أحد أعيان شعراء الأندلس :

ليحيى بن
هذيل

نام طفل النبت في حجر النعاعى لاهتزاز الطلّ في مهد الخزامى^(٢)

وسقى الوسمي أغصان النقا فهوت تلمّ أفواه الندامى

كل فجر لهم جفن الدجى وغدا في وجنة الصبح لثاما

تحسب البدر محيا ثملا قد سقته راحة الصبح مداما

حوله الزهر كؤوس قد غدت مسكة الليل عليهن ختاما

لمهيار الديلمي وتذكرت هنا قول الآخر ، وأظنه مشرقيا^(٣) :

بكر العارض تحدوه النعاعى فسقاك الرى يا دار أماما

وتمشت فيك أرواح الصبا يتأرجن بأنفاس الخزامى

قد قضى حفظ الهوى أن تصبحى للمحبين منأخا ومقاما

وبجرعاء الحمى قلبى ، فمع بالحمى واقرا على قلبى السلاما

وترحل فتحدث عجبنا أن قلبا سار عن جسم أقاما

قل لجيران الغضى آها على طيب عيش بالغضى لو كان دامام

حملوا ريح الصبا من شركم قبل أن تحمل شيئا وثماما^(٤)

وابعثوا أشباحكم لى فى الكرى إن أذتم لجنونى أن تناما

وخرج بعض علماء^(٥) الأندلس من قرطبة إلى طليطلة ، فاجتاز بجزير^(٦) بن عكاشة

الشجاع المشهور الذى ذكرنا فى هذا الباب ما يدل على شجاعته وقوته وأيده ، بقلعة

رباح ، فنزل بخارجها فى بعض جنباتها ، وكتب إليه :

(١) فى « وقال البليغ الفاضل » (٢) فى « لاهتزاز الطل فى مهد الخزامى »

(٣) هو من كلام مهيار الديلمي (٤) فى « حملوا ريح الصبا شركم »

(٥) فى « بعض أدباء الأندلس » (٦) فى « بجزير بن عكاشة »

يا فريدا دون ثان وهلالا في العيان
عدم الراح فصارت مثل دهن البيلسان^(١)
فبعث إليه بها ، وكتب معها :

جاء من شعرك روض جاده صَوْبُ اللسان
فبعثناها سُلَافًا كسجايك الحسان

وقال الوزير أبو عامر بن شهيد يتغزل :

أصبح شيمَ أم برقَ بداً أم سنى المحبوب أورى أزنذاً^(٢)
هَبَّ من مرقدك منكسرا مسبلا للسكمرخ للردا
يمسح النعسة من عيني رشا صائد في كل يوم أسدا
أوردته لطفًا آياته صفوة العيش وأرعته ددا^(٣)
فهو من دل عراه زبدة من مريح لم تخالط زبدا^(٤)
قلت هب لي يا حبيبي قبلة تشف من عمك تبريح الصدى
فأنشئ يهتز من منكبه مائلا لطفًا وأعطاني اليدا
كلما كلمني قبلته فهو إما قال قولاً رُددًا
كاد أن يرجع من لثمي له وارشاف الثغر منه أزرردًا^(٥)
وإذا استنجزت يوما وعده أمطل الوعد وقال اضرب غدا
شربت أعطافه ماء الصبا وسقاه الحسن حتى عرَّ بدا
فإذا بت به في روضة أغيد يغزو نباتًا أغيدا^(٦)
قام في الليل بجيد أتلع ينفض اللمة من دمع الندى
ومكان عازب عن جيرة أصدقاء وهم عين العدا

لأبي عامر
ابن شهيد

(١) في « مثل دهن البيلسان » (٢) في « وسنى المحبوب أورى أزنذا »

(٣) الدد : اللب واللبو ، ووقع في ب « صفوة للعيش أرعته ددا »

(٤) في « من صريح لم يخالط زبدا » (٥) كذا في ب ، وفي « إذا ردا »

وأحسبهما محرفين عن « أدردا » (٦) في ب « أغيد يغزو نباتا أغيدا »

ذى نبات طيب أعراقه كعذار الشَّعْرِ في خَدِّ بدا
تحسب الهضبة منه جبلا وحُدُورَ الماء منه أبردا

لابن شهيد
يرثي القاضي
ابن ذكوان
وقال يرثي القاضي ابن ذكوان ، نجيب ذلك الأوان ، وقد افتنَّ في الآداب ،
وسنَّ فيها سنة ابن داب ، وما فارق ربع الشباب شرخه ، ولا استمجدَ في الكهولة
عقاره ولا مرَّخه ^(١) ، وكان لأبي عامر هذا قسمَ نفسه ، ونسيمَ أنسه :

ظننا الذي نادى محقا بموته لعظم الذي أنحى من الرزء كاذبا
وخلنا الصباح الطلَّق ليلا وأنا هبطنا خداريا من الحزن كاربا
ثكلنا الدنالمنا استقل وإنما فقدناك يا خير البرية ناعبا ^(٢)
وما ذهبت إذ حل في القبر نفسه ولكننا الإسلام أدبر ذاهبا ^(٣)
ولما أبى إلا التحمل راحئا منحناه أعناق الكرام ركائبنا
يسير به النعش الأعز وحوله أباعد كانوا للمصاب أقاربا
عليه خفيف للملائك أقبلت تصافح شيخا ذاكر الله تائبنا
تخال لفيف الناس حول ضريحه خليطا تخطى في الشريعة هاربا ^(٤)
إذا ما متروا سُحِبَ الدموع تفرغت فروع البكا عن بارق الحزن لاهبا
فمن ذا لفصل القول يسطع نوره إذا نحن ناوينا الألدَّ المناوبا ^(٥)
ومن ذا ربيع المسلمين يقوتهم إذا الناس شاموها بروقا كواذبا
فيا لهفَ قلبي آه ذابت حشاشتي مضى شيخنا الدفَّاعُ عنا النوائبا
ومات الذي غاب السرور لموته فليس وإن طال السرى منه آيبا
وكان عظيما يُطَرِّقُ الجمعُ عنده ويعنوا له ربُّ الكتيبة هائبا
وذا مقول عَضَبَ الغرَّارين صارم يروح به عن حومة الدين ضاربا

(١) المرخ والعفار : شجران سريعا الورى ، وفي أمثالهم « في كل شجر نار ،

واستمجد المرخ والعفار »

(٢) في ١ « ثكلت الدجى ١١ استقل » (٣) في ١ « وما ذهبت إن حصل المرء نفسه »

(٤) في ١ « خليط قطاوا في الشريعة هاربا » (٥) في ١ « إذا نحن ناوينا الألد »

أبا حاتم صبر الأديب فإنتى رأيت جميل الصبر أحلى عواقبا^(١)
وما زلت فينا ترهب الدهر سطوة وصعبا به نُعْيِي الخطوبَ المصاعبا
سأستعيب الأيام فيك لعلها لصحة ذاك الجسم تطلب طالبا
لئن أَفَلَتَ شمسُ المكارم عنكم لقد أسارت بدراً لها وكواكبا

قال في « المطمح » : ودبت إلى أبي عامر بن شهيد أيام العلويين عقارب، برئت
بها منه أباعد وأقارب، واجهه بها صرْف قطوب، وانبرت إليه منها^(٢) خطوب،
نبأها جَنِبُهُ^(٣) عن المضجع، وبقى بها ليالي يأرق ولا يهجع، إلى أن أعلقت
في الاعتقال آماله^(٤)، وعقلته في عقال أذهب ماله، فأقام مرتبنا، ولقي وهنا، وقال:

قريبٌ بمحتلِّ الهوان مجيد يحود ويشكو حزنه فيجيد
نعى صبره عند الإمام فياله عدوُّ لأبناء الكرام حسود
وما ضره إلا مزاح ورقة ثنته سفيه الذكر وهو رشيد
جنى ما جنى في قُبَّة الملك غيره وطوق منه بالعظيمة جيد

وما في إلا الشعر أثبتَهُ الهوى فسار به في العالمين مريد^(٥)
أفوه بما لم آت متعرضا لحسن المعاني تارة فأزيد
فإن طال ذكرى بالجون فإنها عظام لم يصبر لمن جليل^(٦)
وهل كنت في العشاق أول عاقل هوت بحجاه أعين وخدود
فراق وشجو واشتياق وذلة وجبار حفاظ على عتيد
فمن يبلغ الفتیان أنى بعدهم مقيم بدار الظالمين وحييد
مقيم بدار ساكنوها من الأذى قيام على جمر الحمام قعود
ويسمع للحيات في جنباتها بسيط كترجيع الصدى ونشيد^(٧)

(١) في ب « أبا حاتم صبر الأديب » (٢) في أ « وانبرت إليه منه خطوب »

(٣) في ب « نبأها جفنه » وهو مثل خر عليهم السقف من تحتهم

(٤) في أ « إلى أن علقته من الاعتقال حبالة »، وعلقته في عقال أذهل باله »

(٥) في أ « فريد » (٦) في أ ونسخة عند ب « فإنتى » شق بمنظوم الكلام

سعيد « وفيهما إعادة البيت مرة أخرى كما هنا عن ب (٧) في أ « ويسمع للجنان »

ولست بذى قيد يرن ، وإنما
وقلت لصدّاح الحمام وقد بكى
ألا أيها الباكي على مَنْ تحبه
وهل أنت دان من محب نأى به
فصفق من ريش الجناحين واقفا
وما زال يبكي وأبكيه جاهدا
إلى أن بكى الجُدران من طول شجوننا
أطاعت أمير المؤمنين كتائب
فلشمس عنها بالنهار تأخر
إلا أنها الأيام تلعب بالفتى
وما كنت ذا أيدٍ فأذعن ذا قوى
وراضت صغابى سطوة علوية
تقول التى من بيتها كف مركبى
فقلت لها أمرى إلى مَنْ سمت به
على اللحظ من سخط الإمام قيود
على القصر إلغا والدموع تجود
كلانا مُعَنَّى بالخلاء فريد
عن الإلف ساطان عليه شديد
على القرب حتى ما عليه مزيد^(١)
والشوق من دون الضلوع وفود
وأجهش باب جانباه حديد^(٢)
تصرف فى الأموال كيف تريد
وللبدر شحنا بالظلام صدود
نحوس تهادى تارة وسعود
من الدهر مبد صرفه ومعيد
لها بارق نحو الندى ورعود
أقربك دان أم مداك بعيد^(٣)
إلى الجسد آباء له وجدود

ثم قال : ولزمته آخر عمره علة دامت به سنين ، ولم تفارقه حتى تركته يد جنين^(٤) ،
وأحسب أن الله أراد بها تمحيصه ، وإطلاقه من ذنب كان قنيصه ، فطهره تطهيرا ،
وجعل ذلك على العفو له ظهيرا ، فإنها أقعدته حتى حمل فى المحفة ، وعادته^(٥) حتى
غدت لرونقه مُشْتَقَّة ، وعلى ذلك فلم يعطل لسانه ، ولم يبطل إحسانه ، ولم يزل
يستريح إلى القول ، ويزيح ما كان يجده من الغول ، وآخر شعر قاله قوله :
ولما رأيت العيش لوى برأسه وأيقنت أن الموت لاشك لاحقى

مرض
ابن شهيد
وآخر شعر قاله

(١) فى ١ « فصفق من ريش الجناحين واقفا » (٢) فى ب « إلى أن بكى الجدران »
(٣) صدر البيت هكذا فى ا ، ب ، وأحسبه « خف مركبى » ووقع فى ا فى
عجزه « أم نواك مديد » (٤) فى ا « تركته قد جنين » (٥) فى ا « وعادته »

تمنيت أنى ساكن فى عباءة بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
أرد سقيط الطل فى فضل عيشتى وحيدا وأحسو الماء ثنى المعالق
خليلى من ذاق المنية مرة فقد ذقتها خمسين قولة صادق^(١)
كأنى وقد حان ارتحالى لم أفر قديما من الدنيا بلحجة بارق
فمن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى يدًا فى ملأتى وعند مضايقي
عليك سلام الله إنى مفارق وحسبك زاد من حبيب مفارق
فلا تنس تأيبنى إذا ما ذكرتنى وتذكر أياي وفضل خلائقي
وحرك له بالله من أهل فننا إذا غيبونى كل شهم غرائقي^(٢)
عسى هامتى فى القبر تسمع بعضه بترجيع شاد أو بتطريب طارق
فلى فى اذكرى بعد موتى راحة فلا تمنعوها لى علالة زاهق
وإنى لأرجو الله فيما تقدمت ذنوبى به مما درى من حقائق^(٣)

وكان أبو مروان عبد الملك بن غصن^(٥) مستوليا على وزارة ابن عبيدة^(٦) ولسانه ينشد : بين ابن غصن
وشيدت مجدى بين أهلى ولم أقل وأبى ذى النون
ووجا ابن ذى النون بقوله : وابن ذى النون وابن هود

تلقت بالأمون ظالما ، وإنى لأمن كلبا حيث لست مؤمنة
حرام عليه أن يحد يشره وأما الندى فاندب هنالك مدفنه
سطور الخازى دون أبواب قصره بحجابه للقاصدين معنونه

فلما تمكن منه الأمون سجنه ، فكتب إلى ابن هود من أبيات :
أيا راكب الوجناء بلغ تحية أمير جذام من أسير مقيد

(١) فى ب « خليلى من رام المنية ... فقد رمتها »

(٢) فى ا « فلا تنس تأيبنى إذا ما فقدتنى »

(٣) فى ب « وحرك له بالله مهما ذكرتنى ... كل شهم » (٤) فى ا « فبادرى من حقائقى »

(٥) فى ب « عبد الملك بن حصن » (٦) فى ب « ابن عبيدة »

ولما دهنتني الحادثات ولم أجد لها وَزَرًا أَقْبَلْتُ نَحْوَكُ أَعْتَدِي (١)
ومثلك من يُعْدِي على كل حادثٍ رمى بسهام للردى لم ترصد
فعلك أن تخلو بفكرك ساعة لتتقذني من طول همّ مجدد
وها أنا في بطن الثرى وهو حامل فيسّر على رُقْبِي الشفاعة مولدى
حنانيك ألفا بعد ألف فإنني جعلتك بعد الله أعظم مقصدي
وأنت الذى يدرى إضرار حاجة تضل بها الآراء من حيث يهتدى
فرق له ابن هود ، وتحيل حتى خلصه بشفاعته ، فلما قدم عليه أشده :

حياتي موهوبة من علاكا وكيف أرى عادلا عن ذراكا (٢)
ولولم يكن لك من نعمة على وأصبحت أبغى سواكا
لناديت فى الأرض هل مُسْعِفٌ مجيبٌ فلم يُضغ إلا نذاكا

فطرب ابن هود ، وخلع عليه ثوب وزارته ، وجعله من أعلام سلطنته وإمارته
وقال المنصور بن أبى عامر للشاعر المشهور أبى عمر يوسف الرمادى : كيف
ترى حالك معي ؟ فقال : فوق قدرى ودون قدرك ! فأطرق المنصور كالغضبان ،
فانسَلَّ الرمادى وخرج وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل يقول : أخطأت ،
لا والله ما يفلح مع الملوك مَنْ يعاملهم بالحق ، ما كان ضررى لو قلت له :
إني بلغت السماء ، وتمنطقت بالجوزاء ، وأنشد :

بين أبى عامر
والرمادى

مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا يَلْفُ حَاجَةً لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا
لاحول ولا قوة إلا بالله ، ولما خرج كان فى المجلس من يحسده على مكانه من
المنصور ، فوجد فرصة فقال : وصل الله لمولانا الظفر والسعد ! إن هذا الصنف
صنف زور وهذيان لا يشكرون نعمة ، ولا يَرْعَوْنَ إِلَّا وَلَا ذِمَّة ، كلابٌ مَنْ
غَلَبَ ، وأصحاب من أخْصَبَ ، وأعداء من أجْدَبَ ، وحسبك منهم أن الله

(١) فى «أعندى» محرفا ، وأعتدى : يريد به أطلب النصرة
(٢) عادلا : اسم الفاعل من «عدل عن كذا» إذا مال عنه ، ووقع فى «عذلا» محرفا

جل جلاله يقول فيهم (والشعراء يتبعهم الغاؤون - إلى ما لا يفعلون) والابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقوم الصدق يستحسن إلا منهم ؟ فرفع المنصور رأسه ، وكان محبا^(١) في أهل الأدب والشعر ، وقد اسودَّ وجهه ، وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال : ما بال أقوام يشيرون في شيء لم يستشأوا فيه ، ويسئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون ، أيرضى أم يسخط ؟ وأنت أيها المنبعث للشر دون أن يُبعث ، قد علمنا غرضك في أهل الأدب والشعر عامة ، وحسدك لهم ، لأن الناس كما قال القائل :

من رأى الناس له فضلا عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة ، ولسنا إن شاء الله تعالى نبليغ أحدا غرضه في أحد ، ولو بلغناكم بلغنا في جانبكم ، وإنك ضربت في حديد بارد ، وأخطأت وجه الصواب ، فردت بذلك احتقارا وصغارا ، وأنى ما أطرقت من كلام الرمادى^(٢) إنكارا عليه ، بل رأيت كلاما يحلُّ عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت من تهديده له بسرعة ، واستغباطه له على قلة^(٣) من الإحسان الفامر ما لا يستنبطه غيره بالكثير ، والله لو حكته في بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجح ماتكلم به قلبه ذرة ، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص قبل أن يؤخذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا في أوليائنا ولو أبصرتم منا التغير عليهم ، فإننا لا نغير عليهم بغضا لهم وانحرافا عنهم ، بل تأديبا وإنكارا ، فإننا من نريد إبعاده لم نُظهر له التغير ، بل تنبذته مرة واحدة ، فإن التغير إنما يكون لمن يراد استبقاؤه ، ولو كنت مائل السمع لكل أحد منكم في صاحبه لنفرقتم أيدي سبنا ، وجوبت أنا مجانبية الأجر ، وإني قد أطلعتكم على ما في ضميري فلا تعدلوا عن مرضاتي ، فتجنّبوا سخطي بما جنتموه على أنفسكم ، ثم أمر أن يُردَّ الرمادى وقال له : أعد على كلامك ، فارتاع ،

(١) في ب « وكان محبا أهل الأدب » (٢) في ا « من خطاب الرمادى »

(٣) في ا « وعلى قلته من الإحسان »

فقال : الأمر على خلاف ما قدرت ، الثواب أولى بكلامك من العقاب ، فسكن
 لتأنيسه ، وأعاد ما تكلم به ، فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر حشاً فمّ النابغة
 بالدر لسكلام استملحه ^(١) منه ، وقد أمرنا لك بما لا يقصر عن ذلك ما هو أَوْه
 وأحسن عائدة ، وكتب له بمال وخلع وموضع يتعيش ^(٢) منه ، ثم رد رأسه إلى المتكلم
 في شأن الرمادي ، وقد كاد يغوص في الأرض لو وجد لشدة ما حل به مما رأى وسمع ^(٣)
 وقال : والعجب من قوم يقولون الابتعاد من الشعراء أولى من الاقتراب ، نعم ذلك
 لمن ليس له مفاخر يريد تخليدها ، ولا أيادٍ يرغب في نشرها ، فإن الذين قيل فيهم :
 على مُكثَرِهم رَزَق من يعتريهم وعند المُقَلِّين السَّاحَةُ والبَذْلُ
 وأين الذي قيل فيه :

إنما الدنيا أبو دُلف بين مبدّاه ومحتضره

فإذا ولّى أبو دلف ولّت الدنيا على أثره

أما كان في الجاهلية والإسلام أكرم ممن قيل فيه هذا القول ؟ بلى ، ولكن محبة
 الشعراء والإحسان إليهم أحييتْ غابر ذكركم ، وخصتهم بمفاخر عصرهم ، وغيرهم
 لم تخلد الأمداح ما أثرهم فدثر ذكركم ، ودرس فخرهم ، انتهى

ومن حكاياتهم في العدل أنه لما بنى المعتصم بن صّمداح ملك المِرية قصوره
 المعروفة بالصمادحية غصّبوا أحد الصالحين في جنة وألقوها بالصمادحية ، وزعم ذلك
 الصالح أنها لأيتام من أقاربه ، فبينما المعتصم يوماً يشرب على الساقية الداخلة إلى
 الصمادحية إذ وقعت عينه على أنبوب قصبة مشمع ، فأمر من يأتيه به ، فلما أزال
 عنه الشمع وجد فيه ورقة فيها « إذا وقفت أيها الغاصبُ على هذه الورقة فاذا كر
 قول الله تعالى (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أ كفليها

من عدل
 المعتصم بن
 صمداح

(١) في ١ « لسكلام استحسنه منه »

(٢) في ١ « وموضع يتعيش منه »

(٣) في ١ « عما سمع ورأى » وليس بذلك

وَعَزَّزَ (في الخطاب) لا إله إلا الله ، أنت ملك قد وسع الله تعالى عليك ، وممكن لك في الأرض ، ويحملك الحرصُ عل مايفنى أن تضم إلى جنتك الواسعة العظيمة قطعة أرضٍ لأيتام حرَّمت بها حلالها ، وخبثت طيبها ، ولئن تحجبت عني بسلطانك ، واقتدرت على بعظم شأنك ، فنجتمع غدا بين يدي من لا يحجب عن حق ، ولا تضيع عنده شكوى » فلما استوعب قراءتها دمعت عيناه ، وأخذته خشية خيف عليه منها ، وكانت عادته رحمه الله تعالى ، وقال : على المشتغلين بيناء الصمادية ، فأحضروا ، فاستفسرهم ^(١) عما زعم الرجل ، فلم يسعهم إلا صدقه ، واعتذروا بأن نقصها من الصمادية يعييبها في عين الناظر ، فاستشاط غضبا وقال : والله إن عيبها في عين الخالق أقبح من عيبها في عين المخلوق ، ثم أمر بأن تصرف إليه ^(٢) ، واحتمل تعويرها لصمادحيته ، ولقد مر بعض أعيان المرية وأخبارها مع جماعة على هذا المكان الذي أخرجت منه جنة الأيتام فقال أحدهم : والله لقد عورت هذه القطعة هذا المنظر العجيب ، فقال له : اسكت ، فوالله إن هذه القطعة طراز هذا المنظر وفخره ، وكان المعتصم إذا نظر إليها قال : أشعرتم أن هذا المكان المعوج في عيني أحسن من سائر ما استقام من الصمادية ، ثم إن وزيره ابن أرقم لم يزل يلاطف الشيخ والأيتام حتى باعوها عن رضا بما اشتبها من الثمن ، وذلك بعد مدة طويلة ، فاستقام بها بناء الصمادية ، وحصل للمعتصم حسن السمعة في الناس ، والجزاء عند الله تعالى

عز الدولة
ابن المعتصم
ابن صمادح

ولما مات المعتصم بن صمادح ركب البحر ابنه ولي عهده الواصل عز الدولة أبو محمد عبد الله ، وفارق الملك كما أوصاه المعتصم والده وفي ذلك يقول :
لك الحمد بعد الملك أصبحتُ خاملا بأرض اغتراب لا أمرٌ ولا أُخلى ^(٣)

(١) في ١ « فاستقرهم » محرفا

(٢) في ١ « بأن تصرف عليه »

(٣) في ١ « لك الحمد بعد الملك أصبحتُ خاملا »

وقد أصدأت فيها الجذاذة أنملى كما نَسِيت ركض الجياد بها رجلي^(١)
فلا مَسَمَى يُضغى لِنَعْمَة شاعر وكفى لا تمتد يوما إلى بذل

يقين ابن اللبانة
وعز الدولة بن
المعتصم

قال ابن اللبانة الشاعر : ما علمت حقيقة جُور الدهر حتى اجتمعت ببجاية مع عز الدولة بن المعتصم بن صمادح فإني رأيت منه خير من يجتمع به ، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تنم من تحت خموله كما ينم فِرْنْدُ السيف وكرمه من تحت الصدا^(٢) ، مع حفظه لهنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه وإسماعه ، ورقة طباعه ولطافة ذهنه ، ولقد ذكرته لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ووصفته بهذه الصفات ، فتشوق إلى الاجتماع به ، ورغب إلى في أن أستاذنه في ذلك ، فلما أعلمت عز الدولة قال : يا أبا بكر لتعلم أنا اليوم في خمول وضيق لا يتسع لنا معهما ، ولا يحمل بنا الاجتماع مع أحد ، لاسيما مع ذى أدب ونباهة يلقانا بعين الرحمة ، ويزورنا بمنة التفضل في زيارتنا ، ونكابد من ألفاظ توجعه وألحاظ تفجعه ما يحدد لنا همما قد بلى ، ويحيي كمدًا قد فنى ، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يرضى به عن هممتنا ، فذعنا كأننا في قبر ، نتدرع لسهام الدهر بدرع الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم ، وامتزجت امتزاج الماء بالنحر ، فكأننا لم نكشف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا فلا تحمل غيرك محملك^(٣) ، قال ابن اللبانة : فلأ والله سمعى بلاغة لا تصدر إلا عن سداد ونفس أبيّة متمكنة من أعنة البيان ، وانصرفت متمثلا :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم
وكأن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
وكتب إليه ابن اللبانة :

(١) في ١ ونسخة عند ب « وقد أصدأت فيها الجذاذة منهلى »

(٢) في ١ « من تحت صده »

(٣) في ب « فلا محمل غيرك بمحملك »

يا ذا الذي هز أمداحي بحيلته وعزّه أن يهز الجحد والكرما^(١)
واديك لا زرع فيه اليوم تبدّله فخذ عليه لأيام المني سلماتا
فتحيل في قليل بر ووجهه إليه وكتب معه^(٢) :

المجد ينجل من يفديك من زمن ثناك عن واجب البر الذي علما
فدونك النزر من مُصَفِّ مودته حتّى يوفيك أيام المني السلماتا
ومن شعر عز الدولة المذكور :

من شعر
عز الدولة بن
المعتصم

أفدى أبا عمرو وإن كان عاتبا فلا خير في ود يكون بلا عتب
وما كان ذاك الود إلا كبارق أضاء لعيني ثم أظلم في قلبي
وقال الشقندي في الطرف : إن عز الدولة أشعر من أبيه ، وأما أخوه رفيع الدولة
الحاجب أبو زكريا يحيى بن المعتصم فله أيضا نظم رائع ، ومنه ما كتب به إلى يحيى
ابن مطروح يستدعيه لأنس :

من شعر رفيع
الدولة بن
المعتصم

يا أخى بل سيدى بل سندی في مهمات الزمان الأنكد
لح بأفق غاب عنه بدره في اختفاء من عيون الحسد
وتعجّل فحبيبي حاضر وفى يشتاك كأسى في يدي

فأجابه ابن مطروح ، وهو من أهل باغة بقوله :

أنا عبد من أقل الأعبد قبلى وجه بأفق الأسعد
كلما أظمأني ورد فما منهل إلا بذاك المورد
ها أنا بالباب أبغى إزنيكم والظلم قد مد لكأس يدي

وكان قد سلط عليه إنسان مختل إذا رآه يقول : هذا ألف لاشيء عليه ، يعنى أن ملكه
ذهب عنه وبقي فارغا منه ، فشكا رفيع الدولة ذلك إلى بعض أصحابه ، فقال : أنا

(١) في « هز أمداحي بحيلته »

(٢) في ب « وكتب إليه »

أَكْفِيكَ مَوْنَتَهُ ، واجتمع مع الأحمق ، واشترى له حلواء ، وقال له : إذا رأيت رفيع الدولة بن المعتصم فسلم عليه وقبل يده ولا تقل هذا ألف لاشيء عليه ، فقال : نعم ، واشترط الوفاء بذلك ، إلى أن لقيه فجرى نحوه وقبل يده وقال : هذا هو باء بنقطة من أسفل ، فقامت قيامة رفيع الدولة ، وكان ذلك أشد عليه ، وكان به علة الحصا فظن أن الأحمق علم ذلك وقصده ، وصار كلما أحس به في موضع تجنبه ، واستأذن يوما على أحد وجوه دولة المرابطين فقال أحد جلسائه (تلك أمة قد خلت) استحقاراً له واستنقلاً للآذن له ، فبلغ ذلك رفيع الدولة فكتب إليه :

خَلَّتْ أُمِّي لَكِنَّ ذَاتِي لَمْ تَخُلْ	وفي الفرع ما يغني إذا ذهب الأصل
وما ضرركم لو قلتُم قولَ ماجد	يكون له فيما يحىء به الفضلُ
وكل إناء بالذي فيه راسح	وهل يمنح الزنبور ما مجَّه النحل ^(١)
سأصرف وجهي عن جناب تحله	ولو لم تكن إلا إلى وجهك السُّبُلُ
فما موضع تحمله بمرفع	ولا يرتضى فيه مقال ولا فعل
وقد كنت ذا عدل لعلك ترعوى	ولكن بأرباب العلا يجملُ العذل

من شعر أبي جعفر بن المعتصم : وأما أخوها أبو جعفر بن المعتصم فله ترجمة في المسهب والمطرب والمغرب ، ومن شعره :

كتبت وقلبي ذو اشتياق ووحشة	ولو أنه يستطيع مرَّ يسلم
جعلت سواد العين فيه سواده	وأبيضه طرسًا وأقبلت أثم
فخيل لي أني أقبل موضعا	يصافحه ذاك البنان المسلم

وأما أختهم أم الكرم فذكرناها مع النساء فاتراجع .

وقال أبو العلاء بن زُهر :

(١) هذا من قولهم « كل إناء بما فيه ينضح »

- تمت محاسن وجهه وتكاملت لما بدا وعليه صُدَّغَ مُونِقُ
وكذلك البدر المنير جماله في أن تكفنه سماء أزرق
وقال أبو الفضل بن شرف :
- يا من حكي البيدق في شكله أصبح يحكيك وتحكيه
أسفله أوسع أجزائه ورأسه أصغر ما فيه
- وقال ابن خفاجة :
- يا أيها الصب المعنى به ها هو لا خل ولا خمر
سود ماورد من خده فصار فجا ذلك الجمر
- وقال أبو عبد الله البياسي :
- صغر الرأس وطول العنق شاهدا عدل بفرط الحمق
- ولما سمعه أبو الحسن بن حريق قال :
- صغر الرأس وطول العنق خلقة منكرة في الخلق
فإذا أبصرتها من رجل فاقض في الحين له بالحمق
- وقال أبو الحسن بن الفضل يذكر مقاما قامه سهل بن مالك وابن عياش :
- لعمري لقد سرَّ الخلافة قائما بخطبته الغراء سهل بن مالك
وأما ابن عياش وقد كان مثله فضلوا جميعا بين تلك المسالك
ومات وماتوا حسرة وحسادة وغيظا فقلنا هالك في الهوالك
- وسهل بن مالك له ترجمة مطوَّلة ، رحمه الله تعالى !
- ومن حكاياتهم في الوفاء وحسن الاعتذار والقيام بحق الإخاء أن الوزير
الوليد بن عبد الرحمن بن غانم كان صديقا للوزير هاشم بن عبد العزيز ، ثابتا على
مودته ، ولما قضى الله تعالى على هاشم بالأسر أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن
قصة في الوفاء والقيام بحق الإخاء

الأموى ذكره في جماعة من خُدَّامه ، والوليدُ حاضر ، فاستقصره ، ونسبه للطيش والعجلة والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير الوليد ، فقال : أصلح الله تعالى الأمير ! إنه لم يكن على هاشم التخير في الأمور ^(١) ، ولا الخروج عن المقدور ، بل قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى حق الإقدام ، ولم يكن ملاك النصر بيده ، فخذله من وثق به ، ونكل عنه من كان معه ، فلم يزحزح قدمه عن موطن حفاظه ، حتى ملك مقبلا غير مدبر ، مُبليا غير فُشِل ، فجوزى خيرا عن نفسه وسلطانة ، فإنه لا طريق للملأم عليه ، وليس عليه ما جنته الحرب العشوم ، وأيضا فإنه ما قصد أن يجود بنفسه إلا رضا للأمير ، واجتنابا لسخطه ، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضا جالب التقصير فذلك معدود في سوء الحظ ، فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر فيما بعد عن نفي هاشم ، وسعى في تخليصه ، واتصل الخبر بهاشم ، فكتب إليه : الصديق من صدقك في الشدة لافي الرخاء ، والأخ من ذب عنك في الغيب لا في المشهد ، والوفى من وفى لك إذا خانك زمان ، وقد أنانى من كلامك بين يدي سيدنا - جعل الله تعالى نعمته سرمدًا ! - ما زادني بمودتك اغتباطا ، وبصدافتك ارتباطا ، ولذلك ما كنت أشدُّ يدي على وصالك ، وأخصك ^(٢) بإخائي ، وأنا الآن بموضع لا أقدر فيه على جزاء غير الثناء ، وأنت أقدر مني على أن تزيد ما بدأت به بأن تم ما شرعت فيه ، حتى تتكلم لك المنة ، ويستوثق عقد الصداقة ، إن شاء الله تعالى ، وكتب إليه بشعر منه :

أيا ذا كرى بالغيب في محفل به تصامت جمع عن جواب به نصرى
أنتنى والبيداء بينى وبينها رقى كلمات خلصتنى من الأسر

(١) في « التخير في الأمور » بالحاء المهملة ، وهو تحريف ما أميّنناه

(٢) في « وأخصه بإخائي » محرفا

لئن قرب الله اللقاء فإني سأجزيك مالا ينقضي غابر الدهر^(١)
فأجابه الوليد : خلصك الله أيها البدر من سِرارك ! وعجل بطلوعك في أكمل
تمامك وإبدارك ! وصَلّني شكرك على أن قلتُ ما علمتُ ، ولم أخرج عن النصيح
للسلطان بماز كنته^(٢) من ذلك ، والله تعالى شاهد ، على أن ذلك في مجالس غير المجلس
المنقول لسيدى إن خفيت عن الخلق فأتخفى عن الخالق ، ما أردت بها إلا أداء بعض
ما أعتقد لك ، وكم سهرت وأنا نائم ، وقت في حق وأنا قاعد ، والله لا يضيع
أجر من أحسن عملا ، ثم ذكر آياتنا لم تحضرني الآن

ومن حكاياتهم في علو الهمة في العلم والدنيا أنه دخل أبو بكر بن الصائغ
المعروف بابن باجة جامع غرناطة ، وبه نحوى حوله شباب يقرؤون ، فنظروا إليه ،
وقالوا له مستهزئين به : ما يحمل الفقيه ؟ وما يحسن من العلوم ؟ وما يقول ؟ فقال لهم :
أحمل اثني عشر ألف دينار ، وهامى تحت إبطى ، وأخرج لهم اثنتي عشرة ياقوتة ،
كل واحدة منها بألف دينار ، وأما الذى أحسنه فاثنا عشر علما أدونها علم العربية
الذى تبحثون فيه ، وأما الذى أقول فأنتم كذا ، وجعل يسبهم ، هكذا نقلت هذه
هذه الحكاية من خط الشيخ أبى حيان النحوى ، رحمه الله تعالى !

ومن حكاياتهم في الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها أن أبا القاسم عباس ،
ابن فرناس حكيم الأندلس أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة
وأول من فك بها كتاب العروض للخليل ، وأول من فك المويسيقى ، وصنع
الآلة المعروفة بالنقالة^(٣) ، ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال ، واحتال في تطهير
جثمانه ، وكسا نفسه الريش ، ومدّ له جناحين ، وطار في الجو مسافة بعيدة ،
ولكنه لم يحسن الاحتياال في وقوعه ، فتأذى في مؤخره ، ولم يدر أن الطائر إنما

(١) في ١ « فإن قرب الله اللقاء »

(٢) في ١ « بماز كيته من ذلك »

(٣) في ب « بالنقال » وفي نسخة عندها « بالنقالة »

قصة
في علو الهمة

عباس بن
فرناس حكيم
الأندلس
أول من فكر
في الطيران

يقع على زمكه (١) ، ولم يعمل له ذنباً ، وفيه قال مؤمن بن سعيد الشاعر من أبيات :
 يطمُّ على العنقاء في طيرانها إذا ما كسا جثمانه ريح قشعم
 وصنع في يته هيئة السماء ، وخَيَّلَ للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود ،
 وفيه يقول مؤمن بن سعيد أيضاً :

سَاءَ عَبَّاسُ الْأَدِيبِ أَبِي الْقَاسِمِ نَاهِيكَ حَسَنَ رَاتِقِهَا
 أَمَا ضُرَّاطُ اسْتِهِ فَرَاغِدُهَا فَلَيْتَ شَعْرَى مَا لَمَعَ بَارِقِهَا
 لَقَدْ تَمَنَيْتُ حِينَ دَوَّنَهَا فِكْرِي فِي الْبَصَقِ اسْتَخَالِقِهَا
 وَأَنْشُدَ ابْنَ فِرْنَانَ الْأَمِيرَ مُحَمَّدًا مِنْ أَبِياتِ :

رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا وَفِي وَجْهِهِ بَذْرُ الْحَبَّةِ يُشْمَرُ
 فَقَالَ لَهُ مُؤْمِنُ بْنُ سَعِيدٍ : قَبَّحًا لِمَا ارْتَكَبْتَهُ ! جَعَلْتَ وَجْهَ الْخَلِيفَةِ مَحَرَّثًا يَشْمُرُ فِيهِ الْبَذْرُ ،
 فَنَجَلَ وَسَبَّهُ

أول من اشتهر في الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم أبو عبيدة مسلم ابن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، لأنه كان يشرق في صلاته ، وكان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها ، وكان صاحب فقه وحديث ، دخل المشرق ، وسمع بمكة من علي بن عبد العزيز ، وبمصر من المزني وغيره

ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة ، من أهل قرطبة ، وكان بصيراً بالحساب والنجوم [والنحو] واللغة والعروض ومعاني الشعر والفقه والحديث والأخبار والجدال ، ودخل إلى المشرق ، وقيل : إنه كان معتزلي المذهب

وأبو القاسم أصبغ بن السمح ، وكان بارعاً في علم النجوم (٢) والهندسة ، وله تأليف منها كتاب « المدخل إلى الهندسة في تفسير إقليدس » وكتاب كبير في الهندسة ،

(١) في « زمكته » والزمك - بكسر الزاي والميم وتشديد الكاف - ذنب الطائر ، ومثله الزمكي ، بزيادة ألف تضرر (٢) في « بارعا في علم النحو والهندسة - الخ » وأحسبه محرفاً عما أثبتناه موافقاً لما في ب .

وكتابان في الاسطرلاب ، وزيج على مذاهب الهند المعروف بالسند هند وأبو القاسم بن الصغار ، وكان عالما بالهندسة والعدد والنجوم وله زيج مختصر على مذاهب السند هند ، وله كتاب في عمل الاسطرلاب ومنهم أبو الحسن الزهراوى ، وكان عالما بالعدد والطب والهندسة ، وله كتاب شريف في المعاملات على طريق البرهان

ومنهم أبو الحكم عمر الكرماني ، من أهل قرطبة ، من الراسخين في علم العدد والهندسة ، ودخل المشرق ، واشتغل بحرّان ، وهو أول من دخل برسائل إخوان الصفا إلى الأندلس

ومنهم أبو مسلم بن خلدون من أشرف إشبيلية ، وكان متصرفا في علوم الفلسفة والهندسة والنجوم والطب ، وتلميذه ابن برغوث ، وكان عالما بالعلوم الرياضية ، وتلميذه أبو الحسن مختار الرعيّني ، وكان بصيرا بالهندسة والنجوم ، وعبد الله بن أحمد السرقسطي ، كان ناقدا^(١) في علم الهندسة والعدد والنجوم ، ومحمد بن الليث ، كان بارعا في العدد والهندسة وحركات الكواكب ، وابن^(٢) حى ، قرطبي بصير بالهندسة والنجوم ، وخرج عن الأندلس سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، ولحق بمصر ، ودخل اليمن ، واتصل بأمرها الصليحي القائم بدعوة^(٣) المستنصر العبيدي ، فخطب عنده ، وبعثه رسولا إلى بغداد إلى القائم بأمر الله ، وتوفى باليمن بعد انصرافه من بغداد ، وابن الوقشي^(٤) الطليطلي ، عارف بالهندسة والمنطق والزيج ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم

وكان الحافظ أبو الوليد هشام الوقشي من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعاني الأشعار والعروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض وغيرها ، وهو كما قال الشاعر :

(١) في ١ « كان نافذا في علم الهندسة »

(٢) كذا في ١ ونسخة عند ب ، وفي أصل ب « وأبوحي »

(٣) في ١ « بدعوة من المستنصر العبيدي » (٤) كذا في ١ ، وفي ب « أبو الوقشي »

وكان من العلوم بحيث يُفَضَّى له في كل فن بالجميع
ومن شعره قوله :

قد بينت فيه الطبيعة أنها بدقيق أعمال المهندس ماهره
عُنِيتْ بِمِسْمِهِ فَخَطَتْ فَوْقَهُ بِالْمَسْكِ خَطَامُنَ مُحِيطِ الدَائِرَةِ

وعزم على ركوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك ، فقال :

لا أركب البحر ولو أننى ضربتُ فيه بِالْعَصَا فَانْفَلَقَ^(١)
ما إن رأت عينيَ أمواجه في فرق إلا تناهى الفَرْقُ

وكان الوزير أبوالمطرف عبد الرحمن بن شُهَيْدَ مصنف الأدوية المفردة آية الله تعالى في الطب وغيره ، حتى إنه عانى جميع ما في كتابه [من] الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن بالأغذية أو ما يقرب منها ، وإذا اضطر إلى الأدوية فلا يرى التداوى بالمركة ما وجد سبيلا إلى المفردة ، وإذا اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله غرائب مشهورة في الإبراء من الأمراض الصعبة والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه .

المشهورون
في الأندلس
بالطب
والمعالجات

ومنهم ابن البيطار ، وهو عبد الله بن أحمد الملقب بضياء الدين ، وله عدة مصنفات في الحشائش لم يسبق إليها ، وتوفى بدمشق سنة ست وأربعين وستمائة ، أكل عقارا قاتلا فمات من ساعته ، رحمه الله تعالى !

ومن حكاياتهم في الحفظ أن الأديب الأوحد حافظ إشبيلية ، بل الأندلس مثل من حفظ
أهل الأندلس في عصره ، أبا المتوكل^(٢) الهيثم بن أحمد بن أبي غالب كان أعجوبة دهره في الرواية للأشعار والأخبار ، قال ابن سعيد : أخبرني مَنْ أثق به أنه حضر معه ليلة عند

(١) يشير إلى قصة موسى عليه السلام التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ، ومنها أنه أمر بضرب البحر بعصاه فانفلق واتخذ لقومه طريقا يبسا
(٢) في ١ « أبو المتوكل » خطأ

أحد رؤساء إشبيلية فخرى ذكر حفظه ، وكان ذلك في أول الليل ، فقال لهم :
 إن شئتم تختبروني^(١) أجبتكم ، فقالوا له : بسم الله ، إننا نريد أن نحدث عن تحقيق ،
 فقالوا : اختاروا ، أي قافية شئتم لا أخرج عنها ، حتى تعجبوا^(٢) ، فاختاروا القاف ،
 فابتدأ من أول الليل إلى أن طلع الفجر ، وهو يثشد وزن :
 * أرق على أرق ومثلي يارق *^(٣)

وسمّاه قد نام بعض وضح بعض ، وهو ما فارق قافية القاف .
 وقال أبو عمران بن سعيد : دخلت عليه يوما بدار الأشراف بإشبيلية ،
 وحوله أدياء ينظرون في كتب منها ديوان ذى الرمة ، فمد الهيم يده إلى الديوان
 المذكور ، فمنعه منه أحد الأدياء ، فقال : يا أبا عمران ، أوجب أن يمنعه مني
 وما يحفظ منه بيتا ، وأنا أحفظه ؟ فأكذبه الجماعة ، فقال : أسمعوني وأمسكوه ،
 فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه ، فأقسمنا عليه أن يكف ، وشهدنا له بالحفظ .
 وكان آية في سرعة البديهة ، مشهورا بذلك ، قال أبو الحسن بن سعيد :
 عهدى به في إشبيلية يملئ على أحد الطلبة شعرا ، وعلى ثمان موشحة ، وعلى ثالث
 زجلا ، كل ذلك ارتجالا .

ولما أخذ الحصار بمُخَقَّ إشبيلية في مدة الباجي خرج خروج القارطين^(٤) ،
 ولا يدرى حيث ولا أين .

ومن شعره وقد نزل بداره عبيد السامان ، وكتب به إلى صاحب الإنزال :

(١) كذا في ١ ، ب جميعا ، والمشهور أن يقول « تختبروني » بنونين ، على أن
 مثل ذلك سائع ، لكنه قليل .

(٢) في ١ « حتى تعجبوا » ومعناه ترفعوا أصواتكم ، وأحسبه محرفا

(٣) هذا صدر مطلع قصيدة للقتبي ، وعجزه قوله :

* وجوى يزيد وعبرة تتدفق *

(٤) خرج رجل عنزي يحنى القرط فلم يعد ، فقالت العرب لاشي لا ينتظر حصوله
 « لا أفعله حتى يؤب القارطين » وقل الشاعر :

وحتى يؤوب القارطان كلاهما وينشر في القتلى كليب لوائل

كم من يدلك لا أقوم بشكرها وبها أشير إليك إن خerst في
وقد استشرتك في الحديث فهل ترى أن يدخل الغرْبَانُ وَكَرَّ الهَيْمِ
وله :

يُجْنَى الْفَقِيرُ وَيَغْشَى النَّاسُ قَاطِبَةً باب الغنى كذا حُكْمُ الْمُقَادِيرِ
وإنما الناسُ أمثالُ القَرَاشِ فهم بحيث تبدو مصاييح الدنانير
وله :

عندى لفقْدك أوجال أبْت بها كأننى واضع كفى على قَبَسِ
ولا ملامة إن لم أهد نيره حتى تمدَّ إليها كفَّ مُقْتَبَسِ
قد كنت أودع سرَّ الشوق في طرس لكننى خفت أن يعدو على الطرس
وأنشد له أبو سهل شيخ دار الحديث بالقاهرة في إملائه :

قف بالكثير لغيرك التأنيب إن الكثير هوى لنا محبوب (١)
ياراحلين لنا عليكم وقفة ولكم علينا دَمْعُنا المسكوب
تُخْلِى الديار من الحجة والهوى أبداً وتعمر أضلع وقلوب
وقال ارتجالاً في وصف فرس أصفر :

أَطْرَفَ فَات طَرْفِي أَمْ شِهَابُ هفا كالبرق ضَرَمَه التهاب
أعار الصبح صفحته نقاباً فقر به وصَحَّ له النقاب (٢)
فمهما حُتَّ خال الصبح وافي ليطلب ما استعار فما يُصَابُ
إذا ما انقضَّ كَلَّ النجم عنه وضَلَّتْ عن مسالكه السحاب
فيا عجباً له فضل الدرارى فكيف أذال أربَعَه التراب (٣)
سَلِ الأرواح عن أدنى مداه فعند الريح قد يلقى الجواب (٤)

(١) الهوى ههنا : المهوى ، أى العشوق ، من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول
ووقع في ب « إن الكثير هوى له محبوب » وما أثبتناه موافقاً لما في أطرف
(٢) في ب « وصح لنا النقاب » (٣) أذال : امتن ، ووقع في ب « فكيف
أزال أربعه » محرفاً (٤) في أ « سل الأرواح عن أقصى مداه »

وقال أبو عمر الطلمنكي: دخلت مُرْسِيَّة ، فتشبت بي أهلها يسمعون (١) على الغريب المصنف ، فقلت : انظروا مَنْ يقرأ لكم ، وأمسكت أنا كتابي ، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيده ، فقرأه على من أوَّله إلى آخره ، فعجبت من حفظه ، وكان أعمى [ابن أعمى] (٢)

وابن سيده المذكور هو أبو الحسن علي بن أحمد بن سيده ، وهو صاحب كتاب « الحكم » .

ابن سيده
وشيء من
شعره

ومن نظمه مما كتب به إلى ابن الموفق :

أهل إلى تقبيل راحتك اليمنى سبيل فإن الأمن في ذاك واليمنى ومنها :

ضحيتُ فهل في برِّ ذلك نومة لذي كَيْدٍ حَرَّى وذى مقلةٍ وَسْنَا
وتوفي ابن سيده المذكور سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، وعمره نحو الستين ، رحمه الله تعالى !

ومن حكاياتهم في حب العلم أن المظفر بن الأفطس صاحب بَطْلَيْوُس كان كما قال ابن الأثير كثير الأدب ، جَمَّ المعرفة ، محبا لأهل العلم ، جماعة للكتب ، ذا خزانة عظيمة ، لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في أدب ومعرفة ، قاله ابن حيان . وقال ابن بسام : كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ، وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم بالتذكرة والمشتهر أيضا اسمه بالكتاب المظفرى ، في خمسين مجلدا ، يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ وسيرٍ ومثل وخبر وجميع ما يختص به علم الأدب ، أبقاه للناس خالدا ، وتوفي المظفر سنة ستين وأربعمائة .

المظفر بن
الأفطس وجه
للعلم

من كبار
مؤلفات أهل
الأندلس

وكان يحضر العلماء للمذاكرة ، فيفيد ويستفيد ، رحمه الله تعالى !

ومن التأليف الكبار لأهل الأندلس كتاب « السماء والعالم » الذى ألَّفه

أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة ، وهو مائة مجلد ، رأيت بعضه بفاس ، وتوفي ابن أبان سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى ! .

ولأهل الأندلس دُعابة وحلاوة في محاوراتهم ^(١) ، وأجوبة بديهة مسكتة ، والظرفُ فيهم والأدب كالغريزة ، حتى في صبيانهم ويهودهم ، فضلاً عن علمائهم وأكابرهم .

من دعايات
أهل الأندلس

ولنذكر جملة من ذكر الجلة فنقول :

حكى عن عالم المريّة القاضي أبي الحسن مختار الرعيّني ، وكان فيه حلاوة ولو ذعية ووقار وسكون ، أنه استدعاه يوماً زهير ملك المريّة من مجلس حكمه ، فجاءه يمشي مشية قاض قليلاً قليلاً ، فاستعجله رسول زهير ، فلم يعجل ، فلما دخل عليه قال له : يا فقيه ، ما هذا البطء ؟ فتأخر إلى باب المجلس ، وطلب عصا ، وشمريّابه ، فقال له زهير : ما هذا ؟ قال : هذا يليق باستعجال الحاجب لي ، فوقع في خاطري أنه عزّلني عن القضاء وولاني الشرطة ، فضحك زهير واستحلاه ولم يعد إلى استعجاله .

وهذا القاضي هو القائل - وقد دخل حتماً فجاس بإزانه عاميُ أساء الأدب عليه - :

ألا لعين الحمام داراً فإنه سواء به ذو العلم والجهل في القدر
تضيع به الآداب حتى كأنها مصاييح لم تنفق على طلعة الفجر
وروى أن المقرئ أبا عبد الله محمد بن الفراء إمام النحو واللغة في زمانه - وكانت فيه فطنة ولو ذعية - أبطأ خروجه يوماً إلى تلامذته ، فطال بهم الكلام في المذاكرة فقال أحدهم نصف بيت ، وكان فيهم وسيم من أبناء الأعيان ، وكان ابن الفراء كثير الميل إليه ، فلما خرج قال له : يا أستاذ ، عملت نصف بيت ، وأريد أن تتمه ، فقال : ما هو ؟ فقال :

(١) في « محاوراتهم » بالجمع - محرفاً

* ألا بأبي شادن أوطف *

من شعر
ابن الفراء : فقال الأستاذ ابن الفراء بديها :
وشر ثناياك لا يرشف
فأى اضطرار بنا أن نقول : ألا بأبي شادن أوطف ؟
وهذا ابن الفراء هو القائل :

قيل لي قد تبدلًا فاسأل عنه كما سلا
لك سمع وناظر وفؤاد فقلت لا
قيل غال وصاله قلت لما غلا حلا
أيها العاذل الذي بعذابي توكل
عد صحيحا مسلما لاتعير فتبتلي

وتذكرت بهذا ما أشده لسان الدين في كتابه ، « روضة التعريف ،
بالحسب الشريف » (١) :

قلت للساخر الذي رفّع الأنف فاعتلى (٢)
أنت لم تأمن الهوى لاتعير فتبتلي

ومن بديع نظم ابن الفراء المذكور قوله :

شكوت إليه بفرط الدنف فأنكر من قصتي ما عرف (٣)
وقال الشهود على المدعى وأما أنا فعلى الخلف (٤)
فجئنا إلى الحاكم الألعى قاضى الجحون وشيخ الطرف (٥)
وكان بصيرا بشرع الهوى ويعلم من أين أكل الكتف
فقلت له اقض ما بيننا فقال الشهود على ما تصف

(١) في « روضة التعريف ، بالحسب الشريف » (٢) في « واعتلى »

(٣) الدنف - بفتح الدال والنون جميعا - المرض

(٤) أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم « البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر »

(٥) في « وشيخ الطرف »

فقلت له شهدت أدْمَعِي فقال إذا شهدت تنتصف
فقاضت دموعي من حينها كفيض السحاب إذا ما يكف
فحرك رأسا إلينا وقال دعوا يامهاتيك هذا الصلف
كذا تقتلون مشاهيرنا إذا مات هذا فأين الخلف
وأوما إلى الورد أن يحتنى وأوما إلى الريق أن يرتشف
فلما رآه حبيبي معي ولم يختلف بيننا مختلف
أزال العناد فعاثته كأني لأمّ وجبّي ألف
فظلّت أعاتبه في الجفا فقال عفا الله عما سلف

وحكى عن الزهري خطيب إشبيلية - وكان أعرج - أنه خرج مع ولده إلى وادي
إشبيلية ، فصادف ^(١) جماعة في مركب ، وكان ذلك بقرب الأضحى ، فقال بعضهم
له : بكم هذا الخروف ؟ وأشار إلى ولده ، فقال له الزهري : ما هو للبيع ، فقال :
بكم هذا التيس ^(٢) ؟ وأشار إلى الشيخ الزهري ، فرفع رجله العرجاء وقال : هو معيب
لا يجزى ^(٣) في الضحية ، فضحك كل من حضر ، وعجبوا من لطف خلقه .
وركب مرة هذا النهر مع الباجي يوم خميس ، فلما أصبحا وصعد الزهري
يخطب يوم الجمعة ، والباجي حاضر قدامه ، فنظر إليه الباجي وأوما إلى محل الحدث ،
وأخرج لسانه ، فجعل الزهري يلمس عصا الخطبة ، يشير بالعصا إلى جوابه على
ما قصد ، رحمه الله تعالى !

ومر العالم أبو القاسم بن ورد صاحب التأليف في علم القرآن والحديث بجنة
لأحد الأعيان فيها ورد ، فوقف بالباب وكتب إليه :

شاعر قد أتاك يبغي أباه عندما اشتاق حسنه وشداه ^(٤)

(١) في ١ « فصادفه جماعة » (٢) في ١ « فبكم هذا التيس »

(٣) في ١ « لا يجزى » وكلمة « لا يجزى » في الضحية « من عبارات أهل الفقه

(٤) في ١ « شاعر قد عراك يبغي أباه »

وهو بالباب مصغياً لجواب يرتضيه الندى فإذا تراه^(١)

فعندما وقف على البيتين علم أنه ابن وِزْد ، فبادر من جنته إليه ، وأقسم في النزول عليه ، ونثر من الورد ما استطاع بين يديه .

وحكى أن أبا الحسن^(٢) سليمان بن الطراوة نحوى المَرِيَّة حضر مع ندماء ، وإلى جانبه مَنْ أخذ بمجامع قلبه ، فلما بلغت النوبة إليه استغنى من الشرب ، وأبدى القُطوب ، فأخذ ابن الطراوة الجلام من يده وشربها عنه ، ويا برَّكِدَهَا على كل كبده ، ثم قال بديها :

يشربها الشيخُ وأمثاله وكل من تحمد أفعاله
والبكر إن لم يستطع صولة تُلقَى على البازل أثقاله^(٣)
ودخل عليه وهو مع ندمائه غلام والكأس^(٤) في يده فقال :

ألا بأبي وغير أبي غزال أتى وبراحه للشرب راحُ
فقال مُنادى في الحسن صفه فقلت الشمس جاء بها الصباح
وقال فيمن جاء بالراح :

ولما رأيت الصبح لاح بخده دعوتهم رفقا تلح لكم الشمس
وأطلعها مثل الغزالة وهو كالغزال فتم الطيب واكتمل الأنس
وقال ، وقد شرب ليلة في القمر :

شربنا بمصباح السماء مُدَامَة بشاطى غدير والأزاهر تنفخُ
وظل جَهْوَل يرقب الصبح ضلة ومن أكوُس لم يبرح الليل يصبح^(٥)

(١) في ب « يرتضى بالندى » وما أثبتناه موافقا لما في الأظرف ، وجملة « يرتضيه الندى » صفة لجواب (٢) في أ « أبا الحسين »

(٣) في أ « والبكر إن لم يستطع رحله » ، وهذا البيت يشير إلى قول الشاعر :

وابن اللبون إذا ماز في قرن لم يستطع صولة البرل القناعيس

(٤) في أ « غلام بكأس في يده » (٥) في أ « ومن أكوسى »

مدغليس
صاحب
الموشحات
والأزجال

وكان (١) عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يشرب مع ندماه
ظراف في جنة بهجة ، فجاءتهم ورقة من ثقیل يرغب في الإذن ، وكان له ابن مليح
فكتب إليه مدغليس :

سیدی هذا مكان لا يرى فيه بلحيه
غير تيس مصفعاني له بالصَّفْع كديه
أوله ابن شافع فيه فيلقى بالتحية
أيها القابل أقبل سائقاً تلك المطيه (٢)

وكان مدغليس هذا مشهوراً بالانطباع والصنعة في الأزجال ، خليفة ابن قزمان
في زمانه ، وكان أهل الأندلس يقولون : ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في
الشعراء ، ومدغليس بمنزلة أبي تمام ، بالنظر إلى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان
ملتفت إلى المعنى ، ومدغليس ملتفت اللفظ ، وكان أديباً مُعرباً لكلامه مثل
ابن قزمان ، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه .
ومن شعره قوله :

ما ضركم لو كتبتكم حرفاً ولو باليسار
إذ أتم نور عيني ومطلبي واختياري

وقال الخطيب الأديب النحوي أبو عبد الله [محمد بن عبد الله] (٣) بن القراء المذكور
قبل هذا بقریب الضرير ، في صبي كان يقرأ عليه النحو اسمه حسن ، وهو غاية الجمال
— بعد أن سألته : كيف تقول إذا تعجبت من حسنك ؟ فقال أقول : ما أحسنى —

يا حسنًا مالك لم تحسن
رقت بالورد وبالسوسن
وقد أبى صدغك أن أجتنى
يا حسنه إذ قال ما أحسنى
إلى نفوس بالهوى متعبه
صفحة خد بالسنا مذهبه
منه وقد ألدغى عقربه
ويالذاك اللفظ ما أعذبه

(١) في ١ « وكان أبو عبد الله بن الحاج »

(٢) في ١ « أيها القائل بادر » (٣) زيادة في ١ وحدها

فَقَوَّ السَّهْمَ وَلَمْ يُخْطِنِي وَإِذْ رَأَى مِيتَا أَعْجَبَهُ
وَقَالَ كَمْ عَاشَ وَكَمْ حَتَّى وَحُبُّهُ إِيَّايَ قَدْ عَذَبَهُ
يَرْحَمُهُ اللَّهُ عَلَى أَنْسَى قَتَلِي لَهُ لَمْ أَدْرِ مَا أَوْجِبَهُ

وقد كان ^(١) ابن الفراء من فضلاء المائة السادسة ، ذكره ابنُ غالب في «فرحة الأنفس»
في فضلاء العصر ^(٢) من الأندلس » وكان شاعراً مجيداً ، يُعَلِّمُ بِالْمَرْيَةِ الْقُرْآنَ وَالْفُجُو
وَاللُّغَةَ ، وكانت فيه فطنة وَلَوْ دَعِيَّةٌ ، وذكاء وألمعية ، خرق بها العوائد
وحكى أن قاضي المَرْيَةِ قبل شهادته في سَطَلٍ ميزه في حمام باللس ، واختبره
في ذلك بحكاية طويلة

وذكره صفوان في « زاد المسافر » ووصفه بالخطيب

جد ابن الفراء وجده القاضي أبو عبد الله بن الفراء مشهور بالصلاح والفضل والزهد ، ومن
العجائب أنه ليس له ترجمة في «المغرب» ولما كتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين
إلى أهل المَرْيَةِ يطلب منهم المعونة جاوبه بكتابه المشهور الذي يقول فيه ماصورته :
فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرى عن ذلك ، وأن الباجي وجميع
القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه
اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعه في قبره ، ولا يشك
في عدله ، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعه
في قبره ، ولا من لا يشك في عدله ، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته في العدل
فإن الله تعالى سألهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر رضى الله تعالى عنه حتى دخل مسجد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحد في بيت مال
المسلمين ينفقه عليهم ، فتدخل المسجد الجامع هنالك بحضرة من أهل العلم وتحلف
أن ليس عندك درهم واحد ولا في بيت مال المسلمين ، وحينئذ تستوجب ذلك ،

(١) في ١ « وهذا ابن الفراء من فضلاء المائة السادسة »

(٢) في ١ « في فضلاء العصر »

والسلام ، انتهى .

ابن الفراء
الأخفش

وأما ابن الفراء الأخفش بن ميمون الذي ذكره الحِجَارَى في « المسهب »
فليس هو من هؤلاء ، بل هو من حضن الغيداق من أعمال قلعة بني سعيد ، وتأدب
في قرطبة ، ثم عاد إلى حضرة غزنأطة ، واعتكف بها على مدح وزيرها اليهودي ،
وهو القائل :

صاحبُ حَيَاةٍ تلقى الدُّجُحَ في الأمل وانظر بناديه حسن الشمس في الحُل
ما إن يلاقى خليل فيه من خَلَلٍ وكلما حال صرف الدهر لم يَحُل
وكان يهاجى المنفتل شاعر البيرة ، ومن هجاء المنفتل (١) له قوله :

لابن ميمون قريض زمهرير البرد فيه
فإذا ما قال شعرا نفقت سوق أبيه (٢)

ولما وفد على الأميرة مدح رفيع الدولة بن المعتصم [بن صمادح] (٣) بشعر ، فقال له بعض
من أراد ضره : ياسيدى لا تقرب هذا اللعين ، فإنه قال في اليهودى :
ولكن عندي للوفاء شريعة تركت بها الإسلام يميني على الكفر
فقال رفيع الدولة : هذا والله هو الحر الذي ينبغي أن يُصْطَنَعَ ، فلولا وفاؤه ما بكى
كافرا بعد موته ، وقد وجدنا في أصحابنا من لا يرعى مساما في حياته ، فقال
فيه المنفتل :

إن كنت أخفش عين فإن قلبك أعمى
فكيف تنثر نثرا وكيف تنظم نظما

ومن شعر الأخفش المذكور قوله :

إذا زرتكم غيا فلم ألق بالبر وإن غبت لم أطلب ولم أجرفي الذكر

(١) في « ومن هجائه المنفتل له قوله » وليس بذلك

(٢) سوق أبيه : يقصد كثرت حاجة الناس إلى الفراء لبرد شعره (٣) زيادة في ا وحدها

ابن مسعود
والطليق
القرشي

فإني إذن أولى الوري بفراقكم ولا سيما بعد التجلد والصبر
ولما وفد على المنصور بن أبي عامر الشاعر المشهور أبو عبد الله محمد بن مسعود
الغساني البجالي أنهم برهق في دينه ، فسجنه في المطبق مع الطليق القرشي ، والطليق
غلام وسيم ، وكان ابن مسعود كلفاً يومئذ وفيه يقول :

غدوت في السجن خذلاً بن يعقوب وكنت أحسب هذا في التكاذيب
رامت عذاتي تعذيبي وما شعرت أن الذي فعلوه ضد تعذيبي
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها فكان ذلك إدنائى وتقريبي
لم يعلموا أن سجنى لا أبالهم قد كان غاية مأمولى ومرغوبى

وسجن ابن مسعود^(١) والطليق قبله ، ووقع بينه وبين الطليق ، وعاد المدح هجاء ،
فقال فيه :

ولى جليس قر به منى بعد الأمانى كذبا عنى
قد قذيت من لحظه مقلتي وقرحت من لفظه أذنى
هو زلى في السجن من قر به أشد في السجن من السجن^(٢)
لو أن خاتماً كان ضداً له زاد على يوسف في الحسن
إذا ارتمنى فكرى في وجهه سلط إبطيه على ذهني
كأنما يجلس من ذا وذا بين كنيفين من النتن

وكتب
للمنصور من
السجن

وقال يخاطب المنصور من السجن :

دعوت لما عيل صبرى فهل يسمع دعواى المليك الحليم
مولاي مولاي ألا عطفة تذهب عنى بالعذاب الأليم
إن كنت أضمرت الذى زخر فوا عنى فدعنى للتقدير الرحيم

(١) في ١ « وانطلق ابن مسعود والطليق قبله - إلخ »

(٢) في ١ « راهنى في السجن من قر به »

بين جارية
وشاعر من
المرية

فعنده نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَى وعنده الفردوس ذات النعيم
وركب بعض أهل المَرِيَّةِ في وادي إشبيلية ، فر على طاقة من طافات شنتبوس ،
وهو يغنى :

خَلْنِي ^(١) مِنْ وَادٍ وَمِنْ قَوَارِبَ ، وَمِنْ نَزَاهَا ^(٢) فِي شَنْتَبُوسَ

غرس الحبق الذي في داري ، أحب عندي من الفردوس

فأخرجت رأسها جارية وقالت له : من أي بلد أنت يا من غَنَّى ؟ فقال : من المرية ،
فقال : وما أعجبك في بلدك حتى تفضله على وادي إشبيلية ؟ وهو بوجه مالح وقفاً
أحرش ، وهذا من أحسن تعيب ، وذلك أنها أتته بالنقيض من إشبيلية ، فإن وجهها
النهر العذب ، وقفها بجبال الرحمة أشجار التين والعنب ، لا تقع العين إلا على
خضرة في أيام الفرج ، وأين إشبيلية من المرية ، وفي المرية يقول السمسير شاعرها :

بَشْ دَارِ الْمَرِيَةِ الْيَوْمَ دَارَا لَيْسَ فِيهَا لِسَاكِنٌ مَا يُحِبُّ

بَلَدُهُ لَا تُمَارُ إِلَّا بِرِيحٍ رُبَّمَا قَدْ تَهَبَ أَوْ لَا تَهَبُ ^(٣)

يشير إلى أن مرَافقها مجلوبة ، وأن الميرة تأتيها في البحر من بر العُدْوَةِ ، وفيها
يقول أيضاً :

قَالُوا الْمَرِيَّةُ فِيهَا نِظَافَةٌ قُلْتُ إِيَّاهُ

كَأَنَّهَا طُسْتُ تَبَرٍ وَيُبْصَقُ الدَّمُ فِيهِ

وحكى مؤرخ الأندلس أبو العباس البياسي ^(٤) ، أنه دخل عليه في مجلس أنس شيخ
ضَخَمَ الجُثَّةُ مُسْتَقْبَلٌ ، فقال البياسي :

اسْتَقْبَتْنِي الْكَأْسُ صَاحِيهِ وَدَعِ الشَّيْخَ نَاحِيهِ ^(٥)

فقال الكاتب أبو جعفر أحمد بن رضى :

إِنْ تَكُنْ سَاقِيَا لَهُ لَيْسَ تَرْوِيهِ سَاقِيَهُ

البياسي
شيخ ثقیل

(١) في « خلين من واد » (٢) في ب « ومن تراها في شنتبوس »

(٣) في « بلدة لا تمار إلا بريح » محرفاً ، و تمار - بالبناء للمجهول - تجلب لها الميرة

(٤) في « وحضر مؤرخ الأندلس أبو الحجاج البياسي »

(٥) في « استقنى الكأس ضاحيه »

وحكى أن العالى إدريس الحمودى لما عاد إلى ملكه بمالقة وبنخ قاضيه الفقيه
أبا على بن حسن ، وقال له : كيف بايعت عدوى من بعدى وصحبته ؟ فقال :
وكيف تركت أنت ملكك لعدوك ؟ فقال : ضرورة القدرة حملتنى على ذلك ،
فقال : وأنا أيضاً حصلت فى يد من لا يسعنى (١) إلا طاعته .
ومن نظم القاضى المذكور :

رفعت من دهرى إلى جائر ويبتغى العدل بأحكامى
أضحت به أملاكه مثل أشكال خيال طوع أياى
هذا لما أبرم ذا ناقض كأنهم فى حكم أحلام

أبو محمد عبد الله
الوحيدى
قاضى مالقة

وكان الفقيه العالم أبو محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالقة جرى - كما قال الحجارى -
فى صباه طلق الجوح [ولم يزل] (٢) يعاقب بين غبوق وصبوح ، إلى أن دعاه النذير ،
فاهتدى منه بسراج منير ، وأحلت له تلك الرجعة ، فيما شاء من الرفعة .
وقال بعض معاصريه : كنت أماشيته زمن الشباب ، فكلما مررنا على امرأة
يدعونها وشكلها إلى أن تحير [فيه] (٣) الألباب ، أمال إليها (٤) طرفه ، ولم ينح عنها
صرفه ، ثم سائرته بعد لما رجع عن ذلك واقتصر ، فرأيت يعض البصر ، ويخلى
الطريق معرضاً إلى ناحية ، متى زاحته امرأة ولو حكمت الشمس ضاحية (٥) ، فقلت له
فى ذلك ، فقال :

ذاك وقت قضيت فيه غرامى من شبابى فى سترة الإظلام
ثم لما بدا الصباح لعينى من مشيى ودعته بسلام

ومن شعره فى صباه :

لا ترتجوا رجعتى باللوم عن غرض ولتتركبنى وصيدى فرصة الخلس

(١) فى ١ « فى يد من لا تسعنى » (٢) زيادة فى ١ وحدها

(٣) كلمة « فيه » لا توجد فى ١ (٤) فى ١ « أمال عليها »

(٥) فى ب « ولو حكمت الشمس ضاحية »

طلبتُم رَدَّ قَلْبِي عن صِبايَته ومن يرُدُّ عِنانَ الجَاحِمِ الشَّرِّسِ
ولما أقصر باطله ، وعُرِّيَتْ أفراسُ الصِّبا ورواحله ^(١) ، قال :

ولما بدا شَيْبِي عَفَفْتُ عن الهوى كما يَهْدِي حلفُ الشَّرِّى بنجوم ^(٢)
وفارقت أشياع الصِّبايَةَ والطلا ومِلْتُ إلى أَهْلِي عُلَاً وعلوم ^(٣)

موقف
لابن الفخار

ولما تَأَلَّبَ بنو حَسَّوْنَ على القاضى الوحيدى المذكور صادر عنه العالم الأصولى
أبو عبد الله بن الفخار ، وطلع فى حقِّه إلى حضرة الإمامة مراکش ، وقام فى مجلس
أمير المسلمين ابن تاشفين ، وهو قد غصَّ بأربابه ، وقال : إنه لمقام كريم ، نبداً
فيه بحمد الله على الدُّنُوِّ منه ، ونصلى على خيرة أنبيائه محمد الهادى إلى الصراط
المستقيم ، وعلى آله وصحابه نجوم الليل البهيم ، أما بعد فإننا نحمد الله الذى اصطفاك
للمؤمنين أميراً ^(٤) ، وجعلك للدين الحنيفى نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مما دَهَمَنا فى
حِمَاك ، ونبث إليك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظلِّ غَلَاك ، ويأبى الله أن يدهم
من احتسى بأمر المسلمين ، ويصاب بضمٍ من أَدْرَعَ بحصنه الحصين ، شكوى
قت بها بين يديك فى حقِّ أمرك الذى عضده مؤيده ، لتسمع منها ما تختبره
برأيك وتنقده ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدمته فى مآلقة للأحكام ،
ورضيت بَعْدَله فيمن بها من الخاصة والعوام ، لم يزل يدلُّ على حسن اختيارك
بحسن سيرته ، ويُرْضِي الله تعالى ويرضى الناس بظاهره وسريته ، ما علمنا عليه
من سوء ، ولا دَرَيْناله موقفَ خِزْيٍ ، ولم يزل جارياً على ما يرضى الله تعالى
ويرضيك ويرضينا إلى أن تعرضت بنو حَسَّوْنَ إلى الطعن فى أحكامه ، والهدم من
أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدم ، راجعٌ على المقدم ، بل جَمَحُوا فى كَلْجَاهِمِ
فعموا وصموا ، وفعلوا وامضوا ما به هُمُّوا ، وإلى السحب يرفع الكف من قد

(١) أخذ هذا من قول زهير بن أبى سلمى المزنى فى مطلع قصيدة :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

(٢) فى « ولما بدا شيبى عطف على الهدى » وفى نسخة عند « عطف عن الهوى »

(٣) فى ب « وملت إلى أعلى علا وعلوم » (٤) فى « للمسلمين أميراً »

جف عنه مسيل عين ونهر ، فلأ سمعه بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه .

ومن شعر ابن الفخار المذكور ، ويعرف بابن نصف الرض ، قوله :

من شعر

ابن الفخار

أُمتنكر شيبُ المفارق في الصِّبا وهل ينكر النور المفتوح في الغصن
أظنُّ طلابَ الجهد شيبَ مفرِّق وإن كنت في إحدى وعشرين من سنى
وقوله :

أَقِلَّ عتابك إن الكريم يُجَارِي على حبه بالقي
وخل اجتنابك إن الزمان يُمرُّ بتكديره ما حَالاً
وواصل أخاك بعالاته فقد يلبس الثوب بعد البلى
وقل كالذي قاله شاعر نبيل وحقق أن تنبلا
إذا ما خيل أسامة وقد كان فيما مضى جملاً
ذكرت المقدّم من فعله فلم يُفسد الآخر الأوّلاً

ولما وفد أبو الفضل بن شرف^(١) من برجة في زى تظهر عليه البداوة بالنسبة إلى لابن شرف أهل حضرة المملكة العظمى أنشده قصيدته القافية^(٢) :

مَطَلَّ الليل بوعد الفلق وتشكى النجم طول الأرق
ضربت ريح الصبامسك الدجى فاستفاد الروض طيب العبق
وألاح الفجر خدّاً خجلاً جال من رشح الندى في عرق
جاوز الليل إلى أنجحه فتساقطن سقوط الورق^(٣)
واستفاض الصبح فيه فيضة أيقن النجم لها بالغرق
فأنجلي ذاك السنى عن حلاك وانمحي ذاك الدجى عن شفق
بأبي بعد الكرى طيف سرى طارقاً عن سكن لم يطرق
زارني والليل ناع سدّقه وهو مطلوب بباقي الرّمق

(١) في ب « بن شرف بن برجة » محرفاً ، مع ما قد مضى من ذكر برجة

وما قيل فيها من الشعر (٢) في ا « أنشد قصيدته القافية »

(٣) في ب « جاوز الليل إلى أنجحه »

ودموع الطل تمرّ بها الصبا
فتأتى فى إزار ثابت
وتجلى وجهه عن شعره
نهب الصبح دجى ليلته
سلبت عيناه حدّى سيفه
وامتطى من طرفه ذا خبب
أشوس الطرف عله نخوة
لو تمطى بين أسراب الهمها
حسرت دهمته عن غرة
لبست أعطافه ثوب الدجى
وانبرى تحسبه أجفل عن
مدركا بالمهل مالا ينتهى
ذو رضا مستتر فى غضب
وعلى خد كعضب أبيض
كلما نصبها مستمعا
حاذرت منه شبا خطيّة
كلما شامت عذارى خده
فى ذرا ظمان فيه هيّف
يتلاقى بكف مصقع
إن يدّر دورة طرف يلتمح
عصفت ريح على أنبوبة

وجفون الروض غرقى الخدق
وتثنّى فى وشاح قلقي
فتجلى فلق عن غسق
فحبا الخدّ ببعض الشفق
وتحلى خدّه بالرونق
يلم الغبراء إن لم يُغنق
يتهادى كالغزال الخرق
نازعته فى الحشا والعنق^(١)
كشفت ظمأوها عن يقق
وتحلى خده باليقق
لسعة أو جنّة أو أولق
لاحقا بالرفق مالم يلحق
ذو وقار منطوٍ فى خرق
أذن مثل سنان أزرق
بدت الشهب إلى مسترق
لا يحيد الخط مالم يمشق
خفقت خفق فؤاد فرقي
لم يدعه للفضيب المورق
يقتفى شاو عذار مناق^(٢)
أو يحلّ جول لسان ينطق
وجرت أكمبه فى زنبق

(١) فى « نازعته فى الحشا والعنق »

(٢) فى « يتلاقى بكعب مصقع » و « عذار مغلق »

كلما قلبه باعد عن متن ملساء كمثل البرق
 جمع السرُّد قوَى أزرارها فتأخذت بعهد موثق
 أوجبت في الحرب من وخز القنا فتوارت حلقات في حلق
 كلما دارت بها أبصارها صوّرت منها مثال الحدق
 زلَّ عنه متن مصقول القوى يرتى في مائها بالخرق
 لونضا وهو عليه توبه لتعري عن شواظ محرق
 أكهب من هبّوات أخضر من فرند أحمر من علق
 وارتوت صفحاه حتى خلتته بحيا من لكفيك سقي
 يا بني معنٍ لقد ظلت بكم شجر لولا كم لم تورق
 لوسقى حسان إحسانكم ما بكى ندمانه في جلق (١)
 أو دنا الطائي من حيكم ما حدا البرق لربع الأبرق
 أبعدوا في الفضل حتى كانوا كاهل الأيام مالم يطوق

فلما سمعها المعتصم لعبت بارتياحه ، وحسده بعض من حضر ، وكان من جملة من حسده ابن أخت غانم ، فقال له : من أى أنت ؟ قال : أنا من الشرف في الدرجة العالية ، وإن كانت البادية على بادية ، ولا أنكر حالى ، ولا أعرف بخالى ، فمات ابن أخت غانم خجلاً ، وسميت به كل من حضر .

وابن شرف المذكور هو الحكيم الفيلسوف أبو الفضل جعفر ابن أديب ابن شرف إفريقية أبى عبد الله محمد بن شرف الجذامى ، ولد ببرجة ، وقيل : إنه دخل الأندلس مع أبيه وهو ابن سبع سنين ، ومن نظمه قوله :

(١) ٤٤٥

(١) يشير إلى حسان بن ثابت وقوله في أبناء جفنة :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الأول

رأى الحسن ما في خذه من بدائع
فأعجبه ما ضمَّ منه وحرَّفاً
وقال لقد أنفيت فيه نوادرا
فقلت له لا بل غريباً مصنفاً (١)
وقوله :

قد وقف الشكر بي لديكم
فلمست أقوى على الوفاة
ونلتُ أقصى المَراد منكم
فصرت أخشى من الزيادة
وقوله :

إذا ما عدوك يوماً سما
فقبِّلْ ولا تأنِّفْ كفه
وقوله ، وقد تقدم به على كل شاعر :
لم يبق للجور في أيامهم أثر
وَأوَّل هذه القصيدة قوله :

قامت تجرذبول العصب والخبر
ضعيفة الخصر والميثاق والنظر
وكان قد قصر أمداحه على المعتصم ، وكان يفد عليه في الأعياد وأوقات الفرج
والفتوحات ، فوفد عليه مرة يشكو عاملاً ناقشه في قرية يحرث فيها ، وأنشده
الرائية التي مر مطلعها إلى أن بلغ قوله :

* لم يبق للجور - البيت *

فقال له : كم في القرية التي تحرث فيها ؟ فقال : فيها نحو خمسين بيتاً ، فقال له :
أنا أسوِّغك جميعها لهذا البيت الواحد ، ثم وقع له بها ، وعزل عنها نظر كل والٍ .
وله ابن فيلسوف شاعر مثله ، وهو أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل (٢) المذكور ،
وهو القائل :

(١) وري بكتاب النوادر وكتاب الغريب المصنف

(٢) في ب « أبو عبد الله محمد بن الفضل » وقد مر في الصحيفة السابقة أنه

« أبو الفضل جعفر »

وكريم أجارني من زمان لم يكن من خطوبه لي بُدُّ

منشد كلما أقول تنأى ما لمن يبتغى المكارم حدّ

وابن أخت غانم هو العالم اللغوي أبو عبد الله محمد بن معمر^(١)، من أعيان مالقة، أبو عبد الله محمد بن معمر متفنن في علوم شتى، إلا أن الغالب عليه علم اللغة، وكان قد رحل من مالقة إلى المريّة، فحلّ عند ملكها المعتصم بن صمادح بالمكانة العلية، وهو القائل في ابن شرف المذكور:

قُولُوا لِشَاعِرٍ بَرَجَةٌ هَلْ جَاءَ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ فَخَازَ طَبْعَ الْبَحْتَرِ

وَإِنِّي بِأَشْعَارِ تَضِجُ بِكَفِّهِ وَتَقُولُ هَلْ أَعَزَّى لِمَنْ لَمْ يَشْعُرْ^(٢)

يَا جَعْفَرًا رَدُّ الْقَرِيضِ لِأَهْلِهِ وَأَتَرَكَ مَبَارَةً لِتِلْكَ الْأَبْحَرِ

لَا تَزْعُمَنَّ مَا لَمْ تَكُنْ أَهْلًا لَهُ هَذَا الرُّضَابُ لَغَيْرِ فَيْكِ الْأَبْحَرِ

وذكره ابن اليّسع في مغرّبه وقال: إنه حدثه بداره في مالقة وهو ابن مائة سنة، وأخذ عنه عام أربعة وعشرين وخمسمائة، وله تأليف منها « شرح كتاب النبات » لأبي حنيفة الديّفورى، في ستين مجلدا، وغير ذلك.

وغانم خاله الذي يعرف به هو الإمام العالم غانم الخزومي، نسب إليه لشهرة ذكره، وعلوّ قدره

ولما قرأ العالم الشهير أبو محمد بن عبدون في أول شبابه على أبي الوليد بن ضابط بين ابن عبدون النحوى المألّق جرى بين يديه ذكر الشعر، وكان قد ضجر منه، فقال:

* الشعرُ خُطَّةٌ حَسَفَ *

فقال ابن عبدون معرضا به حين كان مُسْتَجِدًّا بِالشعر^(٣)، وكان إذ ذاك شيخا:

* لِكُلِّ طَالِبٍ عُرْفٌ *

(١) في نسخة عندب « محمد بن يعمر »

(٢) في ١ « هل أعزى لمن لم يشعر » محرفا (٣) في ١ « مستجديا بالنظم »

للشيخ عَيْبُ عَيْبٍ وللفتي ظَرْفُ ظَرْفٍ

وابن ضابط هو القائل في المظفر بن الأفتس :

نظمتنا لك الشعر البديع لأننا علمنا بأن الشعر عندك ينفق

فإن كنت منى بامتداح مظفرا فإني في قصدي إليك مَوْفَقُ

من شعر غانم الخزومي السابق ذكره ، وهو من رجال الذخيرة ، على الملك ابن الخزومي

حَبُوس^(١) صاحب غَرْ نَاطَة ، فوسع له على ضيق كان في المجلس ، فقال :

صير فؤادك للمحبوب منزلة سُمُّ الخِيَّاطِ مجالٌ للمحبين

ولا تسامح بغیضا في معاشرة فقلما تَسَعُ الدنيا بغیضين

وهو القائل :

وقد كنت أغدو ونحو قطرك فارحا فها أنا أغدو نحو قبرك ثا كلا

وقد كنت في مَدْحِيكَ سَجَبَانِ وائِلٍ فها أنا من فرط التأسف باقلا^(٢)

وله أيضا :

الصبر أولى بوقار الفتي من ملك يَهْتِكُ ستر الوقار

من لزم الصبر على حالة كان على أيامه بالخيار

بين ابن الغليظ وكتب أبو علي الحسن بن الغليظ إلى صاحبه أبي عبد الله بن السراج ، وقد قدم وابن السراج من سفر :

يا من أقلبُ طرفي في محاسنه فلا أرى مثله في الناس إنسانا

لو كنت تعلم ما لقيتُ بعدك ما شربت كأسا ولا استحسنيت ريحانا

فورد عليه من حينه وقال : أردت مجاوبتك ، فحقت أن أبغى ، وصنعت الجواب في الطريق .

(١) في ب « ابن حيوس » بالمشناة ، وليس بشيء

(٢) سَجَبَانِ وائِل : مضرب المثل في الفصاحة ، وباقل : مضرب المثل

في العي والفهاة

يا من إذا ما سقتني الراح راحته أهدت إلى بها رَوْحًا وريحانا
من لم يكن في صباح السبت يأخذها فليس عندي بحكم الظرف إنسانا
فكن على حُسْنِ هذا اليوم مصطبحا مذاكرا حسنا فيه وإحسانا
وفي البساتين إن ضاق الحلُّ بنا مَنذُوحَة لا عدمننا الدهر بستانا

ووفد أبو علي الحسن بن كسر بن الماتقي [الشاعر] المشهور على ملك إشبيلية السيد أبي إسحاق إبراهيم ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ، فأنشده قصيدة طار مطلعها في الأفطار ، كلَّ مَطَّار ، وهو :

قسما بخص إنه لعظيم فعي المقام وأنت إبراهيم

ووصف الشاعر عطاء الماتقي عادةً جعلت على رأسها تاجا فقال :

وذا تاج رَصَّعوا دَوْرَه فزاد في لألأها بالآل
كأنها شمس وقد تَوَجَّتْ بأنجم الجوزاء فوق الهلال
قد اشتكى الخلخال منها إلى سوارها فاشتبهها في المقال^(١)
وأجريا ذكر الوشاح الذي لما يزل من خصرها في مجال
فقال : لم أرض بما نلته وليتني مثلكا لا أزال
أغصُّ بالخصر وأغيباه كغص ظمان بماء زلال
وإنما الدهر بغير الرضا يقضي فكلَّ غير راضٍ بحال

وهو القائل :

سَلِّ بحمامنا الذي كلَّ عن شكره فَمِي^(٢)

كم أراني بقربه جنَّة في جهنم

وكان يحضر حلقة الإمام الشَّهْبِيلِي وضيء الوجه من تلامذته ، فانقطع لعارض ، أبو القاسم السهيلي

(١) في «الخلخال منها إلى سرارها» محرفا

(٢) كل : عي وعجز ، والمعنى أنه فوق الوصف .

فخرج السهيلي مارا في الطريق الذي جرت عادته بالمشى فيه ، فوجد قنّاة تصلح ،
فمنعته من المرور ، فرجع وسلك طريقا آخر ، فر على دار تلميذه الوضيء ، فقال
له بعض أصحابه مازحا بعبوره على منزله ^(١) ، فقال : نعم ، وأنشد ارتجالا :

جعلت طريقى على بابه ومالى على بابه من طريق
وعاديت من أجله جيرتى وأخيت من لم يكن لى صديق
فإن كان قتلى حلالا لكم فسيروا بروحى سيرا رفيق

وأبو القاسم السهيلي مشهور ، عرّف به ابن خلكان وغيره ، ويكنى أيضا
بأبى زيد ، وهو صاحب كتاب « الروض الأنف » وغيره .

واجتاز على سهيل وقد خربه العدو لما أغار عليه وقتلوا أهله وأقاربه ، وكان
غائبا عنهم ، فاستأجر من أركبه دابة ، وأتى به إليه ، فوقف بإزائه ، وأنشد :

يا دار أين البيض والآرام أم أين جيران على كرام
راب الحب من المنازل أنه حيا فلم ير جمع إليه سلام
لما أجابنى الصدى عنهم ولم يلج المسامع للحبيب كلام
طارحت وورق حمامها مترنما بمقال صب والدموع سجام
(يا دار ما فعلت بك الأيام ضامتك والأيام ليس تضام)

بين السهيلي والرصافي الشاعر المشهور ما اقتضى قول الرصافي :
والرصافي

عفا الله عنى فإنى امرؤ أتيت السلامة من بابها
على أن عندى لمن هاجنى كنان غصت بنشابها
ولو كنت أرمى بها مساما لكان السهيلي أولى بها

وتوفى السهيلي بمراكش سنة ثلاث وثمانين وخمسة ، وزرت قبره بها مرارا

(١) مقول قول بعض أصحابه محذوف كما هو واضح .

سنة عشر وألف ، وسكن رحمه الله تعالى إشبيلية مدة ، ولازم القاضي أبا بكر بن العربي وابن الطراوة ، وعنه أخذ لسان العرب ، وكان ضريرا .

ومن شعره أيضا لما قال : « كيف أمسيت » مكان « كيف أصبحت »^(١) :

لئن قلت صباحا كيف أمسيت مخطئا فما أنا في ذلك الخطأ بمعلوم
طلعت وأفقى مُظلم لفرأكم فخلتكم بدرا والمساء همومي

وحكى أن الوزير الكاتب أبا الفضل بن حسداى الإسلامى السرقسطى ، أبو الفضل وهو من رجال الذخيرة ، عشق جارية ذهب بلبه ، وغلبت على قلبه ، فجن بها جنونه ، وخلع عاينها دينه ، وعلم بذلك صاحبها^(٢) فرفها إليه ، وجعل زمامها في يديه ، فتحامى^(٣) عن موضعه من وصلها أفقه من أن يظن الناس أن إسلامه كان من أجلها فحسن ذكره ، وخفى على كثير من الناس أمره ، ومن شعره قوله :

وأطربنا غيم يمازج شمسه فيسترطورا بالسحاب ويكشف
ترى قزحا في الجو يفتح قوسه مكبا على قطن من التلج يندف

وكان في مجلس المقتدر بن هود ينظر في مجلد ، فدخل الوزير الكاتب أبو الفضل ابن الدباغ وأراد أن يندربه ، فقال له ، وكان ذلك بعد إسلامه : يا أبا الفضل ، ما الذى تنظر فيه من الكتب لعله التوراة ؟ فقال : نعم ، وجلدتها^(٤) من جلد دبغه من تعلم ، فثات خجلا ، وضحك المقتدر .

وأراد الشاعر أبو الربيع سليمان السرقسطى حضور نديم له ، فكتب إليه :

أبو الربيع
السرقسطى

بالراح والريحان والياسمين وبكرة الندمان قبل الأذين
وبهجة الروض بأندائه مقلداً منه بعقد ثمين
ألا أحب سبقا ندائى إلى الكأس تبهت لذة الشاربين
هامت بها الأعين من قبل أن يخبرها الذوق بحق اليقين

(١) في ١ « كيف أمسيت موضع كيف أصبحت » .

(٢) في ١ « وعلم بذلك صاحبه » (٣) في ١ « فتجافى عن موضعه »

(٤) في ١ « وتجليدها من جلد - إلخ » وأراد أن أباه دباغ .

لاحت لدينا شفقاً معلناً فكن لها بالله صبحاً مبين

يقين علي بن خير
وابن
عبد الصمد
السرقي

وكتب علي بن خير التطيلي إلى ابن عبد الصمد السرقي يستدعيه إلى مجلس أنس : أنا - أطل الله تعالى بقاء الكاتب سراج العلم وشهاب الفهم ! - في مجلس قد عبقت تفاحه ، وضحكت راحته ، وخفقت حولنا للطرب ألوية ، وسالت بيننا للهو أودية ، وحضرنا مُقَلَّةٌ تسأل منك إنسانها ، وصحيفة فكن عُنوانها ، فإن رأيت أن تجعل إلينا القصد ، لنحصل بك في جنة الخلد ، صَقَلْتِ نفوساً أضدأها بعدك ، وأبرزت شمساً أدجاها ^(١) فقدك .

فأجابه ابن عبد الصمد : فضضت - أيها الكاتب العليم ، والمصقع الخبر الصميم - طابع كتابك ، فمنحني منه جوهر منتخب ، لا يشوبه مخشأب ، هو السحر إلا أنه خلّال ، دلّ على ودحني ضلوعك عليه ، ووثيق عهد انتدب كريم سحيتك إليه ، فسألت فالق الحب ، وعامر القلب بالحب ، أن يصون لي حظي منك ، ويدرأ لي ^(٢) النوائب عنك ، ولم يمنعني أن أصرف وجه الإجابة إلى مرغوبك ، وأمتطي جواد الانحدار إلى محبوبك ، إلا عارض ألمٌ ألمٌ بي فقيد بقيده نشاطي ، ورؤى براحتي بساطي ، وتركني أتأمل ^(٣) على فراشي كالسليم ، وأستمطر الإصباح من الليل البهيم ، وأنا منتظر لإدباره .

قصة من رقة
طباع أهل
الأندلس

ومن لطف أهل الأندلس ورقة طباعهم ما حكاه أبو عمرو بن سالم الماسقي قال : كنت جالساً بمنزلي بمالقة ، فهاجت نفسي أن أخرج إلى الجبانة ، وكان يوماً شديد الحر ، فراودتها على القعود ، فلم تمكني من القعود ، فمشيت حتى انتهيت إلى مسجد يعرف برابطة الغبار ، وعنده الخطيب أبو محمد عبد الوهاب ابن علي الماسقي ، فقال لي : إني كنت أدعو الله تعالى أن يأتيني بك ، وقد فعل ،

(١) في « وأزرت شمساً أدجاها فقدك » .

(٢) في « ويدر إلى النوائب » وضبطت بفتح على الياء وضمة على الدال

وشد الراء مفتوحة ، وهو تحريف لا يقضى العجب منه . (٢)

(٣) في « وتركني أتأمل على فراشي كالسليم » . (٣)

فالحمد لله ، فأخبرته بما كان مني ، ثم جلست عنده ، فقال : أنشدني ، فأنشدته لبعض الأندلسيين :

غَصَبُوا الصَّبَاحَ فَقَسَّمُوهُ خُدُودًا وَاسْتَوْعَبُوا قُضْبَ الْأَرَاكِ قُدُودًا
وَرَأَوْا حِصَا الْيَاقُوتِ دُونَ نَحْوِهِمْ فَتَقَلَّدُوا شَهَبَ النُّجُومِ عَقُودًا
لَمْ يَكْفِهِمْ حُدُّ الْأَسْنَةِ وَالظُّبَا حَتَّى اسْتَعَارُوا أُعْيُنًا وَخُدُودًا
فَصَاحَ الشَّيْخُ ، وَأَغْمَى عَلَيْهِ ، وَتَصَبَّبَ عَرَقًا ، ثُمَّ أَفَاقَ بَعْدَ سَاعَةٍ ، وَقَالَ : يَا بَنِي
اعْذِرْنِي فَشَيْثَانٌ يَقْهَرَانِي ^(١) ، وَلَا أَمْلِكُ نَفْسِي عِنْدَهُمَا : النَّظَرُ إِلَى الْوَجْهِ الْحَسَنِ ،
وَسَمَاعُ الشَّعْرِ الْمَطْبُوعِ ، وَانْتَهَى .

وستأتى هذه الأبيات في هذا الباب بآتم من هذا .
وعلى كل حال فهي لأهل الأندلس ، لا لابن دريد كما ذكره بعضهم ،
وسيتأتى تسمية صاحبها الأندلسي ، كما في كتاب « المغرب » لابن سعيد العنسي
المشهور ، رحمه الله تعالى !

وقال بعض الأدباء ليحيى الجزار ، وهو يبيع لحم ضأن :

* لَحْمُ إِنَاثِ الْكِبَاشِ مَهْزُولُ *

فقال يحيى :

* يَقُولُ لِلْمَشْتَرِينَ مَهْ زُؤُلُوا *

وقال التطيلي الأعمى في وصف أسد رخام يرمى بالماء على بحيرة :
أَسَدٌ وَلَوْ أَنِّي أَنَا قِسْهُ الْحَسَابِ لَقُلْتُ صَخْرَهُ
وَكَأَنَّهُ أَسَدُ السَّمَاءِ يَمِجُّ مِنْ فِيهِ الْجَرَهُ
وحضر جماعة من أعيان الأدباء مثل الأبيض وابن بقي وغيرهما من الوشاحين ، واتفقوا
على أن يصنع كل واحد منهم مَوْشَحَةً ، فلما أنشد الأعمى موشحته التي مطلعها :
ضاحك عن جمان سافر عن بدر

(١) الأفصح في العربية « يقهراني » بنونين

ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

خَرَّقَ كل منهم موشحته .

وتحاکمت امرأة إلى القاضى أبى محمد عبد الله اللّارِدى^(١) الأصبحى ، وكانت ذات جمال ونادرة ، فحكم لزوجها عليها ، فقالت له : من يُضِيع قلبه كل طرف فاطر جدير أن يحكم بهذا ، تشير إلى قوله :

أين قلبى ؟ أضاعه كل طرفٍ فاطر يُصرعُ الحليمُ لديه

كلما ازداد ضعفه ازداد فتكا أى صبر ترى يكون عليه ؟

بين ابن خفاجة وحضر أبو إسحاق بن خَفَاجَة مجلساً بمُرْسِيَة مع أبى محمد جعفر بن عنق الفضة وابن عنق الفضة الفقيه السالى ، وتذاكرا ، فاستطال ابن عنق الفضة ، ولعب بأطراف الكلام ، ولم يكن ابن خفاجة يعرفه ، فقال له : يا هذا لم تترك لأحد حظاً فى هذا المجلس ! فليت شعرى من تكون ؟ فقال : أنا القائل :

الموى علمنى سَهْدَ الليالى ونظام الشعر فى هذى الآلى

كلما هبت شمال منهمُ لعبت بى عن يمين وشمال

وأرقت فكرتى أرواحها فأتت منهم بالسحر الحلال

كان كالملح أجاجا خاطرى وسحاب الحب أبدته زلال

فاهتز ابنُ خفاجة ، وقال : من يكون هذا قوله لا ينبغى أن يُجهل ، ولك المَعذرة فى جهلك ، فإنك لم تُعرِّفنا بنفسك ، فبالله من تكون ؟ فقال : أنا فلان ، فعرّفه وقضى حقه .

وحكى ابن غالب فى « فرحة الأنفس » أن الوزير أبا عثمان بن شنتفير وأبا عمر ابن عبد شلب^(٢) وفدّا رسولين على المعتمد بن عباد ، عن إقبال الدولة بن مجاهد

(١) فى ب « الأزدي » .

(٢) فى ا « ابن غند شلب » .

والمعتصم بن صمادح والمقتدر بن هود ، لإصلاح ما كان بين المعتمد وبين ابن ذى النون ، فسر المعتمد بهم وأكرمهم ، ودعاهم إلى طعام صنعه لهم ، وكان لا يظهر شرب الراح منذولى الملك ، فلما رأوا انقباضه عن ذلك تحاموا الشراب ، فلما أمر بكتب أجوبتهم كتب له ^(١) أبو عامر :

بقيت حاجة لعبد رغب لم يدع غيرَهَا له من نصيب
هي خيرية المساء حديثاً وأنا في الصباح أخشى رقيبى ^(٢)
فإذا أمس كان عندى نهراً لم تحفنى عليه بعد الغروب
وإذا الليل جنَّ حدثت جُلاً سبي بما كان من حديث غريب ^(٣)
قيل إنَّ الدُّجى لديك نهراً وكذلك الدُّجى نهراً الأريب
فتمنيتُ ليلةً ليس فيها لذكَا ذلك السنَا من مغيب
حيث أعطيك في الخلاء وتعطينى مداً كمثل ريق الحبيب
تم أغدو كأنتى كنت في النو م وأخفى المنام خوف هزيب

والهزيب : الرقيب العتيد في كلام أهل الأندلس ، فسر المعتمد وانبسط بانبساطه ، وضحك من مجونه ، وكتب إليه :

يا مجاباً دعا إلى مستجيب فسمعنا دعاءه من قريب
إن فعلت الذى دعوت إليه كنت فيما رغبت عين رغب

واستحضره فنادمه خالياً ، وكساه ووصله ، وانقلب مسروراً ، وظن المعتمد أن ذلك يخفى من فعله عن ابن شنتفير ، فأعلم ^(٤) بالأمر القائد بن مرتين ، فكاد يتفطر حسداً وكتب إلى المعتمد :

أنا عبـد وليته كل بر لم تدع من فنون برك فنا
غير رفع الحجاب في شربك الرا ح فهاذا جناه أن يتجنى

(١) في ١ « كتب إليه أبو عامر » . (٢) في ١ « أنا خيرته المساء حديثاً »
(٣) في ١ « من حديث عجيب » (٤) في ب « فأعلمه بالأمر - إلخ »

وتمنى شراب سؤرك في الكأ س فبالله أعطه ما تمنى
فسرته أبياته ، وأجابه :

يا كريم المحل في كل معنى والكريم المحل ليس يُعَنَى
هذه الخمر تبتغيك فخذها أوفد عنها أو كيفما شئت كننا

وكان يقرأ في مجلس ملك السهلة أبي مروان بن رزين ذي الرياستين ديوان شعر
محمد بن هاني ، وكان القاريء فيه بلاءه ، فلما وصل إلى قوله :

* حرام حرام زمان الفقير *

اتفق أن عرّضَ للملك ما اشتغل به ، فقال للقاريء : أين وقفت ؟ فقال : في حرام
فقام الملك وقال : هذا موضع لا أقف معك فيه ، أدخل أنت وحدك ، ثم دخل
إلى قصره ، وانقلب المجلس ضحكا

وكان للملك المذكور وزير من أعاجيب الدهر ، وهو الكاتب أبو بكر بن
سدرای ، وذكره الحجارى في « المسهب » وقال : إن له شعراً أرق من نسيم
السَّحَر ، وأندى من الطل على الزهر ، ومنه قوله :

من شعر
أبي بكر بن
سدرای
الوزير

ما ضرکم لو بعثتم ولو بأدى تحية
تهزنى من شذاها إليکم الأريحية
خذوا سلامى إليکم مع الرياح النديه
فى كل سجرة يوم تترى وكل عشيهِ^(١)
يارب طال اصطبارى ما الوجد إلا بليه
غيلان الشرق أضحي وحللت الغرب مية^(٢)

وقوله :

سأبغى الجد فى شرق وغرب فما ساد الفتى دون اغتراب

(١) تترى : تأتي متتابعة ، ووقع فى ا « تترى » محرفا .

(٢) غيلان : اسم ذى الرمة ، وهو غيلان بن عتبة ، ومية : اسم محبوبته
التي أكثر من التغزل فيها .

فإنْ بُلِّغْتُ مأمولاً فإنِّي جَهَدْتُ ولم أَقْصُرْ في الطلاب
وإنْ أنا لم أَفْزِ بِمِرَادٍ سَعِي فكم من حَسْرَةٍ تحت التراب

وقال ملك بلنسية مَرْوَان بن عبد العزيز لما ولي مكانه من لا يساويه :
ولا غرو بعدى أن يُسَوِّدَ معشر فيضحى لهم يومٌ وليس لهم أَمْسُ
كذلك نجوم الجوّ تبدو زواهرا إذا ما تَوَارَتْ في مغاربها الشمسُ
وقال ابن دَحِيّة : دخلت عليه وهو يتوضأ فنظر إلى لحيته وقد اشتعلت بالشيب
اشتعالا ، فأَنشد لنفسه ارتجالا :

ولما رأيت الشيب أيقنْتُ أنه نَذِيرٌ لجسْمي بانهدام بنيانِهِ
إذا ابيضَ خَضِرُ النبات فإنه دليل على استحصاده وفنائه^(١)

واعتل ابن ذى الوزارتين أبى عامر بن الفرج وزير المأمون بن ذى النون ، وهو
من رجال الذخيرة والقلائد ، فوصف له أن يتداوى بالخر العتيق ، وبلغه أن عند
بعض الغلمان منها شيئا ، فكتب إليه يستهديه :

ابعث بها مثلَ وُدِّكَ أرقَّ من ماء خدك
شقيقة النفس ، فانضح بها جَوَى ابْنِي وَعَبْدِكَ

وهو القائل معتذراً عن تخلفه عن جاءه منذرا :

ما تخلفت عنك إلا لعذر ودليلي في ذاك خوفي عليك^(٢)
هبك أن الفرار من غير عذر أتراه يكون إلا إليكا

وله من رسالة هَنَاء :

أهْنِ بِالْعِيدِ مَنْ وَجْهُهُ هو العيد لولاح لي طالعا
وأدعولي الله سبحانه بشمل يكون لنا جامعا

وكتب إلى الوزير الحُصْرى^(٣) يستدعيه أن يكون من ندمائه ، فكتب إليه الوزيرُ

(١) استحصاده : طلبه الحصاد ، يعنى أنه قد يبس وجف .

(٢) في « ودليلي في ذاك حرصى عليك » (٣) في « الوزير المصرى »

من شعر
مروان بن
عبد العزيز
ملك بلنسية

من شعر
أبى عامر بن
الوزير

الحصرى يستعلمه اليوم ، فلما أراد كُتب إليه :

ها قد أهبت بكم وكُلُّكم هَوَى وأحقكم بالشكر منى السابق
كالشمس أنت وقد أظل طلوعها فاطلع وبين يديك فجر صادق
وله في رئيس^(١) مُرسية أبي عبد الرحمن بن طاهر ، وكان ممتع المجالسة كثير النادرة :

قد رأينا منك الذي قد سمعنا فعدا الخُبرُ عاضد الأخبار
قد وردنا لديك بحرا نَميرا وارْتَقينا حيث النجوم الدراري^(٢)
ولَكُمْ مجلسٍ لديك انصرفنا عنه مثل الصبا عن الأزهار

وشرب الأديب الفاضل أبو الحسن علي بن حريق عشيّة مع من يَهْوَاهُ ، ورام
الانفصال عنه لداره ، فمنعه سَيْلٌ حال بينه وبين داره ، فبات عنده على غير
اختياره ، فقال ابن حريق :

من شعر
أبي الحسن
علي بن حريق
الأديب

ياليلة جادت الليالى بها على رغم أنف دهرى^(٣)
للسيل فيها على نُعْمَى يقصر عنها لسان شكرى
أَبَاتَ في منزلى حبيبي وقام في أهله بعذر
فبت لا حالة كحالى ضجيع بدر صريع سكر
ياليلة القدر في الليالى لأنت خير من ألف شهر

ومن حسنات ابن حريق المذكور قوله :

يا ويح من بالمغرب الأفصى ثوى حِلَفَ النوى وحبيبه بالمشرق
لولا الحذار على الورى لملاّت ما بينى وبينك من زفير محرق
وسكبت دمعى ثم قلت لسكبه من لم يذب من زفرة فليغرق
لكن خَشِيت عقاب ربى إن أنا أحرقت أو أغرقت من لم أخلق

(١) في ١ « رائس مرسيه » (٢) في ١ « إذ وردنا لديك بحرا نَميرا »

(٣) في ١ « ياليلة جادت الأمانى » .

وله :

لم يبق عندى للصبا لذة إلا الأحاديث على الخمر

وله :

فقبلت إثرك فوق الثرى وعانقت ذكرك في مضجعي

وله :

إن ماء كان في وجنتها وردته السن حتى نشفا
وذوى العنّاب من أنملها فأعادته الليالي حشفاً^(١)
وأورد له أبو بحر في « زاد المسافر » قوله :

كنته فاحمر من خجل حتى اكتسى بالعسجد الورق
وسأله تقييل راحته فأبى وقال أخاف أحترق
حتى زفيرى عاق عن أملى إن الشقي بريقه شرق^(٢)

وقوله في السواقي :

وكأنما سكن الأراقم جوفها من عهد نوح مدّة الطوفان
فإذا رأينا الماء يطفح نضضت من كل خرق حية بلسان^(٣)
وقال الفيلسوف أبو جعفر بن الذهبي فيمن جمع بينه وبين أحد الفضلاء :
أيها الفاضل الذي قد هداني نحو من قد حمدته باختبار
شكر الله ما أتيت وجازا لك ولازلت نجم هدى لسارى
أى برق أفاد أى غمام وصباح أدى لضوء نهار
وإذا ما النسيم كان دليلى لم يُحِنيْنيْ إلا على الأزهار
وأنشد أبو عبد الله محمد بن عبادة الوشاح المعتصم بن صامح شعرا يقول فيه :

(١) في ١ « فأعادتها الليالي حشفا » تحريف قبسح .

(٢) في ب ، « إن الشقاء بريقه شرق » محرفا .

(٣) في ١ « من كل خرت حية بلسان » .

ولو لم أكن عبدا لآلِ صامح وفي أرضهم أصلي وعيشي وموئلي
لما كان لي إلا إليهم ترحل وفي ظلمهم أمسي وأضحى وأغتدى

فارتاح ، وقال : يا ابن عبادة ، ما أنصفناك بل أنت الحر لا العبد ، فاشرح لنا في
أملك ، فقال : أنا عبدكم كما قال ابن نُبَّاتة :

لم يَبْقِ جودك لي شيئا أوْمله تركتني أحبب الدنيا بلا أمل

فالتفت إلى ابنه الواثق يحيى ولى عهده وقال : إذا اصطنعت الرجال فمثل هذا
فاصطنع ، ضمه إليك وافعل معه ما تقتضيه وصيتي به ، ونهني إليه كل وقت ،
فأقام نديما لولى العهد المذكور

وله فيهما الموشحات المشهورة ، كقوله :

كم في قدود البان تحت اللمم من أقر عوَاطِي
بأنمل وبنان مثل العنم لم تنبرى للعاطي

ولما بلغ المعتصم أن خلف بن فرج السميسر هاجأ احتال في طلبه حتى حصل في
قبضته ، ثم قال له : أنشدني ما قلت في ، فقال له : وَحَقٌّ مَنْ حَصَّلَنِي فِي يَدِكَ مَا قُلْتَ
شرا فيك ، وإنما قلت :

رأيت آدم في نومي فقلت له : أبا البرية إن الناس قد حكموا

أن البرابر نسل منك ، قال : إذن حواء طالقة إن كان ما زعموا

فأباح^(١) ابن بلقين صاحب غُرْناطة دمي ، فخرجت إلى بلادك هارباً فوضع علي مَنْ
أشاع ما بلغك عني لتقتلني أنت فيدرك ثأره بك ، ويكون الإثم عليك ، فقال :
وما قلت فيه خاصة مضافا إلى ما قلته في عامة قومه ؟ فقال : لما رأيته مشغوفاً بتشييد
قلعته التي يتحصن فيها بغُرْناطة قلت :

(١) في « فنذر ابن بلقين » .

يبنى على نفسه سَفَاهًا كأنه دودة الحرير
فقال له المعتصم : لقد أحسنت في الإساءة إليه ، فاختر : هل أحسن إليك وأخلى
سبيلك أم أجيرك منه ؟ فارتجل :

خيرني المعتصمُ وهو بقَصْدِي أَعْلَمُ
وَهُوَ إِذَا يَجْمَعُ لِي أَمْنًا وَمَنَّا أَكْرَمُ^(١)

فقال : خاطرك خاطر شيطان ، ولك المُنُّ^(٢) والأمان ، فأقام في إحسانه بأوطانه ،
حتى خلع عن ملكه وسلطانه

ولما أنشده عمر بن الشهيد قصيدته التي يقول فيها :

سَبَطُ الْبَنَانِ كَانَ كُلُّ غَمَامَةٍ
لَا عَيْشَ إِلَّا حَيْثُ كُنْتُ ، وَإِنَّمَا تَمْضَى لَيَالِي الْعَمْرِ بَعْدَكَ بَاطِلًا

التفت إلى من حضر من الشعراء وقال : هل فيكم من يحسن أن يجلب القلوب
بمثل هذا ؟ فقال أبو جعفر [بن] ^(٣) انحرز البطرني : نعم ، ولكن للسعادة هَبَّاتٌ ،
وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتا أقول فيها :

وما زلت أجنى منك والدهرُ مُجِلَّ
ثمَارَ أَيَادٍ دَانِيَاتٍ قَطُوفُهَا
يُرَى جَارِيَا مَاءِ الْمَكَارِمِ تَحْتَهَا
وَأَطْيَارُ شُكْرِى فَوْقَهَا تَقُودُ

فارتاح المعتصم ، وقال : أأنت أنشدتني هذا ؟ قال : نعم ، قال : والله كأنها مامرت
بسمعي إلى الآن ، صدقت للسعد هَبَّاتٌ ، ونحن نبجزك عليها بجائزتين : الأولى
لها ، والثانية لمَطْلٍ راجيها ونعط إحسانها ، انتهى .

وقال بعض ذرية ملوك إشبيلية :

(١) في « و » أن يجمع على « ولا يتم به الوزن ، وفي نسخة « وهو بأن يجمع على »

(٢) في « و » لك الأمن والأمان

(٣) كلمة « بن » لا توجد في ب

نثر الورد بالخليج وقد درج أمواهه هبوب الرياح (١)

مثل درع الكمي مرقها الطعن فسات بها دماء الجراح

لابن صارة وقال ابن صارة في النارنج :

كُرَاتُ عقيق في غصون زبرجد بكف نسيم الريح منها صوالج

نقبلها طوراً وطوراً نشمها فهن خدود بيننا ونوافج

لابن الزقاق وقال أبو الحسن بن الزقاق ابن أخت ابن خفاجة :

وما شقَّ وَجَنَّتْهُ عابثاً ولكنها آية للبشر

جلاها لنا الله كيما نرى بها كيف كان انشقاق القمر

وقال :

ضربوا بيطن الوادين قبا بهم بين الصوارم والقنا المياد

والورق تهتف حولهم طرباً بهم فبكل محنية ترئم شادى

يابانة الوادى كفى حزناً بنا أن لا نظارح غير بانه وادى

وقال :

نحن في مجلس به كمل الأنس ولو زُرْتَنَا لزاد كمالا

طلعت فيه من كؤس الحميّا ومن الزهر أنجم تتلّالاً

غير أن النجوم دون هلال فلتكن منعماً لهن الهلالا (٢)

وقال :

وهويتها سمراء غنت وانثت فنظرت من ورقاء في أملودها (٣)

تشدو ووسواس الحلى يجيبها مهما انثت في وشيها وعقودها

أوليس من بدع الزمان حمامة غنت فغنى طوقها في جيدها

(١) في ١ « وقد درجه بالهبوب مر الرياح » .

(٢) في ١ « فلتكن منعماً لهن هلالاً » (٣) أملودها : أراد الغصن

وقال :

لئن بكيت دما والعزم من شيمي على الخليط فقد يبكي الحسام دما
وقال أبو تمام غالب بن رباح الحجام في دولاب طار منه لوح فوقف :
وذاث شدو ومالها حلم كل فتى بالضمير حياها
وطار لوح بها فأوقفها كلكحة العين حين جراها (١)

من شعر
أبي تمام غالب
بن رباح الحجام

وكان المذكور رُبِّي في قلعة رباح غربي طُلَيْطُلَة ، ولا يعلم له أب ، وتعلم الحجابة
فأتقنها ، ثم تعلق بالأدب (٢) حتى صار آية ، وهو القائل في رُيَا الجامع :
تحكى الثريا الثريا في تألقها وقد عراها نسيمٌ فهي تتقد
كأنها لذوى الإيمان أفئدة من التخشع جوف الليل ترتعد

وقال :

زرت الحبيب ولا شيء أحاذره في ليلة قد لوت بالغمض أشفارا
في ليلة خلت من حسن كواكبها دراما وحسبت البدر دينارا
وقال في الثريا أيضا :

أنظر إلى سُرُج في الليل مشرقة من الزجاج تراها وهي تلهب
كأنها ألسنُ الحيات قد برزت عند المهجير فما تنفك تضطرب

وقال :

ترى النسر والقتلى على عَدَد الحصا وقد مزقت أحشاءها والثرائبها
مُضَرَّجة مما أكلن كأنها مجاز بالحننا حصَّبن ذوائبها
وقال ، وقد أبدع غاية الإبداع ، وأتى بما يحير الألباب ، وإن كان أبو نواس فاتح
هذا الباب :

(١) في ١ « وطار لمح بها فأوقفها » وفيها « ثم أجراها » .

(٢) في ١ « بالأدب » .

وكأس ترى كسرى بها في قرارة
وما صورته فارس عبثاً به
أشاروا بما كانوا له في حياته
وما أحلى قوله :

الأفحوان رمى عليك ظلامه
لا يحمل النور الأنيق تمسه
وجلاؤه الخلق فيه قد كفى
وقوله :

صغار الناس أكثرهم فسادا
ألم تر في سباع الطير سراً
وقد بلغ غاية الإحسان في قوله :

فما للملك ليس يرى مكاني
كذا المسواك مطرحة مهانا
ومن حسناته قوله :

لى صاحب لا كان من صاحب
يحكى إذا أبصر لى زلة
ولقيه أبوحاتم الحجاجرى على فرس في غاية الضعف والذالة قد أهلكها الوجى^(٢) ،
وكانا في جماعتين ، فقال له : يا أبا تمام ، أنشدني قولك :

وتحتي ريح تسبق الريح إن جرت
لها في المدى سبق إلى كل غاية
وما خلّت أن الريح ذات قوائم
كان لها سبقا يفوق عزائم

(١) في « الأفحوان أرى عليك ظلامه » .

(٢) الوجى - بفتح الواو والجيم - رقة في الأقدام حتى يشق عليها المشى .

وَهَمَّةُ نَفْسِي تَزَهَّهَبًا عَنْ الْوَجَى فَيَعْجَبَا حَتَّى الْعَلَا فِي الْبَهَائِمِ
فَلَمَّا أَنْشَدَهُ إِيَّاهَا رَدَّ رَأْسَهُ أَبُو حَاتِمٍ إِلَى الْجَمَاعَتَيْنِ وَقَالَ : نَاشِدْتُكُمْ اللَّهُ أَيُّحُوزَ لِحِجَامِ
عَلَى فَرَسٍ مِثْلَ هَذِهِ الرَّمَكَةِ الْهَزِيلَةِ الْعَرَجَاءِ ، أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا ، فَضَحَكَ جَمِيعُ
مَنْ حَضَرَ ، وَأَقْبَلَ أَبُو تَمَامٍ مِنْ غِيظِهِ ^(١) يَسِبُهُ .

وَمِنْ شَعْرِ الْحِجَامِ الْمَذْكُورِ قَوْلُهُ :

لَا يَفْخَرُ السِّيفُ وَالْأَقْلَامُ فِي يَدِهِ قَدْ صَارَ قَطْعُ سَيْفِ الْهِنْدِ لِلْقَصَبِ
فَإِنْ يَكُنْ أَصْلُهَا لَمْ يَقُوْ قُوَّتُهَا فَإِنَّ فِي الْحَجَرِ مَعْنَى لَيْسَ فِي الْعَنْبِ
وَقَالَ :

ثَقَلَتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ إِلَّا أَنَهَا خَفَّتْ عَلَى السَّبَابِ وَالْإِهَامِ
أَخَذَتْ مِنَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ سَوَادَهُ وَبَدَتْ تَنْمُقُ أَوْجُهُ الْأَيَّامِ
وَقَالَ :

نَظَرَ الْحُسُودَ فَازْدَرَى لِي هَيْئَةً وَالْفَضْلُ مِنِّي لَا يَزَالُ مِئِينَا
قَبَّحَتْ صَفَاتِي مِنْ تَغْيِيرِ وَدِهِ صَدَأُ الْمِرَاةِ يَقْبَحُ التَّحْسِينَا ^(٢)
وَقَالَ :

تَصَبَّرْ وَإِنْ أَبْدَى الْعَدُوُّ مَذْمَةً فَمَهْمَا رَحَى تَرْجِعْ إِلَيْهِ سَهَامَهُ
كَمَا يَفْعَلُ النَّحْلُ الْمَلَمَ بِلِسَعِهِ يَرِيدُ بِهِ ضَرَاوِفِيهِ هَامَهُ
وَقَالَ :

وَبَارِدُ الشَّعْرِ لَمْ يُؤْلَمْ بِهِ وَلَقَدْ أَضْرَمْنَاهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَاعْتَزَلَا ^(٣)
كَأَنَّهُ الصَّلُّ لَا تُؤْذِيهِ رِيْقَتُهُ حَتَّى إِذَا تَجَهَّأَ فِي غَيْرِهِ قَتَلَا

(١) فِي ١ « وَأَقْبَلَ أَبُو تَمَامٍ فِي غِيظِهِ يَسِبُهُ »

(٢) الْمِرَاةُ أَصْلُهَا الْمِرَاةُ ، فَأُلْقِيَ فَتَحَةُ الهمزة عَلَى الرَّاءِ ، ثُمَّ حُذِفَ الهمزة

(٣) فِي ١ « وَلَقَدْ * أَضْجَحَ مِنْهُ جَمِيعَ النَّاسِ »

لابن الزقاق وقال ابن الزقاق :

دعاك خليل والأصيل كأنه
إلى شطّ مناسب كأنك ماؤه
ومهوى جناح للصبا يمسح الربا
على حين راح البرق في الجوّ مغمدا
وقد حان منى للرياض التفتاة
على سطح خيرى ذكرتك فأنثى
فصل زهرات منه هذا كأنها

لابن مسعدة ولما مدح الحسيب أبو القاسم بن مسعدة^(١) الأوسى أمير المؤمنين عبد المؤمن بقوله :

حنانيك مدّعوا وليك داعيا
طلعت على أرجائها بعد فترة
وقد كثرت مناسيوف لدى العلا
وغيرك نادينا زمانا فلم يجب
فكلّ بما ترضاه أصبح راضيا
وقد بلغت منا النفوس التراقيا
ومن سيفك المنصور نبغى التقاضيا
وعزيمك لم يحتج علاه مناديا

كتب اسمه وزير عبد المؤمن في جملة الشعراء ، فلما وقف على ذلك عبد المؤمن ضرب على اسمه وقال : إنما يكتب أسم^(٢) هذا في جملة الحساب ، لا تدنّسوه بهذه النسبة ، فلما من يتقاضى على غمط حسبه ، ثم أجزل صلاته ، وأمر له بضبيعة يحرث له بها ، يعنى بذلك أنه من ذرية ملوك ، لأن جده كان ملك وادى الحجارة

وقال أبو بكر محمد بن أزرق :

هل علّم الطائر في أيكه
ذكرنى عهد الصبا شجوه
سقى الحيا عهداً لهم بالحمى
بأن قلبى للحمى طائر
وكل صبّ للصبا ذاكر
دمع له ذكرهم ناثر^(٣)

لأبي بكر
ابن أزرق

(٢) فى ١ « إنما يكتب رسم هذا »

(١) فى ب « بن مسعدة »

(٣) فى ب « سقى عهدودا لهم بالحمى »

وقال أبو جعفر بن أزرق :

لأبي جعفر
ابن أزرق

أراك ملكت الخافقين مهابة
وتغضى العيون عن سنائك كأنها
وتتصفر ألوان العداة كأنما
بها ما تلحُ الشهب بالخفقان^(١)
تقابل منك الشمس في المعان^(٢)
رُموا منك طول الدهر باليرقان

وقال أبو القاسم بن أزرق :

لأبي القاسم
ابن أزرق

ذاك الزمان الذى تقضى
بكلِّ عمرى الذى تبقى
ياليته عاد منه حينُ
وما أنا فى الشرا غيبُ

وقال راشد بن عريف الكاتب :

لراشد بن
عريف

جمع فى مجلسٍ ندأى
فقال لى منهم نديم
فقلت إن قت كل حين
وليس عندى إذن ندأى
تحسدنى فيهمُ النجوم
مالك إذ قتُ لا تقوم
فإن حظى بكم عظيم
بل عندى المقعدُ المقيم

وقال الحسيب أبو جعفر بن عائش :

لابن عائش

ولى أخ أوردُهُ سلسلا
ألقاه كى أبسطه ضاحكا
وليس ينفك عنائى به
لكنه يوردنى مالحا
ويلتقينى أبدا كالحا
مارمُتُ من فاسده صالحا

قال الحجارى : وكتب إلى جدى إبراهيم فى يوم صحو بعد مطر :

إذا رأيت الجوّ يَصْحُو فلا
تعال فانظر لدموع الندى
ولا تقل إنك فى شاغل
تصحُّ، سقاك الله من سكر
ما فعلت فى مبسم الزهر
فليس هذا آخر الدهر

(١) فى «بها ما تلحُ الشهب فى الخفقان»

(٢) فى «عن سنائك كأنما»

تخلف ما فات سوى ساعة تقتض فيها لذة الخمر

فأجابه :

(٦) لبيك لبيك ولو أننى أسعى على الرأس إلى مصر

فكيف والدار جوارى وما عندى من شغل ولا عذر

ولو غدا لى ألف شغل بلا عذر تركت الكل للحشر

وكما أبصرنى ناظر بياكم عظم من قدرى

أنا الذى يشربها دائما ما حضرت فى الصحو والقطر (١)

وليس نقلى أبدا بعدها إلا الذى تعهد من شكرى

[قال الحجارى : ولم يقصر جدى فى جوابه ، ولكن ابن عائش أشعر منه

فى ابتدائه ، ولو لم يكن له إلا قوله * تعال فانظر - إلخ * لكفاه] (٢) قال : وفيه

يقول جدى [إبراهيم] (٣) يمدحه :

ولو كان ثان فى الندى لابن عائش لما كان فى شرق وغرب أخو فقر

يهش إلى الأمداح كالغصن للصبا وبشر بحياه ينوب عن الزهر (٤)

فيارب زد فى عمره إن عمره حياة أناس قد كفوا كلفة الدهر

وقته ابن مسعدة ملك وادى الحجارة الثأربها ، ولما قدمه ليقتله قال : ارفق على

حتى أخاصم عن نفسى ، فقال : على لسانك قتلناك ، فقال له : لا رفق الله عليك يوم

تحتاج إلى رقيقه ! فقال بجبروتيته (٥) : مارهبنا السيوف الحداد ، ونزهب (٦) دعاء الحساد

وقال أبو الحسن على بن شعيب :

انزعى الوشى فهو يستر حسنا لم تحز به برقهن الثياب

ودعبنى عسى أقبل ثغرا لذ فيه اللعى وطاب الرضاب

لأبى الحسن
ابن شعيب

(١) فى ب « إلا الذى يشربها دائما » وما أثبتناه فى ا ونسخة عند ب

(٢) ما بين المعوفين ساقط من ب (٣) فى ب « ونشر محياه » (٤)

(٥) فى ا « بجبروته » (٦) فى ا « نزهب » بغير واو (٧)

وعجيب أن تهجرني ظلما وشفيعي إلى صباك الشباب
وقال أخوه أبو حامد الحسين حين كبا به فرسه فحصل في أسر العدو :
لأبي حامد
ابن شعيب
وكننت أعدى طرْف في الرزايا يخلصني إذا جعلت تحوم
فأصبح للعدا عوناً لأنني أطلت عناءه فأنا الظلوم
وكم دامت مسرّاتي عليه وهل شيء على الدنيا يدوم ؟
وقال أبو الحسن علي بن رجاء صاحب دار السكة والأحباس بقرطبة :
لأبي الحسن
ابن رجاء
يا سائلي عن حالتي إنني لا أشتكي حالي لمن يضعف
مع أنني أحذر من نقده لاسيما إن كان لا ينصف
وأنشده له الحميدى في « الجذوة » :

قل لمن نال عرض من لم ينله حسبنا ذو الجلال والإكرام
لم يزدني شيئا سوى حسنات لا ولا نفسه سوى آثام
كان ذا منعة فتقل ميزا نى بهذا فصار من خدامي

وقال أبو محمد القاسم بن الفتح :

أيام عمرك تذهب وجميع سعيك يكتب
ثم الشهيد عليك منك فأين أين المهرب ؟

وقال أبو مروان عبد الملك^(١) بن غصن :

فديتك لا تخف مني سلوا إذا ما غير الشعر الصغارا
أهيم بدنّ خمر صار خلا وأهوى لحية كانت عذارا

وقال :

قد ألحف الغيم بانسكابه والتحف الجو في سحابه
وقام داعي السرور يدعو حتى على الدن واتهابه

(١) هكذا في ا ونسخة عند ب ، وفي أصل ب « أبو مروان عامر بن غصن »
والمشهور أن الذي يكنى أبا مروان يكون اسمه عبد الملك .

وتاه فيه النديم مما يزدحم الناس عند بابه

وكان أحد الأعلام في الأدب والتاريخ والتأليف .

ونقم عليه المأمون بن ذى النون بسبب صحبته لرئيس^(١) بلده ابن عبيدة^(٢) ،

وبلغه أنه يقع فيه ، فكتبه أشرّ نكبة ، وحبسه ، فكتب إليه من السجن :

فديتُك هل لي منك رُحَى لعلنى أفارق قبراً في الحياة فَأُشْرُ

وليس عقاب المذنبين بمنكر ولكن دَوَامُ السخط والعتب منكر^(٣)

ومن عجب قول العداة مثقلٌ ومثلى في إلحاحه الدهرَ يعذر

وألف للمأمون رسالة « السجن والمسجون ، والحزن والحزون » ورسالة أخرى

سمّاها بالعشر كلمات ، وقال :

يا فتية خيرة فدتهم من حادثات الزمان نفسى

شربهم الخمر في بكور ونطقهم عندها بهمس

أما ترون الشتاء يلقى فى الأرض بسطاً من الدّمّس^(٤)

مقطب عابس ينادى يوم سرورٍ ويوم أنس

وأخبر عنه^(٥) الحميدى فى الجذوة أنه شاعر أديب ، دخل المشرق ، وتأدب ، وحج ،

ورجع ، وشعره كثير .

وله أبيات كتبها فى طريق الحج إلى أحد القضاة :

يا قاضياً عدلاً كأن أمامه ملكٌ يُريه واضح المنهاج

طافت بعبدك فى بلادك عالة قعدت به عن مقصدٍ الحجاج

واعتلّ فى البحر الأجاج فكن له بحراً من المعروف غير أجاج

وقال الزاهد الورع المحدث أبو محمد إسماعيل بن الديوانى :

(١) فى ١ « لرأس بلده » (٢) فى ب « أبى عبيدة »

(٣) فى ١ « دوام السخط والعتب ينكر » (٤) فى ١ « بسطاً من التنفس »

(٥) فى ١ « وقال عنه »

ألا أيها العائب المعتدى ومن لم يزل مؤذيا ازدد^(١)
 مساعيك يكتبها الكتائب فيفيض كتابك أوسود
 وقال ابنه أبو بكر :

خاصم عدوك باللسان وإن قدرت فبالسنان
 إن العداوة ليس يضلحها الخضوع مدى الزمان

لإبراهيم
 الحجارى

وقال إبراهيم الحجارى جدّ صاحب « المسهب » :
 لننكرهوا يوم الوداع فإننى أهيمن به وجداً من أجل عناقه
 أصافح من أهواء غير مسائر وسر التلاقى مودع فى فراقه^(٢)
 وقال :

كن كما شئت إننى لا أخول غير مصغ لما يقول العذول
 لك والله فى القواد محلّ ما إليه مدى الزمان ووصول
 ومُرَادى بأن تزور خفياً ليت شعرى متى يكون السبيل^(٣)
 وقال :

قد توالى فى حالتينا الظنون فلنصدق ما كذبتة العيون
 ومُرَادى بأن تلوح بأفنى بدّر تمّ وذلك مالا يكون
 أنا قد قلت ما دعانى إليه كثرة اليأس، والحديث شجون
 وإذا شئت أن تُسَمِّه رأى فمحلى من الرقيب مصون
 وبه ما تشاء من كل معنى كل من لم يجب له مجنون
 وإلى كم تضل ليل الأمانى ومن اليأس لاح صبح مبين

وقال :

(١) ازدد : يريد لا تترك ما أنت عليه ، ووقع فى « اردد » ولا يتسق مع البيت
 الثانى الذى جعل كالتعليل له (٢) فى « ا » أصافح من أهواء غير مسائر «
 (٣) فى « ا » ومُرَادى أن تزور « ولا يستقيم الوزن

سألته عن أبيه فقال خالي فلان
فانظر عجائب ما قد أتت به الأزمان
دهر عجيب لديه عن المعالي حران
فماله غير ذم كما تدين تدان

لابن خيرة
الإشيلي

وقال الكاتب العالم أبو محمد بن خيرة الإشيلي صاحب كتاب «الريحان والريحان»
يمدح السيد أبا حفص ملك إشبيلية ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن من قصيدة :
كأنما الأفق صرَّحُ والنجوم به كواعب وظلام الليل حاجبه
وللهلال اعتراض في مطالعه كأنه أسودَّ قد شاب حاجبه
وأقبل الصبح فاستجيت مشاركته وأدبر الليل فاستخفت كواكبه
كالسيد الماجد الأعلى الهام أبي حفص لرحلته ضمت مضاربه
وأنشد له ابن الإمام في «سمط الجمان» :

رَعِيًّا لِمَنْزِلِهِ الْخَصِيبِ وظله وسقى الثرى النجدى سَخَّ رَبَّاهُ^(١)
واها على ساداته لا أدعى كلفنا بزِينِهِ وَلَا بِرَبَّاهُ^(٢)
ويعرف رحمه الله تعالى بابن المواعيني
وقال ابنه أبو جعفر أحمد :

لأبي جعفر
الإشيلي

يَا أَخِي هَاتِمًا وَحَجَبٌ سَنَاها عن مثير بها جنونا وسخفا
هذه الشمس إن بدت لضعيف السعير زادت في ذلك الضعف ضعفا
إنما يشربُ المدامة مَنْ : إن خشت كفه جَفَّأها وَكَفَّأ

للوزير
أبي الوليد
ابن حبيب

وكتب الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حبيب الملقب بحبيب إلى أبيه : لما خُلق الربيع
من أخلاقك الغر ، وسَرَقَ زَهْرُهُ من شيمك الزُّهْر ، حَسُنَ في كل عين منظره ،

(١) الرباب : السحاب ، وسجّه : هطوله ونزول مطره

(٢) رباب ، هنا : اسم امرأة

وطاب في كل سمع خبره ، وتآقت النفوسُ إلى الراحة فيه ، ومالت إلى الإشراف على بعض ما يَحْتَوِيهِ ، من النور الذي بُسِطَ على الأرض خُلا ، لا ترى^(١) في أثنائها خُلا ، سُلُوكُكَ نثرت على الثرى ، وقد ملئت مسكا وعُنبَرا ، إن تنسّمها فأرجّة ، أو تنسّمها فبهجة :

فالأرض في بزة من يانع الزهر تُزرى إذا قسّمها بالوشى والخبز^(٢)
قد أحكمتها كَفُ المزن وكفّة وطرزتها بما تهوى من الدر
تَبَرَّجَتْ فسبّت منا العيون هوى وفتنة بعد طول الستر والخفّر
فأوجد لي سبيلا إلى إعمال بصرى فيها ، لأجلو بصيرتي بمحاسن نواحيها ، والفصل على أن يكمل أوانه ، ويتصرّم^(٣) وقتّه وزمانه ، فلا تُخْلِيَنِي من بعض التشفى منه ، لأصدر نفسي متيقظة عنه ، فالنفوسُ تصدأ كما يصدأ الحديد ، ومن سعى في جلائها فهو الرشيد السديد .

ومن شعره يصف وَرْدًا بعث به إلى أبيه :

يامن تأزر بالمكارم وارتدى بالمجد والفضل الرفيع الفائق
انظر إلى خد الربيع مركبا في وجه هذا المهرجَانِ الرائق
وَرْدٌ تقدم إذ تأخر واغتدى في الحسن والإحسان أول سابق
واقاك مشتملا بثوب حيائه خجلا لأن حياك آخر لاحق

وله :

أتى الباقلاء الباقل اللون لابسا برود سماء من سحائبها غذى^(٤)
ترى نوره يلتاح في وَرْقَانِه كبُلُقُ جياذ في جِلَالِ زمرد

وقال :

(١) في ١ « لا يرى الناظر في أثنائها خلا » (٢) في ١ « ترى إذا قسّمها » محرفا

(٣) في ١ « وينصرم » (٤) ورد هذا البيت في ب محرفا علي هذا الوجه :

أرى الباقلاء الباقل اللون لابسا جرود سحاء من سحائبها غذى

إذا ما أدرت كؤوس الهوى ففي شربها لست بالمرقل^(١)
مُدَّام تعتق بالناظرين وتلك تعتق بالأرجل^(٢)

وكان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الفائق ، وينثر النثر الرائق ، وأبو جعفر ابن الأَبَّار هو الذى صَقَلَ مِرَّاتَهُ ، وأقام قَنَانَهُ ، وأطلعَه شهاباً ثاقباً ، وسلك به إلى فُنُون الآداب طريقاً لاجِباً ، وله كتاب سماه بـ «البديع» ، فى فصل الربيع « جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة ، أعرب فيه عن أدب غزير ، وحظ من الحفظ^(٣) موفور ، وتوفى وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، واستوزره داهيةُ الفتنة ، ورحى الحنة ، قاضى إشبيلية عَبَّاد^(٤) جدُّ المعتمد ، ولم يزل يُصْنَعى إلى مقالهِ ، ويرضى بفعاله ، وهو ماجاوز العشرين إذ ذاك ، وأكثر نظمه ونثره فى الأزهار ، وذلك يدل على رقة نفسه ، رحمه الله تعالى !

وقال الوزير الكاتب أبو الحسن على بن حصن وزير المعتمد بن عباد :
على أن أتدللَّ له وأن يتدللَّ
خدَّ كأن الثريا عليه قُرْطٌ مسلسل

للوزير
أبى الحسن
ابن حصن

وقال :

طلَّ على خَدَّه العذار فافتضح الأسُّ والبهَّار
وابيضَّ ذا واسود هذا فاجتمع الليلُ والنهار

وقال الوزير أبو الوليد بن طريف فى المعتمد بعد خلعه :

يا آل عباد ألا عَطَفَته فالدهر من بعدكم مظلم
من الذى يُرْجَى لنيل العلا ومن إليه يَقْدُ المعدم
ما أنكر الدهر سوى أنه بجودكم فى فعله يزعم^(٥)

للوزير
ابن طريف

(١) فى « إذا مارأيت كؤوس الهوى » محرفاً ، والمرقل : اسم فاعل من الإرقال وهو سرعة السير

(٢) فى ب « تعتق للناظرين » (٣) فى ب « وحظ من الأدب موفور »

(٤) فى ا « ابن عباد جد المعتمد » (٥) فى ا « بجوركم فى فعله يرغم »

وله :

من حَلَقَتْ حَلِيَةَ جَارٍ لَهُ فَلَيْسَ كَبِ الْمَاءِ عَلَى حَلِيَّتِهِ
وقد أجرينافي هذا الكتاب ذكر جملة من أخبار المعتمد بن عباد ونظمه في أما كن
متعددة فلتراجع
ومن نظمته (١) :

ثلاثة مَنَعَتْهَا عَنْ زيارَتِهَا خوف الرقيب وخوف الحاسدِ الحَنِقِ
صَوَّ الجبين ، ووسَّاس الحَلِيِّ ، وما تحوى مَعَاطِفُهَا مِنْ عَذْبَرِ عَبَقِ
هَبِ الجبينَ بِفَضْلِ السَّكَمِ تَسْتَرِهِ والحلى تنزعه ، ما حيلة العَرَقِ ؟

وقال :

يوم يقول الرسول قدأذنت فأت على غير رقبة ولج
أقبلت أهوى إلى رحالهم أهْدَى إِلَيْهَا بِرِيحِهَا الأَرَجِ
قال : ويستدل على الملوكية بالطيب في المواطن التي يكون الناس فيها غير معروفين
كالحمام ومعارك الحرب ومواسم الحج
رجع إلى ما كنا فيه

لأبي العباس
الخزرجي

وقال أبو العباس أحمد الخزرجي القرطبي :

وفي الوَجَنَاتِ ما في الروض لكن لرونق زهرها مَعْنَى عَجِيب
وأعجب ما التعجُّبُ منه أُنَى أرى البسِمتان يحمله قضيب

وقال الوزير أبو سليمان بن أبي أمية يخاطب رئيسا قد بلغه عن بعض أصحابه كلام
فيه غَضٌّ منه (٢) :

لوزير
أبي سليمان بن
أبي أمية

هوّن عليك كلامه واسمح له فيمن سمح

(١) في ١ « ومن نظم المعتمد رحمه الله قوله »

(٢) غَضٌّ منه : أى انتقاص لشأنه ، ووقع في ١ « غَضٌّ منه » بالمهمله ، محرفا

ماذا يسوءك إن هجا ماذا يسرك إن مدح ^(١)

أو ما علمت بلى جهلت بأنه غلّ طفع ^(٢)

وخفيّ حقد كامن دأبوا له حتى اتضح

هذا بمستنّ الوقا رفكيف لو دار القدح

فاشكر عوارف ذى الجلا ل بما وقى وبما منح

ولأبي على عمر وقال أبو علي عمر بن أبي خالد يخاطب أبا الحسن على بن الفضل :

ابن أبي خالد

أبا حسن وما قدّمت عهد لنا بين المنارة والجزيرة

أذكر أنسنا والليل داج بخمر في زجاجتها منيرة

إذا الملاح ضلّ رنا إليها فأبصر في مناحيه مسيره

وقال الكاتب عبد الله المهيريس ، وكان حلو النادرة ، لما شرب عند الوزير

للكاتب عبد الله

المهيريس

أبي العلاء بن جامع وقد نظر إلى فاخنة فأعجبه حسننها ولحنها :

ألا خذها إليك أبا العلاء حلّى الأمداح ترفل في الثناء ^(٣)

وهبها قينة تجلى عروسا خضيب الكف قانية الرداء

لأجعلها محلّ جليس أنسى وأغنى بالمهديل عن الغناء

وحكى أنه ناوله ليمونة وأمره بالقول فيها فقال :

أهدى إلى بروضة ليمونة وأشار بالتشبيه فعل السيد

فصمت حيناً ثم قلت : كجلجل من فضة تعلوه صفرة عسجد

وقال الكاتب أبو بكر بن البناء يرثى أحد بني عبد المؤمن ، وقد عزل من بلد نسيية

للكاتب

أبي بكر بن البناء

وولى إشبيلية فمات بها :

كأنك من جنس الكواكب كنت لم تفارق طلوعا حالها وتواريا ^(٤)

(١) في « فإذا يسوءك » و « ماذا يضرك إن مدح »

(٢) الغل : الحقد ، وطفع : أراد أنه ظهر على لسانه

(٣) في ب « على الأمداح ترفل في الثناء » وليس بذلك

(٤) في ب « من جنس الكواكب لم تكن * تفارق طلوعا » وليس بشيء

تَجَلَّيْتُ مِنْ شَرْقِ تَرَوْقُ تَلَأُلُوا فلما انتحيت الغرب أصبحت هاويا^(١) حديث
عن بنى زهر وكان محمد بن مروان بن زهر - كما في المغرب والمسهب والمطرب ، وقد قدمنا بعض
أخباره - منشأ الدولة العبادية [و] أول من تُثْنِي عليه الخناصر، وتستحسنه البواصر،
فضاقت الدولة العبادية عن مكانه ، وأخرج عن بلده ، فاستصفت أمواله ، فلحق
بشرق الأندلس ، وأقام فيه بقية عمره ، ونشأ ابنه الوزير أبو مروان عبد الملك
بن محمد ، فما بلغ أشده ، حتى سَدَّ مَسَدَهُ ، ومال إلى التفتن في أنواع التعليم من
الطب وغيره ، ورحل إلى المشرق لأداء القرض ، فلأ البلاد جلالة ، ونشأ ابنه
أبو العلاء زهر بن عبد الملك ، فاخترع فضلا لم يكن في الحساب ، وشرع نبلا
قصرت عنه نتائج أولى الأبواب ، ونشأ بشرق الأندلس والآفاق تتهادى عجائبه ،
والشأم والعراق تتدارس بدائعهم وغرائبهم ، ومال إلى علم الأبدان فلولاً جلالته قدره ،
لقلنا جاذب هاروت طرّفاً من سحره ، ولولا أن الغلو آفة المديح ، لما اكتفى فيه
بالكناية عن التصريح^(٢) ، ولم يزل مقيماً بشرق الأندلس إلى أن كان من غزاة
أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ومن انضم إليه من ملوك الطوائف ما علم ، وشخص
أبو العلاء معهم ، فلقية المعتمد بن عباد ، واستماله واستهواه ، وكاد يغلب على هواه ،
وصرف^(٣) عليه أملاكه فحن إلى وطنه ، حنين النيب^(٤) إلى عطنه ، والكريم
إلى سكّنه ، ونزع إلى مقر سلقه ، نزوع الكوكب إلى بيت شرفه ، إلا أنه لم يستقر
بإشبيلية إلا بعد خلع المعتمد ، وحل عند يوسف بن تاشفين محلاً لم يحله المساء من
العطشان ، ولا الروح من جسد الجبان ، ولما كتب إليه حسام الدولة بن رزين
مالك السهلة بقوله :

عَادِ اللِّيمَ فَأَنْتَ مِنْ أَعْدَائِهِ وَدَعِ الحُسُودَ بَغْلَهُ وَبَدَّائِهِ

(١) في ب « تجليت عن شرق »

(٢) في ا « ولولا أن الغلو آفة المديح ، لتجاوزت طلق الجوح ، ولكفى اكتفيت
بالكناية عن التصريح » (٣) في ب « وتصرف » (٤) في ب « حنين الكيب »

لا كان إلامن غدت أعداؤه مشغولة أفواههم بحفائه
 أبا العلاء لئن حسدت لطلما جسد الكريم بجوده ووفائه
 فخرّ العلاء فكنت من آبائه وزها السناء فكنت من أبنائه
 كن كيف شئت مشاهداً أو غائباً لا كان قلب لست في سؤدائه
 أجابه بقوله :

يا صارما حسم العدا بمضائه وتعبّد الأحرار حسن وفائه
 ما أثر العضب الحسام بذاته إلا بأن سميت من أسمائه
 وكلفه الحسام المذكور القول في غلام قائم على رأسه ، وقد عذر ، فقال :
 نُحِيتْ آية النهار فأضحى بدّرتم وكان شمس نهار
 كان يُعشيّ العيون نارا إلى أن أشغل الله خدّه بالعدار
 وقال :

عذار ألم فأبدى لنا بدائع كنا لها في عى
 ولو لم يحن النهار الظلا لم يستن كوكب في السما

وقال :

ياراشقى بسهام ما لها غرض إلا القواد وما منه له عوض (١)
 وممرضى بجفون لحظها غنج صحت وفي طبعها التمرىض والمرض
 أمنن ولو بخيال منك يؤنسني فقد يسد مسدّ الجوهر العرض
 وهذا معنى في غاية الحسن .

وكان بينه وبين الإمام أبي بكر بن باجة - بسبب المشاركة - ما يكون بين
 النار والماء ، والأرض والسماء ، ولما قال فيه ابن باجة :

(١) في « وما منه لها عوض »

يا مَلَكَ الموت وابن زهر جاوزتما الحدَّ والنهْيَ
ترفقاً بالورى قليلاً في واحد منكما الكفاية
قال أبو العلاء :

لا بد للزنديق أن يُضَلَبَ شَاءَ الذي يعضده أو أبى
قد مهد الجذع له نفسه وسَدَّدَ الرمح إليه الشَّبَا
والذى يُعَضِّده مَالِكُ بن وهيب جليس أمير المسلمين وعلمه .

وأما حفيده أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر فهو وزير إشبيلية وعظيمها ابن عبد الملك
أبو بكر محمد
ابن زهر
وطبيبها وكريمها ، ومن شعره :

رَمَتْ كبدى أخت السماء فأقصدت إلأبأى رام يصيب ولا يخطئ
قريبة ما بين الخلاخيل إن مشت بعيدة ما بين القلادة والقرط
نعمتُ بها حتى أتيتحت لنا النوى كذا شيم الأيام تأخذ ما تعطى
وتوفى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وأمر أن يكتب على قبره :

تأمل بفضلك يا واقعاً ولا حظ مكاناً دُفَعْنَا إليه ^(١)
ترابُ الضريح على صفحتي كَأَنِّي لم أَمْش يوماً عليه
أداوى الأنام حذار المنون فها أنا قد صرت رهنًا لديه
رحمه الله تعالى ، وعفا عنه !

وفي هذه الأبيات إشارة إلى طبه ومعالجته للناس ، رحمه الله تعالى ! وقد ذكرت
بعض أخباره في غير هذا الموضع .

وقال أبو الوليد بن حَزْم :
مَرَّاكَ مَرَّاكَ لا شمس ولا قمر وورد خديك لا ورد ولا زهر
لأبي الوليد
ابن حزم

(١) في ب « ولا حظ مكاناً دُفَعْنَا إليه »

في ذمة الله قلب أنت ساكنه إن بنتَ بان فلا عين ولا أثر
وقال :

لله أيام على وادى القرى سلفت لنا والدهر ذو ألوان
إذ تجتني في ظله ثمر المنى والطير ساجدة على الأغصان
والشمس تنظر من محاجر أرمدها والطلل يركض في النسيم الواني
فليثمت فاه والتزمت عناقه ويد الوصال على فقأ المهجران
لابن عبد ربه وقال ابن عبد ربه :

يا قابض الكف لازالت مقبضة فما أناملها للناس أرزاق
وغب إذا شئت حتى لا ترى أبداً فما لفقديك في الأحشاء إقلاق
وقال في المدح :

وما خلقت كفاك إلا لأربع عقال لم تخلق لهن يدان
لتقبيل أفواه ، وإعطاء نائل وتقليب هندی ، وحبس عنان
وقال الكاتب أبو عبد الله بن مصادق^(١) الرندي الأصل :

صارمته إذ رأت عارضه عاد من بعد الشباب أشيبا
قلت ما صر لك شيب فلقد بقيت فيه فكاهات الصبا
هو كالغبر غال نفعه وشذاه أخضرا أو أشيبا

وقال :

ووردة وردت في غير موقتها والسحب قد هملت أجفانها هطلا
وإنما الروض لما لم يفد ثمرها يقريكه انفتحت في خده خجلا
وله :

لم أحتفل بقدم العيد من زمن قد كان يهجنني إذ كنت في وطني
لم ألق أهلي ولا إني ولا ولدي فليت شعري سروري واقع بمن

وقال :

يقول لي العاذلُ تُبَّ عن هوى
وكيف لي والدين دين الهوى
أليس بابُ التَّوْبِ قد سدده
طلوعه شمساً من المغرب
من ليس يَدُنِيكَ إلى مطلب
فلا أرى أرجح من مذهبي

وله :

امْذَحْ كرائمك الخروجَ ولا
لا تعتبر منهن مسخطة
أو لَسَنَ مثل الدر في شَبَهٍ
تظهر لذلك وجه منبسط
نيل الرضا في ذلك السخطة (١)
والدر من صَدَفٍ إلى سَفَطٍ

للمعتمد بن عباد

وقال المعتمد بن عباد :

تم له الحسن بالعدار
أخضر في أبيض تبدى
فقد حَوَى مجلسي تماماً
واختلط الليل بالنهار
فَذَاكَ آسَى وذا بهارى (٢)
إن يَكُ من رِيقه عُقَارَى

وقال ابن فرج الجياني رحمه الله تعالى :

وطائفة الوصال صدرت عنها
بَدَتْ في الليل سافرة فباتت
وما من كَلْطَةٍ إلا وفيها
وما الشيطان فيها بالمطاع (٣)
دياجي الليل سافرة القناع
إلى قَتَنِ القلوب لها دَوَاعَى
لأجرى في العناف على طباعى
سوى نظرٍ وشَمٍّ من متاع
فأتخذ الرياض من المراعى
فمَلَكْتُ الهوى جمحات قلبي
كذلك الروضُ ما فيه لمثلي
ولست من السواثم مهملات

لابن فرج
الجياني

وقال :

(١) في ١ « نيل المني في ذلك السخطة »

(٢) في ١ « ذلك آسى وذا بهارى »

(٣) في ١ « وطائفة الوصال صدرت عنها » ولم يكمل هنا الأبيات

بأيهما أنا في الشكر بادی
بشكر الطيف أم شكر الرقاد^(١)
سرى فازداد لي أمل ولكن
عَفِفْتُ فلم أنل منه مرادى^(٢)
ومافي النوم من حرج ولكن
جريت مع العفاف على اعتيادي

للرصافي وقال الرصافي :

وعشيت أنسٍ للسرور وقد بدا
من دون قرص الشمس ما يتوقع
سقطت فلم يملك نديمك ردّها
فوددت يا موسى لو أنك يوشع

لابن عبدربه وقال ابن عبدربه :

يراعة غرنى منها وميض سنى
حتى مددت إليها الكف مقبسا^(٣)
فصادفت حَجَرًا لو كنت تضربه
من لؤمه بعصا موسى لما انبجسا
كأنما صيغ من لؤم ومن كذب
فكان ذاك له رُوحًا وذا نفسا

لابن صارة وقال ابن صارة في فروة :

أودت بذات يدي فريّة أرنب
كفؤاد غُرُوة في الضنى والرقّة
يتجشم القراء من ترقيعها
بعد المشقة في قريب الشقة
لو أن ما أنفقت في ترقيعها
يُخَصَّى ل زاد على رمال الرقّة
إن قلت بسم الله عند لبامها
قرأت على (إذا السماء انشقت)

للغزالي وقال الغزالي :

والمرء يعجب من صغيرة غيره
أى امرئ إلا وفيه مقال
لسنا نرى من ليس فيه غميمة
أئ الرجال القائل الفعال

لابن حيّان وقال أبو حيّان :

لا ترجون دوام الخير من أحد
فالشر طبع وفيه الخير بالعرض

(١) وقع هذا البيت في ب هكذا :

بأيهما أنا بالحسن بادی
بشكر الضيف أم طيف الرقاد
(٢) في ب « سرى لى فازدرى أصلي ولكن » محرفا .

(٣) في ا « حتى مددت إليه » .

ولا تظن امرأ أسدى إليك ندى من أجل ذاتك بل أسداه للغرض ^(١)
وقال ابن شهيد :

ولما فشا بالدمع ما بين وجدنا إلى كاشحينا ما القلوب كواتم ^(٢)
أمرنا بأمسالك الدموع جفوننا ليشجى بمانطوى عذول ولائم
أبى دمعنا يجرى مخافة شامت فنظمه بين الحاجر ناظم
وراق الهوى منا عيون كريمة تبسمن حتى ماتروق المباسم
وقال في الانتحال :

وبلغت أقواما تجيش صدورهم على وإنى فيهم فارغ الصدر
أصاخوا إلى قولى فأسمعت معجزا وغاصوا على سرى فأعجزهم أمرى ^(٣)
فقال فريق ليس ذا الشعر شعره وقال فريق أئمن الله ماندرى
فمن شاء فليخبر فإنى حاضر ولاشئ أجلى للشكوك من الخبر
وينظر إلى مثل هذا قصة أبي بكر بن بقی حين استهدى من بعض إخوانه أقلاما
فبعث إليه بثلاث من القصب ، وكتب معها :

خذها إليك أبا بكر العلاء قصباً كأنما صاغها الصواغ من ورقه
يزهى بها الطرس حسنا ما نثرت بها مسك المداد على الكافور من ورقه
فأجابه أبو بكر :

أرسلت نحوى ثلاثاً من قنأ سلب ميادة تطعن القرطاس فى درقه ^(٤)
فانخط ينسكرها والخط يعرفها والرق يخدمها بالرق فى عنقه
فحسده عليه بعض من سمعه ، ونسبه إلى الانتحال ، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأول :
وجاهل نسب الدعوى إلى كلى لما رماه بمثل النبل فى حدقه

(١) فى ب « أسدى إليك يدآ » . (٢) فى ا « فالقلوب كواتم »

(٣) فى ا « فأسمعت صمهم » وفيها « فأعيام أمرى »

(٤) فى ا « من قنأ سلب * منادة تطعن القرطاس فى ورقه »

فقلت من حنق لما تعرض لى
ماذم شعرى وأيم الله لى قسم
والشعر يشهد أنى من كواكبه
وقال ابن شهيد أيضا فى ضيف :

وما انفك معشوق الثناء يمدّه
إلى أن تشبّهى البين من ذات نفسه
فأتبعته ماسد خلة حاله
وقال :

وبتنا نراعى الليل لم يطو برده
تراه كملك الزنج من فرط كبره
مطلاً على الآفاق والبدر تاجه
وقال بعضهم فى لباس أهل الأندلس البياض فى الحزن ، مع أن أهل المشرق
يلبسون فيه السواد :

فى لبسهم
البياض فى
الحزن

ألا يا أهل أندلس فظنتم
لبستم فى مآتمكم بياضا
صدقتم فالبياض لباس حزن
وقال أبو جعفر بن خاتمة :

لأبى جعفر
ابن خاتمة

هل جسوم يوم النوى ودّعوها
ياخذاة القلوب ما للعدل هذا
وقال القسطللى يصف هول البحر :

- (١) فى « بل الصباح الذى يستن فى أفقه »
(٢) فى ب « وما انفك معشوق الثنايا يمدّه »
(٣) فى ب « هل جسوم من النوى ودّعوها »

إليك ركبتا الفلك تهوى كأنها
وقد ذعرت عن مغرب الشمس غرباً
على لجج خضر إذا هبت الصبا
ترامى بها فينا ثبير وشهلا
موائل ترعى في ذراها موائل
كما عُبِدَتْ في الجاهلية أو ثان
مقاتل موج البحر والهلم والدجا
يموج بها فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا
سوى البحر قبر أوسوى الماء أ كفان

وقال الرمادى يهنى ابن العطار الفقيه بمولود :

يهنيك ما زادت الأيام في عددك
من فلذة برزت للسعد من كبذك
كأنما الدهر دهر كان مكتئباً
من انفرادك حتى زاد في عددك
لاخلفتك الليالي تحت ظل ردّى
حتى ترى ولداً قد شب من ولدك

وقال ابن صارة في النار :

هات التي للأيك أصل ولادها
ولها جبين الشمس في الأشماس
يتقشع الياقوت في لباتها
بوساوس تشفى من الوسواس
أنس الوحيد وصبح عين المجتلى
ولباس من أمسى بغير لباس
حراء ترفل في السواد كأنما
ضربت بعرق في بنى العباس

وقال فيها أيضاً :

لابنة الزند في الكوانين بحر
كالدرارى في الليلة الظلماء
خبروني عنها ولا تكذبوني
أليها صناعة الكيمياء
سبكت فحمها سبائك تبر
رصعته بالفضة البيضاء (١)
كلما ولول النسيم عليها
رقصت في غلالة حراء
سفرت عن جبينها فارتنا
حاجب الليل طالعا بالعشاء (٢)
لوترانا من حولها قلت قـم
يتعاطون أ كؤوس الصهباء (٣)

(١) في « رصعها بالفضة البيضاء »

(٢) في « سفرت في عشاءنا فارتنا »

(٣) في « لوترانا من حولها قلت شرب »

للرمادى
يهنى بمولود

لابن صارة
يصف النار

لابن لبّال

وقال فيها الفقيه الأديب ابن لبّال (١):

غَمَّ ذَكَاءٌ فِي حِشَاهُ جَمْرٌ فَقَلَّتْ مَسْكَ وَجُئَانَارُ
أَوْحَدٌ مَنْ قَدْ هَوَيْتَ لَهَا أَطْلَّ مِنْ فَوْقِهِ الْعِدَارُ

وكان أبوالمطرف الزهري جالسا في باب داره مع زائريه ، فخرجت عليهما من زقاقٍ [ثاني] (٢) جاريةٌ سافرة الوجه كالشمس الطالعة فحين نظرتهما على [حين] غفلة منها نفرت حجلة ، فرأى الزائر ما أبهتته فكلفه وصفها ، فقال مرتجلا :

يَاظْبِيَّةُ نَفَرْتَ وَالْقَلْبُ مَسْكِنُهَا خَوْفًا تَحْتَلِي بِلِ عَمْدَا لَتَعْذِيبِ
لَا تَحْتَشِي فَابُنْ عَبْدِ الْحَقِّ أَنْحَلْنَا عَدْلًا يُؤَلِّفُ بَيْنَ الظُّلِيِّ وَالذِّيبِ

لابن شهيد

وقال ابن شهيد :

أَصْبَحَ لَاحَ أُمِّ بَدْرٍ بَدَا أُمَّ سَنَاءَ الْمَحْبُوبِ أَوْرَى زَنْدَا (٣)
هَبَّ مَنْ نَعْسَتُهُ مِنْكَسِرَا مَسْبِلَ لِّلْكَمِّ مُرْخٍ لِّلرَّدَا
يَمْسَحُ النِّعْسَةَ مِنْ عَيْنِي رِشَا صَائِدٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَسْدَا
قَلَّتْ هَبِّي يَا حَبِيبِي قُبْلَةَ تَشَفُّ مِنْ حَبْكَ تَبْرِجِ الصَّدَى (٤)
فَانْتَنِي يَهْـ____تَزُّ مِنْ مَنْكِبِهِ قَانِلًا لَا تُمْ أَعْطَانِي الْيَدَا
كَلِمَا كَلِمَانِي قَبْلَتَهُ فَهُوَ مَا قَالَ كَلَامَا رَدَّدَا
قَالَ لِي يَلْعَبُ صِدْلِي طَائِرًا فَتَرَانِي الدَّهْرُ أَجْرِي بِالسَّكْدَى
وَإِذَا اسْتَنْجَزْتَ يَوْمًا وَعَدَهُ قَالَ لِي يَمُتِلْ ذَكَرُنِي غَدَا
شَرِبْتَ أَعْضَاؤَهُ خَمْرَ الصَّبَا وَسَقَاهُ الْحَسَنَ حَتَّى عَرَبَدَا (٥)
رَشَأُ بَلِّ غَادَةٍ مَمْكُورَةٍ عَمِمْتَ صَبْحًا بِلِيلِ أَسْوَدَا
أَخْجَلْتَ مِنْ عَضِّهِ فِي نَهْدِهَا ثُمَّ عَضَّتْ حُرَّ وَجْهِ عَمْدَا (٦)

(٢) هذه الكلمة لا توجد في ب

(١) في ب « ابن اللبان »

(٤) في ا « تشف من همك »

(٣) في ا « أصبح لاح أم برق بدا »

(٦) في ا « أححت من عضة في نهدها »

(٥) في ا « شربت أغصانه خمر الصبا »

فأنا الجروح من عضتها لا شفاني الله منها أبدا
وقال محمد بن هانيء في الشيب :

لابن هانيء
في الشيب

بِذْتُمْ فَلَوْلَا أَنْ أُغَبِّرَ لِمَتِي
عَبَثًا وَأَلْقَاكُمْ عَلَى غَضَابَا (١)
نَلْخُصِبْتُ شَيْبًا فِي مَفَارِقِ لَمَتِي
وَمَحَوْتُ مَحَوَّ النَّفْسِ عَنْهُ شَبَابَا (٢)
وَحُضِبْتُ مُبَيِّضَ الْحَدَادِ عَلَيْكُمْ
لَوْ أَنَّي أَجِدُ الْبَيَاضَ خَضَابَا
وَإِذَا أُرِدْتُ عَلَى الْمَشِيبِ وَفَادَةً
فَاجْعَلْ مَطْيِكَ دُونَهُ الْأَحْقَابَا
فَلْتَأْخُذَنَّ مِنَ الزَّمَانِ حَمَامَةً
وَلْتَدْفَعَنَّ إِلَى الزَّمَانِ غَرَابَا

وكتب ابن عمار إلى ابن رزين وقد عتب عليه أن اجتاز ببلده ولم يلقه :

من ابن عمار
إلى ابن رزين

لَمْ تَنْ عَنكَ عَنَانِي سَلَوَةٌ خَطَرْتُ
وَلَا فَوَادِي وَلَا سَمْعِي وَلَا بَصْرِي
لَكِنْ عَدَّتْنِي عَنْكُمْ خَجَلَةٌ خَطَرْتُ
كَفَانِي الْعَذْرُ مِنْهَا بَيْتٌ مَعْتَذِرُ
(لَوْ اخْتَصَرْتُمْ مِنَ الْإِحْسَانِ زُرَّتَكُمْ
وَالْعَذْبُ يَهْجُرُ الْأَفْرَاطُ فِي الْخَصْرِ)
وقال ابن الجلد (٣) :

وَإِنِّي لَصَبٌ لِلتَّلَاقِ وَإِنَّمَا
يَصْدُرُكَابِي عَنْ مَعَاهِدِكَ الْعَسْرِ
أَذُوبُ حَيَاءٍ مِنْ زِيَارَةِ صَاحِبِ
إِذَا لَمْ يُسَاعِدْنِي عَلَى بَرِّهِ الْوَفْرِ
وقال ابن عبد ربه :

لابن عبد ربه

يَا مَنْ عَلَيْهِ حِجَابٌ مِنْ جَلَالَتِهِ
وَإِنْ بَدَا لَكَ يَوْمًا غَيْرٌ مَحْجُوبُ
مَا أَنْتَ وَحْدَكَ مَكْسُوءًا ثِيَابَ ضَنِّي
بَلْ كُنَّا بِكَ مِنْ مَضْنَى وَمَشْهُوبُ
أَلْقَى عَلَيْكَ يَدًا لِلضَّرِّ كَاشِفَةٌ
كَشَافُ ضَرِّ نَبِيِّ اللَّهِ أَيُّوبُ
وقال النحلي [في مغنية] :

للنحلي في
وصف مغنية

وَلَا عِبَةَ الْوَشَاحِ كَغَضَنِ بَانَ
لَهَا أَثَرٌ بِتَقْطِيعِ الْقُلُوبِ (٤)

- (١) في ١ « فلولا أن أغبر لمتي » وفيها وفي ب « ألقاكم يوما على غضابا »
(٢) في ١ « ومحوت محو النفس » (٣) في ب « ابن الحداد » وأثبتنا ما في ١
(٤) في ب « ولا عبة الوشاح بغضن بان » .

إذا سَوَّطَ طريقَ العودِ نقرأ
وغمث في محب أو حبيب
فيمناها تقدُّ بها فؤادي
ويسراها تعدُّ بها ذنوبي

لابن شهيد وقال ابن شهيد :

كلفت بالحب حتى لودنا أجلى
لما وجدت لطمع الموت من ألم
وعاقني كرمي عن ولت به
وئلي من الحب أو ويلي من الكرم
وكان صوفي بشر يش حافظ للشعر ، فلا يعرض في مجلسه معنى إلا وهو ينشد
عليه ، فاتفق أن عطس رجل بمجلسه ، فشمته الحاضرون ^(١) ، فدعاهم ، فرأى
الصوفي أنه إن شمته قطع إنشاده بما لا يشاكله من النظم ، وإن لم يشمته كان
تقصيراً في البر ، فرغب حين أصبح من الطلبة نظم هذا المعنى ، فقال الوزير
الحبيب أبو عمرو بن أبي محمد :

يا عاطسا يرحمك الله إذ
أعلنت بالحمد على عطستك
أدع لنا ربك يغفر لنا
وأخلص النية في دعوتك
وقل له يا سيدي رغبت
حضور هذا الجمع في حضرتك
وأنت يارب الندى والنوى
بارك رب الناس في ليلتك
فإن يكن منكم لنا عودة
فأنت محمود على عودتك

من شعر
أبي عمرو بن
أبي محمد الوزير

وهذا الوزير المذكور كان يُصَرِّف شعره في أوصاف الغزلان ، ومخاطبات الإخوان
وكتب إلى الشريشي شارح المقامات يستدعي منه كتاب العقد :

أيامنا غدا سلكاً لجيد معارفه
ومن لَفْظُهُ زهر أنيق لقاطفه
محبك أضحي عاطل الجيد فلتجد
بعثد على لَبَّاته وسَوَّالته

ووعيك في بعض الأعياد ، فعاده من أعيان الطلبة جملة ، فلما هموا بالانصراف
أنشدهم ارتجالاً :

(١) تسميت العاطس أن تقول له : يرحمك الله ، وهو من السنن .

لله در أفاضل أجداد شرف الندى بقصدهم والنادى^(١)
لما أشاروا بالسلام وأزمعوا أنشدتهم وصدقت في الإنشاد
في العيد عُدَّتْ وهو يوم عروبة يا فرحتى بثلاثة الأعياد
قال الشريشي في شرح المقامات : ولقد زرته في مرضه الذي توفي فيه رحمه الله
تعالى أنا وثلاثة فتیان من الطلبة ، فسألني عنهم وعن آبائهم ، فلما أرادوا الانصراف
ناول أحدهم محبرة ، وقال له : اكتب ، وأملى عليه ارتجالاً :

ثلاثة فتیان يؤلف بينهم ندى كريم لا أرى الله بينهم
تشابه خلق منهم وخليفة فإن قلت أين الحسن فانظره أين هم
وزينهم أستاذهم إذ غدا لهم معلم آيات فتمم زينهم^(٢)
فإن خفت من عين في الكل فلتقل وقى الله رب الناس لكل عينهم^(٣)

وقال الشريشي : حدثنا شيخنا أبو الحسين بن زرقون ، عن أبيه أبي عبد الله ،
قعد مع صهره أبي الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب على بحر الحجاز ، وهو
مضطرب الأمواج ، فقال له أبو الحسن : أجز :

وملئتيم الغوارب موجته بوارح في مناكبها غيوم
فقال أبو عبد الله :

تمنع لا يعوم به سفين ولو جذبت به الزهر النجوم

وكان لابن عبد ربه فتي يهواه ، فأعلمه أنه يسافر غداً ، فلما أصبح عافه المطر عن
السفر ، فأنجلي عن ابن عبد ربه همه ، وكتب إليه :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر هيهات يا أبي عليك الله والقدر
مازلت أبكي حذار البين ملتبها حتى رثى لي فيك الريح والمطر

(١) في ١ « لله در أفاضل أجداد » وما أثبتناه عن ب ونسخة عند ا

(٢) في ب « فتم دينهم »

(٣) في ١ « فإن خفت عين الناس في الكل فلتقل »

يا برده من حياً مزني على كبد
نيرانها بغليل الشوق تستعر
آليت أن لا أرى شمساً ولا قرأً
حق أراك فأنت الشمس والقمر
وقال ابن عبد ربه :

صِلْ مَنْ هُوَيت وإن أبدى معاتبه
فأطيب العيش وصل بين إلفين
واقطع حبال خدْن لا تلامه
فقلمنا تسع الدنيا بغضين
وقال أبو محمد غانم بن الوليد المالقي (١) :

صير فؤادك للمحبوب منزلة
سُمِّ الخياط مجال المحبين
ولا تسامح بغيضاً في معاشره
فقلمنا تسع الدنيا بغضين
وكان المتوكل صاحب بطليوس ينتظر وفود أخيه عليه من شتريين يوم الجمعة ،
فأتاه يوم السبت ، فلما لقيه عانقه وأنشده :

تخيرت اليهود السبت عيدا
وقلنا في العروبة يوم عيد
فلما أن طلعت السبت فينا
أطلت لسان محتجج اليهود
وقال أبو بكر بن بقي :

أقت فيكم على الإفتار والعدم
لو كنت حراً أرى النفس لم أقم
فلا حديقتكم يُجْنَى لها ثمر
ولا سماؤكم تنهل بالديم
أنا مروء إن نبت في أرض أندلس
جئت العراق فقامت بي على قدم (٢)
ما العيش بالعلم إلا حيلة ضعفت
وحرفة وكلت بالقعد البرم (٣)
وقال الأبيض في الفقهاء المرائين :

أهل الرياء لبستم ناموسكم
كالذئب يذبح في الظلام العاتم (٤)
فلستم الدنيا بذهب مالاك
وقستم الأموال بآبن القاسم

(١) قد مضى هذان البيتان في ص ٣٦٨ (٢) في « فقامت لي على قدم »

(٣) في ب « وحرفة وكلت بالقعد والبرم » محرفا

(٤) في ب « كالذئب يذبح في الظلام »

وركيتم شُهْبَ البغال بأشهب وبأصبع صبغت لكم في العالم
وقال :

قل للإمام سنا الأئمة مالك
لله درك من همام ماجد
فضيت محمود النقية طاهراً
أكلوا بك الدنيا وأنت بمعزل
تشكوك دنيا لم تزل بك برة
ماذا رفعت بها من الأوضاع

لابن صارة

وقال ابن صارة :

يا من يعذبني لَمَّا تَمَلَّكَنِي
تَرَوْقُ حَسَنًا وفيك الموت أجمعه
ماذا تريد بتعذبي وإضرارِي
كالصقل في السيف أو كالنور في النار

لعبدون

البلنسى

وقال عبدون البلنسى :

يا من يحياه جنات مفتحة
لقد تناقضت في خَلْق وفي خُلُق
وهَجَّرَه لى ذنب غير مغفور
تناقض النار بالتدخين والنور

وقال الوزير ابن الحكيم :

رَسَخْتُ أَصُولَ غَلَاكُمُ تحت الثرى
إن المكارم صورة معلومة
تبدو شمس الدجْن من أطواقكم
ذلت لكم نَسَمُ الخلائق مثل ما
ولكم على خط المجرة دار
أنتم لها الأسماع والأبصار^(٢)
وتفيض من بين البنات بحار
ذلت لشعري فيكم الأشعار
فدحىكم في مدحه إضمار

وقال القاضي أبو جعفر [بن] برطال^(٣) :

(١) في « متكف الأضلاع » محرفاً ، ومتكف الأضلاع : معناه متقبضها

(٢) هذا البيت متأخر في أعما بعده هنا وفق ب

(٣) في ب « أبو جعفر برطال »

لأبي جعفر
ابن برطال

أستودع الرحمن مَنْ لَوَدَّاعَهُمْ
بانوا وطرفى والقوَاد ومَمَوِّلِي
قلبي وروحي آذَنًا بَوْدَاعِ
بالكِّ ومسلوب العزَاء ودَاعِ (١)
تجعل تفرقنا فراق ودَاعِ

لابن خفاجة وقال ابن خفاجة :

وما هاجنى إلا تَأَلَّقُ بَارِقِ
لبست به برد الدجَنَّة مُعَلِّمًا
وهى طويلة .

وقال من أخرى :

جمعت ذوائبه ونور جبينه
بين الدجنة والصبح المشرق
لأبي الوليد
ابن الحضرمي وقال ذو الوزارتين أبو الوليد بن الحضرمي البَطَلَيْوْسِي في غلام للمتوكل
ابن الأفطس يرثيه :

غالته أيدي المنايا
وكن في مقلتيه
وكان يسقى الندامى
بطرفه ويديه
غصن ذوى وهلال
جار الكسوف عليه

وقال الفقيه العالم أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطل البطلَيْوْسِي عالمها في المذهب
المالكي ، وقد تحاكم إليه وسيان أشقر وأكل فيمن يفضل بينهما :

وشاد نين ألمابى على مقية
تَنَازَعَا الحسَنَ في غايات مستبق
كأن لمة ذا من نرجس خلقت
على بهار وذا مسك على ورق
وحسب الصب في التفضيل بينهما
ولم يخافا عليه رشوة الحق
فقام يُبْدِي هلال الدجَن حُجَّتَه
مينا بلسان منه منطلق
فقال وجهى بدر يستضاء به
ولون شعري مقطوع من الفسق

(١) في ب « بالك ومسلوب القوَاد وداع » وليس بذلك

وكحل عيني سحرٌ للنهى وكذا لك الحسن أحسن ما يعزى إلى الحدق
وقال صاحبه أحسنت وصفك لكن فاستمع لمقالٍ في مُتَّفِق
أنا على أفق شمسُ النهار ولم تغرب وشقرة شعري شقرة الشفق
وفضل ما عيب في العينين من زرق أن الأسنة قد تعزى إلى الزرق
قَضَيْتُ لمة الشقراء حيث حكّت نوراً كذا حُبُّها يقضى على رَمَقِي
فقام ذو اللمة السوداء يرشقي سهام أجفانه من شدة الحنَقِ
وقال جُرْتُ فقلت الجور منك على قلبي ولي شاهد من دَمْعِي الغدق
وقلت عفوك إذ أصبحت بينهما فقال دونك هذا الحبيل فاختنق

وكان فيه ظَرْف وأدب ، وعنوان طبقتة هذه الأبيات

وقال :

وغاب من الأكواس فيها ضراغم من الراح ألبابُ الرجال فريسُها
قرعتُ بها سن الحلوم فأقطعت وقد كاد يسطو بالفؤاد رسيسها

وله رحمه الله تعالى « شرح البخارى » وأكثرا بن حجر من النقل عنه في « فتح
البارى » وله كتاب « الأحكام » وغير ذلك ، وترجمته شهيرة .

قد تم - بتيسير مدبر الأمور كلها ، ومعاونته - مراجعة الجزء الرابع
من كتاب « نفع الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، والتعريف
بوزيها لسان الدين بن الخطيب » للشيخ أحمد بن محمد المقرئ
التلمساني ، وترقيمه ، وضبط ما يحتاج إلى الضبط منه والتعريف بما
رأينا التعريف به من أعلام رجالاته وبلدانه ، ويليه - إن شاء الله
تعالى - الجزء الخامس مفتتحا بقول المؤلف في أثناء الباب السابع من
القسم الأول « وقال الأديب النحوى المؤرخ أبو إسحاق إبراهيم بن
الأعلم البطليوسى صاحب التواليف التى بلغت نحو خمسين » نسأل الذى
يصرف الملكوت أن يعين على إكماله ويوفق إلى ما نرغب فيه من
تجويده وإتقانه ، إنه ولى ذلك ، وإليه الوجه العمل .

فهرس الجزء الرابع من كتاب

نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

فهرس الموضوعات الواردة في الجزء الرابع من كتاب
« نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٤	الباب السادس من القسم الأول :	١٣	السمح بن مالك الحولاني (وإلى الأندلس)
٤	في ذكر الوافدين على الأندلس من المشرق	١٣	ولادة الأندلس من بعد السمع بن مالك (وانظر الجزء الأول في المواطن المذكورة في الفهرس)
٥	المنذر اليماني ، أو الإفريقي	١٤	عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي
٥	موسى بن نصير ، الفاتح	١٥	عنبسة بن سحيم السكابي
٧	حنش الصنعاني (حسين بن عبد الله)	١٦	عذرة بن عبد الله الفهري
٧	أبو عبد الله علي بن رباح ، اللخمي	١٦	يحيى بن سلامة السكابي
٧	أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد ، المعافري ، الحبلي	١٦	عثمان بن أبي نسعة اللخمي
٧	حبان بن أبي جبلة ، أبو النصر ، مولى قریش	١٦	حذيفة بن الأحوص القيسي
٨	المغيرة بن أبي بردة نسيط بن كنانة العذري	١٧	الهيثم بن عبيد السكابي
٨	حيوة بن رجاء التميمي	١٧	محمد بن عبد الله الأشجعي
٩	عياض بن عقبة الفهري	١٧	عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي
٩	عبد الله بن شماسه الفهري	١٧	عبد الملك بن قطن الفهري
٩	عبد الجبار بن أبي سلامة بن عبد الرحمن ابن عوف الزهري	١٨	من الداخلين إلى الأندلس وولاتها :
٩	منصور بن خزيمة	٢١	بلج بن بشر بن عياض القشيري
١١	مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم ، الغساني	٢١	ثعلبة بن سلامة العاملي
١٣	أيوب بن حبيب اللخمي ، ابن أخت موسى بن نصير	٢٤	ثوابة بن سلامة الجذامي
		٢٤	يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب
			ابن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢٦	ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، المعروف بالداخل .	٤٣	فتك عبد الرحمن بن عاونوه في إقامة دولته
٢٦	فرار عبد الرحمن من وجه العباسيين	٤٥	حجاب عبد الرحمن
٢٧	وصوله إفريقية ، وقد ألحقت به أخته مولييه بدرًا وسالما ومعهما نفقة وجوهر .	٤٥	وزراء عبد الرحمن
٢٨	أقام بركة مستخفيا خمس سنين ثم استجار بملوك تهرت ، وما زال يتقلب في قبائل البربر حتى جهز بدرًا للعبور للأندلس ليتصل بموالي بني أمية	٤٥	كتاب عبد الرحمن
٣٣	لما تم الأمر أقام عبد الرحمن بظاهر قرطبة ، ثم طلب المناوئين له .	٤٦	قضاة عبد الرحمن
٣٤	يوسف بن عبد الرحمن يعاهد عبد الرحمن الداخل ثم ينكث .	٤٦	ارتياحه لوفود أهل بيته من المشرق عليه .
٣٥	فتك عبد الرحمن بأحد دعايم دولته	٤٦	من وفد عليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ، فسعى في طلب الأمر لنفسه ، فقتله .
٣٥	قصة عبد الرحمن مع العلاء بن مغيث اليحصبي دسيسة العباسيين .	٤٨	ذكر بعض الثائرين على عبد الرحمن
٣٦	صفات عبد الرحمن الداخل (وانظر ص ٤٩)	٤٩	صفات عبد الرحمن الداخل (وانظر ص ٣٦)
٣٧	بعض شعر عبد الرحمن الداخل	—	ملخص دخوله الأندلس ، عن بعض المؤرخين .
٣٨	الوفود تنثال على عبد الرحمن	٥٣	يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري
٣٩	عبد الرحمن وبدر مولاة	—	الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن ، السكوفي .
٤١	تأديب عبد الرحمن لأتباعه	—	نبوة مسلمة بن عبد الملك بن مروان لعبد الرحمن بن معاوية (الداخل)
٤٢	همة عبد الرحمن وبعده عن الصغائر	—	موازنة بين عبد الرحمن الداخل وأبي جعفر المنصور (انظر الجزء الأول)
٤٢	من شعره وقد قال بعض الذين أعانوه « لولا أنا ما توصل إلى غرضه »	—	من شعر عبد الرحمن وقد رأى نخلة برصافته في الأندلس .
		(٢٧ — فتح ٤)	

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٥٥	من شعره يتشوق إلى معاهد الشام.	٦٤	أبو محمد عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الوهاب ، الطنطاني .
—	أبو الأشعث السكبي	٦٥	أبو القاسم عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب .
٥٦	جزى بن عبد العزيز بن مروان	—	أبو محمد عبد اللطيف بن أحمد بن محمد بن هبة الله ، الهاشمي ، الصدفي ، النرسي
—	بكر بن سودة بن ثمامة الجذامي	٦٦	أبو بكر عمر بن عثمان بن محمد بن أحمد ، الخراساني ، البخارزي ، الماليني
٥٧	زريق بن حكيم	—	علي بن بندار بن إسماعيل بن موسي بن يحيى بن خالد بن برمك ، البرمكي ، البغدادي .
٥٨	زيد بن قاصد السكسكي .	٦٧	أبو العلاء عبيد بن محمد بن عبيد ، النيسابوري .
—	زرعة بن روح الشامي	—	أبو نصر سهل بن علي بن عثمان ، التاجر ، النيسابوري
—	محمد بن أوس بن ثابت ، الأنصاري	٦٨	أبو المسكارم هبة الله بن الحسين المصري
٥٩	عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم ، الأموي .	—	أبو زكريا يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن عبيد الله ، القيسي ، الدمشقي .
٦٠	هاشم بن الحسين بن إبراهيم بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .	٦٩	إسماعيل بن عبد الرحمن بن علي ، القرشي ، من ذرية عبد بن زمعة .
—	عبد الله بن المغيرة ، السكناني ، حليف بني عبد الدار .	٧٠	أبو علي إسماعيل بن القاسم ، القالي ، صاحب الأمالي وغيره من المؤلفات
—	عبد الله المعمر	٧٣	محمد بن القوطية أحد تلاميذ أبي علي القالي في بلاد الأندلس .
٦١	أبو عمرو عبد الرحمن بن شماس بن ذئب المهري .		
—	عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر (جد بني سعيد) .		
٦٢	أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر ، التيمي ، البخاري ، الحافظ تزيل مصر .		
٦٤	عبد الجبار بن الفقيه أبي سلمة عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري .		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٧٤	أبو بكر الزبيدي اللغوي من تلاميذ القالي أيضا	١٠٦	حديث لصاحب «المغرب» عن أبي الحسن علي بن عمر
—	مصنفات أبي علي القالي	١٠٧	حديث للسرخسي عن أبي محمد عبد الله صاحب فاس
٧٥	تكريم الحكم المستنصر لأبي علي القالي	—	من نظم السرخسي
—	أبو العلاء صاعد بن الحسين (الحسن) بن عيسى ، البغدادي ، اللغوي	١٠٨	من الوافدين على الأندلس ظاهر البغدادي .
٨١	بعض النوادر عن بديهة صاعد واختراعاته .	—	ومنهم محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط ، السكتاني ، الرازي
٨٤	شيء من أخبار المنصور بن أبي عامر	—	ومنهم أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز ، التيمي ، الدارمي الوزير
٩١	المنصور بن أبي عامر وغالب الناصري	١١٤	ومنهم أشهب بن العضا ، الحراساني
—	المنصور بن أبي عامر والمؤيد	—	ومنهم أبو الحسن ، البغدادي ، الفسكيك .
٩٣	وفاة المنصور بن أبي عامر	١١٦	ومنهم إبراهيم بن سليمان الشامي .
—	عود إلى أخبار صاعد اللغوي البغدادي	١١٧	ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ، ابن الأزرق ، المرواني ، المصري .
٩٦	أبو محمد تاج الدين عبد الله بن عمر بن حموية ، السرخسي	—	أبو الحسن علي بن نافع ، المعروف بزياب ، المغني ، مولى المهدي العباسي .
١٠٠	حديث للسرخسي عن منصور بن عبد المؤمن وقد اتصل بمحمد بن	١٢٦	أول من دخل الأندلس من المغنين
١٠٢	حديث للسرخسي أيضا عن أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي .	—	نما مدح به زرياب .
١٠٣	من شعر أبي الربيع سليمان يمدح ابن عمه المنصور يعقوب	١٢٧	من شعر زرياب .
١٠٥	حديث لابن سعيد صاحب «المغرب» عن أبي الربيع سليمان بن عبد الله	—	متعة جارية زرياب .
١٠٦	حديث للسرخسي عن أبي الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن بن علي	—	حمدونة بنت زرياب .

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٢٧	مصاييح جارية لأبي حفص عمر بن قلهيل أخذت الغناء عن زرياب	١٣٦	بن الوليد المرواني ، محدثة تروى عن مالك .
١٢٨	علوية والمأمون العباسي في دمشق يطوفان على أماكن بنى أمية فيطلب المأمون لعلويه أن يغنيه ، فيغنيه بشعر فيذكر الأمويين ، فيغضب المأمون فيوازي له بين معاملة العباسيين إياه ومعاملة الأمويين بالأندلس لزرياب	١٣٧	فضل المدنية ، جارية إحدى بنات هرون الرشيد ، مغنية
١٢٩	عباس بن فرناس يذيل مديحاً في بعض الرؤساء على بيتين لزرياب .	١٣٨	مقر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية .
١٣٠	من الوافدين على الأندلس الأمير شعبان بن كوحيا	١٣٩	الجارية العجفاء المغنية
—	أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني المعروف بالرياضي	١٤٠	من الوافدين على الأندلس عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن الموصلي
١٣١	أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن منصور ، القسائي ، الدمشقي ، المعروف بالسهنوري .	١٤١	أبو جعفر أحمد بن الحسن بن الحارث النخعي .
١٣٢	حديث عن أبي الخطاب بن دحية ، وكلام العلماء فيه جرحاً وتعديلاً	١٤٢	أحمد بن يزيد بن أحمد بن عبد الرحمن ، القرشي ، الزهري ، أحد أبناء عبد الرحمن بن عوف
١٣٥	أبو محمد عبد الله بن محمد بن آدم ، القاري ، الحراساني	١٤٣	أبو الطاهر إسماعيل بن الإسكندراني
—	أبو البركات عبد الرحمن بن داود بن علي ، الواعظ ، المعروف بالزبازي	١٤٤	أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل بن بشر ، الأنطاكي ، التيمي .
—	ذكر بعض النساء الوافدات إلى الأندلس :	١٤٥	أبو البركات عمر بن مودود بن عمر الفارسي ، البخاري
١٣٦	عابدة المدنية ، أم ولد دحون حبيب	١٤٦	نجم الدين بن مهذب الدين البغدادي
		١٤٧	تقي الدين محمد بن شهاب الدين أبي العباس أحمد بن الغرس الحنفي المصري
		١٤٨	الشيخ يوسف الدمشقي ، الشاذلي ، أحد رجال الطريقة .
		١٤٩	الباب السابع من القسم الأول :
		١٥٠	في ذكر نبذة من فضائل أهل الأندلس

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٤٦	تمهيد وتوطئة بذكر أقوال العلماء في الذي خصوا به من الفضائل .	١٩٧	فرسان الأندلس الذين ذكرهم الشقندي
١٤٩	أبو بكر بن يحيى بن هذيل يقول شعرا على البديهة ، وقد أنشد شعرا لمشرق ، وقيل : لا يقدر أندلسي على مثله	١٩٨	شمائل أهل الأندلس
١٥٠	رأى أبي على القالي صاحب الأمالى في أهل الأندلس	١٩٨	فضائل البلاد :
١٥٠	وصف الحجارى في المسهب للأندلس وأهلها	١٩٨	ذكر فضيلة إشبيلية
١٥١	رسالة أبي محمد بن حزم في فضائل أهل الأندلس	٢٠٠	ذكر قرطبة وفضلها
١٥٢	كتاب أبي على الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيع النيمى القيروانى الذى يعيب فيه أهل الأندلس ، وهو سبب إنشاء ابن حزم رسالته	٢٠٣	ذكر جيان وفضلها
١٥٤	رد الوزير الحافظ أبي محمد على بن حزم على كتاب ابن الربيع ، وقد ذكر فيه كثيرا من مصنفات أهل الأندلس منسوبة إلى مصنفها	٢٠٤	ذكر غرناطة وفضلها
١٧١	تذييل لابن سعيد على رسالة الوزير ابن حزم	٢٠٥	ذكر مالقة وفضلها
١٧٧	رسالة للشقندي في فضل أهل الأندلس ، وفيها ذكر بعض العظماء من ملوكهم ، والفحول من شعرائهم ، مع ذكر أمثلة من رائق شعرهم	٢٠٦	ذكر المرية وفضلها
		٢٠٧	ذكر مرسية وفضلها
		٢٠٧	ذكر بلنسية وفضلها
		٢٠٧	ذكر جزيرة ميورقة
		٢١٠	ذكر بعض أشعار أهل الأندلس ، وحكاياتهم في الجذ والهزل :
		٢١٠	لأبي عمران موسى بن عمران المارتنى
		٢١١	لأبي عمر واليحصي اللوشى
		٢١١	لأبي وهب القرطبي
		٢١٢	للخطيب أبي محمد بن برطلة
		٢١٢	لابن حبيش
		٢١٢	لابن الشيخ
		٢١٢	لأبي محمد القرطبي
		٢١٢	للشميس
		٢١٣	لأبي القاسم بن بقى
		٢١٣	لأبي محمد عبدالله بن العسال الطليطلي
		٢١٣	لابن هشام القرطبي

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢١٣	لأبي محمد بن السيد البطلوسى	٢٢٦	للحاجب عبد الكريم بن مغيث
٢١٣	لأبي الفضل بن شرف	٢٢٦	لأخيه أحمد بن مغيث
٢١٤	لأبي العباس بن العريف الزاهد	٢٢٦	لأبي العباس أحمد بن أمية البلنسى
٢١٤	كان أهل الأندلس علي مذهب	٢٢٦	مثل من سرعة ارتجال الأندلسيين
	الأوزاعى ، ثم صاروا إلى مذهب		بين الوزراء ابن عمار وابن زيدون
	مالك بن أنس ، والسر في ذلك		وابن خلدون
٢١٥	من شعر أبي إسحاق إبراهيم بن	٢٢٧	بين ابن شهيد وابن أبي عامر
	عبد الله بن أبي يغمور	٢٢٨	ابن شهيد وجماعة من الأدباء عند
٢١٦	للشاعر القسطلى		القاضى ابن ذكوان
٢١٦	الوزير أبو محمد عبدالرحمن بن مالك	٢٢٨	ابن شهيد يصف مجلسا على البديهة
	المعافى (ترجمة ، وفيها نماذج		باقتراح بعض أصدقائه
	من شعره)	٢٢٩	ابن شهيد يرتجل في وصف زنبيل
٢١٨	بين المعتمد وأبي الوليد البطلوسى		ملئ خرسفاً
	المعروف بالحنلى	٢٣٠	بين أبي العلاء زهر وابن رزين
٢١٩	بين المعتمد وابن وهبون	٢٣١	عبد الله بن عاصم صاحب الشرطة
٢١٩	الإمام أبو عمر بن عبد البريفى بجواز		في قرطبة
	أكل طعام الأمراء ويحتج لذلك	٢٣١	بين ابن ظافر والملك الأشرف
٢٢٢	أبو بكر يحيى بن عبد الجليل		الأيوبى ، في الرها
	ابن عبد الرحمن بن مجير ، الفهرى	٢٣٣	بعض بدائه ابن ظافر
٢٢٢	رأى منصور بن عبد المؤمن في ابن حزم	٢٣٨	أمثلة من ارتجال ابن قلاؤس الإسكندرى
	الحافظ وقد مر بقبره ، وفي ابن مجير	٢٤٢	عود إلى رقيق كلام أهل الأندلس :
٢٢٣	من شعر ابن مجير يصف خيل المنصور		لأبي الحسن بن الحاج اللورقى ، الوزير
٢٢٤	من شعر لابن مجير كتب به إلى	٢٤٣	لعبد الملك بن إدريس الجزرى بين
	السلطان ملك المغرب		يدى الحاجب ابن أبي عامر ، بديها
٢٢٥	لابن خفاجة	٢٤٣	لعبد الملك بن شهيد الوزير ، يصف
٢٢٥	للأعمى التطيلي		يوم برد ، ويدعو إلى مجلس الشراب
٢٢٥	لأبي حفص بن عمر القرطبي		المنصور بن أبي عامر
		٢٤٤	وله وقد غلبه السكر

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢٤٤	بين أبي بكر محمد بن أحمد بن جعفر ابن عثمان المصحفي وأبي عامر بن شهيد	٢٥٢	بين أبي الحسن بن الغليظ المسالقي وأبي عبد الله بن السراج (إجازة)
٢٤٥	رواية ابن ظافر للقصة السابقة	٢٥٢	بين أبي بكر البلنسي وأبي بحر صفوان بن إدريس (إجازة)
٢٤٦	بين المعتصم بن صامح وبعض ندمائه وقصيدة ارتجلها أبو عبد الله بن الحداد	٢٥٢	لابن خفاجة
٢٤٧	للأديب أحمد بن الشقاق يصف عنباً أسود أحضره القائد ابن دري	٢٥٣	من الوزير ابن زيدون إلى الوزير أبي عبد الله بن عبد العزيز إثر صدوره عن بلنسية
٢٤٧	لابن مرزقان يصف وصيفة تحمل شمعة عند ذي النون بن خلدون	٢٥٤	لابن زيدون حين ورد إشبيلية ، وقد نزل على ذي الوزارتين ، أبي عامر بن مسلمة
٢٤٧	للأديب غانم وقد دخل على باديس صاحب غرناطة فوسع له في المجلس ، يديها	٢٥٥	من ابن زيدون إلى الوزير أبي المعالي المهلب بن عامر ، يستدعيه
٢٤٨	لابن هند الداني في مملوك رومي ، يقال له خيار ينفخ في قرن ليجمع الجنود	٢٥٥	من ذي الوزارتين أبي عامر بن مسلمة إلى ابن زيدون
٢٤٨	لابن فرج الجياني	٢٥٦	قصيدة ابن زيدون النونية التي كتب بها إلى ولادة
٢٤٨	لأبي الحسن بن حصن الإشبيلي	٢٥٩	نموذج من تسديس نونية ابن زيدون لبعض علماء المغرب
٢٤٩	للوزير أبي الفضل بن حسداي يصف يوم نزهة مع ابن هود	٢٦٠	لابن زيدون يتغزل
٢٥٠	لعبد الجليل بن وهبون وقد خرج ينظر هلال شوال مع الوزير أبي بكر ابن القبطرنة	٢٦٢	وله وقد أمره السلطان أن يعارض قطعا كان يتغنى بها في الاندلس
٢٥٠	للوزير أبي عبد الله بن أبي الحصال وقد وقف بباب بعض القضاة وحجب عنه	٢٦٣	وله يهنيء السلطان بالقدوم من السفر
٢٥١	للوزير ابن عبدوس في المعنى	٢٦٤	نصوص من شعر ابن زيدون في أغراض شتى
٢٥١	للأبي جعفر الكاتب القرطبي الرضي	٢٦٧	لأبي محمد بن السيد البطليوسي في أبناء ابن الحاج صاحب قرطبة
٢٥١	وله في فوارة رخام كلفه وصفها والى قرطبة	٢٦٨	للأبي بكر محمد بن أحمد الإشبيلي المعروف بالأبيض ، يهنيء بمولود
٢٥١	ومن شعره في الشيب		
٢٥١	لأحد بني القبطرنة الوزراء		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢٦٨	للويزير أبي عامر السالمى فى غلام يرش المساء على خديه	٢٨٣	لأبى عمرو بن الحكم القبطى
٢٦٨	لابن الحياط المكفوف	٢٨٣	لأبى عمران القلعى
٢٦٩	من ملح ابن الرزاق	٢٨٣	لأبى إسحاق إبراهيم بن أيوب المرسى
٢٧٠	من ملح السمسير (أبى القاسم خلف ابن فرج)	٢٨٣	لأبى بكر محمد بن عمار البرجى ، كاتب ابن هود
٢٧١	لابن رزق	٢٨٤	لأبى بكر عبد الله بن عبد العزيز الإشبلى المعروف بابن صاحب الرد
٢٧١	لسلطان بلنسية عبد الملك بن مروان ابن عبد الله بن عبدالعزيز	٢٨٤	من المعروفين بالمجون أبو جعفر أحمد ابن طلحة الوزير (ترجمة)
٢٧١	لأبى أيوب سليمان بن محمد بن بطل البطليوسى المعروف بالتملس فى غلامين جميلين تحاكما إليه	٢٨٧	عود إلى ملح أهل الأندلس :
٢٧٢	لأبى محمد عبد الله بن غالب	٢٨٧	لمحمد بن أحمد الإشبلى ، المعروف بابن البناء
٢٧٢	لأبى القاسم خلف بن فرج السمسير	٢٨٧	لأبى الربيع ابن ابن غالب الدانى ، يرثى أباه ، وقد أمر المستنصر الموحدى بضربه ألف سوط فمات
٢٧٢	لأحمد بن برد فى الترجس	٢٨٨	لأبى العلاء عبد الحق المرسى
٢٧٢	للويزير عبد المجيد بن عبدون فى دار أنزله بها المتوكل بن الأفطس	٢٨٨	لابن غالب السكاتب بمالقة
٢٧٣	للويزير أبى الفضل بن حسداى	٢٨٨	لأبى عبد الله بن عساكر الغسانى قاضى مالقة
٢٧٣	بين ابن عبدربه وصديقه أبى محمد يحيى القلقاط الشاعر	٢٨٩	أبو أمية بن عفير قاضى إشبيلية (ترجمة)
٢٧٤	من مروءة ابن جبير صاحب الرحلة	٢٨٩	بين على بن ظافر والشهاب يعقوب ابن أخت نجم الدين
٢٧٥	من شعر أبى عمران المارتلى	٢٩١	رجع إلى أهل الأندلس :
٢٧٥	من شعر أبى الصلت أمية بن عبدالعزيز	٢٩١	لابن السمان فى التقل من الإخوان
٢٧٦	من شعر ابن خفاجة	٢٩٢	لأبى محمد عبد الحق الزهرى القرطبى فى الباجى الذى خلع طاعة ابن هود
٢٧٧	من مجون أهل الأندلس قصيدة تنسب لأبى عبد الله بن الأزرقي	٢٩٢	لابى الوليد إسماعيل بن حجاج الأعلم الإشبلى
٢٨١	لابن خفاجة		
٢٨٢	لابن الأبار مع ترجمة له عن ابن سعيد فى «القدح المعلى»		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢٩٣	من ملح أبي الحجاج يوسف	٣٠٤	بعض ما قيل في البعوض :
	ابن محمد البياسي المؤرخ الأديب	-	للسميسر
٢٩٤	لابن صارة وقد ركب زورقا مع	-	لابن شرف القيرواني
	إخوان له	٣٠٥	لأبي أحمد بن أيوب أحد شعراء
٢٩٤	لابن خفاجة يعارض قطعة ابن صارة		اليتيمة
	وقد وقف عليها فاستطرفها	-	رجع إلى أهل الأندلس :
٢٩٥	بين ابن خفاجة وابن وهبون	-	ابن سعد الحير البلنسي الشاعر :
٢٩٥	ابن خفاجة وأصحاب له		تغله ، ونموذج من ارتجاله
٢٩٧	بين السميسر وبعض رؤساء المرية	٣٠٦	لأبي بكر عبد الرحمن بن محمد بن
٢٩٧	عباد بن الحريش ورجل من سراة		مغاوير السلمي الوزير
	أصبهان مدحه فلم يحزه	٣٠٧	لأبي الوليد النحلي وقد تمت في
٢٩٨	أبو الصلت أمية بن عبد العزيز وأصحاب		سورة الحميا
	له يتزهنون عند بركة الحبش بمصر	-	وصف الأهرام لأبي الصلت أمية بن
٢٩٨	أبو الصلت مع الحسن بن علي بن ميم		عبد العزيز وأبي منصور ظافر الحداد
	بن المعز بن باديس بالمهدية في الميدان	٣٠٧	لأبي الوليد النحلي في وصف فرس
٢٩٩	للووزير أبي جعفر أحمد الوقشي في		أدهم أغر محجل للمتوكل بن الأفطس
	غلام أسود	٣٠٨	لابن اللبانة في وصف ذلك الفرس
٢٩٩	لأبي يحيى البكي وقد تعسف عليه	-	لأبي عبد الله بن عبد البر الشنتريني فيه
	أهل فاس لإفراطه في هجائهم	-	من شعر أحمد بن عبد الرحمن بن
٣٠٠	لأبي محمد عبد الله بن مفيد		الصقر الخزرجي قاضى إشبيلية
-	لأحمد بن رضى المالقي	-	بين أيوب بن سليمان السهيلي المرواني
-	لأبي القاسم البلوي الإشبيلي		وأبي الحسن بن جودي عند ابن باجة
-	لأبي زكريا يحيى بن صفوان بن إدريس	٣٠٩	بكار المرواني رجل زاهد شاعر (قصة)
٣٠١	ابن عار وغلامان من بني جهور	٣١٥	لمحمد بن أيوب المرواني في القائد
٣٠١	ابن عمار وغلام وسيم		سعيد بن المنذر وقد نهض بأمر كلفه إياه
٣٠٢	رواية صاحب البدائع في هذه القصة	-	وله وقد عتبه القائد سعيد بن المنذر
٣٠٤	بعض أخبار المعتصم بن صمادح		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣١٦	للمطرف بن عمر المرواني يمدح المظفر	٣٢٦	لبعضهم
-	ابن المنصور بن أبي عامر	-	لغز في الحمام
-	بين المطرف وابن دراج القسطلي	-	عود إلى ملح أهل الأندلس :
٣١٧	وكتب المطرف لصاحب له يستعير	-	لمحمد بن خلف بن موسى البيري يمدح
-	منه دابة	-	إمام الحرمين
-	بين الأمير هشام بن عبد الرحمن	-	كتاب لأبي الوليد بن الجنان الشاطبي
-	وأخيه عبد الرحمن المعروف بالبلنسي	-	يستدعي فيه بعض إخوانه المجلس أنس
٣١٨	لعبد الله بن عبد العزيز الأموي	٣٢٧	من شعر أبي الوليد بن الجنان
-	المعروف بالحجر	-	بين أبي البركات هبة الله بن محمد
-	بين سعيد بن أضحي وبعض الشعراء	-	النصبي المعروف بالوكيل وشاعرين
-	لابن خفاجة	-	يعرف أحدهما بالمهذب والآخر بالحسن
٣١٩	لأبي بكر محمد بن سهل البكي	-	ابن البرقيدي
٣١٩	لابن اللبابة	٣٢٨	لبعضهم في وصف الورد
-	لأبي محمد عبد الغفور الإشبيلي الوزير	-	بين الوزير أبي بكر بن القبطرنة
٣٢٠	بين الحجاري والقاضي أبي عبد الله	-	والأديب أبي العباس بن صارة
-	محمد اللوشي وقد استدعى منه شعره	-	بين ابن ظافر والقاضي الأعز
٣٢١	لصالح بن شريف في البحر	٣٢٩	رجع إلى الأندلسيين :
-	لابن برطلة	-	لابن الزقاق
-	بين ابن بقي والتطيلي الأعمى في حمام	-	لابن خفاجة
٣٢٢	صاحب البدائع يقص قصة ابن بقي	-	لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز
-	والتطيلي	٣٣٠	ليحيى بن هذيل
-	وصف حمام في دار الملك شرف الدين	-	لأحد شعراء المشرق (هو ميار الديلمي)
-	هرون ببغداد	-	بين بعض أدباء الأندلس وجريز
٣٢٤	وصف دار جمال الملك أبي القاسم علي بن	-	بن عكاشة الشجاع المشهور
-	أفلاح البغدادى بعد أن اتصل بالمسترشد	٣٣١	للووزير أبي عامر بن شهيد يتغزل
٣٢٥	بعض ما قيل من الشعر في الحمام :	٣٣٢	وله في رثاء القاضي ابن ذكوان
-	لابن الوردي	٣٣٣	وله في شكوى الدهر
-	للشهاب ابن فضل الله	٣٣٤	مرض ابن شهيد وآخر شعر قاله
٣٢٦	للبرهان القيراطي		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣٤٨	المشهورون في الأندلس بالطب والمعالجات	٣٣٥	بين ابن غصن وابن ذى النون وابن هود
—	مثل من حفظ أهل الأندلس عن أبي المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب	٣٣٦	بين المنصور بن أبي عامر والشاعر أبي عمر يوسف الرمادي
٣٥١	ابن سيدة أبو الحسن على بن أحمد صاحب المحكم وذكر نموذج من شعره	٣٣٨	من عدل المعتصم بن صمادح
—	المظفر بن الأقطس وحبه للعلم	٣٣٩	عز الدولة بن المعتصم بن صمادح
—	من كبار تآليف أهل الأندلس	٣٤٠	بين ابن اللبانة وعز الدولة بن المعتصم
٣٥٢	من دعايات أهل الأندلس :	٣٤١	من شعر عز الدولة بن المعتصم
—	بين عالم المرية القاضي أبي الحسن مختار الرعيني وزهير ملك المرية	—	من شعر رفيع الدولة بن المعتصم
—	المقرئ أبو عبد الله محمد بن الفراء وجماعة من تلامذته	٣٤٢	من شعر أبي جعفر بن المعتصم
٣٥٣	نماذج من شعر أبي عبد الله محمد بن الفراء (ص ٣٥٦ أيضا)	—	لأبي العلاء بن زهر
٣٥٤	من ملح الزهرى خطيب إشبيلية	٣٤٣	لابن شرف
—	بين أبي القاسم بن ورد وأحد الأعيان	—	لابن خفاجة
٣٥٥	من ملح أبي الحسن سليمان بن الطراوة نحوى المرية	—	لأبي عبد الله البياسي
٣٥٦	عبد الله بن الحاج الموشح المعروف بـمدغليس	—	لأبي الحسن بن حريق
—	لأبي عبد الله بن الفراء في صبي اسمه حسن كان يقرأ عليه النحو (ص ٣٥٣)	—	لأبي الحسن بن الفضل يذكر مقاما قامه سهل بن مالك وابن عياش
٣٥٧	ترجمة لابن الفراء	—	قصة في الوفاء والقيام بحق الأخوة بين الوزيرين الوليد بن عبد الرحمن ابن غانم وهاشم بن عبد العزيز
—	القاضي أبو عبد الله بن الفراء جد ابن الفراء السابق	٣٤٥	قصة في علو الهمة عن أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة
٣٥٨	ابن الفراء الأخفش بن ميمون (ترجمة) وذكر نماذج من قوله ومما قيل فيه	—	عباس بن فرناس حكيم الأندلس وأول من فكر في الطيران
		٣٤٦	أول من اشتهر في الأندلس بالحساب والنجوم ، وذكر جماعة منهم وبعض مصنفاتهم

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣٥٩	أبو عبد الله محمد بن مسعود الغساني البجالي والطلق القرشي	٣٦٩	لأبي الحسن علي بن كسر بن الملقى في مدح أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن
---	لابن مسعود، وكتب به من السجن إلى المنصور بن أبي عامر	---	بين جارية وشاعر من المرية
٣٦٠	بين أبي العباس البياسي وشيخ ضخم الجثة مستنقل	---	بين جارية وشاعر من المرية
٣٦١	بين العالي إدريس الجودي ملك مالقة والقاضي أبي علي بن حسون	---	بين أبي العباس البياسي وشيخ ضخم الجثة مستنقل
---	أبو محمد عبد الله الوحيدى، قاضى مالقة (ترجمة) وذكر نماذج من شعره	٣٦٢	موقف لأبي عبد الله بن الفخار العالم في الدفاع عن القاضي الوحيدى
٣٦٣	من شعر أبي عبد الله بن الفخار، ويعرف بأبي نصف الرض	---	من شعر أبي الفضل بن شرف الجذامى
---	من شعر أبي الفضل بن شرف الجذامى	٣٦٥	ترجمة لابن شرف الجذامى، وذكر نماذج أخرى من شعره
---	بين جماعة من الأدباء، فيهم الأبيض وابن بقی والتطيلي الأعمى	٣٦٧	أبو عبد الله محمد بن معمر، المعروف بأبي أخت غانم
٣٧٤	بين أبي إسحاق بن خفاجه وأبي محمد جعفر بن عنق الفضة	---	بين أبي محمد بن عبدون وأبي الوليد بن ضابط
---	الوزير أبو عثمان بن شنتفير وابن عبد شلب عند المعتمد بن عباد	٣٦٨	من شعر غانم الخزومي
٣٧٦	في مجلس ملك السهلة أبي مروان بن رزين	---	بين أبي الحسن بن الغليظ وأبي عبد الله بن السراج
---	من شعر أبي بكر بن سدرى وزير ملك السهلة أبي مروان	٣٦٩	لأبي الحسن علي بن كسر بن الملقى في مدح أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن
٣٧٧	من شعر مروان بن عبد العزيز ملك بلنسية	---	بين أبي الحسن بن الغليظ وأبي عبد الله بن السراج

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣٧٧	من شعر أبي عامر بن الفرغ وزير المأمون بن ذي النون .	٣٩١	لأبي بكر بن إسماعيل بن الديواني
٣٧٨	من شعر أبي الحسن علي بن حريق	---	لإبراهيم الحجاري جد صاحب المسهب
٣٧٩	لأبي جعفر بن الذهبي	٣٩٢	لأبي محمد بن خيرة الإشيلي ،
٣٨٠	بين المعتصم بن صمادح وخلف بن فرج السميصر		المعروف بابن الموايني
٣٨١	لشاعر من ذرية ملوك إشبيلية	---	لأبي جعفر أحمد بن محمد بن خيرة
٣٨٢	لابن صارة في التارنج	---	للوزير أبي الوليد إسماعيل بن حبيب
---	لأبي الحسن بن الزقاق ، وهو ابن أخت أبي إسحاق بن خفاجة	٣٩٤	للوزير أبي الحسن علي بن حصن وزير
٣٨٣	من شعر أبي تمام غالب بن رباح الحجام .		المعتمد بن عباد
٣٨٦	لابن الزقاق	---	للوزير أبي الوليد بن طريف في
---	لأبي القاسم بن مسعدة الأوسي في مدح أمير المؤمنين عبد المؤمن	٣٩٥	من نظم المعتمد بن عباد
---	لأبي بكر محمد بن الأزرق	---	لأبي العباس أحمد الخزرجي القرطبي
٣٨٧	لأبي جعفر بن الأزرق	---	للوزير أبي سليمان بن أبي أمية
---	لأبي القاسم بن الأزرق .	٣٩٦	لأبي علي عمر بن أبي خالد يخاطب
---	لأبي جعفر بن عائش .		أبا الحسن علي بن الفضل
٣٨٧	بين أبي جعفر بن عائش وجد الحجاري	---	للكاتب عبدالله المهريس وقد شرب
٣٨٨	لجد الحجاري بمدح أبا جعفر بن عائش		عند الوزير أبي العلاء بن جامع
---	لأبي الحسن علي بن شعيب	---	للكاتب أبي بكر بن البناء يرثي
٣٨٩	لأبي حامد الحسين بن شعيب		أحد بني عبد المؤمن .
---	لأبي الحسن علي بن رجاء صاحب دار السكة والأحباس بقرطبة	٣٩٧	حديث عن جماعة من بني زهر .
---	لأبي محمد القاسم بن الفتح	---	محمد بن مروان بن زهر
---	لأبي مروان عبد الملك بن غصن	٣٩٩	حفيده أبو بكر محمد بن عبد الملك
٣٩١	لأبي محمد إسماعيل بن الديواني		بن محمد بن زهر وزير إشبيلية
		---	لأبي الوليد بن حزم
		٤٠٠	لابن عبد ربه .
		---	لأبي عبد الله الرندي
		٤٠١	للمعتمد بن عباد
		---	لابن فرج الجباني

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢٠٧	لابن الجدة .	٤٠٢	للرصاصي
—	لأبي الوليد النحلي يصف مغنية	—	لابن عبد ربه
٤٠٨	لابن شهيد .	—	لابن صارة
—	للويزر أبي عمرو بن أبي محمد	—	للغزالي
٤٠٩	بين أبي عبد الله بن زرقون وأبي	—	لأبي حيان
—	الحسن عبد الملك بن عياش	٤٠٣	لابن شهيد
—	بين ابن عبد ربه وفقى كان يهواه	—	لأبي بكر بن بقي
٤١٠	لأبي محمد غانم بن الوليد الملقب	٤٠٤	لابن شهيد .
—	لأبي بكر بن بقي	٤٠٤	لبعضهم في لبس أهل الأندلس الثياب
—	للأبيض في الفقهاء المرائين	—	البيضاء في الحزن عكس المشاركة
—	لابن صارة .	—	لأبي جعفر بن خاتمة .
—	لعبدون البلنسي	٤٠٥	للقسطلي يصف هول البحر
—	للويزر بن الحسكيم	—	للمرامدي يهنيء الفقيه ابن العطار
٤١٢	للقاضي أبي جعفر بن برطال	—	بمولود .
—	لابن خفاجة .	—	لابن صارة في النار
—	لدى الوزارتين أبي الوليد بن	٤٠٦	لابن لبال في النار أيضا
—	الحضرمي في غلام للمتوكل بن الألفطس	—	لابن شهيد
—	لأبي أيوب سليمان بن محمد بن	٤٠٧	لابن هانيء في الشيب .
—	بطل البطلوسى وقد تحاكم إليه	—	من ابن عمار إلى ابن رزين يعتذر
وسيمان		—	إليه وقد عتب عليه أن مرببلده ولم يلقه

تمت فهرست الجزء الرابع من كتاب « نفح الطيب » من غصن الأندلس
الطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب « والحمد لله أولا وآخرا » ،
وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه



COLUMBIA UNIVERSITY



0026814390

893.7M32

03

v.4

08319383

893.7M32

03 V4 C1

AL-MAQCARI

83
AUG 5 1959

